تفسير سورة الزمر



سورة الزمر

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

هذه السُّورة تُسمَّى: سورة الزُّمَر؛ لقول الله تَبَارَكَوَتَعَالَى فيها: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزُّمَر:٧٣]. وقوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزُّمَر:٧١].

وتَسْمِيَة السُّور تكون لِأَدْنى ملابَسَة وأدنى مُناسَبَة؛ ولهذا سُمِّيَت: سورة البقرة دون أن تُسمَّى: سورة الدَّيْنِ مثلًا، أو سورة العِدَدِ، مع أنَّ ذِكر الدَّيْن وما يتعلَّق به قد يكون كآيات البَقَرَة.

قال المفسر[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَكِّيَّة] يعني: أنَّها من السُّور المَكِّيَّة، وأصحُّ ما يُقال في السُّور المَكِّيَّة: أنَّها ما نزل قبل الهِجْرَة؛ فما نزل قبل الهِجْرة فهو مَكِّيٌّ، وما نزل بعدها فهو مَدَنِيٌّ، حتى لو نزل في مكَّة وهو بعد الهجرة فإنه يُسمَّى: مَدَنِيًّا؛ ولهذا نقول: إنَّ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة:٣] نقول: إنَّها مدنِيَّة، مع أنَّها نزلت في عَرَفَة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إِلَّا ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إلخ] هذا الاستثناءُ يحتاجُ إلى دليلٍ.

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

والقاعدة: أنَّ كلَّ مَن استثنى آياتٍ من سور مَكِّيَّة وقال: إنَّها مَدَنِيَّة فعليه الدَّليل، والعكس بالعكس، فمن استثنى آياتٍ من سورَةٍ مَدَنِيَّةٍ، وقال: إنَّها مَكِّيَّة فعليه الدَّليلُ؛ لأنَّ الأصلَ أنَّ السُّورةَ إذا كانت مَكِّيَّةً فهي مَكِّيَّة بجميع آياتِها، هذا هو الأصل حتى يقوم دليل على الاستثناء، ولا أعلم لهذا الاستثناء الذي ذكره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ دليلًا.

بل إنَّ ظاهِرَه من حيث المعنى يقتضي أن يكون من المَكِّيَّات ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزُّمَر:٥٣] إلخ؛ إذْ كُلُّه يتعلَّق بالتَّوْحيدِ والتَّوْبة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهي خمسٌ وسبعون آية] مُقسَّمة إلى هذا التَّقسيم تقسيمًا توقيفيًّا؛ يعني: أنَّ الذي يُحدِّد الآياتِ هو الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهو يُحدِّد الآياتِ ويُحدِّد مكانَها وتَرْتيبها.

ولهذا نقول: إنَّ ترتيبَ الآيات توقيفِيٌّ، وترتيب السُّوَر؛ منه توقيفيٌّ، ومنه اجتهادِي من الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ:

فمثلًا: (الجمُعة)، و(المنافقون)، ترتيبها توقيفيٌّ؛ لأنَّ الرَّسول ﷺ كان يقرأ في صلاة الجُمُعة بالجُمُعَة والمنافقون[1]. و(سبِّح)، و(الغاشية) كذلك، و(البقرة، وآل عمران) كذلك ترتيبها توقيفيٌّ.

ومنه شيءٌ اجتهاديٌّ ثبَت باجتهادِ الصَّحابة، قد تختلف فيه مصاحِفُ الصَّحابة؛ لأنَّه عن اجتهادٍ.

أمَّا ترتيب الآياتِ فحيث قلنا: إنَّه توقيفي لا يجوز الإخلالُ به، فلا يجوز أن تُقدِّم آيةً على آيةٍ في التِّلاوَة؛ لأنَّ الذي وضع الآيات في مكانِها هو الرَّسولُ ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة، رقم (٨٧٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك ترتيب الكَلِمات أيضًا توقيفيٌّ، فلا يجوز أن تُقدِّم كلمةً مكان كلمة، وترتيب الحروف توقيفيٌّ، لا يجوز أن تُقدِّمَ حرفًا في كلمة على حرف.

فها هنا الآن ترتيبات:

١- تَرْتيب الحُروف.

٢- تَرْتيب الكَلِمات.

٣- تَرْتيب الآياتِ.

وكلُّه توقيفيٌّ لا يجوز الإخلالُ به.

وأمَّا ترتيب السُّوَر؛ فمنه توقيفيٌّ، ومنه اجتهاديٌّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بسم الله الرَّحمن الرَّحيم] البَسْمَلَة آيةٌ مُستقِلَّة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ليست من الفاتِحَة، ولا من غير الفاتِحَة؛ على القول الرَّاجح، فهي آيةٌ مُستَقِلَّة يُؤْتى بها للبَداءَةِ بالسُّورة؛ لأنَّنا لو قلنا: للفَصْلِ بين السُّورتيـن أُورِدَ علينا سورةُ الفاتِحَة؛ لأنَّها ليس قبلها سورَةٌ، إِذَنْ للبدء بالسورة، وسَقَطَت بين الأنفالِ والتَّوْبة؛ لأنَّها لم تَرِدْ عن النَّبِيِّ ﷺ، ولو ثبتت ما أَهْمَلَها الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

والبسملة كما نشاهد ونقرأ شِبه جُمْلة، وليسـت بِجُملة؛ لأنَّها جارٌّ ومجرور، والجارُّ والمجرور والظَّرف يُسمَّى: شبه جملة، ولا يسمى: جُملة؛ لأنَّه لم توجـد فيه أركان الجُملة، ولكن الجملة مُقَدَّرةٌ فيه، فلا بدَّ من تقديرٍ تَتِمُّ به الجملة.

فـ[بسـم الله الرَّحْمن الرحيم] جـارٌّ ومجرور ومضافٌ إليه وصِـفَة، متعلِّقـة بمحذوف ولا بُدَّ؛ ولهذا قال في نظم الجُمَل:

لَا بُــدَّ لِلْجَــارِّ مِــنَ التَّعَلُّــقِ ... بِفِعْــلٍ اوْ مَعْنَـاهُ نَحْـوُ مُرْتَــقِ

وَاسْــتَثْنِ كُــلَّ زائِــدٍ لَـهُ عَمَـلْ ... كَالْبَاءِ وَمِنْ وَالْكَافِ أَيْضًا وَلَعَلّ

فلا بدَّ للجارِّ من التَّعلُّق: (بفعلٍ أو معناه نحو مُرْتَق)، (مُرْتَقٍ) بمعنى الفِعْل؛ لأَنَّه اسم فاعل.

و(استثـن كلَّ زائدٍ له عمل، كالباء ومِن والكاف أيضًا ولَعَل)؛ وذلك لأنَّ الذي فيه حروف جر زائِدَة يُقدَّر كأنه لا حَرْفَ فيه، فلو قلـتَ: ليس زيدٌ بقائِمٍ، فإنك تقول: قائِم: خبـر ليس، ولا تقول: مجرور بالباءِ، والجارُّ والمجرور متعلِّـق بالمحذوف، ويقال: إنَّه خبر ليس.

على كلِّ حال: البَسْمَلَة متعلِّقة بمحذوفٍ، أحسن ما يُقدَّر به هذا المحذوفُ أن يُقدَّر فعلًا متأخرًا مناسِبًا للمبدوءِ به، فمثلًا: إذا كنْتَ تريد أن تَقْرَأَ فتقول: التَّقديرُ (بسـم الله أَقْرَأُ)، وإذا أَرَدْتَ أن تَتَوَضَّأ فالتَّقْديرُ (بســم الله أتوضَّأ)، وإذا أردْتَ أن تدخل: (بسم الله أَدْخُلُ)، وهكذا.

وقد قدَّرْناه فعلًا؛ لأنَّ الأَصْل في العمل الأفعال؛ واسمُ الفاعل واسم المفعول والمصْدَرُ العاملُ مُلحَقٌ بالفعل؛ ولذلك اخْتَرْنا أن نُقدِّرَهُ (فِعلًا) لا اسْمًا.

كما اخترنا أن يكون (متأخِّرًا) لوجهينِ:

الوجه الأول: التَّبَرُّكُ بالابتداءِ باسم الله، فنجعل أوَّلَ الجملة (بسم الله) تبرُّكًا.

والثاني: إفادة الحَصْر؛ لأنَّ تأخيرَ العامِلِ يفيد الحَصْر.

كما اخْتَرْنا أن يكون (مناسِبًا) لما ابتدئ به؛ لأنَّه أدَلُّ على المقصودِ؛ حيث يُعيِّن أنَّ البَسْـمَلَةَ لِهذا الشَّيْء؛ فلو قلنا: بســم الله أبتدئ، لفاتنا أنَّه غيرُ مناسِـبٍ للمقام

أو للموضوع؛ ولو قدَّرنا: أَقْرأُ بسم الله فاتَ التَّأخيرُ، لكنْ فائِدَةُ التَّأخيرِ هي الحَصْر والتَّبَرُّك بالبداءة باسم الله؛ ولو قلنا: بسم الله قِراءَتي فات أن يكون فِعْلًا.

[بسم الله الرَّحمن الرَّحيم] اسم: مفرد مضافٌ، والمفرد المضاف للعُمُوم، وعلى هذا فيكون المعنى: بكلِّ اسْمٍ من أَسْماء الله؛ لأنَّ المُفْرَدَ المُضافَ يكون للعُمُومِ.

والدَّليلُ على أنَّ المُفْرَدَ المضافَ يكون للعموم قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨]؛ فـ(نِعْمَة) مُفرد، ومع ذلك قال: تَعُدُّوا، لا تُحصوا، فدلَّ هذا على أنها عامَّة في كلِّ نِعْمَة.

و(الباء) في قوله: [بسم الله] للاستعانَةِ والمصاحَبَة والمُلابَسَة يعني مُسْتَعينًا مُصْطَحِبًا مُتَلَبِّسًا باسم الله.

و(الله) عَلَمٌ على ذاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، خاصٌّ به، لا يسمَّى به غيْرُه، واختلف العلماء هل هو مُشْتَقٌّ أو جامِدٌ؟

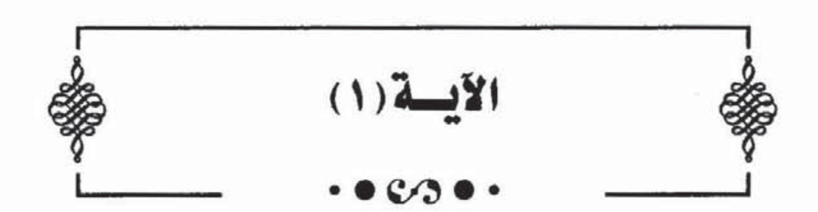
والصَّحيح: أنَّه مُشْتَقٌّ؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠] ولو جعلناه اسمًا جامِدًا لكان غيرَ دالٍّ على الوصف، بل كان عَلَمًا محْضًا، وحينئذ لا يكون دالًّا على الأَحْسَنِ، بل لا يكون دالًّا على الحُسْن فضلًا عن الأَحْسَن.

فالصَّحيح الذي لا شَكَّ فيه: أنَّه مُشْتَقٌّ من الأُلوهِيَّة، وهي: التَّقرُّب والتَّعبُّد للمَأْلوهِ على وجه المَحَبَّة والتَّعظيم.

وأما قوله: [الرَّحمن] فهو أيضًا عَلَمٌ على الله عَزَّوَجَلَّ لا يُسَمَّى به أحدٌ غيره، فهو من أسماء الله الخاصَّة به، ولا يوصف به غيرُه، وهو مُشْتَق من الرَّحمة، وكان بصيغة: فعلان لدلالة هذه الصِّيغة على السَّعَة والامتلاء، فهو دالٌّ على سَعَةِ رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وشمولها لكلِّ شيء.

وأما: [الرَّحيم] فهو اسم من أسماء الله، لكن يوصَفُ به غيرُه؛ قال الله تعالى عن النَّبيِّ ﷺ: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوْبة:١٢٨] وهو مُشْتَقٌّ من الرحمة، لكنه إذا قُرِنَ بـ(الرَّحْمن) أي: إذا ذُكِرَا جميعًا كانت الرَّحْمنُ دالَّة على الوَصْف، والرحيم دالةً على الفعل؛ أي إنه يَرْحَم برحمته عَزَّوَجَلَّ مَن يشاء.

• • ۞ • •



الآيـة (١)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر:١].

•●○●•

قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الكتابُ: هو القرآن، وسُمِّيَ كتابًا؛ لأنَّه مكتوبٌ في اللَّوْح المحفوظ، ومكتوب بالصُّحُف التي بأيدينا، ومكتوب في الصُّحُف التي بأيدي الملائكة؛ قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس١١-١٦] وعلى هذا فـ(فِعَال) بمعنى مفعول، وهذه الصيغة -أعني فِعَالًا- تأتي بمعنى مفعولٍ في اللُّغَة العَربيَّة كثيرًا؛ ومنه: غِراسٌ بمعنى مغروس، بِناء بمعنى مبنِيٍّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: القُرآنِ، مبتدأٌ] المبتدأ: تنزيلُ، قال: [﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبَرُه].

إِذَنْ: معنى الآية: أنَّ الله يُخْبِر عَزَّوَجَلَّ بأن تنزيلَ الكتاب مِنْ عنده؛ مِن الله؛ أي إنه نازلٌ من عند الله لا من جبريل ولا من مُحمَّد ولا من أيِّ مَصْدرٍ كان، بل هو نازل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تكلَّم به، وألقاه إلى جبريل.

ثم إنَّ جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نزل به على قلْـبِ النبيِّ ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤] ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وتأمَّل قوله: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ لتعْلَمَ أنَّ الرَّسول ﷺ وعَى القرآن وَعْيًا تامًّا؛ لأنَّ ما نزل

على القَلْب لا بُدَّ أن يَعِيَه القَلْب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في مُلكه، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في صُنْعِه] ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ لها معانٍ:

الأوَّل: عزيز بمعنى: غالِب.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨] قاله الله تعالى جوابًا على قول المنافقين: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨] فسَلَّم الله ذلك: أنَّ الأَعَزَّ يُخْرِجُ الأَذَلَّ، لكن قال: العِزَّةُ لله ولرسوله وللمؤمنين، أما المنافقون فلا عزَّة لهم حتى يستطيعوا أن يُخرجوا المؤمنين منها.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

الثاني: عزيز بمعنى: قَوِيٍّ، شديد القوة؛ ومنه قولهم: أرض عَزَازٌ؛ يعني: صُلْبة قويَّة؛ ومن المعلوم: أنَّ الله تعالى في صفاته كُلِّها شديدٌ قويٌّ، فكل الصفات كامِلَة ليس فيها نَقْصٌ ولا وهَنٌ ولا ضَعْفٌ.

الثالث من معنى العِزَّة: الامتناع. فالامْتِناعُ يعني: أنَّه مُمْتَنِعٌ عن أن ينالَه سوءٌ.

فهذه ثلاثة معانٍ للعزيز: غالب، قوي، ممتنِع عن كل نَقْص.

وأما قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في مُلْكِه] فإنه قاصر في الحقيقة جدًّا؛ لأنَّه إذا قُيِّدَتِ العِزَّة في الملك فإنَّها لا تتناول إلا العزيز بمعنى: الغالب أو القوي.

وأما: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في صُنْعِه] أي فيما صَنَع، وهل يُوصَف الله تعالى بأنه صانِعٌ وأنَّ له صُنعًا؟

الجواب: نعم، يُوصف الله بأنه صانع، وأنَّ له صنعًا، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿صُنْعَ

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]؛ لكن يجب أن نعلم أننا إذا وصفْنا الله بالصُّنْع فليس كصِفَتِنا للمخلوق بالصُّنع؛ فالمخلوق إذا كان صانعًا يحتاج إلى أدواتٍ؛ فإن كان نجّارًا يحتاج إلى منشار، قدوم، مخراق، وما أشبه ذلك، لكن الله عَزَّوَجَلَّ لا يحتاج، فلما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧]، فليس بناءُ الله عَزَّوَجَلَّ كبناء المَخْلوق يحتاج إلى زِمبيل وإلى لَبِن وإلى طينٍ، فالبناء غيرُ البناء والصُّنع غير الصُّنع، وقد يتوهَّم الإنسانُ أنه إذا وصف الله بالصُّنع، وأنه صانِعٌ قد يتوهَّمُ أنه يحتاج إلى آلاتٍ يَصْنَع بها، ولكن هذا خطأ؛ لأنَّ صُنْعَ الله ليس كصنع البَشَر.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في صنعه] تقييدها بالصُّنْع فيه قصور؛ والصواب: أنَّه (حكيمٌ في صُنْعِه وفي شَرْعِه)؛ ولهذا يَخْتِم الله أحيانًا آيات التشريع بالحِكْمَة، كما في قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠].

فهو حكيم في صُنعه حكيم في شَرْعِه؛ (في صُنْعِه) يعني: جميع مصنوعاته كلِّها مُحْكَمةٌ؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ قلِّب، فكِّر: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ يعني: كَرَّةً بعد أخرى، وفي النِّهايةِ: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٤] وهذا من الإحكام في الصُّنع.

أما في الشَّرْع فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢] وتناقضًا؛ فالقرآن لا يمكن أنْ يتناقَض أبدًا؛ وإذا رَأَيتَ آيةً ظاهِرُها يُناقِضُ الآيةَ الأخرى فاعلم أن ذلك: إمَّا من سوء فَهْمِك، أو من قُصُور عِلْمِك.

(إمَّا من قصور علمك) بأن تكون الآيَةُ هذه ناسِخَةً للآيَةِ، وأنت لا تَعْلَم، أو (من سوء فَهْمِك) بأن تكون كلتا الآيتينِ مُحْكَمَة، ولكن لم تَفْهَمِ الجَمْع بينهما، وإلا فلا يمكن أبدًا أن يكون في كلام الله تناقُضٌ، ولا فيما صَحَّ عن رسول الله ﷺ تناقض أبدًا؛ فهذا لا يُمْكِن؛ لأنَّه شَرْع الله، والله تعالى قد أحكم شَرْعَه.

إِذَنْ: فالله تعالى حكيم في صُنْعه وفي شَرْعِه؛ وبناءً على هذا: تكون حكيمٌ بمعنى: مُحْكِم، وعلى هذا التفسير؛ أن معنى الحكيم المُحْكِم لشَرْعه وصنعه، فهنا نسأل هل تأتي فَعيلٌ في اللُّغَة العَربيَّة بمعنى مُفْعِل؟

والجواب: نعم، تأتي فعيلٌ بمعنى مُفْعِل؛ ومنه قول الشاعر:

أَمِنْ رَيْحانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ   يُؤَرِّقُني وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

(أمِنْ ريحانة الدَّاعي السَّميع) السَّميع بمعنى المُسْمِع، فحينئذٍ تكون حكيم بمعنى مُحْكِم.

وهل يمكن أن تكون بمعنى حاكِمٍ؟

الجواب: نعم، يُمْكِنُ أن تكون بمعنى حاكم، وعلى هذا فتكون حكيمٌ بمعنى: أنَّ له الحُكْمَ.

والحُكْمُ المضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ يَشْمَلُ: الحكم الكونيَّ، والحكم الشَّرْعِيَّ:

الحكم الكوني: هو إيجادُهُ للأشياء وخَلْقُه الأَشْياءَ، والحُكْم عليها بالفناء والبقاء والتَّحَوُّل والتَّغيُّر، وما أشبه ذلك، كلُّ هذا (حُكم).

الحكم الشَّرْعِيُّ: هو ما جاءت به الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلامُ من أحكام الله

التي يُلْزَم بها المُكَلَّف؛ فقوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الإسراء:٧٨] هذا شَرْعِيٌّ؛ وقوله تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً﴾ [البقرة:٦٥] هذا كوني؛ وقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة:٥٠] شرعي؛ وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠] شَرْعِي؛ وقوله: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ [يوسف:٨٠] كوني.

فقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ سبق أنَّه من الإِحْكام ومن الحُكْم، فالإِحْكامُ يعني الإتقان، والإتقانُ هو الحِكْمَة، وهي وَضْع الشَّيْء في مَوْضِعِه.

قال العلماء: والحِكْمَة تكون في صُورَةِ الشَّيءِ وهيئَةِ الشَّيء وذاتِ الشَّيء وتكون في غايَتِه؛ فالحِكْمَة في نفس الشَّيْء: يعني أنَّ الشَّيءَ نَفْسَه مشتَمِلٌ على الحكمة، فإذا تأمَّلْتَ الشَّرائِعَ وجَدْتَ أنها مُشْتَمِلة على الحِكْمة، وإذا تأمَّلْتَ الغاية منها وجدْتَها أيضًا في غاية الحِكْمة، كذلك أيضًا إذا تأمَّلْت الصنائع التي صنعها الله عَزَّوَجَلَّ وهي الحكمة التي تكون في الكون وجَدْت أنها مُشْتَمِلَة على الحكمة، وإذا تأملت الغاية منها وجَدْتَها أنها حِكْمَة أيضًا.

فالعبادات المقصودُ بها: إصلاحُ الخَلْق، وهي مَوْضوعَة على وَفْق الحِكْمة؛ الصلوات كونُها على هذه الهيئة هو الحِكْمة، الزَّكاة والحَجُّ وبقيَّة العبادات، الكون، السَّماء، الأرض، الشَّمس، القمر، كونُها على هذا النظام البديع فهذا حِكْمة، والغاية منها أيضًا حِكْمَة؛ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في هذه الآيَةِ يُخبِرُ الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ تنزيل الكتاب مِن عنده، وعلى هذا فتفيد الآيَةُ الكريمة أنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ غير مخلوقٍ، أمَّا إفادتها لكونه منزَّلًا فظاهر: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾، لكن كيف تفيد أنه غير مَخْلوقٍ؛ فإن هذه الفائِدَة قد يعارِضُ فيها معارِضٌ، ويقول: ليس كلُّ مُنزَّلٍ غيرَ مَخْلوقٍ بل في المُنَزَّل ما هو مخلوق؛ قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا﴾ [ق:٩] والماء مَخْلوقٌ؛ وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزُّمَر:٦]؛ وهذه الأنعام مخلوقَةٌ، فلا يلزم من الإنزال أو التَّنْزيل أن يكون المُنَزَّل غير مخلوق، فما هو الجواب عن هذا الإيراد؛ لأن هذا إيرادٌ قوِيٌّ يُورده الجَهْمِيَّة الذين قالوا: إنَّ كلامَ الله مخلوقٌ؟

الجواب على هذا الإيراد سَهْل؛ بأن يقال: إنَّ الإنزالَ إذا أُضيفَ إلى عَيْنٍ قائمةٍ بنفسها فهذه العَيْن مخلوقة، وإذا أُضيف إلى وَصْف كان هذا الوصف حَسَب الموصوف، والكلامُ وَصْف، فإذا كان الله أنزل القرآن وهو كلام وأضافه إلى نفسه فهو عَزَّوَجَلَّ هو بصفاته أزليٌّ أبديٌّ ليس بمخلوق، وواجبُ الوجود.

إِذَنْ: فيتِمُّ الاستدلال؛ أن نقول: في قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر:١] دليلٌ على أنَّ القرآن مُنَزَّل غير مخلوق.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيه دليل على عُلُوِّ الله؛ وَجْهُه أنه قال: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ ومِنْ للابتداء، فإذا كان ابتداء الكتاب من عند الله وهو مُنَزَّل، دلَّ على علوِّ مَن كان مِن عنده، وهو الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تعظيم القرآن؛ وَجْهُه: أنَّه نازِلٌ من عند الله، وأنه كلام الله، فيكون عظيمًا كعِظَمِ المُتكلِّم به.

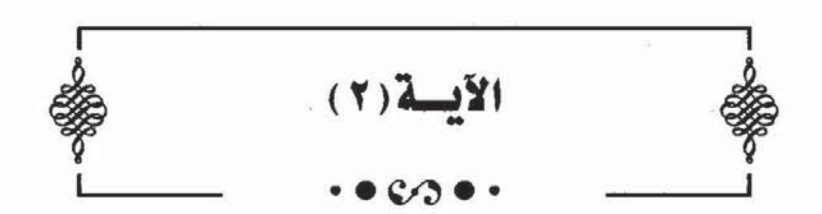
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ ثلاثَةِ أسماءٍ من أسماء الله، وهي: (الله، العزيز، الحكيم).

ويتفرَّع على هذه الفائِدَةِ: إثباتُ أَرْبَعِ صفات من صفات الله: (الأُلوهِيَّة، العِزَّة، الحِكْمة، الحُكْم).

فإذا قيل: كيف استَفَدْنا أرْبَعَ صِفات؟

فنقول: لأنَّ لدَينا قاعدةً، وهي: أنَّ الأَسْماءَ الحسنى كلُّ اسمٍ منها مُتَضَمِّنٌ لصِفةٍ.

• • ۞ • •



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:٢].

•●∽●•

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لَمَّا بيَّن أنَّ تنزيل الكتاب من الله بيَّنَ إلى مَن أنزل؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يا محمدُ، ﴿أَنزَلْنَآ﴾ ضميرُ جَمْع، لكنه إذا كان عائدًا إلى الله فليس للجَمْع قطعًا بل هو للتَّعْظيم، وقد اشتبه على النصرانِيِّ مثلُ هذا الجمع، وقال: إنَّ الله ثالـثُ ثلاثةٍ؛ لأنَّ الله تعالى يذكر الضَّميرَ عائدًا إليه بصيغة الجمع، وأقل الجمع ثلاثة!

فنقول في الرَّدِّ عليه: إنَّ هذا من زَيْغِ النَّصارى؛ ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] فاتبعوا المتشابِهَ من القرآن، ولو أنهم ردوا هذا المتشابِهَ إلى المُحْكَم لعلموا أنهم مُخْطِئون غايَةَ الخطأ، وذلك أنَّ الله صرَّح في آياتٍ كثيرة بأنه إلهٌ واحِدٌ، فقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣].

وهذا نصٌّ صريح مُحْكَم، وأما (نا) التي هي ضمير جَمْع فإنها في اللُّغَة العَربيَّة التي نزل بها القرآن صالحِةٌ للجمع وللمُعَظِّم نَفْسَه.

إِذَنْ: هي من المتشابِهِ؛ لأنَّ اللَّفْظ إذا احتمل مَعْنَيـنِ فإنه يقال فيه متشابِهٌ، والمتشابه يجب أن يُرَدَّ إلى المُحْكَمِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: ﴿إِلَيۡكَ﴾ هذا الغاية، والخطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: المكتوبَ، وهو القرآن، وسبق وَجْهُ كَوْنِه كتابًا.

وقوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُتَعَلِّق بـ(أَنْزَل)، ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ الباء هنا للمُلابَسَة وللتَّعْدِيَة، يعني أنَّ الكتاب نفسه نزل حقًّا من عند الله لا مِن عند غيره، أنزلناه بالحَقِّ يعني: بالتَّأكيد أنَّنا أنزلناه إليك من عندنا.

وقلنا أيضًا: (للتَّعْدِية) بمعنى: أنَّ الكتابَ نزَلَ بالحَقِّ، أي: إنَّ ما اشتملَ عليه القرآنُ فهو حَقٌّ.

فعلى الوجه الأول يكونُ المرادُ بقوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ تأكيدًا أنه نزل من الله؛ وعلى الوَجْه الثاني: يكون المعنى: أنَّ كُلَّ ما اشتمل عليه القرآن من أخبارٍ وأوامِرَ ونواهٍ وغيرِها، فهو حَقٌّ.

إذن: قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ له معنيان:

المعنى الأول: أنَّ القرآنَ نزَلَ مِن عند اللهِ حقًّا لا باطلًا.

المعنى الثاني: أنَّ ما اشْتَمَلَ عليه القرآنُ فهو حَقٌّ؛ أوامر، نواهٍ، أخبار، قَصص؛ كلُّها حَقٌّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بأنزل]، ولم يقل: مُتَعَلِّق بأَنْزَلنا؛ لأنَّ المُتَعَلِّق إنما يتعلَّق بالفعل، أما (نا) فهي ضمير، خارجة عن الفعل.

قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ الفاءُ للتَّفْريع، وعلامة فاء التَّفْريع أنَّ

ما بعدها يكون مُرَتَّبًا على ما قَبْلها، فالمعنى: فِلإِنْزَالِنا إليك الكتابَ اعْبُدِ الله مُخْلِصًا له الدين؛ (اعْبُد) الخطاب للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله تعالى: ﴿مُخْلِصًا﴾ حالٌ من فاعل (اعبُـد) وإخلاص الشَّيْء تَنْقِيَتُه من الشَّوائِب، وإزالة ما يخالِطُه، فإذا كان: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ فالمعنى: أنْ تُنَقِّيَ دينكَ مِن كُلِّ شِركٍ؛ ولهذا قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشـرك؛ أي: موحِّدًا له] أي: لله عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُ ٱلدِّينَ﴾: ﴿ٱلدِّينَ﴾ يعني: العَمَل، والمراد به هنا: العمل المخصوصُ، وهو: العبادة؛ لقوله: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ ولم يَقُل: مخلصًا له العبادَةَ؛ لأنَّ الدِّين هو العمل الذي يريد العامِلُ عليه مكافأةً؛ هذا الدين، ومنه قولهم: كمـا تدين تُدانُ، واعلم أنَّ الدِّينَ يُطْلَق على العمل الذي يُرادُ به المكافأةُ، ويُطلَق على نفس المكافأة، وهي الثَّواب على العمل.

فمِن الأوَّل مِثْلُ هذه الآية ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]، وقوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]؛ أي: عملًا تتعبَّدون به.

ومثال الثاني قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] يعني: يوم الجزاء على العَمَل، ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧-١٩]؛ أي: يوم الجزاء على العمل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فضيلَةُ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعُلُوُّ مَرْتَبَتِه، وذلك بإنزال كتاب الله إليه؛ لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾. وهل إنزالُ القرآنِ إلى الرَّسول إنزالٌ إلينا؟

الجواب: نعم، إنزالٌ إلينا؛ لأنَّه رسولُنا، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء:١٧٤] فالنَّازِلُ إلى رسول الله نازلٌ إلينا، ولكنه هو المباشِر لهذا الإنزال ويُبَلِّغُه لنا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ما سبق من أنَّ القرآن نازلٌ من عند الله فيكون كلامَه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عُلُوُّ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ النُّزول إنما يكون من أعلى، دلَّ عليه (الكتاب والسُّنَّة والإجماع والعقل والفِطْرَة) خَمْسَةُ أنواع من الأدلَّة، كلُّها تُثْبِت علوَّ الله عَزَّوَجَلَّ على خَلْقِه.

وقد خالف في هذا طائفتان:

الطائفة الأولى: طائفةُ الحُلُولِيَّة الذين قالوا: إنَّ الله بذاتِهِ في كلِّ مكانٍ. يقولون: إنَّ الله بذاتِهِ نَفْسِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كلِّ مكانٍ؛ في المسجد، في السوق، في البيت، في السَّطْح، في الحجرة، في أقبح مكان -والعياذ بالله- وهؤلاء أقول: إنَّهم كفَّار، لكن من كان متأوِّلًا وجب إعلامُه وبيان الحقيقة له، فإن أصَرَّ فهو كافِرٌ.

الطائفة الثانية المخالِفَة: المُعَطِّلَة الجاحِدَة، الذين يقولون: إنَّ الله تعالى ليس فوقَ ولا تحتَ، ولا يمين ولا شمالَ، ولا متَّصل ولا مُنْفَصل؛ فهؤلاء وصَفوا الله بالعَدَمِ، كما قال محمود بن سُبُكْتِكِينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لابن فَوْرك لـمَّا قال: إنَّ الله لا موجود ولا معدوم.. إلخ، قال له محمود بن سُبُكْتِكِينَ: إنَّكَ وصفْتَ الله تعالى بالعَدَم[1].

وصدق؛ لو أردنا أن نصف معدومًا ما وجدنا أشدَّ إحاطَةً من هذا الوَصْفِ بالمعدوم.

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢٥٣).

هدى الله الذين آمنوا لِمَا اخْتَلَفوا فيه من الحقِّ بإذنه، وقالوا: إنَّ الله تعالى نَفْسَه فوقَ كلِّ شيء؛ كما دل على ذلك الكتابُ والسُّنَّة والإجماع والعقْل والفطرة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الكتاب حقٌّ مِن عند الله، لم يتقوَّلْه النَّبيُّ ﷺ على ربِّه، بل هو من عند الله؛ لقوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: أنَّه حَقٌّ مِن عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٥]؛ فقال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ بعد أن قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ [الحاقة:٤٠-٤٤] لئلَّا يتوهَّم واهِمٌ أنه لما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ صار القرآن من عند الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأنه هو الذي قاله؛ فقال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٥-٤٧].

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أن جميع ما في القرآن حَقٌّ؛ على الوجه الثاني؛ أخبارُه وقَصَصه وأوامره ونواهيه؛ إِذَنْ: أخبارُهُ ليس فيها كَذِب لوَجْهٍ من الوجوه، وقَصَصُه ليس المراد منها: إمضاءَ الوقتِ وإتلاف الوقت، بل هي قَصَص نافعة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ القرآن حجَّـةٌ على النَّاس، يُلْزِمهم بعبادة الله؛ لقوله: ﴿فَٱعْبُدِ﴾ والفاء هذه للتَّفْريع؛ أي: لأجل إنزال الكتاب إليك: اعْبُدِ الله.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن من لم يَبْلُغه القرآنُ لم تَلْزَمه العبادة؛ ويدلُّ لهذا آياتٌ أخرى؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥] ومثل قوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] ومثل قوله

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص:٥٩].

ومثل قول النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(١) فقال: «**لا يَسْمَعُ بي**».

والنُّصوص في هذا المعنى كثيرة؛ أن من لم تبلُغه دَعْوَةُ الرُّسُل لا تلزمه العبادة.

والدَّليل التَّطبيقيُّ لهذه المسألة عِدَّةُ شواهِدَ:

منها: حديثُ عمَّار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بعثه النبيُّ ﷺ في سَرِيَّة فأجنب فلم يَجِدِ الماء فتَمَرَّغَ في الصَّعيد كما تتمَرَّغُ الدَّابَّة ظنًّا منه أن هذا لازِمٌ له، وصلى وأخبر النَّبي ﷺ بهذا، فبيَّن له النَّبيُّ ﷺ أنَّه يكفيه عن الغُسْل أن يَضْرِبَ الأَرْض بيدَيْهِ ثم يَمْسَح وجهه وكَفَّيه(٢)، ولم يأمُرْه بإعادة الصلاة.

وكذلك الرَّجُل الذي جاء فصلَّى ولا يطْمَئِنُّ في صلاته، فقال له النَّبي ﷺ: «إنك لم تُصلِّ»، فقال: والذي بعثَكَ بالحَقِّ لا أُحْسِنُ غيرَ هذا؛ فعلَّمَه النَّبي ﷺ(٣) ولم يأمُرْه بإعادة ما مضى من صلاته؛ مع أنه كان يصلي صلاةً لا تُجزِئُه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم أخرج بعث النار، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب التيمم بضربة، رقم (٣٤٧)، ومسلم: كتاب الحيض، باب التيمم، رقم (٣٦٨)، من حديث عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك المرأة التي كانت تُسْتَحاضُ فتظُنُّ أن هذا حَيْضٌ فلا تُصْلي[1]، فلم يأمُرْها النَّبي ﷺ بالإعادة، وأمثالُ هذا كثير.

وعليه فلو أنَّ رجلًا أسلمَ في بلاد الكُفر أو في بلادٍ نائِيَة لا يَصِلُها أحكامُ الشَّرْع وترَكَ الصَّلاةَ مُدَّة، ثم علم بعد ذلك بوجوبِ الصَّلاة؛ فإننا لا نأمره بإعادَةِ ما ترك، وإنها نأمُرُه بصلاةِ ما حَضَرَ وَقْتُه فقط.

وكذلك لو كانت امرأةٌ في محلٍّ ناءٍ، بلغَتْ بالحَيْضِ وهي صغيرة ولم تَصُم رمضان، ولكنها في محلٍّ ليس حولَها علماءُ تَسْألُهم قد غلب عليها الجَهْل -كالبادِيَة مثلًا- فإننا لا نأمرها بقضاءِ ما تركت من الصَّوْم للجَهْل.

وهذا هو اللَّائِقُ بالشَّريعة الإسلاميَّة المبْنِيَّة على اليُسْر والسُّهولة، وعلى أنَّ الله تعالى لا يكلِّف نفسًا إلى وُسْعَها، ولا يكلِّفُ نَفْسًا إلَّا ما آتاها، ويمكن أن يكون في الآية إشارةٌ إلى ذلك، فلما ذكر ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ ﴿فَٱعْبُدِ﴾ فبعد الإنزال أَمَرَ بالعبادة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وجوبُ الإخلاصِ للهِ في العِبادة؛ لقوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ والإخلاص تَنْقِيَةُ الشَّيْء ممَّا يَشُوبُه؛ ولهذا جاء في الحديث الصَّحيحِ أنَّ الله تعالى قال: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[2].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٤٣٩)، وأبو داود: كتاب الطهارة، باب من قال إذا أقبلت الحيضة تدع الصلاة، رقم (٢٨٧)، والترمذي: كتاب الطهارة، باب في المستحاضة أنها تجمع بين الصلاتين بغسل واحد، رقم (١٢٨)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب ما جاء في البكر إذا ابتدئت مستحاضة، رقم (٦٢٧)، من حديث حمنة بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلو تصدَّق الإنسان بمالٍ لكنَّه مُرَاءٍ بذلك من أجل أن يُمدَح فإنه لم يَعْبُدِ الله، وهو آثِمٌ وليس بمأجورٍ، ولو صلَّى ليُمْدَحَ فإنه لم يَعْبُدِ الله، وهو آثِمٌ وليس بمأجور؛ لأنَّ الله أمر بعبادة خاصَّة، وهي الإخلاصُ ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزُّمَر:٢].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ العبادة دينٌ يدين به الإنسانُ، ومعنى كَوْنِه دينًا أنه يعْمَلُ ليُثابَ.

ويتفرَّع على هذه الفائِدَة: أنَّه ينبغي للإنسانِ حين العبادَةِ أن يلاحِظَ هذا المعنى، وهو أنه يَعْمَل ليُثابَ؛ لأنه إذا شعر بهذا الشعور فسوف يُتْقِنُ العَمَلَ؛ إذ إنَّ العقل يهدي الإنسان إلى أنَّ الثَّواب على قَدْرِ العمل، إن أحْسَنْتَ العمل حَسُنَ الثَّواب، وإن قصَّرْتَ فالثَّواب يَنْقُصُ، وهذه المسألة -أعني شعور كَوْن الإنسان يعمل من أجل الثَّوابِ- أعتقد أنَّها تَفُوتُ كثيرًا من النَّاس لا يَنْتَبِهون لها.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الإشارة إلى نِيَّة المعمولِ، فحينما تَعْمَل تريد التَّقَرُّبَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ بامتثال أمره، فمثلًا: عندما تريد أن تتوضَّأ تنوي بأنك تتوضَّأ امتثالًا لأمر الله حينما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة:٦] من أجل أن تَشْعُرَ بالعبادة ولذَّة العبادة، لا لأجل أن تُبْرِئَ ذِمَّتك بِفِعْلِ ما هو فَرْضٌ عليك من الطَّهارة للصَّلاة، هذا لا شكَّ نيَّة طيِّبة، لكِنْ أَطْيَبُ منها أن تستَشْعِرَ بأنَّك تَمْتَثِل أمرَ الله لتَشْعُرَ بلذَّة العبادَةِ، وأنَّك حقيقَةً عبدٌ لربِّك عَزَّوَجَلَّ.

هذه مسائل ينبغي للإنسان أن يَنْتَبِه لها في عبادَتِه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

• • ۞ • •



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣].

• • ⁂ • •

قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ قوله: ﴿أَلَا﴾ أداة اسْتِفْتاح، وهي حرفٌ يراد به التَّنْبيهُ؛ لأنَّ المُتكَلِّمَ إذا قال: (ألا) انتبَه المخاطَبُ.

وقوله: ﴿لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الجارُّ والمجرور خبَرٌ مقدَّم، و﴿الدِّينُ﴾ مبتدأ مؤخَّرٌ، ويفيد تقديمُ الخَبَرِ الحَصْرَ؛ أي لله وحده.

وقوله: ﴿الدِّينُ﴾ يعني: العَمَل الذي يُراد الثَّوابُ عليه.

وقوله: ﴿الْخَالِصُ﴾، يعني: النَّقِي من الشوائب والشِّرْك؛ أي: إنَّه يجب على العاقل أن يجعل الدِّينَ الخالِصَ لله وحده؛ إذ كيف يليق بالعاقل أن يتعبَّد بالحَقِّ لله من أجل التَّقَرُّب إلى غيره؟! هذا خلاف العَقْل، فإذا قام الإنسان يصلي من أجل أن يراه النَّاس فهو سفيهٌ في عَقْله، ضالٌّ في دينه.

ولكن: كيف تجعل الحَقَّ الخالص لله تَجْعَلُه للنَّاسِ؟

الجواب: نعم، العمل الذي للنَّاس للنَّاس، لكن العمل الذي لله يجب أن يكون لله؛ ولهذا قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ﴾ وَحْدَهُ ﴿الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ فلا يجوز أن نجعله لغيره.

ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ إلخ، الواو هنا للاستئناف، ﴿وَالَّذِينَ﴾ مبتدأ و﴿اتَّخَذُوا﴾ صلة الموصول، وخبر المبتدأ محذوف تقديره: (يقولون ما نعبدهم) أو: (قالوا: ما نعبدهم).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾: اتَّخذوا بمعنى صيَّروا، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥] يعني: صيَّره؛ وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:٢٣]؛ أي: صيَّر إلهَه هواه.

فإذا كانت ﴿اتَّخَذَ﴾ بمعنى صيَّر فإنَّها تحتاج إلى مفعولين: (مُصَيَّر ومُصَيَّر إليه) فالمفعول الأول؛ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الأَصْنام ﴿أَوْلِيَاءَ﴾]؛ وعليه فيكون المفعول الأولُ محذوفًا، والثاني: ﴿أَوْلِيَاءَ﴾، وحَذْفُ المفعول إذا دلَّ عليه الدَّليل جائزٌ.

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في باب المبتدأ والخبر:

وَحَذْفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ كَمَا ... تَقُولُ زَيْدٌ بَعْدَ مَنْ عِنْدَكُمَا[1]

(حَذْفُ ما يُعْلَم جائِزٌ) الواقع أن هذا البيت في المبتدأ والخبر، لكن هو عامٌّ، فحَذْف ما يُعلَم جائِزٌ، وقد يكون من الفصاحَة والبلاغَة أن يُحْذَف، إنما الأصل أن ما يُعْلَم يجوز حَذْفُه، وما لا يُعْلَم لا يجوز حذفه؛ لأنَّ الكلام لا بد أن يكون مُبَيِّنًا لمراد المُتكَلِّم، وهذا لا يكون مع حَذْفِ ما لا يُعْلَم.

إِذَن: المفعولُ الأول محذوف، والتقدير: الأصنام، والثاني موجود، وهو قوله: ﴿أَوْلِيَاءَ﴾.

﴿أَوْلِيَاءَ﴾ جَمْع وليٍّ؛ أي: يتولَّوْنَها ولاية عبادَةٍ يتضرَّعون إليها، يسجدون

(١) الألفية (ص١٨).

لها، يَنْذِرون لها، يتصدَّقون لها، لكن لا يعتقدون أنَّ هذه الأصنام تَنْفَعُهم أو تضرُّهُم بذاتها ولا أنها تَخْلُق ولا أنها ترزق، لكن يَدَّعُون أنَّهم اتَّخَذوها وسيلة.

ولهذا يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوْلِيَآءَ﴾ وهم كفَّارُ مكَّة] وتخصيص هذا بكُفَّار مكة فيه قصور، ولا ينبغي أن نفسِّر العامَّ بما هو أَخَصُّ إلا على سبيل التَّمْثيل، أما على سبيل تَحْديدِ المعنى بحيث يأتي اللَّفْظ في القرآن عامًّا ثم نُفَسِّره بمعنًى أخصَّ، فإن هذا قصورٌ في الحقيقة، لكن: نَعَم، إن أراد الإنسانُ بهذا التَّفسيرِ التمثيلَ؛ يعني مِثْل كفَّار مكَّة فهذا لا بأس به، لكِنَّ القارِئَ الذي يقرأ مثل هذه العبارة من كلام المُفَسِّر لا يشُكُّ أنَّ المُفَسِّر أراد بهذا التَّخصيصَ، وفي هذا نظرٌ ظاهِرٌ، فالواجب إبقاءُ دَلالة عموم الآيات وكذلك الأحاديث على ما هي عليه، حتى يقومَ دليلٌ عقليٌّ أو قرينة لفظيَّة على أنَّ المراد الخاصُّ.

فائِدَة: قوله: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ الأَحْسَنُ الوقوف عليها في القراءَةِ.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهم كفَّار مكَّة قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾]، [قالوا] هذه الجملة محذوفة لأنَّها معلومةٌ من السِّياق، ويصِحُّ أن نُقَدِّرَ: يقولون: ما نعبدهم، ولعلَّها أنسَبُ من قول المُفَسِّر: [قالوا]: يعني حكايةً للحالِ التي هم عليها، وعلى كلٍّ فالجُمْلَة المحذوفة هي خبر المبتدأ، وهي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾ ولا يجوز أن نجعل جملة: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ هي الخبر لفساد المعنى قال: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ هذا حصر لمرادهم من عبادة هذه الأصنام؛ يعني ما نَعْبُدُهم إلا لهذا الغَرَضِ ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ وهذا إقرارٌ منهم واعترافٌ بأنَّهم يعبدون الأصنام؛ لقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ وأن هذه العبادَةَ هي وسيلَةٌ لغايَةٍ أشْرَفَ منها، وهي: القُرْبَى لله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا من جهلهم؛ لأنَّهم الآن إذا عبَدوهم جعلوها غايةً؛ لأنَّ المقصود هو

الوصول إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والوصولُ إلى الله لا يكون إلا بعبادَتِه، فهم إذا عبدوهم جَعَلوهم هُمُ الغايَةَ، ولهذا سنُبيِّنُ إن شاء الله أنَّ هذا من سَفَهِهِم.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ قُرْبَى، مَصْدَرٌ بمعنى تقريبًا] ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّها [مصدر] لكنها مصدرٌ مَعْنَوِيٌّ لموافقَتِه العامِلَ في المعنى دون اللَّفْظ، فالمصدَرُ قد يكون لفظيًّا وقد يكون معنويًّا؛ فإن وافق عامِلَه في اللَّفْظ فإنَّه لَفْظيٌّ؛ مثل: قمْتُ قيامًا، وإن خالفه في اللَّفْظِ دون المعنى صار معنويًّا؛ كقولك: قُمْتُ وقوفًا، وأمَّا قولُك: قَعَدْتُ قُعودًا؛ فلَفْظيٌّ، وقولك: (قعَدْتُ جُلوسًا) معنوي.

يقول: تقرَّبوا إلى الله زُلْفى، يقول: إنَّه بمعنى قُرْبى، وقُرْبَى أيضًا يراد بها التَّقْريب، وإنَّما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّه يُرادُ بها التَّقْريبُ؛ من أجل أن يُطابِقَ الفِعْلَ، فالفعل (قَرَّبَ) مضارِعُه (يُقَرِّب) المصدر المطابِق: (تقريبًا) لا قُرْبًا، ولكن من المعلوم أنه قد يوافِقُ المصدَرُ عامِلَه في اللَّفْظ، ولكنه لا يطابقه في الحروف، ومثل هذا يُسَمَّى عندهم اسمَ مَصْدر؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧]، فلو كان مصدرًا لقال: إنباتًا، فلما قال: ﴿نَبَاتًا﴾ ونَقَصَت حروفُه عن حروف فِعْلِه سُمِّيَ اسْمَ مَصْدَرٍ.

المُهِمُّ أنَّهم يقولون: نحن لا نعبد هذه الأصنام إلا من أجل أن تُقَرِّبَنا إلى الله تعالى قُرْبَى.

وحالُ بَعْضِ النَّاس عند القبور كحالِ هؤلاء؛ فهناك ناسٌ يطوفون بالقبور يَنْذِرون لها، يَسْجُدون لها، يقولون: هؤلاء أولياءُ يُقَرِّبوننا إلى الله! وهؤلاء الآن لهم وجود في العالَمِ الإسلامي.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ الجملة اسْتِئْنافِيَّة لبيانِ مآلِ هؤلاء الذين اتَّخذوا الأصنامَ أولياءَ؛ يعني: فماذا تكون نهايَتُهم؟ يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وبين المسلمين] فأشار إلى أنَّ الطَّرَف الآخَرَ من البَيْنونة، أو من البَيْنِيَّة على الأَصَحِّ محذوف؛ وبين المسلمين، وهذا التَّقدير ليس في السِّياق ما يدلُّ عليه، لو قال: بينكم، لكان صحيحًا، أنَّ المراد بينكم وبينهم، لكن هو قال: ﴿بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين هؤلاء الكُفَّار ﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ظنَّ أنه لا اختلاف بين الكُفَّار، وليس كذلك، بل الخلاف بينهم حاصِلٌ في الدنيا وفي الآخرة، قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ [الأعراف:٣٨] إلى آخر الآيات؛ محاوَرَة، منازَعَة، مخاصَمَة؛ فيحكم الله بينهم، وقد ذكر الله ذلك في عِدَّةِ آيات.

فالصَّواب: أنَّ الضميرَ بينهم؛ أي: يعود على الكُفَّار، وأنَّ الخِلافَ أو الاختلاف حاصلٌ بينهم أنْفُسِهم، فالنَّصارى واليهود بينهم خلاف: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة:١١٣].

وهذا الخلاف ثابتٌ بين الأُمَم الكافِرَة؛ فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما هم فيه يختلفون من أمر الدِّينِ، فيُدْخِل المؤمنين الجنَّة والكافرين النَّارَ، هذا بناءً على ما ذهب إليه المُفَسِّر، ولكِنْ على القول الذي هو ظاهِرُ الآيةِ الكريمةِ: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيجعل كلَّ إنسان في منزلته، وقد بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ ذلك في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣]

لما ذكر المحاورة بين المُسْتَضْعَفينَ والمُسْتَكْبرينَ.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ هـذه الجملة مُؤَكَّدَة بـ(إنَّ).

وقوله: ﴿لَا يَهْدِى﴾ المراد بذلك: هدايةُ التَّوْفيـق، وأما هدايَةُ الدلالة فإنها حُجَّةُ الله على خَلْقِه، لا بدَّ أن تنالَ كلَّ أحد؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]؛ (هديناهم) هداية دَلالة.

إذن: إنَّ الله لا يَهدي هدايةَ توفيقٍ، لا هداية دَلالة؛ بل هداية الدلالة ثابِتَـةٌ لكُلِّ أحَدٍ.

قوله تعالى: ﴿لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾: ﴿مَنْ هُوَ﴾ أي الذي هو ﴿كَـٰذِبٌ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في نِسْبَةِ الوَلَدِ إليه]، والذين نسبوا الولد إليه هم اليهود والنصارى والمُشْرِكون؛ ثلاثة: أما اليهود فقالـت: عُزَيرٌ ابْنُ الله، وأما النصارى فقالوا: المسيحُ ابنُ الله، وأما المشركون فقالوا: الملائِكَةُ بناتُ الله والآية كما يُشاهَد: ﴿مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ﴾ عامَّة، لكن كأنَّ المُفَسِّر خصَّصها بنِسْبَة الولد إلى الله؛ لقوله فيما بعد: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِـذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزُّمَر:٤]؛ وإلا فلو نظرنا إلى الآية: ﴿كَـٰذِبٌ﴾ لكانت مُطْلَقَة لم تقيَّد بنِسْبَة الوَلَدِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، لكن المُفسِّر قيَّدَها باعتبار أو بِقَرينَة السِّياق: ﴿كَفَّارٌ﴾، ﴿كَفَّارٌ﴾ هذه يُحتَمَل أن تكون صيغة مبالغَة، ويحتمل أن تكون للنِّسْبة فإن كانت للنِّسبة صارت صفةً لازِمَة؛ كما نقول: نجَّار وحدَّاد وخشَّاب وبنَّاء، وما أشبه ذلك، وإن كانت صيغة مبالغة لم تكن صفةً لازِمَة لكنها تدل على الكَثْرة.

وعلى كلِّ حال: فسواء كانت للمبالَغَة أو للنِّسْبَة فالمراد بها: الكَفُور بالله عَزَّوَجَلَّ.

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بعبادَتِه غَيْرَ الله] ولا شكَّ أن هذا كُفْر؛ عبادَةُ غَيْرِ الله، وتخصيصُ الكفر هنا بعبادة غير الله يؤيِّدُه السِّياق، وهو قوله فيما سبق: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الله لا يقبل إلا دينًا خالصًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أما ما سواه فليس لله حتى وإن أشْرَكْتَ به مع الله؛ لأنَّ الدين لله هو الخالِصُ النَّقِيُّ من شوائب الشِّرْك.

فإن قال قائل: إذا كان العمَلُ خالصًا في أوَّلِه مُشْرَكًا فيه في آخره، فهل يَبْطُل العَمَلُ كلُّه، أو يَبْطُل ما فيه الشِّرْكُ؟

فالجواب: في هذا تفصيلٌ؛ إذا كانت العبادة التي وقع الشِّرْك في أثنائها ينبني بعضُها على بعض فإنَّها تَبْطُل؛ مثل الصَّلاة؛ فرَجُلٌ أَحْرَم بالصلاة مُخْلِصًا لله وفي أثنائها سَمِعَ حوله أحدًا فراءى في ذلك في صلاتِهِ في أثناء العبادَةِ، فنقول: الصلاة تَبْطُلُ كُلُّها؛ لأنَّ أَوَّلَها وآخِرَها مبنيٌّ بَعْضُه على بعضٍ.

أما إذا كانت لا ينبني بَعْضُها على بعضٍ فإنَّ ما كان خالصًا يَصِحُّ، وما كان مَشُوبًا لا يَصِحُّ؛ فمثل رجل كان يتصدَّقُ، عنده ألف ريال، فكلما جاء فقيرٌ أعطاه منها؛ أنفق خَمْسَ مئة ريال خالصة لله، وفي أثناء الإنفاق حضَرَ أناسٌ فراءاهم، فهل تَبْطُلُ الصَّدَقة الأولى التي بها الإخلاصُ؟

الجواب: لا، لأنَّ بَعْضَها لا ينبني على بعضٍ، فكُلُّ ريال مُنْفَصِل عن الذي قبله؛ وهذه مسألة مُهِمَّة.

أما المسألة الثانية: فأحيانًا يهاجِمُ الرِّياءُ القَلْبَ، ويدافعه الإنسانُ، فهل يؤثِّر هذا على إخلاصِهِ؟

الجواب: لا، لا يؤثِّرُ ما دام يدافِعُه ويُعْرِضُ عنه؛ لأنَّه الآن في جهادٍ لعَدُوِّه، والشيطان دائمًا يأتي الإنسانَ من كل وَجْه، قال الله تعالى عنه في سورة الأعراف: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦] يعني: في كل مكانٍ، فيأتي الإنسانَ يُثبِّطُه عن العبادة، يُثبِّطُه عن طلب العلم، يثبِّطه عن صلة الرَّحِم، عن بِرِّ الوالدَينِ، وما أشبه ذلك مما أوجب الله عليه، فإذا رأى منه تَصْميمًا على القيام بالعبادة أتاه من جهةٍ أخرى، وهو: الغُلُوُّ في العبادة، والزيادَةُ فيها، والتَّنَطُّع والتكَلُّف، فإذا عَجَز عنه من هذه الناحية أتاه من جهة النِّيَّة؛ أنك مُراءٍ، ولكنَّ الإنسان يجب عليه أن يدافِعَ الشيطان بقدر ما يستطيع مُسْتَعينًا بالله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: غِنى الله عَزَّوَجَلَّ غنى الله الغنى التَّام.

ووجه ذلك: أنَّه إذا كان الله لا يَقْبَلُ إلا ما كان خالصًا دلَّ على غناه عن عمل العباد لأنَّه -وحاشاه من ذلك- لو كان فقيرًا مُحتاجًا لذلك لاكتفى بما يأتيه منهم ولو على سبيل المشارَكَة، كالإنسان المُحتاجِ يقبل منك ما كان خاصًّا له وما كان مُشْتَرَكًا، فلما كان الله لا يقبل إلا ما كان خالِصًا عُلِمَ بهذا غناه عن العباد، وإلى هذا يشير قوله تعالى في الحديث القدسي: «**أَنا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ**»(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن عابدي الأصنامِ قد تولَّوُا الأَصنامَ واتَّخذوها أولياءَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن عباد الأَصْنام يُمَوِّهون على النَّاس، يقولون: نحن ما نعبُدُهم إلا لغايةٍ، وهي أن يُقَرِّبونا إلى الله زُلْفى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه يمكن أن نُعَدِّي هـذا الحُكْم إلى جميع أهل الباطِلِ، فهم يدَّعُونَ أنهم يُحْسِنون صُنعًا وهم كَذَبَة.

ولْنَضْرِبْ لهذا مثلًا بأَهْلِ التَّعْطيلِ:

أهلُ التَّعْطيلِ يدَّعون أنهم بتَعْطيلِهِم هذا مُنَزِّهون لله، وأنَّ قَصْدَهم تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن النَّقص وعن مشابَهَة المخلوقيـن، وهم كاذبون في هذا؛ لأَنَّهُم إذا عطَّلوه عن كمالِ صِفاتِهِ فهو ضِدُّ التَّنْزيل، وهؤلاء يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ والحقيقة: أنَّ هذه العبادةَ تُبْعِدُهُم من الله مسافاتٍ كثيرةً.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إقرارُ المشركين بأَنَّهُم يَعْبُدون أصنامهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ فإنَّهم يصرِّحون بأَنَّهُم يَعْبُدونهم، لكن لا يقولون: نعبدهم لنَتَقرَّب إليهم، بل: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ المشركيـنَ في عَهْدِ الرَّسول ﷺ يُقِرُّون بوجود الله، وأنه أعْظَمُ من كل عظيم؛ لقولهم: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فهم مُعْتَرِفون بالله عَزَّوَجَلَّ وأنه أعظم من أصنامهم؛ ولهذا جعلوها وسيلةً له أو للتَّقرُّب إليه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنه سيكون بين هؤلاء المشركينَ وبين أوليائِهم، سيكون نزاعٌ وخُصُومَة يوم القيامة؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ الحُكْم لله عَزَّوَجَلَّ وحده في ذلك اليوم -أعني يوم القيامة- وأنَّ المَرْجِعَ إليه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ من كان كاذبًا كفَّارًا فإنَّ الله لا يوافِقُه؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: التَّحْذيرُ من الكَذِبِ وخصال الكُفْر، وأنَّ الكَذِب سببٌ لِمَنْع الهداية وذلك -وهذه القاعدة التي يمكن أن نُطَبِّق عليها هذه الفائِدَة- لأنَّ الحكم إذا عُلِّق بوصف وُجد بوجوده وانتفى بانتفائِهِ، ويدلُّ لهذا أنَّ النَّبي ﷺ قال: «**إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ**»(١).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الصِّدْق سببٌ للهِدايَة؛ وجهه: أنَّه إذا كان الكَذِب سببًا للغِوَاية فضِدُّه سببٌ لضِدِّه، يكون الصِّدْق سببًا للهداية.

ويتفرَّع على هذه الفائِدَة: التَّرغيب في الصِّدْق، ولكن الصِّدْق مع الله، ومع رسول الله، ومع عباد الله؛ فالصِّدْقُ مع الله بالإخلاص له، ومع الرَّسول باتِّباعه، ومع عباد الله بحُسْن المعاملة، فعليك بالصِّدْقِ: «**فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، والْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا**»، جَعَلَنَا اللهُ وإيَّاكم منهم.

يقول بعض السُّفَهاء: الكَذِب منجاةٌ؛ ويقول بعض الباعَة: الكَذِبُ مساميرُ السِّلَع؛ ونقول: الكذب مَهْلَكَة، والصِّدْق منجاة.

وبالنسبة للسِّلَع فالذين يبيعون ويشترون ويقولون: اكْذِبْ لأجل تُحْكِم السِّلْعة مثلَ المساميرِ للأبوابِ؛ ماذا نقول لهم؟ نقول: بلِ اصْدُقُوا؛ فإن هذا هو المساميرُ، في

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، رقم (٦٠٩٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الحقيقة؛ لأنَّ هذا هو الذي يُثْبِت البَرَكة، لكن الكَذِب مَنْفَقَةٌ للسِّلعة مَمْحَقَةٌ للكَسْب.

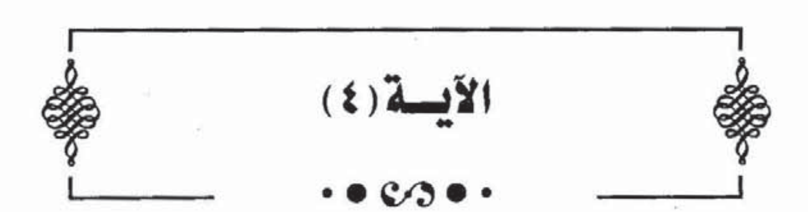
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الكفر سببٌ للغواية؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾، ويؤيِّد هذا قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: التَّحْذير من خِصالِ الكُفْر؛ لأنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّق بِوَصْف ثبت بوجوده وانتفى بانتفائِهِ، خصالُ الكُفْر التي لا تؤدي إلى الكُفْر المُطْلَق قد تكون سببًا والعياذ بالله للغِواية، مثل: الطَّعْن في النَّسَب، النياحة على الميِّت، قتل المعصوم المُسْلِم؛ لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»[(١)].

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم (٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»، رقم (٦٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآية (٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر:٤].

• • ✿ • •

قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما قالوا: اتَّخذ الرَّحْمن ولدًا ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

﴿لَوْ﴾ هذه شَرْطِيَّة؛ الشَّرْط الذي فيها: ﴿أَرَادَ﴾ وجوابُهُ: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ واعلم أنَّ (لو) الشَّرْطِيَّة إذا كان جواب الشَّرْط فيها مُثْبتًا فالأكثر اقترانه باللام (لَوْ أراد الله لَاصْطَفَى)، وقد يأتي غيرَ مُقْتَرِنٍ باللام كقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة:٧٠]؛ أما إذا كان منفيًّا -وهو كثير الأمثلة في هذا- فإنه قد يَقْتَرِن باللام كقول الشاعر:

وَلَوْ نُعْطَى الخِيَارَ لَمَا افْتَرَقْنَا ... وَلَكِنْ لَا خِيَارَ مَعَ اللَّيَالِي[1]

﴿لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾: أراد إرادةً كَوْنِيَّة، فتكون بمعنى المشيئة يعني: لو شاء الله أن يتَّخِذَ ولدًا، يعني أن يجعل لنفسه ولدًا [كما قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا﴾].

(١) غير منسوب، وانظره في: مغني اللبيب (ص٣٥٨)، وشرح التصريح (٢/ ٤٢٤)، وهمع الهوامع (٢/ ٥٧٢)، وخزانة الأدب (١٠/ ٨٢).

﴿لَّاصْطَفَىٰ﴾: اصطفى من الصَّفْوَة، وهو خيار الشَّيء، فيكون معنى اصطفى اختار.

﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾: أي: من الذي يَخْلُق ما يشاء، و(ما) هنا مفعولُ اصطفى أي: لاصطفى ما يشاء ممَّا يَخْلُقُه؛ وقوله: ﴿مِمَّا﴾ هذه اسْمٌ مَوْصُول، والعائِدُ محْذوف، والتَّقْدير: مما يَخْلُقُه، وعبَّرَ بـ(ما) دون (مَن) مع أنَّهُم قالوا: الملائِكَة بناتُ الله، وعزيرٌ ابْنُ الله، المسيحُ ابنُ الله، فعبَّرَ بـ(ما)؛ لأنَّها أعَمُّ مِن (مَن)؛ هذا من وَجْه.

من وجهٍ آخر: أنَّه إذا أُريدَ ملاحَظَة الصِّفَة، فإنه يعبَّر بـ(ما) عن (مَن) وهنا يراد ملاحَظَة الصِّفَة وهي: العبادة وانظروا إلى مثالٍ يتَّضِحُ به ما قلنا؛ قال الله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء:٣] ولم يَقُلْ: (مَن)؛ لأنَّه ليس المقصود عَيْنَ المرأة إنما المقصود الوصف؛ ولهذا يعبَّر بـ(ما) عن (مَن).

﴿لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أي: من مخلوقاته ذاتِ الإرادَةِ والشُّعور كعُزَيْرٍ والمسيحِ والملائِكَةِ وغيرهم كالجمادات من الأصنام المنْحُوتة وغيرها؛ ما شاء، واتَّخذه ولدًا قوله: ﴿مَا يَشَاءُ﴾ نقول: في ﴿مَا يَشَاءُ﴾ كما قلنا: في ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ واتَّخذه ولدًا [غيرَ من قالوا مِن الملائِكَة بنات الله، وعُزَيْر ابن الله، والمسيحُ ابن الله] يعني: الله عَزَّوَجَلَّ لو أراد أن يتَّخِذَ ولدًا ما منعه أحَدٌ؛ ﴿لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ مما قالوه أو غيره، فهو عَزَّوَجَلَّ له المُلْك الكامل، ولكنه لا يتَّخِذُ ولدًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٢]؛ يعني: مستحيلٌ غايَةَ الاسْتِحالَة أن يتَّخِذَ ولدًا.

ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ هنا: [﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهًا له عن اتخاذِ الولد، ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ لخَلْقِه] ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تَنْزيهًا له، و﴿سُبْحَانَهُ﴾ هذه اسمُ مَصْدَر، مِن سبَّح، والمصدَرُ تَسْبيح، واعلم أن (سبحان) ملازِمَةٌ للإضافة دائمًا،

ولكن ربما تأتي نادرًا أو شذوذًا بغير إضافةٍ، وربما تَقْتَرِن بـ(أل) فيقال: السُّبْحان، ولكن الأَصْل: أنَّها ملازِمَةٌ للإضافة، وأنها منصوبة على المفعولية المُطْلَقة، وعاملها يكون محذوفًا دائمًا، والمراد: تَنْزِيهًا له.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عن اتِّخاذ الولد] إنما خصَّه باتخاذ الولد؛ لأنَّ السِّياق في ذلك، وإلا فإنه مُنَزَّه عن اتِّخاذ الولد وعن كل عَيْبٍ ونَقْص.

فإذا قال قائل: هل في اتِّخاذ الوَلَدِ من عَيْبٍ؟

فالجواب: نعم، فيه عَيْبٌ؛ لأمور:

أولًا: لأنَّه يدلُّ على احتياجِ الوالِدِ للوَلَدِ، ولهذا تَجِدُ الإنسان إذا لم يَأْتِهِ الولد يرى أنه ناقِصٌ، ويتمنَّى كلَّ الأمنية أن يأتيه وَلَد يساعده على شُؤُون الحياة ويُبْقي ذِكْرَه بعد موته؛ فاتخاذُ الوَلَدِ نَقْص؛ ولهذا نزَّه الله نفسَه عنه.

ثانيًا: الولد إنما يأتي من أجل بقاءِ النَّوْع الذي تَوَلَّدَ منه، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غير محتاجٍ لذلك؛ لأنَّه هو الواحِدُ الباقي عَزَّوَجَلَّ.

ثالثًا: أنَّ الوَلَدَ يكون مماثلًا لأبيه ولا نَسْمَعُ وما سمعنا أنَّ بَشَرًا جاءه تَيْسٌ، أليس كذلك؟ وإنما يأتيه ولدٌ مِثْلُه، فلو فُرِضَ أنَّ الله اتَّخَذ ولدًا لكان الولد مثلَ الله عَزَّوَجَلَّ، والله تعالى مُنَزَّهٌ عن أن يُماثِلَه أَحَدٌ.

إذن: ففي هذه الوجوه الثلاثة يتبيَّن أنَّ الولد مُمْتَنِع عن الله غايَةَ الامتناعِ.

ثم إنَّ الله ذكَر مانعًا رابعًا: وهو أنه ليس له زَوْجَة فقال تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٠١] فبيَّن أنه ليس له زوجة، فكيف يأتي الوَلَدُ؟! وإنما جاء الولد من آدم مثلًا؛ لأنَّه آيةٌ مُعْجِزَة.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ ولو كان له ولَـدٌ لشاركـه في الأُلوهِيَّة، والأُلوهِيَّة ليست إلا له الواحِد؛ ولو كان له ولد لكان اثنين؛ لأنَّه لا بدَّ أن يكون الوَلَدُ مماثِلًا لوالِدِه، والله واحِدٌ لا ثانِيَ له عَزَّوَجَلَّ.

﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ القهَّار صيغَةُ مبالَغَة، وصيغة نِسْبَة؛ أي: إنَّه ذو القَهْر الدَّائم المتكرِّر، فكم من ذي جبروتٍ قَهَرَهُ الله عَزَّوَجَلَّ، ما أكثر الرجالَ والأُممَ ذوات الجبروت التي قهرها الله عَزَّوَجَلَّ!

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيان كمـال سُلطانِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأنَّه لو أراد شيئًا لم يَمْتَنع عليه؛ لقوله: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

ومن وجه آخر: أنَّ فيه ردًّا لاقتـراحهم أو دعـواهم بأنَّ الملائِكَـة بنـات الله أو المسيحَ أو عُزَيْرًا، فيقول: لو أراد الله أن يتَّخِذَ ولدًا لاصطفى ما يشاء دون أن يتَّخِذ ما ادَّعَوْه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات إرادة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ وإرادة الله في فِعْله متَّفَقٌ عليها، لا نظُنُّ أنَّ أحدًا يخالف في أنَّ الله تعالى يريد فِعْله، ولكن هل تتعدَّى إلى فعل المخلوقِ أو لا؟

في هذا خلافٌ بين أهل السُّنَّة وأهل البِدْعة، فمنهم من قال: إنَّها تتعدَّى إلى فعل المخلوق وغالى في ذلك، وقال: إنَّ المخلوقَ ليس له إرادةٌ، وهذا قول الجَهْمِيَّة الجَبْرِيَّة.

ومنهم مَن قال: إنَّها تتعدَّى إلى فِعل المخلوق، لكنْ لا على سبيل الجَبْر، وهذا

مذهبُ أهل السُّنَّة والجماعَة.

ومنهم مَن قال: إنَّها لا تتعدَّى إلى فعل المخلوق وأنَّ المخلوق مستقِلٌّ بفعله ولا إرادة لله تعالى فيه. وهذا مذهب القَدَرِيَّة مجوسِ هذه الأُمَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ الأفعال الاختياريَّة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، والأفعال الاختياريَّة لله ثابتة بالسَّمع والعَقْل؛ أما السَّمْع فما أكثرَ الأفعالَ التي يُضيفُها الله إلى نفسه! وأما العَقْل فلأنَّ الفاعِلَ بالاختيار أكْمَل ممن لا يفعل.

وذهبت الأشاعِرَة وغيرهم من المُعَطِّلَة إلى أنَّ الأفعال الاختياريَّة لا تقوم بالله عَزَّوَجَلَّ بحُجَّة أنَّ الفعل الحادِثَ يستلزِمُ حدوث الفاعل؛ ولا شك أن هذا قولٌ باطلٌ يستلزم لوازِمَ باطِلَة؛ منها: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غيرُ قادر على الفعل، وهذا تَنَقُّص لله عَزَّوَجَلَّ وتكذيبٌ لأخباره الكثيرة التي لا تُحصَر في إثبات الفعل له.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات المشيئة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، والمشيئة نقول فيها كما قلنا في الإرادة، من حيث تعلُّقُها فهي تتعلَّق بأفعال الله، وهل تتعلق بأفعالِ المخلوقِ؟ على الخلاف السابق الذي شرحناه في الإرادة.

لكن هنا أمرٌ يَجِبُ التنبُّه له، وهو: أنَّ الإرادَةَ تَنْقَسِم إلى قسمين: إرادة شَرْعِيَّة، وإرادة كَوْنِيَّة؛ أما المشيئة فهي قِسْم واحد فقط.

فالإرادة الكَوْنِيَّة: تُرادِفُ المشيئة فهي بمعناها، فإذا قلتَ: (ما أرادَ الله كان) فهو بمعنى: ما شاء الله كان.

أما الإرادة الشَّرْعيَّة: فإنها تُرادِفُ المَحَبَّة؛ أي إنها تتعلَّق بما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ، فتقول: (إن الله يريد منا أن نَشْكُره).

والفَرْقُ بين الإرادة الشَّرْعيَّة والكَوْنِيَّة من وجهين:

الوجه الأول: أنَّ الإرادَة الكَوْنِيَّة شامِلَة لما يحبُّه الله وما لا يحبُّه؛ فهو يريد الإيمان ويريد الكُفر، ويريد الطَّاعة ويريد الفِسْق، بالإرادة الكَوْنِيَّة؛ أما الإرادة الشَّرْعيَّة فإنها لا تتعلَّق إلا بما يحبه فقط، فلا يمكن أن تقول: إنَّ الله يُريدُ الفِسْقَ؛ أي: يحبُّه، هذا مستحيلٌ.

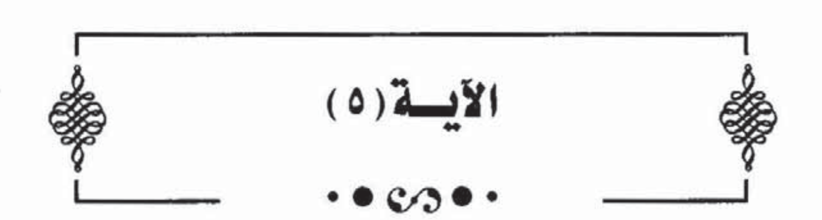
الوجه الثاني: الإرادة الكَوْنِيَّة لا بد فيها من وقوع المرادِ، يعني إذا أراد شيئًا كونًا لا بُدَّ أن يقع، والإرادة الشَّرْعيَّة قد يقع وقد لا يقع، فيريد منَّا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الإيمانَ والطَّاعة، فقد تُوجَد وقد لا تُوجَد.

وهذا هو الفرق بينهما، وبهذا تَنْحَلُّ إشكالاتٌ أوردها القَدَرِيَّة على أهل السُّنَّة، فقالوا لهم: إذا أثبَتُّم تعلُّقَ إرادة الله بكل شيء حتى في المعاصي لزمكم أنَّ الله يريد الشَّرَّ، فيكون الله -على تقدير قولهم-: شِرِّيرًا! نسأل الله العافِيَة!

ونقول: أما الإرادة الشَّرْعيَّة فإن الله لا يمكن أن يريد الشَّرَّ أبدًا، وأما الإرادة الكَوْنِيَّة فإنه يريد ما شاء، لكنَّ إرادته كونًا للشَّرِّ لها حكمة بالغةٌ كثيرة معروفة.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: تنزيهُ الله عَزَّوَجَلَّ عن كلِّ ما وصفه به الكافرون الجاحدون؛ لقوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات ثلاثة أسماء من أسماء الله: (الله، والواحد، والقهَّار)، وكل اسم يُثْبِتُه الله لنفسه فإنه يتضمَّن الصِّفَة التي اشْتُقَّ منها؛ فـ﴿الله﴾ مُشْتَق من الأُلوهِيَّـة ففيه إثباتُ الأُلوهِيَّـة صفةً من صفاتِهِ، ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾: من الوحدانِيَّة، ففيه إثبات الوحدانِيَّة لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾: من القهر، ففيه إثباتُ القهر لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه القهَّار الغلَّاب الغالِب لكلِّ شيءٍ.



الآية (٥)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر:٥].

• ● ● •

ثم قال المُفَسِّر: [﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿خَلَقَ﴾]، هذه الآية جاءت عَقِبَ ردِّ قول من يقول: إنَّ لله وَلَدًا ليبيِّن أنَّ الخالق للسموات والأرض غنِيٌّ عن الولد ولا يحتاج إليه؛ لأنَّ الكلَّ ملكه، ولا يحتاج للولد إلا من كان غيرَ مالكٍ تمامَ المِلك.

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السموات جمع: سَماء، والسَّماء تطلَق على معنيين:

المعنى الأول: العُلُوُّ وإن كان دون السَّموات.

والمعنى الثاني: السَّموات المعروفة، السقف، التي بناها الله عَزَّوَجَلَّ.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني من السَّحاب، والسماء ليست لاصقة في السماء السقف، ولكنه في العُلُوِّ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج:١٥]؛ أي: إلى العلو.

وأما الثاني الذي هو البِناءُ، فهو كثير؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ

دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:١١-١٢].

ومنه هذه الآية: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وجمعها لأنَّها جمع سبع سماوات كما في القرآن الكريم، وكما في السُّنَّة النبويَّة، والأرض هي الأرض التي وضعها الله عَزَّوَجَلَّ للخَلْق يعيشون عليها كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرَّحمن:١٠].

ولم يأتِ في القرآن ذكر عددها صريحًا؛ يعني ليس في القرآن أنَّ الأَرَضين سبع، لكن جاء ذِكْرها بهذا العدد لا على سبيل التَّصريح؛ كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] مِثْلَهُنَّ في العدد، وليس مثلهنَّ في الصِّفَة لتبايُنِ ما بين السَّموات والأرضِ في الصِّفَة، فالمماثلة في الصِّفَة مستحيلَةٌ؛ السَّموات كبيرة ورفيعة ومحيطة بالأرض، ولا يمكن أن تكونَ السَّمواتُ مثلَها في الصِّفَة؛ إذن: تعيَّن أن تكون مثلها في العَدَد لأنَّه قال: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: عددًا لا صِفَةً.

أما السُّنَّة فصريحةٌ في أنَّ الأَرَضينَ سَبْعٌ؛ قال النَّبي ﷺ: «**مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»[(١)].

والظاهر من النُّصوص: أنَّ هذه الأَرَضين متطابِقَة؛ يعني: بعضها تحت بعض كالسَّمواتِ؛ لأنَّ قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**» لولا أنها متطابِقَة لم يُعذَّب بها تحت الأرض العليا، فهي متطابِقَة، ولكن ذكر العلماء -الذين يتكلمون على خَلْق الأَرَضينَ-: هل هذه الأَرَضُونَ مُتباينَة منفصلٌ بعضها عن بعض، أو هي كتلة واحدة؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئا من الأرض، رقم (٢٤٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٢/ ١٤٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

نقول في الجواب عليه: الله أعلم، لا ندري، لكنه يجب أن نؤمِنَ بأن هناك سَبْعَ أَرَضينَ كما جاء ذلك في النُّصوص.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ﴿خَلَقَ﴾] يعني أن خلْقَه إياها بالحَقِّ؛ الحق أي: إنَّه خلقها حقًّا لا خالِقَ لها غيره. هذه واحدة.

والثاني: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي من أجل الحَقِّ لا باطلًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص:٢٧]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان:٣٩].

وصدق الله عَزَّوَجَلَّ، فإن في خلق السَّمواتِ والأَرْضِ من الحق ما هو ظاهِرٌ، فبهما يُعْرَف الله عَزَّوَجَلَّ وتظهر آياته: آياتُه الكَوْنِيَّة وآياتُه الشَّرْعيَّة، وبهما يعيش الخَلْقُ، ولا يمكننا في هذا المجلس أن نَحْصُر ما في خلق السَّموات والأرض من الحَقِّ.

ثم قال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُكَوِّرُ﴾: يُدْخِلُ]، ولا شك أنَّ الله يُولِج اللَّيلَ في النَّهار ويُولِج النَّهار في اللَّيل كما في الآيات الأخرى، ولكن هل معنى التَّكوير هنا: الإيلاج؛ أنه يُدْخِل النَّهارَ على اللَّيل فيطولُ، ويُدْخِل النَّهارَ على اللَّيل فيطولُ؟

الجواب: ظاهِرُ اللَّفْظِ يأبى ذلك؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿يُكَوِّرُ﴾ التكويرُ هو التَّدوير، ومنه: كَوْرُ العِمامَةِ؛ أي: لَيُّها، ليَّاتُها تُسمَّى: أَكْوارًا، فيُكَوِّر يعني يُديرُ اللَّيل على النَّهار، وهذا يُشْبِهُ قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف:٥٤] وإذا كان هذا ظاهِرَ اللَّفْظ فإنَّ الواجِبَ أن نُجْرِي اللَّفْظَ على ظاهره؛ لأنَّه -أي الظاهر- هو الذي يتبادَرُ إلى ذهن السَّامِع.

فإذا قال قائل: لماذا لا تجعلون الأمر -كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ- من أجل أن

نُفَسِّر القرآنَ بالقُرآنِ، فنجعل يُكَوِّر يعني يولِج؟

قلنا: هذا لا يَصِحُّ لوجهين:

الوجه الأول: أنَّه خلافُ ظاهِرِ اللَّفْظ؛ فإنَّ ظاهِرَ اللَّفْظ يُكَوِّر: يُدوِّر ويَطْوِي.

الوجه الثاني: أنَّه يَفوتُ به المعنى المستفاد من كلمة: ﴿يُكَوِّرُ﴾، أما المعنى المستفادُ من الانتقالِ فهذا يُعْرَف من الآية الثَّانية؛ فحينئذٍ نستفيدُ فائِدَة جديدة غير فائِدَةِ الإدخالِ.

أما كَوْنُ الله تعالى يُدْخِلُ اللَّيل في النَّهار، ويُدْخِل النَّهار في اللَّيل؛ فهذا شيء معروف، ودلَّت عليه آيات أخرى.

وقوله: ﴿وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيزيدُ].

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾: ذلَّلهما؛ والتَّسخيرُ بمعنى التَّذليل، يعني ذلَّلَهما لمصالح العباد، بدليل قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [النحل:١٢]؛ إذن: التَّذليل هنا لمصلحة العباد.

و﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ معروفانِ لا يحتاجان إلى تَعْريفٍ، ولو أنَّنا أردنا أن نُعَرِّفَهما بما يُعَرِّفُه أهْلُ الفَلَك لزدناهما غُمُوضًا، لو قلنا: إنَّ الشَّمْس كتلةٌ ناريَّة مُلْتَهِبَة... إلى آخر ما قالوا؛ لكان النَّاسُ يبحثونَ عن الشَّمْس! وأين الكُتْلة، والقَمَر أيضًا كُتْلَة صخريَّة جامِدَة بارِدَة مُظْلِمَة... إلى آخر ما قالوا؛ فيذهب الذِّهْن أيضًا كلَّ مَذْهَب، لكن إذا قلنا: الشَّمْس آية النَّهار، والقَمَر آية اللَّيل؛ فالكُلُّ يَعْرِفُها؛ وهذا أَوْضَحُ من كلِّ شيء.

﴿وَسَخَّرَ﴾ ذلَّلَهما في جريانِهما، وفي اختلاف هذا الجري، فكونُهما يدوران على

الأرض ويَخْتَلِفان طولًا وقِصَرًا، هذا لا شك أنه لمصالِحِ العباد.

﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: ﴿كُلٌّ﴾ من الشَّمْس والقمر.

﴿يَجْرِي﴾ أي: يسيرُ [في فَلَكِه]؛ الفَلَكُ الشَّيْء المُستدير، وهما يدوران باستدارةٍ واضِحَة، لكنَّها تختلفُ باختلاف اللَّيل والنَّهار.

وقوله: ﴿لِأَجَلٍ﴾ بمعنى: إلى أجل؛ أي: لغايةٍ، ﴿مُّسَمًّى﴾ معيَّنٍ من قِبَل الله عَزَّوَجَلَّ. وهذا الأجل المُسَمَّى قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَوْم القيامَة]؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ إلى أن قال: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٤] ويكون يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران:٣٠].

فهذان يجريانِ إلى يَوْمِ القيامة، فإذا كان يومُ القيامة ذهبت حاجَةُ النَّاس إليهما وذهبا.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾: ﴿أَلَا﴾ أداة اسْتِفْتاح وتأتي للتَّنْبيه.

وقوله: ﴿هُوَ﴾ يعود على الله عَزَّوَجَلَّ.

و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الغالِبُ على أَمْره، المُنْتَقِم من أعدائِهِ] وهذا أحد معاني العِزَّة التي أثبتها الله لنَفْسِه، وسبق أن لها معنًى ثانيًا وثالثًا: عِزَّةُ القَدْر، وعِزَّةُ الامْتِناع، بالإضافة إلى عِزَّة القَهْر، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ متَّصِفٌ بالعزَّة كاملًا؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٩] فجميع أنواع العِزَّة ثابتةٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾: الغفَّار صيغَةُ مبالَغَةٍ من الغَفْر، أو نِسْبَة، والغَفْر أو الغُفْران سِتْر الذَّنْب والتَّجاوز عنه، ولا يكفي أنْ نقول: إنَّ المَغْفِرة أو الغُفْران هو التَّجاوز

عن الذَّنْب؛ لأنَّ المعنى المُشْتَقَّ منه يأبى ذلك، فالمَغْفِرَة مُشْتَقَّة من المِغْفَر، والمِغْفَر شيء يُوضَعُ على الرأس يقيه من سهامِ الأعداء؛ ففي هذا المِغْفَر سترٌ ووقاية؛ ولهذا نقول في معنى ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ هو غافِرُ الذَّنْب؛ أي: الذي يستر الذَّنْب ويتجاوَزُ عنه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ خَلْقِ السَّموات والأَرْض.

وهذه الفائِدَةُ يترتَّبُ عليها: الرَّدُّ على الطبائعِيِّينَ والفلاسِفَة الذين يقولون بِقِدَمِ العالَم، وأنَّ العالَمَ أزلي، وأن هذه السَّمواتِ ليس لها أوَّل، بل هي موجودة في الأَزَل، فإنَّ هذه الآية تردُّ عليهم؛ لأنَّه تعالى يقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي أَوْجَدَها بعد العَدَمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ السَّمواتِ عَدَدٌ؛ وجهه: الجَمْع؛ لأنَّ الجمع يدلُّ على العَدَد، وقد بيَّنَتِ النُّصوصُ الأخرى أنها سبْعٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ خَلْق السَّموات والأرض بالحَقِّ، وضِدُّه الباطل، فلم تُخْلَق باطلًا وسُدًى ولَعِبًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الخالِقَ للسَّموات والأرض هو الله؛ لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ على أَحَد المعنيين اللذينِ أَشَرْنا إليهما.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات كُرَوِيَّة الأَرْضِ؛ لقوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ ومعلومٌ أنَّ اللَّيلَ والنَّهار يتعاقبانِ على الأرض، فإذا كان سَيْرُهما تكويرًا دلَّ على أنَّ الأرض كُرَوِيَّة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ قدرة الله عَزَّوَجَلَّ بتكويرِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وقد أشار الله

إلى ذلك في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧١-٧٢].

ولوِ اجْتَمَع الخَلْقُ كلُّهم على أن يأتوا باللَّيل في مَوْضِع النَّهار أو بالنَّهار في موضع اللَّيل، ما استطاعوا؛ ففي هذا بيان كمالِ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث يكوِّر اللَّيل على النَّهار، ويكور النَّهار على اللَّيل.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بيان نِعْمَة الله علينا بتسخير الشَّمْسِ والقمر؛ لقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الشَّمْس والقمر يجريان في فَلَكِهما، ففيه الرَّدُّ على من زعم أنَّ تعاقُبَ اللَّيل والنَّهار يكون بدوران الأرض، فإنَّ الآية صريحةٌ في أنَّ الشَّمْس تجري والقمر يجري، وعلى الأقل نقول: هي ظاهِرَة في ذلك، وإذا كان لدينا ظاهِرٌ من الكتاب والسُّنَّة فإنه لا يجوز لنا أن نَعْدُوَ هذا الظَّاهر إلا بدليلٍ بيِّن يُسَوِّغُ لنا أن نخالِفَ هذا الظاهر؛ لأنَّ الله خاطبنا بكلامه باللِّسان العربي؛ فوجب علينا أن نأخذ بمقتضى هذا اللِّسان العربي ما لم يوجد دليلٌ على خلافه.

هُمْ يقولون الآن: إنَّ الشَّمْس والقمر لا يجريان، وأنَّ القمر يدور على الشَّمْس، وأنَّ الأَرْض أيضًا تدور حول الشَّمْس، وأنَّ تعاقُب اللَّيل والنَّهار يكون بدوران الأرض، وكلُّ هذا خلاف ظاهِرِ القرآن فلا عِبْرَة به؛ إلا إذا علمنا شيئًا نُقابِلُ به الله عَزَّوَجَلَّ بإخراج كلامه عن ظاهره، وإلا فالواجِبُ إبقاؤه على الظاهِرِ؛ حتى لو فرضنا أننا أَقْرَرْنا بأنَّ الأَرْض تدور فإنه لا يلزم من ذلك ألَّا تكون الشَّمْس تدور عليها؛

لأنَّ بعضَ النَّاس يقولون: إذا أقررتم أنَّ الأرض تدور فإنه يَلْزَمُكُم أن يكون اختلافُ اللَّيل والنَّهار بسبب دوران الأرض؟

ونقول: لا يلزم؛ لأنَّه إذا اختلفت دورة الأَرْض مع دورة الشَّمْسِ حصل التعاقب؛ تعاقبُ اللَّيل والنَّهار، ولا مانع.

على كلِّ حال: المُهِمُّ أنه يجب علينا أن نأخذ بظاهر كلام الله؛ لأنَّ الله هو الخالق، وخبَرُه هو الصَّادق، وقد خاطبنا بما نَفْهَمُه من لغتنا لغَةِ العرب، فلا يجوز لنا العُدُول عن الظَّاهِرِ إلا بدليلٍ حِسِّيٍّ نخاطب به الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة إذا سألنا: لم اعتقَدْتُم أنَّ الأرض هي التي تدور وأنَّ اللَّيل والنَّهار يكون بسبب دورانها؟ فيكون لنا حُجَّة، فنقول: لأنَّنا لَمَسْنا هذا، فإذا قُدِّر -وهو بعيد فيما يظهر- أنه ثبت أنَّ اللَّيل والنَّهار يكون بدوران الأَرْض لا بدوران الشَّمْسِ، فكيف نُجيبُ عن الظواهر؟

نقول: تجري بحسب مرأى الإنسانِ؛ لأنَّ الشَّيْء إذا كان قارًّا وهو يدور، فالذي فوقه ساكنٌ يظنُّ أنه هو الذي يتحرَّك ويدور، فإذا ثبت هذا قلنا: إنها تجري بحسب نظر الإنسانِ، وإن كانت هي الثَّابِتَة والأرض هي التي تدور.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بيان أهمية معرفة أسماء الله وصفاته في قوله: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ لأنَّ ﴿أَلَا﴾ هنا للتَّنْبيه، ولا يحتاج إلى التنبيه إلا في أمرٍ هامٍّ ينبغي التنبُّه له.

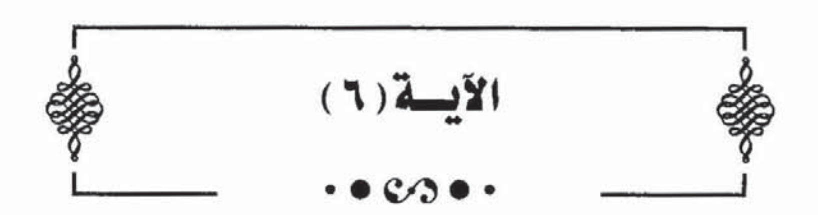
الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبات هذين الاسْمَينِ وما دلَّا عليه من صفة وحُكْم، وهما: (العزيز والغفار).

والقاعدة في باب الأصول أصولِ العَقيدَةِ: أنَّ كلَّ اسمٍ من أسماء الله فهو متضمِّنٌ لصِفَةٍ، وقد يتضمَّنُ مع الصِّفَة حُكْمًا، وهو ما يُسَمَّى بالأَثَر إذا كان متعدِّيًا،

وإن لم يكن متعدِّيًا ففيه الاسْمُ والصِّفَة؛ فمثلًا: الحيُّ من أسماء الله متضمِّنٌ لصفة وهي الحياة، لكنه لا يتعدَّى للغَيْرِ؛ لأنَّ الحيَّ وصفٌ لازِمٌ؛ يعني لا يتعدى الموصوفَ؛ كذلك: ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ اسم من أسماء الله متضمِّنٌ لصِفَة، وهي: المغفرة، متعدٍّ للغَيْرِ، وهو أنه يغْفِرُ الذنوب، فهذه القاعدة في أسمـاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: (أنَّ كلَّ اسمٍ منها متضمِّن لصِفَةٍ)، وقد يكون متضمِّنًا للحُكْم النَّابع من هذه الصِّفَة إذا كان متعدِّيًا، أما إذا كان لازمًا لا يتعدَّى الموصوفَ؛ فإنه ليس له الحُكْم، يعني ليس له حكمُ متعدٍّ للغير.

إذن: ففي الآية إثباتُ العزيز والغفار من أسماء الله، وإثباتُ ما دلَّا عليه من صفة، وإثبات المغفرة -وهي الحُكم- من قوله: ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾.

• • ❁ • •



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر:٦].

• • ◦ • •

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ الخطاب هنا لبني آدم ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني يا بني آدم. ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهي آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وصِفَةُ خَلْقِ آدم: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلَقَه من ترابٍ، التُّرابُ هذا صار طينًا بإذن الله وبقي حتى صار كالفَخَّار له صَلْصَلَة وصَوْت عند دقِّه، ثم بعد ذلك خَلَقَ اللهُ منه آدمَ، وبعد أن خَلَقَ جُثَّة آدم نفخ فيه الرُّوحَ فصار حيًّا سويًّا بشرًا، هذا هو أوَّل خِلْقَة الإنسان كما دلَّ على ذلك كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا القُرُود الذين زعموا أنَّ أَصْلَ الآدَمِيِّ قِرْد، فنحن نُسَلِّم لهم ذلك بالنسبة لهم، أما بالنِّسْبَة لنا فنحن ولله الحمد من بني آدَمَ بَشَرٌ خلق الله تعالى أبانا بيَدِهِ وعَلَّمَه أسماءَ كُلِّ شيء، وأَسْجَدَ له ملائِكَتَه، وأمَّا هم فلهم ما أَحَبُّوا أن يَرُدُّوا أنْفُسَهُم إليه!

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: ﴿ثُمَّ﴾ للتَّرتيب بمهلة؛ لأنَّ خَلْق هذه الزَّوْج متأخِّرٌ عن خلق آدم، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أبقاه مدةً حتى عرف أنه مُحتاجٌ إلى زوجة ليسكن إليها فخلق الله له زَوْجَة، وجعل هذه الزوجة من نَفْس آدم؛ لقول النَّبي ﷺ في النساء:

«إِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ»(١) يقتضي أن حواء خلقت من ضِلَع آدم، والله على كلِّ شيء قديرٌ؛ أن يخلق بشـرًا من غير زوجة، بل ومن غير زوج، فإن حوَّاء خُلِقَت بلا أمٍّ ولا أبٍ.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ لا ينافي ما ذكر الله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ لأنَّ الواو لمُطْلَق الجمع لا تستلزم التَّرتيب، فإذا جاءت آية أخرى فيها التَّصْريحُ بالتَّرتيبِ حُمِلَت الآيةُ التي فيها الواو الدَّالَّة على مُطلَق الجمع على الترتيب، على أنَّ تقديمَ الشَّيْء على الشَّيْء في الذِّكْر وإن كان بالواو يقتضي أن يُقَدَّم، هذا هو الأصل، ولهذا لما دنا النَّبي ﷺ من الصَّفا حين أتى إلى السَّعْيِ قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨] «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ»(٢) فبدأ بالصفا.

وهذا يدل على أن ما قُدِّم في الذكر فهو متقدِّمٌ على ما بعده رُتْبَة، أو زمنًا، أو مكانًا حسب ما يقتضي الحال، لكن ليس هذا بلازِمٍ، قد يتقدم ما بعد الواو على ما قبلها ولا يُعَـدُّ ذلك تناقضًا، لكن في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ لا يمكن أن نقول إنَّ الجَعْل هنا قبل خلق آدَمَ.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا﴾ هذا ابتداءُ خَلْقِ الإنسان؛ و(مِن) هذه للابتداء، وهل (منها) عينًا أو (منها) وَصْفًا؟

الجواب: الظاهِرُ الأَمْران؛ لأنَّها من آدم خُلِقَت، وهي مثل آدم أيضًا فهي من نوْعِهِ، وهي أيضًا منه عَينًا، فهي جزءٌ منه وبَضْعَةٌ منه، ولهذا خَطَبَ النَّبي ﷺ النَّاس

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء، رقم (٥١٨٦)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم (١٤٦٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخبر أن فاطمة بَضْعَةٌ منه[1].

يقول: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ والزوج يُطْلَق على معانٍ منها: الصِّنف؛ كقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص:٥٨] أي: أصناف، وكقوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢] أي: أصنافهم؛ ويُطْلَق الزوج على ما سوى الفَرْدِ؛ أي الشَّفْع، فيقال: فَرْد وزَوْج.

وكلمة زوج هنا تشمل المعنيينِ؛ فهي صنفٌ من البَشَر، وهي أيضًا زوج تشفع آدَمَ بعد أن كان فريدًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الإبل والبَقَر والغَنَم والضَّأن والماعز ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾].

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: الإنزال هنا بمعنى: الخَلْق؛ لأنَّها أُضيفَتْ إلى أعيان وهي الأَنعامُ، والأنعام جمع: نَعَمٍ؛ كأسبابٍ جَمْع: سَبَب.

وقوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي: ثمانية أصنافٍ، وقد بيّن الله هذه الأزواج في سورة الأنعام فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٣] ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٤]، فالجميع ثمانيةٌ؛ ذَكَرٌ وأنثى من كل صِنْف من الأصناف الأَرْبعَة، وإذا ضربْتَ اثنين في أربعة صارَتْ ثمـانية؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ كُلٍّ زَوْجَانِ؛ ذَكَرٌ وَأُنْثَى كَمَا بَيَّنَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَام].

ثم قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ، رقم (٣٧١٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، رقم (٢٤٤٩)، من حديث المسور بن مخرمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لما ذكر الله ابتداءَ الخَلْق الأوَّل وهو آدم ذكر ابتداءَ الخلق الثاني وهو النَّوْع الإنساني، النوعُ الإنسانيُّ كيف خُلِقَ؟ فقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾: ﴿فِي﴾ للظَّرْفِيَّة، والبطون جمع بَطْن، والأصل: أنَّ هذه المادَّةَ (الباء والطاء والنون) خلافُ الظُّهورِ؛ فالبطون خَفِيَّة، والظُّهور ظاهِرَة.

ومن أسماء الله: (الظَّاهِر والباطِنُ) الظاهر: العالِم، والباطِنُ: الذي لا يَحُول دونه شيءٌ، فهنا البطون إذن جمع بَطْنٍ، وهو مُشْتَقٌّ من البطون، بَطَنَ الشَّيْءُ بُطُونًا؛ أي: خَفِيَ.

وقوله: ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ جمع: أمٍّ أو أمَّهَة، ويقال: أُمَّاتٌ لغير العاقل، ويقال في العاقل: أمَّهاتٌ.

وقوله: ﴿خَلْقًا﴾ مصدر يَخْلُق ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: خَلْقًا متطوِّرًا ينتَقِلُ من خَلْقٍ إلى آخر؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: نُطَفًا، ثم عَلَقًا، ثم مُضَغًا]، وقد أشار الله تعالى إلى هذه الأصول في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج:٥].

من تراب باعتبارِ آدَمَ، من نطفة باعتبارِ النَّوْعِ الإنسانيِّ، ثم من عَلَقَةٍ، ثم من مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغير مُخَلَّقة؛ والمضغة: هي قِطْعَةُ اللَّحْم بِقَدْرِ ما يُمْضَغ.

وقد بيَّن النَّبي ﷺ مُدَّةَ هذا التَّطوُّر في حديث ابنِ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٣).

فقوله: «**أربعين يومًا نُطْفَةً**» يعني: ماءً وهو المَنِيُّ، لكنه في هذه المدة يتطوَّر تطورًا خفيًّا إلى أن يصِلَ إلى الغاية في تمام أربعينَ يومًا حتى يكون عَلَقَةً؛ أي: دمًا أحمر، والظَّاهِرُ: أنَّه ليس المراد أنه يبقى نُطْفَةً إلى تمامِ الأربعين ثم ينقلب في لحظة إلى دَمٍ، بل هو يتطوَّر وينقَلِبُ شيئًا فشيئًا إلى أن يَتِمَّ كونُه دمًا في أربعين يومًا، ثم يكون، ثم يبقى هكذا عَلَقَةً، لكنه أيضًا يتجمَّدُ شيئًا فشيئًا وينمو حتى ثمانينَ يومًا، ثم بعد ذلك يكون مُضْغَةً؛ قِطْعَةَ لَحْمٍ.

وقوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ يحتمل -والله أعلم- أن مُخَلَّقَة عند انتهاء الطَّوْر الثالث، غير مُخَلَّقَة في ابتداء الطور؛ يعني: فتكون في هذا الطَّوْر في الابتداء غير مُخَلَّقَةٍ، وفي النهاية مُخَلَّقَة، ويحتمل أن تَخْتَلِفَ الأجِنَّة في ذلك فيكون بَعْضُها مُخَلَّقًا من حين أن تَنْتَقِل إلى العَلَقَة إلى المُضْغَة، وبعضها يتأخَّر، فالله أعلم، ويُرْجَع في هذا إلى العلماء في هذه المسألة.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظُلُمات لا يصل إليها الضوء، ﴿ثَلَٰثٍ﴾ فَسَّرَها المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: [هِيَ ظُلْمَة الْبَطْنِ، وَظُلْمَة الرَّحِم، وَظُلْمَة الْمَشِيمَة]؛ هذه ثلاثُ ظُلُمات جعلها الله عَزَّوَجَلَّ وقايةً لهذا الجنين؛ لأنَّ أشِعَّة الضَّوْء لو وصلت إليه لأَفْسَدَتْه، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ جعله في هذه الظلمات الثَّلاث، ثم إنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل ظَهْرَه إلى بَطْنِ أمِّه، ووَجْهَه إلى ظَهْر الأم، وهذا من أجل ألَّا يتضرر وَجْهُه بالصَّدَمات التي تكون على بطْنِ الأُمِّ ليكون الظَّهر وقايةً للوَجْه، وخلف الجنين الذي هو الذي يلي البطن قوِيٌّ؛ لأنَّ فيه الظَّهْر والأَضْلاع، فهو قويٌّ؛ يعني: مُتَحَمِّل للصَّدَمات.

فإذا أراد الله عَزَّوَجَلَّ إخراجَه انقلب هذا الجَنِينُ؛ تحَرَّكَ واضْطَرَب بإذن الله عَزَّوَجَلَّ

ثم انْقَلَبَ حتى يكون رأسُه هو الأسفل، ويخرج الرأس أولًا من أجل أن يكون خُرُوجه سهلًا، إذ لو خرج من عند قَدَمَيْه لكان في ذلك ضَرَرٌ وخَطَرٌ، وأيضًا قد تُعَلَّق مثلًا إحدى اليدين في أَحَدِ الجوانِبِ فيحصل في هذا ضَرَر، وربما يَحْصُل تلف على الجنين، ولله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خَلْقِه شؤون.

المهم: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اعتَنَى بنا عنايَةً تامَّةً، ونحن في بطون أُمَّهاتنا وعند خروجِنا منها؛ ولهذا قال: ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ونِعْمَ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ!

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المشار إليه: رَبٌّ، والمخاطب: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ البَشَر؛ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وإنما أتى باسم الإشارة المفيد للبُعْد ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ ولم يقل: (هذا) إشارةً إلى عُلُوِّ مَرْتَبَة الله، إلى عُلُوِّ منزلته عَزَّوَجَلَّ وأنَّ له العُلُوَّ؛ عُلُوَّ الذَّاتِ وعُلُوَّ القَدْرِ، وعُلُوَّ القَهْرِ.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ رَبُّ إما أن تكون صِفَةً أو بدلًا، وفيه إشارة؛ يعني ذكر الرُّبوبِيَّة بعد الأُلوهِيَّة إلى التَّربِيَة الخاصَّةِ في حال الحَمْل والعناية التامَّة؛ لأنَّ الحمل في بطن أمه لا يمكن لأحَدٍ أن يَصِلَ إليه لا بِجَلْب مَنْفَعَة ولا بدفع مَضَرَّة، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يتولَّى العناية به.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ الجملة هذه جملة خَبَرِيَّة قُدِّم فيها الخبر على المبتدأ لإفادَةِ الحَصْر، ﴿لَهُ﴾ أي: وَحْدَه لا يشارِكُه أحد.

﴿ٱلْمُلْكُ﴾ يعني المُلْك المُطْلَق، مُلْك الأعيان ومُلْك الأوصاف؛ فهو مالِكُ الأعيان كلها، ومالِكُ أَوْصافِها وتَصْريفها وتَدْبيرِها.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا توحيدُ الأُلوهِيَّة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ والجملة هذه مكونة من نفي وإثباتٍ، نَفْيٌ من أبلغ أنواع النَّفْيِ؛ لأنَّه مُصدَّرٌ بـ(لا) النافية للجنس،

ولا النافِيَة للجنس يقول علماء النحو والبلاغة: إنَّها نَصٌّ في العُمُوم؛ يعني لَيْسَتْ ظاهرةً في العموم، بل هي أبلغ من الظَّاهِرَة: نصٌّ في العموم.

ولهذا يقال فيها: نافيةٌ للجِنْس لا للوَحْدَةِ، بل للجنس كلِّه، إذن لا يوجد إله إلا اللهُ، ولكن يجب أن نعلم أنَّ المنفِيَّ هنا (الإلهُ الحقُّ) يعني لا إله حَقٌّ إلا اللهُ، أما الآلِهَة الباطِلَةُ فإنها موجودة؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود:١٠١] فسماها: آلهة؛ وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الشعراء:٢١٣] إلهًا آخر، فسمَّـاه: ﴿إِلَٰهًا﴾ لكنه إله باطِلٌ، كما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

فإذا سألنا سائل: هل مع الله إلهٌ؟

فالجواب: يكون بالتَّفْصيل، وهو:

إن أردْتَ إلهًا حقًّا فلا، وإن أردت إلهًا باطِلًا يُسمَّى: إلهًا وليس بإله، فهذا موجودٌ.

وفي قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ **إذا قال قائل:** أين خبَرُ (لا) هل هو: (هو) أم ماذا؟

فنقول: لا يمكن أن يكون خبر (لا): (هو)؛ لأنَّ (لا) النافية للجنس لا تعمل إلا في النَّكِرَات؛ قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَمَـلَ إِنَّ اجْعَـلْ لِـلَا فِي نَكِـرَهْ ....[1]

فلا تعمل إلا في النَّكِرات، وهنا (هو) مَعْرِفَة، فنقول: الخبر محذوف، تقديره: لا إله حقٌّ إلا اللهُ، هكذا يجب أن يقال، وأَخْطَأَ من قال: لا إِلَهَ موجودٌ إلا اللهُ؛ لأنَّ

---

(١) الألفية (ص٢٢).

هذا يتضمَّن أَمْرًا إِمْرًا؛ إذ إنَّك إذا قلت: لا إله موجودٌ إلا الله، جَعَلْتَ الآلِهَة الموجودَةَ جَعَلْتَها الله، وهذا خطأ عظيم! بل الواجب أن نقول: لا إله حقٌّ إلا الله، نَعَم، إلا الله؛ أما في الآية فـ(إلا هو).

إذن: فما محل: (هو) من الإعراب؟

الجوابُ: بدلٌ من الخَبَرِ المحذوف. يقول: ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾: (أنَّى) اسْمُ استفهامٍ، والمراد به: التَّوْبيخُ والتَّعَجُّب يعني: كيف تُصْرَفُون عن عبادة الله عَزَّوَجَلَّ وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا هو، هذا خطأ، سَفَهٌ في العقل، وضلالٌ في الدِّين.

وقوله: ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عن عبادته إلى عبادة غَيْرِه].

إذا كان هذا الاستفهام للتَّوبيخ والتَّعجُّب فإنه يقتضي أن يكون هذا الانصراف حرامًا؛ لأنَّه لا يوبَّخُ إلا على شيء مُحَرَّم -والله أعلم- لأنَّ أهواءهم هي التي غَلَبَتْهُم، وكلمة ﴿تُصْرَفُونَ﴾ تدل على الانْصِراف؛ لأنَّهُم صُرِفوا، لكنَّهم صَرَفَتْهم أهواؤُهُم والشياطينُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ أَصْلَ البَشَرِيَّة من آدم، وليس كما يقول القرود: إنَّ أصلها قِرْد ثم تطوَّر؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وقد بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كيف خلق هذه النَّفْس في مواضع من القرآن.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ البشرية حادِثَة وليست أَزَلِيَّة؛ لقوله: ﴿خَلَقَكُم﴾ والخلق يقتضي الحدوث.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الله جعل أزواجَ بني آدم من جِنْسه؛ لقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا

زَوْجَهَا﴾ ولو كانت الزَّوْجَة من غير الجنس لم تَحْصُلِ الأُلْفة والمودَّة، ولكن الله جعلها من الجنس لهذا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ما مَنَّ الله به علينا مِن إنزال الأنعام؛ الأصناف الثَّمانِيَة، ومنها أن إنعام الله بهذه الأَصْنافِ الثَّمانية أكثر مِن إنعامه بغيرها؛ كالظِّباء والأرانب وما أشبهها؛ لأنَّ الله امتَنَّ بهذه الأصنافِ الثَّمانِيَة دون غيرها؛ لأنَّها أَشَدُّ نِعْمَة الله أظْهَر وأبْيَن، ولأنَّها أنعامٌ مألوفَةٌ وأليفة خلافَ الأنعام الأخرى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الإشارة إلى أنَّ تكْوينَ هذه الخَليقة مِن زَوْجَينِ، كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩] فكلُّ شيءٍ مِن الخَليقَة فلا بُدَّ لتَركيبه مِن زوجينِ؛ حتى المياه، وحتى الهواء، وحتى كل شيءٍ، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩] وهنا يقول: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزُّمَر:٦].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيان حِكمة الله عَزَّوَجَلَّ في تطوير الخَلْقِ في قوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزُّمَر:٦]، ولو شاء لخَلَقنا طَوْرًا واحدًا، ولكنَّ حِكْمَتَه تَأبى ذلك، بل يتطوَّرُ الإنسان مِن طوْرٍ إلى آخر؛ للتدرُّج في الخَلق، كما أنَّ التدرج أيضًا في التشريع والحكمة، فالشَّرْع لم يَنْزِل جُملةً واحدة، يُكَلَّفُ النَّاسُ به مِن أوَّلِه إلى آخِرِه، ولكِنْ نَزَل بالتَّدْريجِ، وما نحن فيه من الحَمْل، لو أنَّ هذا الحَمْل نَشأ في بَطْن الأم دفعةً واحدَةً، لَكان في ذلك ضررٌ عليها، لكنه يتطوَّرُ وينمو شيئًا فشيئًا، حتى يتَّسِعَ البطن شيئًا فشيئًا بدون مَشَقَّة على الأم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: مِنَّةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على البَشَـرِ في أنه يُطوِّرَهم في هذا الخَلْق في مكانٍ لا يمكن أن يَصِلَ إليه أحد؛ لقوله: ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ كما قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات:٢١-٢٢].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: حماية اللهِ الجنينَ لكونه في هذه الظُّلُمـات الثَّلاثِ؛ لأنَّ أشِعَّة الضَّوء ربما تَضُرُّه، فجعله الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى في هذه الظُّلُمـات الثَّلاث.

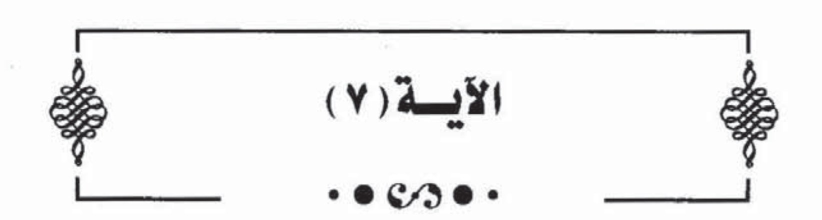
الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ القادر على هذا هو المُسْتَحِقُّ للأُلوهِيَّة والعِبادَةِ؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: انفرادُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بالملك؛ لقوله: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ فلا مالِكَ إلا اللهُ، وهل المُلك مُلك التَّصرُّف الكونيِّ أو الكوني والشَّرْعي؟

الجواب: الكَوْني والشَّرْعي، فلا مالِكَ إلا الله كونًا، ولا مالِكَ إلا اللهُ شَرعًا، ولهذا له الحُكم الكونيُّ والشَّرعيُّ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: النداء الصارخ في تَسْفيهِ هؤلاء القوم الذين اتَّخَذوا مِن دونه أولياءَ، بعد ظهور هذه الآيات العظيمة؛ لقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾؛ يعني: كيف تُصْرَفون عن الحَقِّ مع وضوحه وبيانه؟!

• ● ۞ ● •



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الزمر:٧].

• • ❁ • •

ثم قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾ أي: إنْ تكفروا بالله وبما يَجِبُ الإيمان به، فإنَّكُم لن تضروا الله؛ لأنَّ الله غَنيٌّ عنكم، ولم يَأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العبادَ بعبادتِه والإخلاص له لحاجَتِه إليهم، ولكن لمَنْفَعَتِهم هم؛ لأَنَّهُم يُثابون على هذا أعظَمَ الثَّواب، ويَنْجُون به من العِقابِ، أما الله عَزَّوَجَلَّ فإنه لا يَضُرُّه إذا كَفَرَ كُلُّ الخَلْق، ﴿ إِن تَكْفُرُواْ ﴾ ولو كل الخَلْق، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾.

وقد جاء في الحديث القُدُسِيِّ: «**يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم ما نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**»[١]، لو كان النَّاس كُلُّهُم، بل البَشَر وغيرُ البشر لو كانوا على أَفْجَرِ قلبِ رَجُل لم يَنْقُص ذلك مِن مُلْك الله شيئًا، ولن يَضُرَّ اللهَ شيئًا.

ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، ولا يرضى لهم أن يَكْفُروا بالله، وتَأَمَّل قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ﴾؛ يعني أنَّ الكُفر أَمْرٌ لا يَليقُ بالعباد،

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلا يَرضى لهم أن يَقوموا به؛ وذلك لأنَّ الله خَلَقهم، فكيف يَرضى للإنسان العاقِلِ أن يَصْرِف العبادة لغير الخالِق؟! ولهذا قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ﴾ ولم يقل: مِن عباده، أو عن عباده؛ لأنَّ اللام أَبْلغ في كَوْن هذا الشَّيْء لا يليقُ بهم.

وقوله: ﴿لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ العبودية تنقسم إلى قِسْمَيْنِ: عامَّة وخاصَّة، فمِن الأول -أي مِن العامِّ- قولُه تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] ﴿إِن كُلُّ﴾ [مريم:٩٣] (إن) هنا بمعنى (ما)، وعلامةُ (إن) التي بمعنى (ما): أنْ يأتي بعدها (إلَّا)، قال تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٣]؛ يعني: ما أنت إلا نذيرٌ؛ فقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] هذه مِن العبودية العامَّة، حتى الشياطينُ والكُفَّار كُلُّهم عِبادُ الله بالمعنى العام، أما القِسْم الخاصُّ بالعبادة عبادَةِ المؤمنين: وهي العبادَةُ الشَّرْعيَّة؛ أي التعبُّد لله تعالى شَرْعًا، فهذه خاصَّةٌ بمَن أطاعه، ومِن ذلك قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، وقوله: في الرُّسُل إنهم عباد الله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص:٤٥] هذه عبودية خاصَّةٌ، فقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ﴾ هنا من العامة؛ يعني لا يَرْضى الكُفْر لأي واحِدٍ من عباد الله.

وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وإن أراده من بَعْضِهِم] هذا كلام جيِّدٌ؛ يعني هو لا يرضاه، لكن يريده مِن بَعْضِهِم، يريده بالإرادة الكَوْنِيَّةِ لا الإرادة الشَّرْعيَّة، وهذا ردٌّ على قولٍ مُبْتَدَعٍ، يقولون: إنَّ الله لا يُريد إلَّا ما يَرضَى، وأمَّا ما لا يرضاه فلا يُريده؛ وعلى هذا القول الباطِلِ تكون المعاصي واقعةً بغيرِ إرادة الله، ولا شَكَّ أن هذا قولٌ يُبْطِله نصوصٌ كثيرةٌ.

مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن

يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، فالله عَزَّوَجَلَّ مُريدٌ لهذا وهذا، لكن بالإرادة الكَوْنِيَّة؛ لأنَّ الكلَّ ملكه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ ولهذا قال: [وإن أراده مِن بَعْضِهم] يعني فإرادته مِن بعضهم لا تقتضي أن يكون راضيًا به؛ إذ قد يُريد ما لا يرضاه.

فإن قال قائل: كيف يريد ما لا يرضاه؟ وهل أحدٌ يُكرِهه؟

قلنا: لا يُكرِهُه أحَدٌ، لكن يُريد ما لا يرضى لِحِكْمَة بالغة؛ فلو كان الله تعالى لا يريد إلا ما يرضاه، لأصبح النَّاس كلُّهم مؤمنين، ولم يكن هناك مَيْزَة للمُؤْمِن عن الكافِرِ، ولم يُقَم عَلَم الجهادِ، ولا الأَمْرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عن المُنْكَر، ولا مُلِئَتِ النَّار، كما وعد الله عَزَّوَجَلَّ، إلى غير ذلك مِن المصالِح العظيمة التي تَنْتُج عن وجود الكفر في عباد الله.

قال: [﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ﴾ اللهَ فَتُؤْمِنُوا] ﴿يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾، إنْ تَشْكُرُوا، مقابل إنْ تَكْفُرُوا؛ لأنَّ الإنسانَ في نِعَمِ الله بين كافرٍ وشاكِرٍ، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وتأمل كيف قال في الكُفْر: إنَّ الله غَنِيٌّ ولا يرضى، وهنا قال: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ فبدأ في جواب الشَّرْط في ﴿إِن تَكۡفُرُواْ﴾ ببيان غناه عن الخَلق عَزَّوَجَلَّ، أما الشُّكر فإنه هو الذي يُثيبُ عليه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ فإذا رَضِيَه فسوف يثيبه، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [البينة:٧-٨] ولهذا أثابهم الجنَّاتِ، أسأل الله أن يَجْعَلَنِي وإيَّاكُم منهم.

قال: ﴿يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ في هذا الفعل إشكال من النَّاحِيَة النحوية، فإنه جوابُ الشَّرْط، فـ(إن تشكروا) هذا فِعْل الشَّرْط، (يَرْضَه) جوابُ الشَّرْط، ومع ذلك فهو

مَفتوحٌ، لأنَّه مَجْزومٌ بحذف الأَلِف، وأصلها (يَرْضَى)، ولكن حُذفت الأَلِفُ للجزم، قال: [(يَرْضَهْ) بِسُكُونِ الْهَاء] تَسْكينها خفيفٌ جدًّا؛ يعني تقرأه بخِفَّة؛ ويقول: [وضَمُّها ﴿يَرْضَهُ﴾ في حال الضم مَعَ إِشْبَاعٍ وَدُونه] إشباع: ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ تُشْبِعُها حتى يخرج منها واو، ودونه تحذف الواوَ، إذن نقرَؤُها: (وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهْ لَكُمْ) بسكون الهاء ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ بإشباع وبدونه؛ وكل هذا جائِزٌ، وهي قراءة سَبْعِيَّة متواتِرَة.

وكما تقدَّم ونُعيده: أنَّه ينبغي للإنسان أنْ يقرأَ القرآنَ بِجَميعِ القِراءات؛ لأنَّ الكُلَّ حقٌّ، فلا ينبغي أن يَهْجُر حقًّا من الحقوق، ولكن بشرط أن يكون مُتيَقِّنًا القراءةَ، فلا يكفي غَلَبَة الظَّنِّ، لا بُدَّ أن يتيقَّنَ، وإلا قرأ بالمتيقَّنِ عنده؛ وشرطٌ آخَرُ: ألَّا يكون عند العامَّة؛ لأنَّ العامَّة إذا قَرأْتَ عندهم قراءةً تُخالف مُصْحَفَهم، صار في ذلك تشويشٌ عليهم بالنِّسْبة للقرآن، وسوءُ ظنٍّ بالنسبة إليك، ورحم الله امرأً كفَّ الغِيبَةَ عن نَفْسِه.

أما في مقام التَّعليم، أو في القراءة بينك وبين نفسك، فإنه ينبغي إذا كنت عالِمًا بالقراءة أن تقرأ بها أحيانًا؛ بهذا أحيانًا وبهذا أحيانًا، فمِثْل: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٣-٤] فيها قراءة: (مَلِك) وقراءة: (مَالِك) فاقرأ بها، مرةً بهذه، ومرةً بهذه.

مسألة: إذا قرأ الإنسان في الصَّلاة في الركعة الأولى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وفي الركعة الثانية قرأ: (مَلِك يوم الدين) هل هذا صحيح؟

الجواب: لا بأس، ولا مانع، ولا حَرَج.

يقول: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾: ﴿يَرْضَهُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيِ الشُّكْرَ]

فما هو الشُّكْر؟ الشُّكْر حدَّه بعْضُهم بحدٍّ جامعٍ مانِعٍ، فقال: الشُّكْر هو القيامُ بطاعة المُنْعِم اعترافًا له بالجَميل، ويكون بالقَلْب واللِّسان والجوارِح.

وعلى هذا قول الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا[1]

إذن: الشُّكْر القيامُ بطاعة المُنعِم اعترافًا له بالجميل، ومَحَلُّه في القلب واللسان والجوارح:

الأول: بالقَلْب؛ أن يُؤْمِن الإنسان بِقَلْبه بأنَّ هذه النِّعَم مِن الله عَزَّوَجَلَّ تفضُّلًا منه، ولا يقول: هذا لي، أُوتِيتُه على عِلْمٍ عندي، بل يقول: هذا مِن فَضْل ربي.

الثاني: باللِّسانِ؛ أن يتعبَّد لله تعالى بكلِّ قولٍ شَرَعه، ومِن ذلك أن يتحدَّث بنِعْمَة الله، فإنَّ هذا مِن الشُّكْر؛ لأنَّه قولٌ مَشْروع، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] مثل أن يقول: كنت فقيرًا فأغناني الله، الحَمْد لله، أنا عندي وَلَد، عندي زوجة، عندي بيت، عندي سيارة، الحمد لله أنا أَطْلُب العلم، أنا حَصَّلتُ كثيرًا من العلم، وهكذا؛ فهذا من الشكر بشرط ألا يكونَ الحامِلُ على ذلك الفَخْرَ أو الرِّياءَ؛ لأنَّ بعضَ النَّاس يتحدث بالنِّعَم من باب الثَّناء على الله؛ أنَّ الله أعطاه ومَنَّ عليه وتَفضَّل عليه.

وأما الجوارح فظاهِرٌ؛ أن تُظهِرَ نِعْمَة الله عليك بالجوارح؛ فمثلًا إذا أعطاك الله قوةً وشجاعَةً تُظهِر ذلك بالقُوَّة في ذاتِ الله مِن جهادِ الكفَّار والمنافقين وغيرهم.

المهم: أنْ يَظْهَر عليك أثَرُ النِّعْمَة في أفعالك، فتقوم بعبادة المُنْعِم عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) غير منسوب، وانظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن تَشْكُرُواْ﴾ الله فَتُؤْمِنُوا]؛ يعني: فتؤمنوا الإيمانَ المُستَلْزِم للعَمَل الصَّالِح، لا مجرد الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ الإيمانُ بالله لا يكون إيمانًا حقيقيًّا حتى يستلزم القَبولَ والإذعان؛ وكثيرٌ مِن العامَّة يظنون أنَّ الإيمان بالله: أنْ تؤمِنَ بوجود الله فقط، وهذا خطأٌ، بل الإيمان بالله هو: الإيمان المُسْتَلْزِمُ للقَبُول والإذعان؛ القَبُول لِما أمر به، وانشراح الصَّدْر به، والإذعان والانقياد التَّام، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

فعلى رأي مَن يقول: إنَّ الإيمـانَ هو: الإيمـانُ بوجود الله، يظنُّون اليهـودَ والنصارى مؤمنين، وقد يُصرِّحونَ بهذا، يقول: النَّصراني مُؤْمِنٌ يؤمن بالله، وإذا مات له شَخْص قال: رحمه الله، واليهود كذلك!

ونقول: إنَّ هذا ليس هو الإيمانَ بالله، الإيمانُ بالله لا يَصِحُّ -وليس يتمُّ فقط- إلَّا بالقَبول والإذعان؛ فالقبولُ لِمَا جاء به الوَحْيُ، والإذعانُ والانقياد التَّام.

وقوله تعالى: ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفسير: [﴿وَلَا تَزِرُ﴾ نَفْسٌ ﴿وَازِرَةٌ وِزْرَ﴾ نَفْسٍ ﴿أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمله] ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾: (لا) نافية، و﴿وَازِرَةٌ﴾ فاعِلٌ، وهو نكرة في سياق النفي، فيَعُمُّ كلَّ وازِرٍ.

والوازرة: التي تتحمَّل الإثم وتقوم به؛ وعلى هذا فمَن دونَ البُلُوغ ليس نَفْسًا وازِرَة؛ لأنَّها لا تتحمَّل الإثْمَ، ومَن كان بالغًا، ولم يَفْعَل الإثم فليس بوازِرٍ.

إذن: فالوازِرَة؛ يعني القابِلَة للوِزْر، وهي: النَّفْس المُكَلَّفَة، وإذا أردنا أن نقول: وازِرَة بالفِعْل، نقول: هي الفاعِلَة للإثم، فـ﴿وَازِرَةٌ﴾ هنا تشمل الوازِرَة حُكمًا، وقد تشمل الوازِرَة فعلًا أيضًا.

فالوازرة حكمًا هي: القابِلَة للإثم؛ يعني التي يمكن أن تتحمَّل الإثْمَ، وإن لم تَعْمَلِ الوِزْر، والوازِرَة حقيقةً هي: التي فَعَلَتِ الإثْمَ.

مثال ذلك: رجلٌ بالغٌ عاقلٌ، لكنه صالِحٌ نقول: هذا وازرٌ حُكْمًا، ورَجُلٌ آخر زنى أو سرق، نقول: هذا وازرٌ فِعلًا، إذا كان بالغًا عاقلًا، وهذا هو السِّر في أنَّ الله قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾، ولم يقل: (ولا تزر نفسٌ وِزْرَ أخرى)، بل قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾؛ لأنَّ مَن ليست وازِرَة، لا تَزِرُ شيئًا لا عن نفسها ولا عن غيرها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ أي إثْمَ نفسٍ أخرى، ومعنى (لا تَزِرُ)؛ أي لا يَلْحَقُها وِزْرُه؛ أي الإثْمُ؛ ولهذا فسَّره المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: [أي لا تَحْمِله] لا تَحْمِل وازرةٌ وِزْرَ أخرى.

فإن قال قائل: الغلامُ إذا بلغ عشرة سنين فإنه يُكلَّف بالصَّلاة، هل يكون وازِرَة؟

فالجواب: لا، لا يُكلَّفُ؛ ولكنْ يُضرَبُ عليها لعشرٍ من باب التَّأديب على التَّمَرُّن على الطَّاعَة، وإلا لو تركها فإنه لا يأثَمُ.

وإن قيل: كيف نجمع بين هذه الآية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ وبين ما ورد أنَّ الميِّتَ يُعَذَّبُ ببكاء أهله عليه(١)؟

فالجواب: هذا ينبغي أن يُورَد على الآية، وهو أنَّ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثبت عنه: أنَّ الميِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكاءِ أَهْلِهِ عليه، وعائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: إنَّ المرادَ بذلك

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «**يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه**». إذا كان النوح من سنته، رقم (١٢٨٦). ومسلم: كتاب الكسوف، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه، رقم (٩٢٧)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الكافِرُ[1]، ولا شكَّ أنَّها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بَشَرٌ تُخْطِئُ وتُصيبُ؛ وذلك لأنَّ الكافر يُعَذَّب، سواء بكى عليه أَهْلُه أم لا، لكن هي أرادَت أن تقول: إنَّ معنى الحديث: أنَّ الكافِرَ لَيُعَذَّبُ وأهله يَبْكون عَلَيْه، جعلت هذا معنى الحديث، واستَدَلَّتْ بالآية، ولكَّننا نقول: لا يستقيم هذا التَّأْويلُ بل معنى الآية: أنَّ المراد بالعذابِ: التألُّم النفسي، وليس التألُّمَ البَدَنِيَّ.

ونظير هذا قولُ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ**»[2] مع أنَّ المسافِرَ لا يتعذَّب تعذُّبًا بدنيًّا، قد يكون من آنَسِ ما يكون إذا كانت الأَرْضُ مُخْصِبَة، والإِبِلُ طيِّبة، والرِّفاق أصحابًا، فيكون السفر نُزْهَة، ومع ذلك فهو قِطْعَة من العذاب القَلْبِيِّ، نحن في الطَّائِرَة مستريحون، ففيها دِفءٌ في الشتاء، وبرودة في الصيف، ونَشْرَب القهوة والعصير، ونأكل التَّمْر، وكلُّ ما طَلَبْنا يأتي، ومع ذلك القَلْب متألِّم، ليس مثل إنسان مُسْتَقِرٍّ في بيته، فالعذاب الذي في القَبْر هو هذا النَّوْع من العَذابِ.

وقال بعض العلماء: يعذَّب عذابًا بدنيًّا؛ أي: يعاقَبُ عقوبة بدنية، ولكن هذا فيمن أوصى أَهْلَه أن يَنوحُوا عليه، وإن كان هذا لم يُذْكَرْ بالحديث، لكن يُحْمَل الحديث على ما تَقْتَضيه النُّصوصُ الأخرى.

وقال بعضهم: هذا في الرَّجُل الذي يَعْلَمُ في أهله أن ينوحوا عليه ولم يَنْهَهُم والفَرْقُ بين القَوْل هذا والذي قبله؛ فالذي قبله أوصاهم، وهذا ما أوصاهم لكن يَعْلَم أنَّهُم يفعلون فلم يَنْهَهُم.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «**يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه**»، رقم (١٢٨٨)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه، رقم (٩٢٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب السفر قطعة من العذاب، رقم (١٨٠٤)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب السفر قطعة من العذاب، رقم (١٩٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهذه أربعةُ أقوالٍ في الحديث، وأصَحُّها أنَّ المراد بالعذاب: العذابُ النَّفْسِيُّ، وليس العذابَ البَدَنِيَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر:١٨].

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾: ﴿ثُمَّ﴾ يعني بعد الشُّكْر من الشاكر، والكفر من الكافر، يكون إلى الله وحده المَرْجِع.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ في هذه الجملة حَصْر، طريقُهُ: تقديم ما حقُّه التَّأخير؛ لأنَّ قوله: إلى ربِّكم؛ خبرٌ مُقَدَّم، ومَرْجِعُكُم؛ مبتدأ مؤخَّر.

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ولم يَقُلْ: إلى الله؛ لأنَّ المقام هنا مقام رُبُوبِيَّة؛ لأنَّ الرَّبَّ هو المالِكُ المُتصَرِّف الخالق، فكان المناسِبُ أن يقول: إلى ربِّكم، ولو قال: إلى الله مَرْجِعُكم لصَحَّ؛ لأنَّ الله تعالى أيضًا هو المستحِقُّ للعبادة، ولا يستحِقُّ العبادَةَ إلا مَن كان ربًّا.

وقوله: ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة، ولكن اعْلَمْ أنَّ كل مَن مات فقد قامت قيامته؛ لأنَّه انتقل من دار العَمَل إلى دار الجزاء.

قال شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في (العقيدة الواسِطِيَّة): «ومن الإيمان باليَوْمِ الآخِرِ: الإيمانُ بكلِّ ما أخبر به النَّبي ﷺ مما يكون بعد الموت»[1]، مع أنَّ الذي يكون بعد المَوْت قبل قيامِ السَّاعة، لكن مَن مات فقد قامت قيامَتُه.

قال تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يُنَبِّئُكم: يُخْبِرُكم، لكن قد قيل: إنَّ النَّبَأَ لا يكون إلا في الأَمْرِ الهامِّ، بخلاف الخبر، فيكون حتى في الأمور التَّوافِهِ؛ وقال بعض العلماء: هما بمعنًى واحِدٍ.

---

(١) العقيدة الواسطية (ص٩٥).

وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: ﴿بِمَا﴾ ما اسم موصول بمعنى الذي، وعائدها محذوف وهو المفعول به في قوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ أي: بما كنتم تَعْمَلونه. و(ما) الموصولة، بل وجميع الأسماء الموصولة، تفيد العموم، والدليل على أنَّ الأسماء الموصولة تفيد العموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزُّمَر:٣٣] فأعاد الإشارة إليه جمعًا مع أنه مفرد، وهذا يدلُّ على أنه يفيد العموم.

إذن: كل ما نَعْمَلُ من خير وشَرٍّ وصغير وكبير وسابقٍ ولاحِقٍ، فإن الله تعالى يُنبِّئُنا به؛ أي: يُخْبِرُنا به.

وتأمَّلِ اللُّطْف والإحسان؛ حيث قال تعالى: ﴿يُنَبِّئُكُم﴾ [الأنعام:٦٠] ولم يقل: (يُؤاخِذُكم) لأنَّه ثبت في الصَّحيح: «**أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يخلو بعَبْدِهِ المُؤْمِنِ، فيُقَرِّرُهُ بِذُنوبِهِ، ويقول: عَمِلْتَ كَذَا في يَوْمِ كَذَا، وعَمِلْتَ كَذَا في يَوْمِ كذا حتى يَعْتَرِفَ، ثم يقول الله له: قَدْ سَتَرْتُها عَلَيْكَ في الدُّنْيَا، وأنا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**»[1].

فهذا إنباءٌ بدون مؤاخَذَةٍ؛ ولهذا قال هنا ﴿يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٦٠] ثم المؤاخَذَة إليه، فالإنباءُ وعدٌ عليه، والمؤاخَذَة إليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]؛ ولهذا كان الكُفَّار لا يُنَبَّؤُون بعملهم كما يُنَبَّأُ المؤمن؛ يعني أنَّ الله يخلو به، ويستر عليه، ويُقَرِّره بذنوبه معه وَحْدَه، أما الكُفَّار -والعياذ بالله- فيُنادَى على رؤوس الأشهاد ﴿هَٰٓؤُلَآءِ الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨] والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: الله عَزَّوَجَلَّ عليمٌ بذاتِ الصُّدُور، وهي القُلُوب، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦] فالمراد بذات الصدور؛ أي صاحِبَة الصُّدور؛ القلوب، وإنما ذكر الله هذه الجُمْلَة بعد قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للإشارة إلى أنَّ الحساب يكون على ما في القلب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٨-٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات:٩-١٠].

فالمدار يوم القيامَةِ على ما في القَلْب، أما في الدنيا فالمَدارُ على الأعمال الظَّاهِرَة، ولهذا كان النَّبي ﷺ يعامل المنافقين معامَلَةَ المسلمين؛ لأنَّهُم كانوا يتظاهَرُون بالإسلام، ونحن نحاسِبُ النَّاس في الدنيا على ما يَظْهَرُ من أَعمالِهِم، ونَكِلُ سرائِرَهم إلى الله، أما في الآخرة فإن الحسابَ على ما في القلب.

ولهذا يجب على الإنسان أن يعتَنِيَ بصلاح قلبه قبل صَلاحِ جِسْمِه؛ لأنَّ صلاح الجسم واجهةٌ أمامَ الخَلْق، لكن صلاحُ القَلْبِ هو الذي يكون بين الإنسان وبين ربه عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيان أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ إنَّما أَمَرَ العباد بعبادَتِه؛ لحاجتهم لذلك، ومَنْفَعَتِهم به، وليس لحاجته إلى ذلك؛ لقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات اسم الغَنِيِّ لله عَزَّوَجَلَّ، وإثبات ما دلَّ عليه مِن صِفَة؛ لأنَّ كلَّ اسمٍ من أسماء الله مُتَضَمِّن لصِفَة، وليست كلُّ صفةٍ مُتَضَمِّنَةً لاسم؛ ولهذا نقول: إنَّ صفاتِ الله أَوْسَعُ من أسماء الله؛ بمعنى أنها أَكْثَر، ووجه ذلك ظاهر، إذا قلنا:

كل اسْمٍ مُتَضَمِّن لصفة، تساوت الأَسْماء والصفات، على أنَّ الاسم الواحِدَ يمكن أن يتضَمَّن عدَّة صفات، لكن لِنَقُلْ -على أدنى تقدير-: إنَّه لم يتضمَّنْ إلا صفةً واحدة، فإذا قلنا: كلُّ اسمٍ مُتَضَمِّن لصفة تساوت الأسماء والصفات، وهناك صفاتٌ لا يمكن أن يُشْتَقَّ منها أسماء، وهي كثيرة جدًّا، وبهذا تبيَّنَ أنَّ الصِّفاتِ أَوْسَعُ وأَكْثَرُ من الأسماء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يرضى الكُفْرَ للعباد؛ لأنَّه غيرُ لائقٍ بهم؛ إذ هم عباد الله، فاللَّائِقُ بهم أن يقوموا بطاعته وعبادته، ولا يليقُ بهم أن يكفروا به.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الرِّضَا لله؛ لقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ﴾ وقوله فيما بعدها: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

والرِّضا صفةٌ مِن صفاتِ الله الفِعْلِيَّة؛ لأنَّه مُتَعَلِّق بِمَشِيئَتِه، وكل وصفٍ يتعلَّق بمشيئة الله فإنَّه يُسَمَّى عند أهل السُّنَّة صفةً فِعْلِيَّة، وكل وَصفٍ معلَّقٌ بسبب فإنه من الصفات الفِعْلِيَّة؛ لأنَّه يُوجد عند وجود السَّبب، والحقُّ أنَّ الرِّضا صفةٌ حقيقية لله عَزَّوَجَلَّ كالفَرَح والعَجَب والضَحِك، وما أشبه ذلك.

وزعم أهل التَّعْطيل أنَّ المراد بالرِّضا الثَّواب، ففسروه بشيءٍ بائنٍ عن الله مُنْفَصِلٍ عنه؛ مخافة أن تتعلَّق به الأفعالُ الاختياريَّةُ، وهذا من جَهْلِهِم؛ وذلك لأنَّنا إذا فسَّرْناه بالثَّواب، فالثَّوابُ لا يقع إلا بإرادةٍ، والإرادة لا تكون إلا حينَ يُوجَدُ سبب الرضا، وحينئذٍ تكون الإرادَةُ حادِثَةً، فهم فَرُّوا من شيء ووقعوا في مِثْلِه، مع تحريفهم للنُّصوص بِصَرْفِها عن ظاهرها، وتَعْطيلهم للصِّفَة التي دلَّ عليها النَّصُّ؛ فهذه ثلاثَةُ محاذيرَ.

فالذين يُحَرِّفون الكَلِم عن مواضِعِه يقعون في ثلاثَةِ محاذيرَ:

المحذور الأوَّل: أنَّهُم وقَعوا في مِثل ما فرُّوا منه، فإن كان ما فرُّوا منه محذورًا، فما وقعوا فيه محذور.

الثاني: أنَّهُم حرَّفوا النَّصَّ عن ظاهره، صرفوه إلى معنًى آخر.

الثالث: أنَّهُم عطَّلوا الله عن الصِّفَة التي دلَّ عليها النَّصُّ الذي حرَّفوه، فهم -مثلًا- عطَّلوا الله عن صفة الرِّضا، وحرَّفوا النَّصَّ عن ظاهره، ووقعوا فيما فرُّوا منه، وهكذا في جميع الصِّفات التي حرَّفوها عن ظاهرها.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أنه لا تَلازُم بين الرِّضا والإرادة، وجهه أنه قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ مع أنه أَخبر في آيات كثيرة: أنَّ الكفر واقعٌ بإرادته، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ [الأنعام:١٢٥] فإذا جمعنا بين هذا وهذا، عَرفنا بأنه لا تَلازُم بين الرِّضا والإرادة، فقد يُريد ما لا يَرضاه، وقد يَرضى ما لا يُريده، فهو -مثلًا- يرضى من كل واحدٍ من النَّاس أن يَشْكُر لله، وهل أراد ذلك؟ لا.

فالله يرضى من الكافر أن يُسْلِمَ ولكنه لم يُرِدْ أن يُسْلِمَ؛ فلا تلازم، فإنه قد يوجد الرضا بلا إرادة وتوجد الإرادة بلا رضًا ويوجد رضًا وإرادة؛ فالكافر يرضى الله منه أن يسلم، ولا يرضى الكفر، ويرضى الشكر؛ فيرضى من هذا الكافر أن يشكر ويؤمن، لكن هل أراد الله أن يشكر المؤمن؟ لو أراد الله لوقع.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الإشارةُ إلى أنَّ الكُفْر غيرُ مَرْضِيٍّ لله، في قوله: ﴿لِعِبَادِهِ﴾ والعبد يجب أن يكون مؤمنًا بِسَيِّده، مطيعًا له، فكيف يكون عبدًا ثم يكفر به؟!

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: فضيلة الشُكْر، وأنَّ الشاكر يَنالُ رضا ربه؛ لقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، وقد جاء في الحديث: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ**

فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»[(١)]، «**يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا**»؛ وقوله: (الأَكْلَة) هل المراد الوَجْبة من الطَّعام أو المراد كُلّ لُقْمة؟

الجواب: هناك مَن يَرى أنَّ المراد الوَجْبة، وهناك مَن يَرى أنَّ المراد اللُّقمة، وكان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يأكل، وكلما أكل لقمة حَمِدَ الله، فقيل له في ذلك، فقال: «أَكْلٌ وحَمْدٌ خيرٌ من أكلٍ وصَمْتٍ»[(٢)]؛ لأنَّ لفظ الحديث: «**يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ**» مُحتملٌ لأنْ يكون المراد به اللُّقمة أو الوجبة من الطعام، وكذلك يقال في الشرب، والإنسان ينبغي له في الشرب أن يشرب بثلاثة أنفاسٍ، في كل نَفَس يَحمَد الله عليه، إذا قلنا: المراد بالشَّرْبة النَّفَس.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الله يرضى الشُكْر لعباده، وإذا رَضِيَ الله عن العبد، كان ذلك سببًا في إرضاء العَبْد، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩] فيرضى الله عليهم بعبادتهم إيَّاه، ويرضون عنه بما أثابهم، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يَجْعَلني وإيَّاكم منهم؛ أنَّ الإنسان يَرضى عن ربِّه، ويرضى الله عنه، قال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنه لا تَحْمِل نَفْسٌ إثْمَ نفسٍ أخرى، حتى وإن ضَمِنَت النفس الأخرى ذلك الذَّنب؛ فمثلًا: لو قال شخص لآخر: افعل كذا من الذُّنوب والإثْمُ عليَّ، فيقول: أنا ضامِنٌ، فهل يصح؟ لا؛ أرأيتم لو ضَمِن دَينًا على شَخْص، فهل يصح؟ يَصِحُّ، وهو يُحمِّلُ نفسه بهذا الضَّمان، يُحمِّل نفسه دينًا؛ فإذا كان كذلك، لماذا لا يَصِح أن يَضْمَنَ إثْمَ مَن فَعل الإثْم؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم (٢٧٣٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: مناقب الإمام أحمد (ص٣٤٠)، والفروع (٨/ ٣٦٤).

الجواب: لقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت:١٢] نحن نتحمَّل العذاب عنكمْ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [العنكبوت:١٢]، بل إنه يوم القيامة يكون الأمر أشدَّ، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة:١٦٦] يتبرَّؤون منهم، ويَتحاجُّون في النَّار، كلُّ طائفة تتبرَّأ من الأخرى، فلا يمكن لأحدٍ أن يَحْمِل إثم أحدٍ أبدًا.

فإذا قال قائلٌ: كيف يُجمَع بين هذه الآية الكريمة وبين قول الرَّسول ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(١)، وإخباره: أنَّه «**مَا قُتِلَتْ نَفْسٌ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ -الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ- كِفْلٌ مِنْ ذَلِكَ**»(٢).

فالجواب: أنَّ مَن سَنَّ السُنَّة السَّيِّئة، فإن آثام مَنِ استَنَّ به عليه؛ لأنْ هذا مِن فِعْله، فهو في الحقيقة لم يَحمِل إثْمَ غيره إلا لأنْه هو السَّبَب الذي جرَّ النَّاس إلى هذا الإثم؛ فقد يكون ناسٌ مُسْتَوْحِشينَ من هذا الإثم، يَخْشَوْن منه ويهابونه، فإذا فعله شخص هان عليهم الأَمْر، واقْتَدَوْا به، لا سيما إذا كان الشخص ذا كَلِمَةٍ مُطاعة؛ كالأمير والعالم، وما أشبه ذلك.

إذن: لا تعارُضَ بين الآية والحديث، وجهه: أنَّ مَن سَنَّ السُّنَّة السَّيِّئة فإنَّه عمل العمل الذي به الإثْمُ، والسَّبب اقتداءُ النَّاس به.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، رقم (٣٣٣٥)، ومسلم: كتاب القسامة، باب بيان إثم من سن القتل، رقم (١٦٧٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الإشارة إلى أنَّ الإثْمَ إنما يتحمَّلُه من كان قابلًا له؛ لقوله: ﴿وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ والوازِرَة هي التي تكون أهـلًا لتَحَمُّل الوِزْر، والذي يكون أهلًا لتَحَمُّل الوِزْر من جَمْعِ وَصْفَيْنِ: البلوغ والعقل؛ لقوله في الحديث الصَّحيح: «**رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ المَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَبْلُغَ**»(١) صحَّحه كثير من أهل العلم.

فإن قال قائل: أليس الأبُ الراعي على أولاده إذا أهملوا شيئًا كان عليه إثمٌ من إهمالهم؟

فالجواب: بلى، ولكنَّ إهمالَه إيَّاهم وزرٌ وإثْمٌ؛ لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم:٦]؛ ولأنَّ النَّبي ﷺ قال: «**الرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»(٢).

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم﴾ إلخ: أنَّ المَرْجِعَ إلى الله يوم القيامة.

ويتفرَّع على هذه الفائِدَة: وجـوبُ الاسـتعداد لهذا اللِّقاء وهـذا المَرْجِـع، والاستعدادُ له يكون بِتَرْكِ المعاصي وفِعْل الطَّاعات، فما دام المَرْجِعُ إلى الله فلا يمكن أن تَرْجِعَ إلى غيره؛ ومهما كان فإنَّ مرجعكم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فهو منه المبتدأ وإليه المُنْتهى.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ١١٦)، وأبو داود: كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق، رقم (٤٤٠٢)، والترمذي: كتاب الحدود، باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد، رقم (١٤٢٣)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب من لا يقع طلاقه، رقم (٣٤٣٢)، وابن ماجه: كتاب الطلاق، باب طلاق المعتوه، رقم (٢٠٤٢)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب المرأة راعية في بيت زوجها، رقم (٥٢٠٠)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، رقم (١٨٢٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: بيان شُمولِ عِلْمِ الله؛ لقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالذي كنتم تعملون كله صغيره وكبيره، والخطابُ لجميع النَّاس، وهذا يدلُّ على شمول عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ، وهو كذلك؛ فعِلْم الله تعالى واسِعٌ محيطٌ بكلِّ شيءٍ، وقد نبَّه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على بيان كيف كان واسعًا؛ فقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ يعني: إذا كان الله هو الخالِقَ، وهذا شيءٌ مُقَرٌّ به، لزم أن يكون عالِمًا بما خلق؛ إذ كيف يُمْكِنُ أن يَخْلُقَ ما لا يعلمه! هذا مستحيلٌ.

أما قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ فـ﴿مَنْ﴾ هل هي فاعل أو مفعولٌ؟ يجوز فيها الوجهان: أنْ تكون فاعِلًا، بمعنى: أَلَا يعلم مَنْ خلق مَنْ خَلَقَهُ، ويجوز أن تكون مفعولًا به؛ أي: أَلَا يعلمُ اللهُ من خَلَقَه، ومعلومٌ أنَّ الخالق والمخلوق بينهما تناسُبٌ؛ فلا خالق إلا بِخَلْق ومَخلوق، ولا مَخلوق إلا بخالِقٍ؛ نعم.

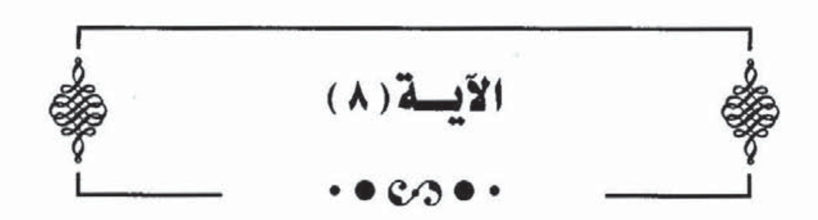
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عالِمٌ بأسرار العبد؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦] بل لَيَعْلَمُ ما يُسْتقبَل للمَرْء، والإنسانُ يعلم ما تُوَسْوِسُ به نفسه، لكن لا يعلم ماذا يَكْسِبُ غدًا، والله عَزَّوَجَلَّ يعلم ماذا يَكْسِبُه العبد غدًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الإشارة إلى أنَّ الحسابَ يوم القيامة يكون على ما في الصُّدور؛ لأنَّه لَمَّا ذكر الإنباء قال: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يعني فالمَرْجِعُ في الحساب إلى ما في القلب، فصحِّحْ ما في قلبك؛ لأنَّ المدارَ عليه، ولهذا شواهِدُ من الآيات ذكرناها أثناء التَّفسير.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: الإشارَةُ إلى أنَّ القلبَ هو الذي عليه مدار الصَّلاح؛ لأنَّه إذا كان الحساب على ما في القَلْبِ فهو عليه مدار الصَّلاح؛ ويؤَيِّده قولُ النَّبي ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[1].

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



الآيــة (٨)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر:٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ﴾ أي: أصاب، و﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المراد به [الكافر] المراد به الكافر، وإنَّما جعل هذا العام خاصًّا لظاهر سياقِ الآية كما يتبيَّن، وإلا فالأصل أنَّ الإنسانَ من ألفاظ العُمُوم، فـ(أل) فيه لاستغراق الجِنْس.

وعلامة (أل) التي لاستِغْراق الجِنْس أن يَحُلَّ محَلَّها (كُلٌّ) أي: كُلُّ إنسان، لكن المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعله عامًّا أريد به الخاصُّ لقرينة السِّياق، فإنَّ السِّياق يدلُّ على أنَّ المراد به الكافِرُ؛ لأنَّه لا يمكن أن يتأتَّى ما يدل عليه السِّياقُ من مؤمن.

قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ﴾ ﴿ضُرٌّ﴾: نكِرَةٌ في سياق الشَّرْط فتكون عامَّةً، أيَّ ضُرٍّ يكونُ؛ في بدنه، في أهله، في ماله، عام، خاص؛ أي ضرٍ يكون يدخل في قوله: ﴿ضُرٌّ﴾.

قوله: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾ ولم يقل: دعا الله، ففي هـذه الحال -أي في إصابة الضـر- عرف ربَّه وأنه لا مَلْجَأَ منه إلا إليه، فيدعو ربَّه معتقدًا أنه ربُّه يَمْلِك ما شاء ويتصَرَّفُ فيما شاء.

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [تَضَرَّع] يعني: فَسَّرَ دعا بمعنى تضَرَّع؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ [الأعراف:٥٥] والتَّضَرُّع هو الاستكانة والذُّلُّ أمام الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: ﴿مُنِيبًا﴾ راجعًا إليه، فإذا دعا ربه مُنيبًا إليه كَشَفَ الله ضُرَّه؛ لأنَّه عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٦٢].

وإجابة الله للمُضْطَرِّ تَشْمَلُ الكافر والمُسْلم؛ حتى الكافر الذي يعلم الله أنه سَيَكْفُرُ بعد زوال اضْطِرارِه يُجيبُ دعوته، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥].

فهو يعلم عَزَّوَجَلَّ أنَّهُم سيُشْرِكون بعد النَّجاة، ومع ذلك يجيبهم؛ لأنَّ رَحْمَتَه سبقت غَضَبَه، ففي حال الضَّرورة يَصْدُق لجوءُ الإنسانِ إلى ربِّه؛ لأنَّه يعلم أنه لا يَكْشِفُ الضُّرَّ إلا اللهُ؛ فإذا لجأ إلى ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنَّ رحمته سبقت غضبه، فيجيبه رحمةً به.

فهنا يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ إلى آخره؛ يعني كأنَّ هذا -والله أعلم- إشارة إلى أنَّه بعد أن تَغْمُرَه النِّعْمَة ويَسْتَمِر فيها وقتًا يُنَعَّم بها، بعد ذلك يَكْفُر.

وقوله: ﴿إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً﴾ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [إذا أَعْطاه] تفسير: لـ﴿خَوَّلَهُۥ﴾، [إنعامًا] تفسير لـ﴿نِعْمَةً﴾ أمَّا تفسير خوَّله بـ(أعطاه) فواضِحٌ، وأما تَفْسيرُ نِعْمةٍ بإنعامٍ فلا وَجْهَ له؛ لأنَّ المُعْطَى ليس الإنعامَ وإنما المُعْطَى النِّعْمَة، وعلى هذا فإبقاءُ الآية على ظاهرها أَوْلى مِمَّا ذهب إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

إذن: فأعطيناه إنعامًا لا يستقيم به الكلامُ؛ لأنَّ الإنعامَ فِعْل الله، والمُعْطى هو النِّعْمَةُ، وليس فِعْل الله، فإبقاءُ الآية على ظاهرها لا شَكَّ أنَّه هو الموافق للواقِع.

وقوله: ﴿إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾: (مِن) هنا للابتداء أي: نِعْمَةً صادرةً من الله عَزَّوَجَلَّ يتبيَّن بها أنها فضلٌ مَحْضٌ من الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نَسِىَ﴾ تَرَكَ ﴿مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ﴾ يتضَرَّعُ ﴿إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ وهو الله].

فانظر -يا أخي- كان يتضَرَّعُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ في أن يَكْشِفَ عنه الضُّرَّ، فلما كَشَفَ الله عنه الضُّرَّ وأعطاه نِعْمَةً زائدة على كَشْفِ الضُّرِّ ماذا تكون حالُه؟ قال تعالى: ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾.

قوله: ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ النِّسيانُ هنا بمعنى الغَفْلَة وليس المراد به: ذُهُولَ القَلْبِ وإنما المرادُ: الغَفْلَة المتَضَمِّنَة للتَّرْك، ومن ذلك قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤-٥] أي: غافلون عن صلاتِهم.

وقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ الضَّميرُ يعود على الله عَزَّوَجَلَّ، و﴿مَا﴾ تعود على الله؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فـ(ما) في موضع (مَن)].

(ما) في قوله: ﴿مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ﴾ في مَوْضِعِ (من)؛ يعني: مرادُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ (ما) بمعنى (من) أي: نَسِيَ من كان يدعو إليه من قبل، يعني مَن يُوجِّهُ الدُّعاء إليه، أو كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يتضَرَّعُ إليه] وهو الله عَزَّوَجَلَّ، فغَفَلَ، وكأنَّ الله ما أنعم عليه بِكَشْفِ الضُّرِّ وتَخْويلِهِ النِّعْمَةَ.

قوله: ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ الأندادُ لم يَغْفُلْ عنهم،

و(الواحِدُ القهَّار) غَفَلَ عنه ذلك الشَّخْصُ، والعياذ بالله! مع أنَّ الأنداد لم تَنْفَعْه ولم يتضرَّع إليها حين أصابه الضُّرُّ، ومع ذلك يُقْبِلُ عليها ويَدَعُ من أَنْعَمَ عليه.

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ شركاءَ، والأندادُ جَمْع: نِدٍّ، والنِّدُّ هو المُسَامِي لنِدِّه؛ المُماثِلِ له فيجعل لله أندادًا في العبادة، فيعبد هذه الأصنام كما يعبُدُ الله عَزَّوَجَلَّ، يَنْذِرُ لها كما يَنْذِر لله، يذبَحُ لها كما يذبح لله، وهكذا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِّيُضِلَّ﴾: بفتح الياء وضَمِّها ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ دين الإسلام].

قال تعالى: ﴿أَندَادًا لِّيُضِلَّ﴾ اللَّامُ هـذه إمَّا أن تكون للتَّعليـل، وإما أن تكون للعاقِبَة، فإن كانت على قراءة الفَتْح (لِيَضِلَّ) فاللَّامُ للعاقِبَة؛ يعني: جعل لله أندادًا أدَّتْ به إلى الضلال، وإن كانت بِضَمِّ الياء (لِيُضِلَّ) فاللام للتَّعليل؛ يعني: جعل لله أندادًا ليَقْتَدِيَ به النَّاسُ فيَضِلُّوا.

والآية فيها قراءتان: (لِيَضِلَّ) و﴿لِّيُضِلَّ﴾ فيَضِل تعود إلى نفسه، ويُضِل تعود إلى غيره، وهاتان القراءتان كلتاهما صحيحة، وكل واحدة تفيد معنًى يُكمِل معنى الأخرى، فهو يَضِلُّ بِنَفْسه، ويُضِلُّ غَيْرَه أيضًا.

فإن قال قائل: هل يمكن نقول: إنَّ قِراءة ﴿لِّيُضِلَّ﴾ أقربُ مِن قراءة (**لِيَضِلَّ**)؟

فالجواب: لا، لكن يمكن أن نقول: لا شكَّ أن يُضِلَّ متعدٍّ ضلالُه للغير، لكن إذا قلنا: إنَّه ضَلَّ أوَّلًا ثم أضَلَّ ثانيًا يكون مجموع القراءتين فيهما فائِدَةٌ لا تحصل بانفراد إحداهما.

ولام العاقبة تأتي في اللُّغَة العَربيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] فهل آلُ فرعون التقطوا موسى من أجل أن

يكون لهم عـدوًّا وحَـزَنًا؟ أبدًا؛ يقول: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾، لكن في العاقبة صار ﴿عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾.

وتأتي اللام أيضًا زائدةً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾ [الأحزاب:٣٣]؛ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ﴾ أي: أنْ يُذْهِبَ، وكما في قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ [النساء:٢٦]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ﴾ أي: أنْ يُبَيِّن، وإنما قالوا: إنَّها زائـدة لأنَّ كلمة (أراد) تتعدى بِنَفْسِـها لا باللَّام، ولا تصلح أن تكـون للتَّعليل؛ لأنَّ التعليل مستفادٌ من الإِرادَة، وعلى هذا فيعربونها على أنها زائِدَة.

فتبين أنَّ اللام التي تدخل على المضارع تكون زائدة، وتكون تعليلية -وهي الأكثر- وتكون للعاقِبَة.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾: ﴿سَبِيلِهِۦ﴾ أي: طريق الله المُوصِل إليه، هذه سبيل الله.

والسَّبيـلُ يضاف إلى الله تارةً كما في هذه الآية، وكما في آياتٍ أخرى كثيـرة، ويضاف إلى المَخْلوق؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨] فما هو الجمع بينهما؟ الجمع بينهما: أنَّه يُضاف إلى اللهِ باعتبار أنَّه هو الذي وَضَعَه وأنه مُوصِلٌ إليه، ويضاف إلى غير الله للمخلوق باعتبار أنه هو السَّالِكُ له، إذن فسبيلُ الله؛ يعني: هو الذي شرع هذا السبيل، ووَضَعَه للعباد، وهو يوصل إلى الله، سبيلُ الرَّسول ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨]؛ أي: طريقي الذي أَسْلُكُه.

ومثل ذلك يقال في الصراط: صراط الله؛ قال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٧] فصراط الله باعتبار أنه هو الذي وَضَعَه وأنه مُوصِل إليه و﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ باعتبارِ أنَّهُم هم الذين يَسْلُكونه.

وقوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دينِ الإِسْلامِ]، وهذا تفسيرٌ للكلمة بمرادها؛ لأنَّ التفسير للقرآن أحيانًا يكون تَفْسيرًا لفظيًّا، وأحيانًا يكون تفسيرًا معنويًّا:

التفسير اللَّفْظي: أنْ تُفَسِّرَ اللَّفْظة بمعناها.

والتفسير المعنوي: أنْ تُفَسِّرَ اللَّفْظَةَ بالمرادِ بها.

فمثلًا: دين الإسلام لا يُطابِقُ في المعنى اللَّفْظي السبيلَ؛ لأنَّ السَّبيلَ في اللغة الطَّريق؛ فلو قيل: فَسِّر (سَبيل)؛ تقول: يعني: طريق، لكن السَّبيل المراد به: دين الإسلام؛ لأنَّ دين الإسلام -وهو شرائع الإسلام- يُوصِل إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والذي وضعه هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن: المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّر السبيل هنا بالمعنى المرادِ؛ أي: إنَّ المرادَ بذلك كذا وكذا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دين الإسلام] واضِحٌ أنَّه هو سبيل الله؛ لأنَّ الله هو الذي شَرَعَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولأنَّ من سلكه أوصله إلى الله.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بقيَّةَ أَجَلِكَ] ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أعوذ بالله!.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ الخطابُ للرسول ﷺ، ويُحْتَمَل أن يكون الخِطابُ لكلِّ من يَصِحُّ خطابه؛ أي: قل أيُّها الإنسانُ لهذا الكافر أو لهذا الإنسانِ الموصوفِ بهذه الصفات: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾.

وقوله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ هذا أمْرٌ، لكنه ليس على ظاهِرِه، بل المراد بالأمر

هنا: التَّهديدُ؛ كقوله تعالى ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] ومعلومٌ أنَّ الإنسان ليس بالخيارِ بين الإيمان والكفر، لكن هذا من باب التَّهديدِ، فهنا ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ ليس معناه أننا نُبيحُ له أن يتمتَّع بالكُفْر، أو نأمره أن يتمَتَّع بالكفر، بل نهدِّدُه؛ فالأَمْرُ هنا للتَّهديد.

فإن قال قائل: ما الذي أخرجه عن المعنى الأصلي؟

فالجواب: أنَّه أخرجَه عن المعنى الأصلي: قرينَةُ السِّياقِ.

فقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي: اكْفُرْ وتَمَتَّع بالكفر؛ لأنَّ الكافر يتمتَّع بكفره تمتُّعَ البهائِمِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢].

فالكافر -والعياذ بالله- لا يُقيِّد نَفْسَه بعبادة؛ لا بصلاة، ولا زكاة، ولا صوم، ولا حج، ولا غير ذلك من العبادات، بل هو قد اتَّبعَ هواه وتَمَتَّع كما يتمتَّعُ الحمارُ؛ وفي النهاية قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢].

وما أسْرَعَ وصولَه إلى النار؛ لأنَّ الدنيا قليلٌ؛ أي: زمنٌ قليلٌ؛ مهما طال بك العُمُر، فإنه إذا وافاك الأَجَل كأنْ لم تَلْبَثْ إلا ساعَةً من نهارٍ، وإذا شِئْتَ تصديقَ هذا فاعْتَبِرْ ما مضى من عُمُرك بما بقي، اعتبر ما مضى، الآن كلنا يختلف سِنُّه عن الآخر، لكنْ كلُّنا كأننا ولادَةَ هذه السَّاعَة؛ يعني: كلُّ الذي مضى كأنه لم يَكُنْ، هكذا يكون بَقِيَّةُ العُمُر، مهما طال بالإنسان العُمُر؛ ولهذا قال: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ وإن طال بك العُمُر.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَقِيَّة أَجَلِك ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾] الجملة هذه مؤكَّدة بـ(إنَّ) يعني: ومهما تمتَّعْتَ فمآلُكَ إلى النار ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ وأصحاب النار إنما تُطْلَقُ على الذين يُخلَّدون فيها، فالمؤمِنُ العاصي وإن كان يَسْتَحِقُّ العذابَ بالنار، فإنه لا يُسَمَّى من أصحابِ النار؛ لأنَّ الأصل في الصُّحْبَة: طولُ المُلازَمَة، هذا الأصْلُ في الصحبة؛ طولُ المُلازَمَة، إلا في مسألة واحدة هي الصَّحابة مع الرَّسول ﷺ، فلو اجْتَمَع بالرَّسول ﷺ مُؤْمنًا به ولو لَحْظَةً صار من أصحابه.

يقول تعالى: ﴿ٱلنَّارِ﴾ هي الدار التي أعدها الله عَزَّوَجَلَّ للكافرينَ، وقد بيَّن الله تعالى في الكتاب، وبيَّن رسولُه ﷺ في السُّنَّة ما فيها من أنواع العذاب؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٣-٤٨].

أعوذ بالله! يُصَبُّ فوق رأسه من عذاب الحَميمِ؛ الماءِ الحارِّ الشَّديدِ الحَرارَةِ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] وهذا من باب التَّهكُّم به؛ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾. يعني: وأين عِزَّتُكَ وأين كَرَمُك في الدنيا؟! يرى نَفْسَه سيِّدًا شريفًا، ولكنه في الآخرة يُهانُ إلى هذه الإهانَةِ.

المهم: أنَّ أَنْواعَ العذابِ في النار شيء -والعياذ بالله- إذا تصوَّرَهُ الإنسان فإنه يتَبَيَّنُ له شِدَّةُ ما يلاقي هؤلاء من العُقُوبة الشَّديدَة؛ نعوذ بالله من النار.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الكافِرَ لا يعرف ربَّه إلا عند الضَّـرورة؛ لقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن عبادة الضَّرورة لا تنفع غالبًا أي إنَّ الإنسان إذا عَرَفَ ربَّه عند الضَّرورة فقط، فالغالب أنه لا ينتفع بهذه العِبادَة؛ لأنَّها ليست عبادةً عن رَغْبَة ولكنها عبادة من أجل إنجاءِ الإنسانِ من الهَلَكَة، وإن كان أحيانًا يَنْتَفِعُ ربما يكون هذا سببًا لفَتْحِ الله عليه، كما يوجَدُ الآن من النَّاس مثلًا من يصاب بمرض شديدٍ ويخاف منه الهلاك، فيُنيبُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ ويدعو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ثم يَمُنُّ الله عليه بالاستمرار، لكنَّ الغالِبَ أنَّ التعبُّد ضرورةً لا يُفيدُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الكافِرَ يُؤْمِنُ بالله، وأن إيمـانه بالله لا يُخْرِجُه من الكفـر؛ لقوله: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾ فالإيمانُ بالله وبربوبيته لا يكفي ولا يُخْرِجُ الإنسانَ من الكفر. ودليل ذلك: أنَّ المشركينَ الذين بُعِثَ فيهم رسولُ الله ﷺ كانوا يُقِرُّون بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩].

يعني: يُقِرُّون بأنَّ الذي خَلَقَهُم هو الله ويَصِفُونَه بالصِّفات الكامِلَة، ومع ذلك فهم كفَّار استباحَ النَّبيُّ ﷺ دماءهم ونساءهم وأموالَهُم وذُرِّيَّتَهم.

وبه نعرف أن من قال عن النصارى: إنَّهُم مؤمنون، فهو جاهل، بل إن كان عالِمًا بما يدلُّ عليه الشَّرْعُ مِنْ كُفْرِهِم فهو مُرْتَدٌّ؛ لأنَّ من حكم بالإيمانِ لِمَن كَفَّرَهُ الله، فإنَّه مُرْتَدٌّ مُكَذِّبٌ لله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك من قال عن اليهود: إنَّهم مؤمنون بالله؛ فإن

هذا الكلام صادِرٌ إما عن جهل وإما عن رِدَّةٍ، والعياذ بالله.

فإذا قال: إنَّهم يؤمنون بالله يقولون: الله عَزَّوَجَلَّ هو الكاشِفُ للضُّـرِّ، وهو المدبِّر للأمور!.

قلنا: هذا لا يَنْفَعُهُم، ولهذا تجد عند العامَّة لَمَّا التبس عليهم هذا الأمْرُ تجدهم إذا قيل لهم: إنَّ تارِكَ الصَّلَاةِ كافِرٌ، قالوا: كيف يكون كافِرًا وهو يشهد أنْ لا إله إلا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، فأين الكُفْرُ؟

فيقال: ليس كلُّ من شَهِدَ بهذا يكون مُؤْمنًا، فالمنافقون يأتون إلى رسولِ الله ﷺ يقولون: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ ويؤكِّدونَ هـذا، فيؤكِّدُ الله عَزَّوَجَلَّ كَـذِبَهُم، فيقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١]؛ فهم وإن شهدوا بألسنتهم فهم كاذبون بقلوبِهِم.

وعلى كلِّ حال: هذه الآيَةُ تدلُّ على أنَّ مُجَرَّد اعتراف الإنسان بالرَّبِّ لا يُخْرِجُه عن الكفر.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يجيب دعـوة المُضْطَرِّ، ولو كان كافرًا؛ لقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾.

فإن قال قائِلٌ: كيف يجيب الله دَعْوَتَهُ وهو كافر؟

قلنا: هذا من آثار سَبْقِ رَحْمَتِه لِغَضَبه؛ فإنَّ رَحْمَتَه سبقت غضبه، فالكفر موجِبٌ للغضب، والضَّرورة موجبةٌ للرَّحْمة، فتَسْبِقُ الرَّحمةُ الغضبَ، فيجيبه الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا كإجابَةِ المظلومِ ولو كان كافرًا، المظلومُ تُجابُ دَعْوَتُه ولو كان كافرًا إقامةً للعَدْلِ، وانتصارًا للحق؛ قال النَّبيُّ ﷺ لمعاذِ بْنِ جَبَلٍ: «**اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا**

وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[(١)].

إذن: فهذان شَخْصانِ تُجابُ دَعْوَتُهما مع الكفر؛ هما: المظلوم، ومَن وَقَعَ في ضرورة، إذا دَعَوَا الله، فأما إجابةُ المظلوم فمن أجل العدل والانتصارِ للحَقِّ، وأما إجابة المضطر فلأَنَّ المُضْطَرَّ اجتمع في حَقِّهِ سببانِ:

سببٌ موجبٌ للرَّحْمة وهو الضَّرورة، وسببٌ موجِبٌ للغَضَبِ والانتقامِ وهو الكفر، ورَحْمَة الله تعالى قد سَبَقَتْ غَضَبَه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ النِّعْمَةَ مَحْضُ فضلٍ من الله؛ لقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةً﴾ لأنَّها لا يمكن أن تكون مكافأةً عن عمل، فإنَّ الإنسان لو حُوسِبَ على عمله محاسبةً دقيقةً لكان عَمَلُه لا يقابِلُ واحدًا من ملايينَ مِن نِعَمِ الله عَزَّوَجَلَّ، فيَخْرُج مغلوبًا، بل إنَّ بعض العلماء رَحِمَهُمُاللَّهُ يقولون: إنَّ العَمْلَ الصَّالِحَ من نِعْمَةِ الله؛ فنَفْسُ العَمَلِ من النِّعْمَة، فإذا شكر العَمَل صار الشُّكْرُ نِعْمَةً، وإن شَكر فالشُّكْرُ صار نِعْمَةً أخرى، وعلى هذا قول الشاعر:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ العُمْرُ[(٢)]

لأَنَّك إذا أَنْعَم الله عليك نِعْمَةً ثم شَكَرْتَه فشُكْرُك إياه نِعْمَة، ثم إنْ شَكَرْتَه على الشُّكْر فهو نِعْمَة أخرى وهُلَمَّ جَرًّا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) البيت لمحمود بن الحسن الوراق، انظر: الفاضل للمبرد (ص٩٥)، والصناعتين لأبي هلال العسكري (ص٢٣٢).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الكافِـرَ -وإن شئت فقُلِ الإنسـان- ينسى النِّعْمَةَ؛ فإذا أنعم الله عليه نِعْمَةً بعد ضَرُورَةٍ نسي، ثم عاد إلى غَيِّهِ، وهذا خطير جدًّا على الإنسان، وهذا واقِعُ الإنسان: أنَّ الله إذا أنعم عليه نِعْمَة بإنجائِهِ من ضَرورَةٍ نَسِيَ ذلك ثم عاد إلى غَيِّه، وهذا يقع؛ فنَجِدُ الأحداث الآن تَمُرُّ بالنَّاس، فيمكن في حالِ حُلولِ هذه الأحداث أن يكون لهم رَجْعَةٌ بعضَ الشَّيْء، ولكن إذا زالت الضَّرورة عادوا إلى ما كانوا عليه من قَبْلُ، بل ربما يَحْمِلُهم الأَشَرُ والبَطَرُ على أن يزيدوا في غَيِّهم.

وهذا له خُطُورَتُه؛ فإن الله تعالى ذكر في القرآن: أنَّ الإنسانَ إذا عاد إلى غَيِّه بعد إنقاذه من الهلاك، فإن الله يُصيبُه بعذابٍ أَشَدَّ من الأَوَّل.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الكافر يعود إلى كُفْـرِه ولا يذكر ما دعا اللهَ إليه من قبل، وهو: إنقاذه من الضَّـرورة؛ لقوله تعالى: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا نِدَّ له؛ لأنَّ الله أنكر على من جعلوا له أندادًا، فيكون في هذا ردٌّ على أَهْلِ التَّمْثيل الذين أثبتوا لله الصِّفاتِ مع التَّمْثيل، فقالوا: إنَّ الله تعالى له وَجْهٌ كوجوهنا، ويدٌ كأيدينا، وعينٌ كأعْيُنِنا، وساقٌ كسُوقِنا، وهكذا!

ونقول: كلامُكُم هذا كذِبٌ، وأنتم وأهلُ التَّعْطيلِ سواءٌ؛ لأنَّكم أنتم عطَّلْتُم النَّصَّ عن مدلوله الصَّحيحِ؛ إذ إنَّ مدلولَ النُّصوص في صفات الله: صفاتٌ لائِقَةٌ لله عَزَّوَجَلَّ، فإذا جعلتموها للتَّمثيل حرَّفْتُموها، ونقول: هذا الفعل منكم تعطيل في الحقيقَةِ لمدلول النَّصِّ الصَّحيحِ؛ لأنَّ مدلول النَّصِّ فيما يتعلق بالصفات صفاتٌ لائِقةٌ بالله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن هؤلاء الكفَّار يَحْرِصون على أن يَضِلَّ النَّاسُ بِفِعْلِهِم؛ لقوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ على قراءةِ الضَّمِّ في قوله: ﴿لِّيُضِلَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنه كما يكون الاقتداءُ بالقَوْل يكون الاقتداءُ بالفِعْل؛ لأنَّ هذا الكافر جعل لله أندادًا، وكان جَعْلُه للأنداد سببًا لضَلالِ غَيْره.

ويتفرَّع على هذا فائِدَة: وهي: تَحْذيرُ الإنسان -ولا سيما القُدْوَة- من المخالفة؛ لأنَّ النَّاس سوف يَقْتَدون به ويَحْتَجُّون بِفِعْلِه؛ فمثلًا طالِبُ العِلْم: إذا قام إلى الصَّلاة يُكْثِر الحَرَكَة، فمرةً يَحُكُّ رَأْسَه، ومرةً يَحُكُّ ظَهْرَه، ومرةً يَحُكُّ بَطْنَه، ومرةً يَعْرُكُ عَيْنَه، ومرةً يَنْظُر ساعَتَه، ومرةً يكتب ما تذَكَّرَ في صلاتِهِ؛ إذا كان هذا طالِبَ العلم ويفعل هذا الشَّيْء؛ فإن النَّاس سوف يقتدون به، ولو أُنْكِرَ على واحِدٍ من النَّاس كَثْرَةُ الحَرَكَة لقال: فلان يَفْعل.

ولهذا أحيانًا نُنْكِرُ على بعضِ النَّاس المعامَلاتِ الرِّبَوِيَّةَ التَّحَيُّلِيَّةَ، فيقولون: فلان يفعل كذا، ممن هو من طَلَبَة العلم؛ فالنَّاس يَحْتَجُّون، وهذه الآية تدل على أنَّ الاقتداءَ يكون بالفعل؛ لقوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ولم يقل: ودعا النَّاس ليُضِلُّوا عن سبيل الله، بل جعل فِعْلَه سببًا لضلال النَّاس، وهذا يدلُّ على الاقتداء بالفِعْل كالقَوْل.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: وأما على قراءة الفَتْحِ: (**لِيَضِلَّ**) فيؤخذ منه فائِدَة، وهي: أنَّ جَعْلَ الأندادِ لله ضلالٌ؛ لقوله: (**لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ**).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: تهديد هؤلاء الكفَّار الذين اتَّخذوا من دون الله الأنداد؛ تؤخَذُ من قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾، وقد بيَّنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صِفَةَ هذا التَّمتُّع فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ [محمد:١٢] البهائِمُ ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الدنيا مهما طالَتْ فهي قليلة ولا تُنْسَب للآخرة؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤]؛ ويقـول للعمـوم: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى:١٧]؛ وقال النَّبي ﷺ: «**لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[1] (السَّوْطُ): عصًا قَصيرة؛ (خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وما فيها) من الدنيا؛ أي: الدنيا كلُّها منذ النشأة إلى قيامِ الساعة بمـا فيها من الزخارف واللَّهْوِ والزِّينَة؛ ولهذا قال: تمتَّعْ قليلًا؛ فهذه المتعة للكافِرِ، وإن كان ينال شَهْوَتَه هي قليلةٌ زمنًا، وقليلةٌ كَمِّيَّةً، وقليلةٌ كَيْفِيَّةً.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الكُفَّار ملازمون للنار لا يخرجـون منها؛ لقوله: ﴿أَصْحَابِ النَّارِ﴾ لأنَّ الصاحِبَ هو المُلازِمُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: مُخاطَبَة الإنسان بما يليق بحالِهِ، فهذا الكافر المعانِدُ الذي بدَّلَ نِعْمَةَ الله كُفْرًا يخاطَبُ بهذا الخطاب القاسي، وهو: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ بينمـا لو كانت المسألَةُ مسألَةَ دَعْـوَةٍ ما قابلناه هذه المقابَلَة، فلا نقول لمن ندعوه للإسلام: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ لكنْ نَقُولُهُ لمن عانَدَ وكابَرَ وبدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ النار؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، ويجب علينا في إثبات النار شيئان:

الأول: إثباتُ وُجُودِها الآن، وأنها موجودة، فإن النَّبي ﷺ عُرِضَتْ عليه الجنة

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعُرِضَتْ عليه النَّار في صلاة الكُسُوفِ(١) وشاهدها، ورأى من يُعَذَّب فيها، رأى فيها امرأةً تُعَذَّب بِهِرَّةٍ حَبَسَتْها حتى ماتَتْ، ورأى فيها صاحِبَ الْمِحْجَنِ، والْمِحْجَن عندنا في اللُّغَة العامِّيَّة (مِحْجان) عَصًا مَحْنِيَّة الرأس، هذا الرجل يَمُرُّ بالحُجَّاج فيَشْبِك متاعَ الحَاجِّ برأسِ المِحْجَنِ، فإن تفطَّنَ له صاحب المتاع؛ قال: والله، هذا المِحْجَنُ أَمْسَكَ به، وإن لم يَتَفَطَّنْ له أخذه، فرآه النَّبي ﷺ يُعَذَّبُ في النار بِمِحْجَنِه، وهو يصلي صلاةَ الكُسُوف، ثم تأَخَّرَ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، تأخر مخافَةَ أن يُصيبَه من لَفْحِ النار، إذن: فرُؤْيَتُه إيَّاها حِسِّيَّة؛ هذا واحد.

الشَّيْء الثاني: يجب أن نُؤْمِنَ بأنَّ النار مُؤَبَّدَةٌ أَبَدَ الآبدينَ يُعَذَّبُ فيها أهلُها، ما هم عنها بمُخْرَجِينَ، وهي مؤبدة دائمًا؛ لأنَّ الله تعالى ذكر تأبيدها في ثلاثَةِ مواضِعَ من القرآن:

الموضِعُ الأول: في سورة النساء؛ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:١٦٩].

والموضع الثاني: في سورة الأحزابِ، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

والموضع الثالث: في سورة الجِنِّ؛ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، رقم (٩٠٤)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وبعد هذا لا يمكن أن نَقْبَلَ قولًا من أي عالِـمٍ كان بأنَّ النَّار غير مُؤَبَّدَة، ولا نقابل هذا النَّصَّ الصَّريحَ بقياساتٍ؛ لأنَّ قوله تعالى: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»(١) هذا صحيحٌ نَصٌّ مُحْكَمٌ وخَبَرٌ صادِقٌ، لكن الخَبَر يجوز تخصيصُه، فنقول: أَهْلُ النار ليسوا أهلًا للرَّحْمَة، وعقوبة الله إيَّاهم على التَّأبيد هي من كمال العَدْلِ والحِكْمَة، فكما أَمْضَوْا أعمـارَهُم بالكُفْر، كل الدنيا أَفْنَوْها بالكُفْر، فالآخِرَة أيضًا تَذْهَـبُ عليهم بالجزاء والعُقُوبة، هذا هو العَدْل، وهذه الحِكْمَة.

ونقول: عمرك في الدنيا كُلُّه مضى في الكُفْر.

إذن: فحياتُكَ في الآخِرَة تمضي بالجزاء والعُقُوبَة، لا حياةَ لك في الآخِرَة، كما أنه لم يَكُنْ لك حياةٌ في الدنيا؛ طاعَةُ الله.

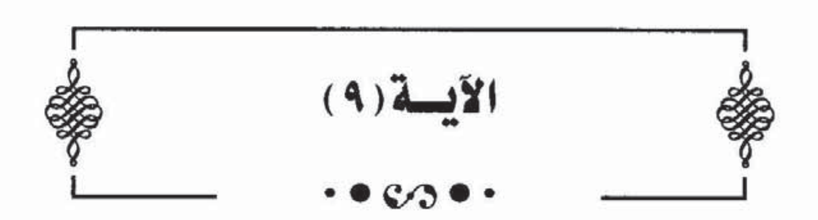
مسألة: ما قيل عن شَيْخِ الإسلام أنه قال بفناءِ النَّارِ ليس بصحيحٍ؛ ولْنَفْرِضْ أنَّ الذي قال بِفَنَاءِ النار -وحاشاه من ذلك- أبو بَكْرٍ، وهو أَفْضَلُ من شيخ الإسلام أَلْفَ مَرَّةٍ؛ هل نقبله مع وجود الآيات؟

لا نقبله؛ فإذا وَجَدْنا قولًا مُخالِفًا للكتاب والسُّنَّة من أي قائلٍ به، فإنَّ مَوْقِفَنا أن نَعْتَذِرَ عنه، لا أن نَجْعَلَ قَوْلَه حُجَّة على كلام الله ورسوله، مهما كان؛ فليس هناك أحدٌ مَعْصومًا من الخطأ أبدًا إلا من عَصَمَه الله عَزَّوَجَلَّ كالرُّسُل.

• • ❁ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، رقم (٧٤٥٣)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، رقم (٢٧٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٩].

•• ∞ ••

وقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(أَمَنْ) بتخفيف الميم] أمَنْ، وعلى هذا فتكون الكلمة مركَّبَة من همزة الاستفهام ومِنْ (مَنْ) الموصولة؛ أي آلَّذي هو قانت... إلى آخره.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هُوَ قَٰنِتٌ﴾ قائمٌ بوظائِفِ الطَّاعاتِ] القنوت يُطْلَقُ على معانٍ متعَدِّدة:

١- منها الخشوع؛ كقوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨].

٢- ومنها الدُّعاء: الدُّعاء في الوِتْر أو الفرائض عند النوازل.

٣- ومنها: دوامُ الطَّاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢].

والمثال الأول: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨] أي: خاشعين؛ ولهذا لما نزلت هذه الآية أُمِرَ الصَّحابَةُ بالسُّكُوتِ ونُهُوا عن الكلام؛ فهنا ﴿قَٰنِتٌ﴾ من معنى: دوام الطَّاعة ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قائمٌ بوظائِفِ الطَّاعاتِ] يعني: مديمٌ لها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ ساعاتِهِ]؛ وقوله: [﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ في الصَّلَاة] نَعَم؛ ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ نصَّ على السجود وعلى القيام دون الرُّكوع والقعود؛ لأنَّ السُّجودَ شريفٌ بِهَيْئَتِه، والقيامُ شريفٌ بذِكْرِهِ؛ فالسُّجُود شريفٌ بهيئَتِه؛ لأنَّ أَفْضَلَ هَيْئَةٍ للمُصَلِّي أن يكون ساجدًا، ولهذا قال ﷺ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ لِرَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**»(١)، والقيامُ شريفٌ بذِكْرِهِ، فالقرآنُ كلام الله، وكلام الله تعالى أَشْرَفُ الكلام؛ فلهذا نَصَّ على هذين الرُّكْنَيْنِ من أركان الصلاة: القيام، والسجود.

وكان الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا سجد يُسْمَعُ لصَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ المِرْجَلِ(٢)؛ أي القِدْرِ الذي يَغْلي.

وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا قام لا يَمُرُّ بآية رحمةٍ إلا سألَ، ولا بآية وَعيدٍ إلا تَعَوَّذ، ولا بآية تسبيحٍ إلَّا سَبَّح(٣).

وهذا يدلُّ على أنَّ القائِمَ في اللَّيل ينبغي له أن يلاحِظَ هذا، يلاحظ قوة الخُشُوع في حال السُّجود والبكاء، ويلاحِظُ أيضًا حُضُور القلب أثناء القراءة ليتابع إذا مَرَّ بآية رحمةٍ سألَ، وبآية وعيدٍ تعوَّذ، وبآية تسبيح سبَّح قائمًا وقاعدًا ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي: يخافُ عذابَها، ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ﴾ جَنَّةَ ﴿رَبِّهِۦ﴾] فهنا قوله: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ هذه حال؛ أي: حالَ كونه يحذر الآخِرَة، وحالُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٥)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب البكاء في الصلاة، رقم (٩٠٤)، والنسائي: كتاب السهو، باب البكاء في الصلاة، رقم (١٢١٤)، من حديث عبد الله بن الشخير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. ولم يرد تخصيص السجود إلا في رواية النسائي في السنن الكبرى رقم (٥٥٠).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢)، من حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

مقارِنَةٌ لقوله: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ يعني: حالَ كَوْنِه في سجـوده وقيامه يَحْذَرُ الآخرة؛ أي: يخافها، وليس: يخاف وقوعها؛ لأنَّ وقوعَها لا بدَّ، لكن يخاف عذابَها؛ أي: يخاف أن يُعَذَّب.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَنَّةَ ﴿رَبِّهِۦ﴾] ولا شكَّ أنَّ الرحمة يُراد بها الجَنَّة، كما قال الله تعالى للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1]؛ ولكن يُرادُ بالرَّحْمَة معنًى آخرُ، وهو: فِعْلُ الله بالعبد؛ أي رحمته للعبد، والأَوْلَى في هذه الآية أن نقول: يرجو أن يَرْحَمَه الله، ويكون المراد بالرحمة هنا: رَحْمَة الله التي هي فِعْلُه، يعني يرجو أن يَرْحَمَه الله بالأمرين: بالنَّجاة من النار وبِدُخُول الجَنَّة، وهذا المعنى أحْسَنُ؛ لأنَّ المتبادِرَ في الغالـب لمعنى الرَّحْمة أن تكون فِعْلَ الله، يعني أنَّ الله يَرْحَمُكَ، وأيضًا إذا قلنا: رَحْمَةَ الله صار يرجو أن يَنْجُوَ من النَّار أو من عذاب الآخرة، وأن يفوز بالجنَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كَمَنْ هُوْ عاصٍ بالْكُفْرِ أو غَيْرِهِ] أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا التقدير أنَّ الآيَةَ يُبيِّنُ الله فيها أنه لا يستوي هذا وهذا، هل يستوي من هو قانتٌ آناءَ اللَّيل ساجدًا وقائمًا كَمَنْ هو عاصٍ بالكُفْرِ وغيره؟

الجواب: لا، وهذا من بلاغَةِ القرآن؛ فالقرآنُ فيه أشياءُ كثيرةٌ تُحذَفُ لدَلالَةِ المذكور على المحذوفِ، وهذا من البلاغة؛ لأنَّه إذا حُذِفَ الشَّيْءُ استفاد المخاطَـبُ فائدتينِ:

الفائِدَة الأولى: اختصارُ الكلام، وهذا واضِحٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الفائِدَة الثانية: قوَّةُ الانتباه؛ لأنَّ الآية إذا كان فيها شيءٌ محْذوف، فإن الذِّهْنَ يتطَلَّعُ إلى هذا الشَّيْء المحْذوفِ، فتَجِدُ الإنسانَ يَتَوَقَّف ليُفَكِّرَ ويتأمَّل: ما الذي حُذِفَ وما تقديره؟

لكن لو جاء الكلام مُرْسَلًا هكذا لم يحصل له هذا التَّوَقُّف وهذا التَّفكير، فأنت الآن لو قَرَأْتَ الآية الكريمة: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ﴾ [الزُّمَر:٩] لوَجَدْتَ نفسك متشوِّقًا إلى شيء آخر، فالكلام ما تَمَّ، ولا بدَّ أنَّ هناك شيئًا آخَرَ، وحينئذٍ يشتَدُّ انتباهُكَ، وتزدادُ تأمُّلًا في المعنى؛ ولأنَّ هذا المحذوفَ لا بدَّ منه، فالإنسانُ يتطلَّع: ما هذا المحذوفُ؟ فالكلامُ الآن ناقص.

بمعنى أنَّ الكلام يحتاجُ إلى شيء، فيتطَلَّع الإنسان إلى مَعْرِفَة هذا الشَّيْء، وحينئذٍ يزدادُ في التَّدَبُّر، فهذا من بلاغة القرآن؛ أعني: يَحْذِفُ الله عَزَّوَجَلَّ أحيانًا أشياءَ يَحْتاجُ المخاطَبُ إليها؛ من أجل هاتين الفائدتين.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وفي قراءة: أَمْ مَنْ] من اصطلاح المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أنه إذا قال: [في قراءَةٍ] أو قال: [بِفَتْحِ كذا وضَمِّ كذا] أو قال: [بالتاء والياء]، فإن القراءة سَبْعِيَّة، وأحيانًا يُعَبِّر فيقول: [وقُرِئَ] فالقراءة شاذَّة غيرُ سَبْعِيَّة.

فإذا أتى بقراءتينِ مُتَساوِيَتَيْنِ مثلًا يقول: [في قراءةٍ] أو: بالضم والفتح أو بالياء والتاء، وما أشبه ذلك من القراءات، فالقراءة سبعية، أما إذا قال: [وقُرِئ] بصيغة المبني للمَجْهول فالقراءة شاذَّة.

بناءً على هذه القاعدة: تكون القراءة (أَمْ مَنْ) سبعية؛ لأنَّه قال: [وفي قراءةٍ:

(أَمْ مَنْ) فأمْ بمعنى بل والهمزة] قوله: [بمعنى بل والهمزة] أي بَلْ أَمَنْ هو قانتٌ آناء اللَّيل، فتكون للإضراب، والإضرابُ هنا انتقالي.

والفرق بين الإضراب الانتقالي والإضرابِ الإبطاليِّ: أنَّه في الإضرابِ الإبطالي يكون الأَوَّل مُلْغًى، والعمدة على الثاني.

وأمَّا في الانتقالي: فالأوَّل باقٍ على ما هو عليه، والثاني استئنافيٌّ، لا علاقة له بالأول. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد، أو قل يا من يَصِحُّ منه الخطاب: هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؛ استفهامٌ بمعنى النفي ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الجواب: لا، لا يستوي الذين يَعْلَمونَ والذين لا يَعْلَمون، وهذا عامٌّ في كُلِّ عِلْم؛ فلا يستوي العالِمِ والجاهِلُ، حتى في علم النِّجارة والحِدَادة والكيمياء وغيرها، لا يستوي الذي يعلم والذي لا يعلم، لكن هذا لا يقتضي أن يكون العالِمُ مَمْدُوحًا؛ لأنَّ من العُلُوم ما جَهْلُهُ خَيْرٌ مِنْ عِلْمِهِ، فإذا كان العلم مذمومًا وقلنا: لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون. صار غيرُ العالِمِ أَفْضَلَ، وإذا كان العِلْمُ ممدوحًا وقلنا: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ صار العالِمُ أفضَلَ.

وإذا جاءت هذه الجُمْلة في علم الشَّريعَةِ فالعالِمِ أفضل، وفي علم النَّحْو العالِمِ أفضل؛ أما في علم الكلام فالجاهِلُ أفضل!

كما قال بعض السلف: «الجَهْلُ بالكَلَامِ عِلْمٌ» لأنَّ عِلْمَ الكلام أدى بأصحابه إلى مهالِكَ؛ حتى إن فطاحِلَ عُلَمائِهِم يتمَنَّون وهم في سياقِ الموت أنَّهُم ماتوا على دينِ العجائِزِ، ودِينُ العجائِزِ أَسْلَمُ، وإن كان جَهْلًا ولكنه أسلم من علمٍ يؤدِّي بهم -والله أعلم- إلى الشَّكِّ والحَيْرة.

فقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه من الآيات القليلة اللَّفْظِ الكثيرةِ المعنى؛ لأنَّه يمكن أن تُطَبِّقَها على كلِّ عِلْم، لكن هل هذا العلم مَحْمودٌ أو مذموم؛ فعلى حَسَبِ الحال؛ أي لا يستويانِ كما لا يستوي العالم والجاهل.

وفي حاشية الجمل: «قوله: بتخفيف الميم؛ أي: فالهمزة للاستفهام الإنكاري، كما سيشير له بقوله: أي لا يستويان، وما: اسم موصول بمعنى الذي؛ مبتدأٌ في محلِّ رفعٍ، خبره محذوف قدَّرَهُ بقوله: كمن هو عاصٍ، وقوله: ﴿هُوَ قَـٰنِتٌ﴾ جُمْلَة اسْمِيَّة صلة الموصول، وقوله: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ حالان من قانت، وقوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ حالٌ أخرى متداخِلَة أو مترادِفَة، أو جملة استئنافِيَّة معترضة.

وقوله: [بمعنى بل]؛ أي: التي للإضراب الانتقاليِّ، والهمزة؛ أي: التي للاستفهام الإنكاريِّ، وعلى هذه القراءة تُرْسَمُ الميم في النون كرَسْمِها على قراءة التخفيف، وهذا اتِّباعًا لخطِّ مُصْحَفِ الإمام كما يؤخذ من الجَزَرِيَّة[1] وشَرْحِها لشيخ الإسلام، وهذا بالنَّظَرِ لرَسْمِ المصحف، وأما في غيره فتُرْسَمُ ميمًا مفصولةً من ميم (مَنْ) كما في عبارة الشَّارِحِ، و(من) على هذه القراءة مُبتدأٌ أيضًا، والخبر مُقَدَّرٌ كما تقدَّمَ في الإعراب بِعَيْنِه على القراءتين لم يختلف، وقوله: لا يستويان. أي: القانتُ والعاصي، فهذا تفسيرٌ للنَّفْي المستفاد من همزة الإنكارِ في قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ﴾ سواء مُصَرَّح بها على القراءة بها والتي في ضِمْنِ أم على الثانية، وقوله: كما لا يستوي العالم والجاهل تفسيرٌ لقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ إلى آخره، فالاستفهام فيه أيضًا إنكاري». انتهى.

---

(١) المقدمة الجزرية (ص١٩).

وعبارة السَّميـنِ: «قوله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ﴾ قرأ الحَرميَّان: نافعٌ وابنُ كثير بتخفيفِ الميم، والباقون بتشديدها.

فأمَّا الأُولى ففيها وجهان:

أحدهما: أنَّها همزةُ الاستفهامِ دَخَلَتْ على (مَنْ) بمعنى الذي، والاستفهامُ للتقريرِ، ومقابِلُه محذوفٌ، تقديرُه: أَمَنْ هو قانتٌ كمَنْ جعل لله أندادًا، أو أَمَنْ هو قانِتٌ كغيرِه، أو التقدير: أهذا القانِتُ خيرٌ أم الكافرُ المخاطَبُ بقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ ويَدُلُّ عليه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فحَذَفَ خَبَرَ المبتدأِ أو ما يعادل المُسْتَفْهَم عنه، والتقدير أنَّ الأَوَّلانِ أَوْلَى لقِلَّةِ الحَذْفِ.

والثاني: أنْ تكونَ الهَمْزَةُ للنِّداء، و(منْ) منادى، ويكون المنادى هو النَّبِيَّ ﷺ، وهو المأمور بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كأنه قيل: يا مَنْ هو قانتٌ، قل كَيْتَ وكَيْتَ.

وأمَّا القراءة الثانية فهي (أم) داخلةً على (مَنْ) الموصولة أيضًا فأُدْغِمَتِ الميمُ في الميم، وفي (أم) حينئذٍ قولان:

أحدهما: أنَّها متصلةٌ، ومعادِلُها محذوفٌ، تقديرُه: آلكافِرُ خيرٌ أمِ الذي هو قانِتٌ.

والثاني: أنَّها منقطعةٌ فتُقدَّرُ بـ بل والهمزةِ؛ أي: بل أَمَنْ هو قانِتٌ كغيرِه أو كالكافِرِ المقولِ له:﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾». انتهى[1].

فتبَيَّن لنا أن قوله: (لا يستويان) أي: القانت والكافر كما لا يستوي العالِم

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (٩/ ٤١٤-٤١٦).

والجاهل، فيكون قوله: (لا يستويان) ليس عائدًا على قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بل عائدٌ على ما سبقه، وهو ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ كمن هو عاصٍ لا يستويان، كما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

قوله تعالى: ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ يعني ساعاتِ اللَّيلِ لأنَّه أحيانًا يُطْلَبُ من الإنسان أن يقومَ كُلَّ اللَّيل كما في عَشْرِ رمضان الأخيرة، فإن السُّنَّة أن يُحْيِيَ اللَّيل كلَّه، فلو قال: (في) لتعَيَّنَ أن يكون هناك متَّسَعٌ، فإذا قال: ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ شَمِلَ هذا وهذا.

فإن قال قائل: أما نقول: إنَّه من باب الاستعدادِ للعبادَةِ، كما لو نام بِنِيَّةِ قيامِ اللَّيل، يكون داخلًا فيه؟

فالجواب: ربما يكون، لكنْ في بعض الأحيان قد يعمل أعمالًا لا يَسْتَعِدُّ بها للعبادة، ولهذا ليس من المَشْروعِ أن يقوم الإنسانُ اللَّيلَ كلَّه في كلِّ أحيانه، لكن أحيانًا.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ إنما: أداة حصرٍ، والحَصْر هو إثبات الحُكْمِ في المَحْصور فيه ونَفْيُه عما سواه، فإذا قيل: إنَّما القائِمُ زيدٌ، فهو كقولنا: لا قائِمَ إلا زيدٌ.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يتَّعِظُ].

قوله: ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أصحابُ العقول، أصحاب تفسير لـ﴿أُولُوا﴾، والعقول تفسير للألباب؛ جمع لُبٍّ: وهو العقل؛ لأنَّ الإنسانَ بلا عقلٍ قُشُورٌ، ولا يكون إنسانًا حقيقةً إلا بالعَقْل، وعلى هذا فالكُفَّار بجميع أنواعهم قُشُورٌ لا خير فيهم؛ لأنَّهُم ليسوا بعُقَلَاء، كما قال الله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

والعقل الذي يُحْمَدُ فاعله هو عَقْلُ الرُّشْد -أي الذي يَحْجِزُك عما يضُرُّك-، أما عَقْل الإدراك فإنه يستوي فيه المَحْمُود والمَذْموم، عقل الإدراك الذي يترتب عليه التَّكليف، وهو الذي يأتي في كلام الفقهاء؛ يقولون: (مِنْ شروط العبادة: العَقْل) يعني عَقْل الإدراك، أما عَقْلُ الرُّشد الذي يَحْجِز صاحبه عما يضُرُّه، فهذا لا علاقة بالتَّكليف به، بل إنما يقال: مَنْ حَجَزَهُ عَقْلُهُ عَمَّا يَضُرُّه فهو العاقِلُ حقًّا، ومَنْ لا فَلَا.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: لا يتذَكَّرُ إلا هؤلاء.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ القرآنَ الكريمَ يَفْتَحُ للإنسان الاستدلالَ العقليَّ؛ يعني أنه يعرض الأشياء عَرْضًا عقليًّا، وذلك بطلب التَّدَبُّر والتَّفهُّم؛ فمثلًا: من هو قانت ومن هو عاصٍ، بكل بساطَةٍ إذا عُرِضَت حال هذا وحال هذا على العقل سيقول: لا يَسْتويان؛ من هو قانِتٌ آناء اللَّيل ليس كَمَنْ هو عاصٍ.

وهذه من الطُّرُق التي ينبغي لطالب العلم -عند المناظرة- أن يتَّخِذَها سبيلًا إلى إفحام الخَصْم؛ لأنَّ كثيرًا من الخُصُوم قد لا يقْتَنِعون بمجَرَّد الدليل الأَثَرِيِّ فنسوق إليهم الدَّليلَ النَّظرِيَّ، ولا سيما في الوقت الحاضِر؛ حيث اتَّخَذ كثيرٌ من النَّاس -إن لم أقل: أكثرهم- طريق إبليسَ سبيلًا، وهو معارضة السمع بما يَظُنُّه عقلًا؛ يعني معارضة النُّصوص بما يظنُّون أنه عقل.

ونحن نعلم علم اليقين: أنَّه ليس في النُّصوصِ ما يخالِفُ العَقْل الصَّريحَ أبدًا، بل في النُّصوص ما يؤَيِّده العقل الصَّريح، ويكون هذا شاهِدًا؛ لهذا كلٌّ منهما يقوَّى بالآخَرِ.

وقد ذكر ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في النُّونِيَّة[١]: أنَّ لدَيْنا أربعَةَ أدِلَّة، كلُّها يشهد بعضها لبعض، هي: الكتابُ والسُّنَّة والعَقْل والفِطْرة. وهذه الأدلة الأربعة لا يمكن أن تتناقَضَ أو تتنافَرَ، بل بعضها يؤيِّد بَعْضَها ويشهد له، والله أعلم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيان الفَرْق بين النَّاس في عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه لا سواء بَيْنَ من هو قانتٌ آناء اللَّيل ساجدًا وقائمًا...إلخ، وبين من هو عاصٍ بعيدٌ عن الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن ظاهِرَها دوامُ الطاعة آناء اللَّيل في السُّجود والقيام؛ أي في الصلاة، ولكن السُّنَّة بَيَّنَتْ ذلك، وأنَّ الأَفْضَل في قيام اللَّيلِ أن ينامَ نِصْفَه، ويقوم ثلثه، وينام سُدُسَه. وهذا من تقييد القرآنِ بالسُّنَّة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فضيلة صلاة اللَّيل؛ لقوله: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾، وقد دلَّت على ذلك السُّنَّةُ، فقال النَّبي ﷺ: «**أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ المَكْتُوبَةِ صَلَاةُ اللَّيلِ**»[٢].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فضيلة القيام والسُّجود من بين أركان الصَّلاة، وقد بيَّنَّا وجه ذلك أثناءَ التَّفْسير؛ أنَّ القيام شريفٌ بذِكْرِه، والسجود شريفٌ بِهَيْئَتِه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنه ينبغي للإنسان أن يكون في سَيْره إلى الله جامعًا بين الخَوْف والرَّجاء؛ لقوله: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ﴾، ولكن هل يكونان سواءً، أو يُغلَّب جانب الرَّجاء، أو يُغلَّب جانبُ الخوف؟

في هذا أقوالٌ لأربابِ السُّلوك؛ فمنهم من قال: ينبغي أن يكون رجاؤه وخَوْفُه واحدًا كجَناحَي الطَّيْرِ، إذا مال أحدهما اختَلَّ طيرانه.

---

(١) النونية (ص٦٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم، رقم (١١٦٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: ينبغي أن يكون خَوْفُه ورجاؤه واحدًا، فأيُّهما غلب هَلَكَ صاحِبُه؛ لأنَّه إن غَلَّب جانِبَ الخَوْفِ أدخله في اليأس والقُنُوت، وإن غَلَّبَ جانِبَ الرَّجاء أدخله في الأَمْن من مَكْر الله.

وقال بعض أرباب السلوك: ينبغي أن يُغَلِّب جانِبَ الرَّجاء؛ لقول الله تعالى في الحديث القُدُسي: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَإِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ بِي شَرًّا فَلَهُ**»[٢]. وعلى هذا فيُغَلِّبُ جانِبَ الرَّجاء.

وقال بعض العلماء: يُغَلِّب عند فعل الطَّاعات جانِبَ الرَّجاء، فإذا فعل طاعة فلْيُغَلِّب جانب القَبول دون جانب الرَّدِّ، أما في فعل المعصية؛ فإن الأَوْلَى أن يُغَلِّبَ جانب الخَوْف؛ لئلَّا يقع في المعصية.

وقال بعضهم: في حال المَرَضِ يُغَلِّبُ جانب الرَّجاء، وفي حال الصِّحَّة يغلب جانب الخوف؛ لأنَّ النَّبي ﷺ قال: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوْ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ**»[٣] والمريض قد وُجِدَ فيه سَبَبُ الموت، وهو المرض، فيغَلِّب جانب الرجاء ليموت وهو يُحْسِن الظَّنَّ بالله.

ولو قال قائل: إنَّه يرجع في ذلك إلى نَفْسِ الإنسان، والإنسانُ هو طبيب نفسه؛ إن رأى من نفسه جُنوحًا إلى انتهاك المعاصي والمُحَرَّمات فَلْيَتَوَعَّدْها بالعذابِ حتى

(١) انظر: الاختيارات العلمية لابن تيمية (٥/ ٣٥٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يرتَدِعَ، وإن رأى من نفسه قوةً على طاعَةِ الله ومثابرةً عليها وقيامًا بها فلْيُغَلِّبْ جانب الرَّجاء حتى يُحْسِن الظَّنَّ بالله، وهذا يرجع إلى الإنسان نفسه، والإنسانُ في بعض الأحيان يُغَلِّب هذا، وبعض الأحيان يُغَلِّب هذا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات عـذابِ الآخـرة؛ لقوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾ ولا يُحْـذَر الشَّيْءُ إلا بثُبُوته، أمَّا ما ليس بثابِتٍ فلا يُحْذَر.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنه في باب الجـزاء والأَحْكام يُغَلَّبُ جانـب الرُّبُوبِيَّة؛ لقوله: ﴿وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ لأنَّ الرُّبوبِيَّة هي التي بها التَّصَرُّف والسُّلطان.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؛ لقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن هذا النَّفْيَ أمرٌ مُعْتَرَفٌ به؛ لأنَّه جاء بصيغة الاسْتِفْهام، ونحن ذكرنا أنه إذا جاء الاسْتِفْهام مرادًا به النَّفْيُ صار مُشْرَبًا معنى التَّحدي.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: فضيلة العِلْم، ولكن يجـب أن نَعْلَم أنَّ العِلْم يَشْـرُف بِشَرَف مَوْضُوعِه، وعلى هذا فأفضل العلوم العِلْم بأسماء الله وصِفاتِهِ؛ لأنَّ هذا أشرفُ موضوعات العِلْم، ثم العِلْم بأحكامِهِ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[1].

ثم تتلو العُلُوم حسب مراتِبِها، وأَخَسُّ العلوم ما يَصُدُّ عن سبيل الله، وعن طريق السَّلَفِ الصَّالِح؛ مثل: علم الفلسفة، علم الكلام، وما أشبههما، إلا إذا تعلَّمه الإنسان من أجـل أن يَرُدَّ به على أهله، فهنا قد يكون تَعَلُّمه واجبًا؛ لأنَّ ما لا يَتِمُّ الواجِبُ إلا به فهو واجِبٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا، رقم (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧)، من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

ولهذا أمر النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ زيدَ بْنَ ثابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن يتعَلَّم لغة اليهود[1]، مع أن تعلُّم اللغاتِ الأَجْنَبِيَّة ليس محمودًا ولا مأمورًا به، لكن لَمَّا كان وسيلةً إلى مَعْرِفَة ما يأتي من الكتاباتِ من اليهـود والرَّدِّ عليهم بِلُغَتِهِم أمره النَّبِي ﷺ أن يتعَلَّم لغة اليهود، وتَعَلَّمَ لُغَةَ اليهودِ في خلال سِتَّةَ عَشَرَ يومًا؛ لأنَّ زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الأَذْكياء فتعَلَّمَها، ثم إنَّ اللغة العِبْرِيَّة قريبة من اللُّغَة العَربيَّة فسَهُل تَعْليمُها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن أصحاب العُقُـول هم أهل الاتِّعاظِ؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن من لا يتذكَّر فهو ناقِصُ العقل؛ لأنَّه إذا كان لا يتذَكَّر إلا أصحابُ العقـولِ، فمن لا يتذكَّر يكون ناقِصَ العقل ولا شكَّ، ونقصان عقله بحسب نَقْصِه من التَّذَكُّر.

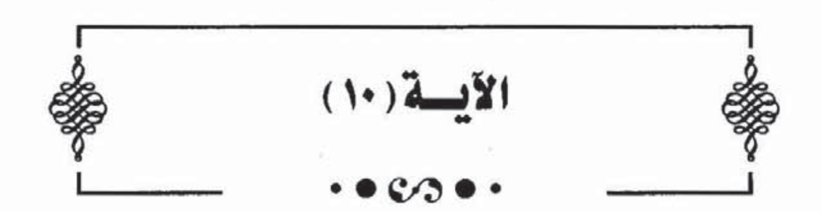
ووجه ذلك من النَّاحِيَة العَقْلِيَّة النَّظَرِيَّة: أنَّ الإنسان العاقل لا يمكن أن يختارَ لنفسه إلا ما فيه النَّجاةُ، ولا نجاة من عذاب الله إلا بالتَّذكُّـر والاتِّعاظ؛ فلهذا كان العقل السليم يَسْتَلْزِم أن يتذكَّر الإنسان ويتَّعِظَ من أجل طلب ما هو أحضُّ للنفس وأَنْفَع ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الثَّناء على ذوي العقول؛ حيث جعلهم هم المتذَكِّرِينَ المُتَّعِظِينَ المُنْتَفِعِينَ بما يسمعون.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٨٦)، وأبو داود: كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، رقم (٣٦٤٥)، والترمذي: كتاب الاستئذان، باب ما جاء في تعليم السريانية، رقم (٢٧١٥)، من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآيــة (١٠)

• • ︎ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠].

• • ︎ • •

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ قوله: ﴿ قُلْ ﴾ الخطابُ للرَّسول ﷺ، أو لِكُلِّ من يصِحُّ توجيه الخطاب إليه؛ فعلى الأول يكون التَّقدير: قل يا محمَّدُ، وعلى الثاني يكون التقدير: قل أيها الإنسانُ.

وقوله: ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾: (عبادِ) هنا فيها شيء محذوفٌ، وهو الياء التي دلت عليها الكَسْرة في قوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ وحُذِفَتِ الياء تخفيفًا.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ عَطْف بيان أو وَصْف.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الإيمان في اللغة: التَّصديق أو الإقرار؛ بل نقول: الإقرارُ؛ لأنَّه هو المطابق للإيمان في التَّعَدِّي والعمل، يقال: أقَرَّ بكذا وآمَنَ بكذا، والتَّصْديق لا يطابِقُه تمامًا، وعلى هذا فنقول: الإيمانُ هو الإقرار، لكنه ليس مجرَّد الإقرار كما قاله بعض طوائف المُبْتَدِعَـة -مُرْجِئَة الجَهْمِيَّة- بل نقول: هو الإقرار المُسْـتَلْزِم للقَبُول والإذعان، هذا الإيمانُ، إذا لم يستلزم للقبُول والإذعان فإنه ليس بإيمانٍ.

قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي عذابَه]، وفي هذا نَظَرٌ، بل المراد: تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يضيف التقوى أحيانًا إلى نفسه، وأحيانًا إلى النَّار،

وأحيانًا إلى يوم الجزاء؛ فقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١] بعد أن قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [آل عمران:١٣٠-١٣١]؛ فلو فَسَّرْت تقوى الله بتقوى عذابه لكان في الآية تكرار.

فالصواب: أنَّ الله يُضيف التقوى أحيانًا إلى نفسه، وأحيانًا إلى النَّار، وأحيانًا إلى يوم الجزاء، كما في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١].

والصَّحيح: أنَّها تُفَسَّرُ بما تُضاف إليه؛ فقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اتَّقوا الله نَفْسَه لِعَظَمَةِ وكمالِ سُلْطانِهِ عَزَّوَجَلَّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: عذابه، بأن تطيعوه]، نقول: الصَّحيحُ: أي الله نفسه. وقوله: [بأن تطيعوه] هذا تفسيرٌ للتقوى، وعلى هذا نقول: التقوى: طاعة الله بفِعْل أوامِرِه واجتنابِ نَواهيه؛ لأنَّ أَصْلَ التقوى مأخوذٌ مِنَ الوِقَايَة، ولهذا يقولون: إنَّ أصلها (وَقْوَى) من الوِقايَة.

والوقاية هي اتخاذُ ما يَقي الإنسانَ، ولا يقي الإنسانَ من عذابِ الله إلا طاعةُ الله، ولهذا نقول: إنَّ أَجْمَعَ ما قيل في التقوى أنَّها طاعةُ الله؛ كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أو اتخاذُ وقاية من عذابه بفِعْل أوامره واجتنابِ نَواهيه.

ثم قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾: ﴿لِلَّذِينَ﴾ خبر مُقدَّم و﴿حَسَنَةٞ﴾ مبتدأ مؤخَّر ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾ الإحسانُ يكون في عبادة الله، ويكون إلى عبادِ الله، أما الإحسانُ في عبادة الله فلا أَجْمع ولا أصدق من تفسيرِ النَّبي ﷺ له حين سأله جبريلُ عن الإيمان؛ فقال: «**أنْ تُؤْمِنَ بالله**»؛ وقال ﷺ حين

سأله عن الإحسان، فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1] فإذا عبد الإنسانُ ربَّه كأنه يراه فسوف يعبُدُه حقَّ العبادة؛ لأَنَّه يَعبُد اللهَ كأَنَّه يرى الله، وهذا تكون عبادَتُه مبنِيَّةً على كمال اليَقينِ، وإذا كانت كذلك فلا بدَّ أن تكون موافِقَةً للأمر، ولا بد أن تكون خالِصَة.

إذن: الإحسانُ تمام الإخلاص، وتمام المُتابَعَة؛ فتمامُ الإخلاصِ وتمام المُتابَعَة؛ لقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» وعبادة الله على هذا الوَجْه هي مَبْنِيَّة على تمام اليقين، وهذه المرتبة أعلى من المرتبة الثانية: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» يعني: فإن لم تَعْبُدْه على هذا الوجه فاعْلَمْ أنه يراك.

ويقال: إنَّ الأوَّلَ إحسانُ الطَّلب، والثاني إحسانٌ في الهَرَب؛ (إحسانٌ في الهَرَب) يعني: العابد طلبًا أكْمَل حالًا من العابِدِ هربًا؛ وهذا يلزم منه أن تكون العبادة خالصةً لله متابَعًا فيها شريعَةُ الله.

أما الإحسان إلى عباد الله فيكون بالمالِ والبَدَنِ وهو كثير؛ فقد تُحْسِن إلى عباد الله بالمالِ؛ كالصِّدْقات والهدايا والهِباتِ، وقد تُحْسِن إلى عباد الله بالبَدَنِ كالمساعدة وما أشبه ذلك، وتُعينُ الرَّجُلَ في دابَّتِه فتحمِلُه عليها أو تَرْفَعُ عليها متاعه، وتعين عباد الله بالجاهِ والشَّفاعَة عند الحاجة إلى ذلك.

المهم: أنَّ الإحسانَ إلى عباد الله مُتَنوِّعٌ كثيرٌ، وقد فسَّره بعضهم بأنه كَفُّ الأذى وبَذْلُ النَّدى وطلاقة الوجه؛ فكفُّ الأذى عن النَّاس؛ لأنَّ مَن لم يَكُفَّ أذاه فإنه لم يُحْسِنْ، والثاني: بَذْل الندى. أي: المَعْروف، والثالث: طلاقَة الوجه، بأن تَلقى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النَّاس بوجهٍ مُنطَلِقٍ مُنْشَرِحٍ لا بوجهٍ مُقَطَّب مُعَبَّس.

فالإحسان إذن: إحسانٌ في عبادة الله، وإحسانٌ إلى عبادِ الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أي: في عبادة الله، وإلى عباد الله.

وقوله: ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ هل نجعل ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ مُتعلِّقًا بـ(أَحْسن)؛ أو نقول: هو خبرٌ مُقدَّم و﴿حَسَنَةٌ﴾ مبتدأ مؤخَّرٌ، والجملة من المبتدأ والخبر خَبَرٌ ﴿لِلَّذِينَ﴾؟

الجواب: ننظر: إذا قلنا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ في هذه الدنيا متعلِّقة بـ(أحسن)، و﴿حَسَنَةٌ﴾ مبتدأٌ خَبَرُه ﴿لِلَّذِينَ﴾ هذا وجه.

الوجه الثاني: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ وينتهي الكلام، ثم: ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ مبتدأٌ وخَبَرٌ.

والأول أَحْسَنُ؛ فإنَّ إحسانَهُم في الدنيا وجزاؤهم حَسَنَةٌ، هذا ما مشى عليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ يقول: [﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ بالطَّاعَةِ].

إذن: ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ مُتعَلِّقَة بـ﴿أَحْسَنُوا﴾ وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالطَّاعَة] فيه قصور؛ وجهه: أَنَّنا قُلْنا إنَّ الإحسانَ يَشمَلُ الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله، وعلى كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في العبادة فقط، ولكنَّ الصَّحيح ما ذكرنا.

قوله: ﴿حَسَنَةٌ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هي الجَنَّة]، ولعله اعتمد في هذه التفسير على قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] فإن الحُسنى هي الجَنَّة، والزيادة: النَّظَرُ إلى وجه الله، ولكن: هل ﴿حَسَنَةٌ﴾ هنا تُطابِقُ ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ هناك؟

لا، فالحُسنى اسم تفضيل، وهنا ﴿حَسَنَةٌ﴾ نكِرَة لا تدل على التَّفْضيل، فعندي

أن في تَفْسيرِ هذه الآية بما تُفسَّرَ به تلك الآيةُ نظرًا، بل نقول: لهم حَسَنَةٌ، وهذا مُطْلَقٌ، فيُحْتَمَل أنَّ المعنى: للذين أحسنوا في هذه الدنيا حَسَنةٌ أي: جزاءٌ على إحسانِهم؛ أي: لكلِّ إحسانٍ يُحْسِنونه حسَنَةً؛ لأنَّ الله تعالى لم يُعَرِّف الكلمة الحَسَنة حتى نقول: إنَّها دَخلَت عليها (أل) التي للعَهْد، وأيضًا الجَنَّة وصفها الله باسم التفضيل ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ التي ليس شيء أحْسَن منها بخلاف ﴿حَسَنَةٌ﴾ وهذه تشبه قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة:٢٠١] لأنَّها مطابقة لها.

قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ ما المناسبة بين قوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ وبين قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾؟ المناسبة: أنَّ مِن جُمْلة الإحسانِ في الدنيا الهِجْرَة لا شكَّ؛ لأنَّ الهجرة من أكبر ما يدُلُّ على صِدْق العامل؛ إذ إن المهاجِرَ يَدَعُ أَهْلَه ووطنه وعَشيرَتَه وماله لله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَهَاجِرُوا إِلَيْهَا مِنْ بَيْنِ الْكُفَّار وَمُشَاهَدَة الْمُنْكَرَات] وصدق الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فإذا ضاقت بك الأَرْضُ يومًا فثَمَّ السَّعَةُ اخرج تَسْلَمْ في دِينك وعِرْضِك، ولا تَشَحَّ بِمَالِكَ ودارِكَ وأَهْلِكَ وعَشيرتِكَ؛ فإن الدِّينَ أغلى من ذلك كُلِّه.

وقوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ والدَّارُ التي كانوا فيها ضَيقة، نعم، هي ضيِّقَة لكنَّ ضِيقَها ضيقٌ معنويٌّ؛ لأنَّ السَّعَةَ والضيق في الحقيقَةِ إنما يكون في القَلْب، فكم من إنسان في بيتٍ ضَيِّق، حُجَرُه بقَدْر فِراشِه، وتجده مسرورًا مُنْشَرِح الصَّدْر، وكم من إنسان في قُصُورٍ مُشَيَّدة ولكنه في ضيق وغَمٍّ؛ فسعة الأرض في الحقيقة بالنِّسْبة للمهاجر واضِحَة جدًّا؛ لأنَّ بقاءه يشاهِدُ المُنْكَرَات ويشاهِدُ ما يؤذيه وما يُؤْلِمه لا شكَّ أن هذا ضيقٌ.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى﴾ أي: يُعطَى، و﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، والمعنى: ما يُوَفَّى الصَّابرون أجْرَهُم إلا بغير حساب؛ أي: أجرًا كثيرًا أكثرَ من الأَعْمال.

ولماذا قال: ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ ولم يقل: الصَّابرين؛ والمعروف أنَّ المفعول به يكون منصوبًا فيقال: الصابرين؟

الجواب: لأنَّها نائِبُ فاعل، ونائب الفاعل مفعولٌ به في المعنى، فاعلٌ في اللَّفْظ، يعني أنه يُعْرَبُ إعرابَ الفاعل، ولكنه في المعنى مفعولٌ به؛ قال ابن مالك:

يَنُوبُ مَفْعُولٌ بِهِ عَنْ فَاعِلِ فِيمَا لَهُ كَنِيلَ خَيْرُ نَائِلِ[1]

وقوله: ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَلَى الطَّاعَة وَمَا يُبْتَلَوْنَ بِهِ]، فذكر نوعين من أنواع الصَّبر وأضاف عليه واحدًا، وهو: الصَّبْر عن معصية الله، إلَّا أنْ يُقال: إنَّ الطاعة بالمعنى الأَعَمِّ تَشْمَل امتثال الأمر واجتنابَ النهي، فيكون قد وفَّى المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنواعَ الصَّبْر.

أنواع الصَّبْر ثلاثة:

١- صبرٌ على طاعة الله.

٢- وصبرٌ عن مَعْصِيَة الله.

٣- وصَبْرٌ على أقدارِ الله المُؤْلِمَة.

فأعلاها: الصَّبْرُ على طاعة الله، ثم الصَّبْرُ عن معصية الله، ثم الصَّبْر على أقدار الله، هذا من حيث نوعُ الصَّبْر نفسه، أما من حيث الصَّابر، فإنَّ الإنسان أحيانًا

---

(١) الألفية (ص٢٦).

يعاني من الصَّبْرِ عن المعصية أكْثَرَ مما يعاني على الصَّبْر على الطاعة، وكذلك الصَّبْر على البلاءِ قد يعاني منه أكْثَرَ مما يعاني من الصَّبْر على المَعْصِيَة وعلى الطَّاعَة.

لكن نقول من حيث نوعُ الصَّبْر بقطع النظر عن الصَّابِر؛ أفضله: الصَّبْرُ على الطاعة، ثم على المعصية، ثم على الأقدار؛ لأنَّ الصَّبْر على الطَّاعة يحتاج إلى جُهْدٍ نَفْسِيٍّ وجهدٍ بدني، بفعل الطاعة نفْسِها، فمُعالجَة النَّفْس عندما يؤَذِّن الفَجْر وأنت في الفِراش تبدأ تتمطى وتَسْهو، وتقول: ما زِلْنا مُبَكِّرين، حتى تَفُوتَ الصلاة؛ فهذا يحتاج إلى جُهد، عالِجْ نفسك وقُمْ، أما الصَّبْر على المعصية فيحتاج إلى جُهْدٍ نَفْسِيٍّ فقط؛ لأنَّه كَفٌّ، فتَرْكُ المَعْصِيَة ليس عليك أي تَعَبٍ، لكنَّ النَّفْسَ تَتْعَبُ، إذا كانت المَعْصِيَة مما تدعو إليه النَّفْس وكَفَفْتَ عنها تَعِبَتِ النَّفْسُ لا شك.

وأما الصَّبْر على أقدار الله المؤلِمَة فهو أدناها؛ لأنَّ الأَمْرَ ليس إليك، فالأَمْرُ تَمَّ، فهو كما قال بعضُ السَّلَف: إما أن تَصْبِرَ صَبْرَ الكِرَامِ، وإمَّا أن تَسْلُوَ سُلُوَّ البهائمِ. فهو ليس منك، فأيُّ عمل لا بد أن يُصيبَكَ أصابَكَ؛ ويقولون: إنَّ يُوسُفَ ﷺ؛ إنه ابْتُلِي بأنواع الصَّبْرِ الثلاثة:

أليس هو قد دعا إلى الله وهو في السِّجْن؛ فقال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩] هذا -لا شك- صبْرٌ؛ إنسانٌ مَسْجونٌ ويدعو النَّاس إلى التَّوحيد!

والصَّبْرُ عن المعصية امتناعُهُ عن موافقة امرأةِ العَزيزِ حين راوَدَتْه عن نفسها.

والصَّبْر على أقدار الله المُؤْلِمَة؛ ما حصل من إِخْوَتِه.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: ﴿أَجْرَهُم﴾ أي: ثوابهم، والله عَزَّوَجَلَّ

بِكَرَمِه سَمَّى الثَّواب: أجرًا من باب اطمئنان العامِلِ إلى استيفائِهِ؛ لأنَّ الأَجْرَ مقابِلَ عملٍ لا بد أن يُسَلَّمَ، كأنَّ العمل والجزاء معاوَضَة وعَقْد بين الله وبين العابِدِ؛ أنَّ الله يعطيه الثَّمَن؛ الأَجْر مع أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المُتَفَضِّل أولًا وآخرًا؛ أولًا بالتَّوفيق للعَمَل، ولولا أنَّ الله أعانك وسَدَّدَك ما قَدَرْتَ، ثم المُتَفَضِّل ثانيًا بالأَجْر.

وقوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِغَيْرِ مكيالٍ ولا مِيزانٍ] يعني: الأَجْـرُ الذي يعطيه الله عَزَّوَجَلَّ عن العَمَل ليس على سبيل التَّدْقيق والمعاوَضَة التي تكون بين العباد؛ فالمعاوَضُة بين العباد عَدْل، يعني: ما يعطيكَ أَكْثَرَ مما تستحِقُّ، وأما ثوابُ الله عَزَّوَجَلَّ على الصَّبْر فهو أَكْثَرُ، بدون حساب، فالحَسَنَة بعَشْرِ أمثالِها إلى سَبْعِ مئَةِ ضِعْفٍ إلى أضعاف كثيرة، والصَّبْرُ لا حساب له.

إذن: يتوقَّع الصابر بأن له جزاءً لا يدركه عَقْلُه من كَثْرَتِه؛ لأنَّ الله قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزُّمَر:١٠].

كما أنَّ الصَّبْـر فيه فائِدَةٌ عظيمة للإنسان نفسِـه، وهو: ترويضُ النَّفْـس على التَّحَمُّل، كثيرٌ من النَّاس يريد أن تكونَ الأُمُورُ بِسُرْعة، يدعو الله عَزَّوَجَلَّ بكَشْفِ ضُرٍّ وتتأَخَّر الإجابة، فيقول: لماذا؟ وييأَس، نقول: اصْبِر، وقد يَحْصُل للناس مصائِـبُ عامَّة فتجده يريد السُّرْعة في انجلائها، فنقول: اصْبِر، وطِّنْ نَفْسَك على الصَّبْر، هذه تَرْبِيَة؛ أن تُوَطِّنَ نفسَك على الصَّبْر.

والصَّبْرُ مع انْتِظارِ الفَرَجِ يُعْتَبَـرُ من أعظم العبادات؛ لأنَّك إذا كنت تَنْتَظِـرُ الفرج فأنت تَنْتَظِرُ الفرج من الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه عبادة، وقد قال النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ»؛ فكلمـا اكْتَرَبَتِ الأمورُ فإن

الفرج أَقْرَبُ إليك، «وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»[(١)].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في هذه الآية أُمِرَ النَّبِي ﷺ بأن يقولَ للنَّاس: ﴿يا يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه لا بد مع الإيمان من التقوى؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾، وهذه الصِّيغة ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ لن يقولَها الرَّسول ﷺ بهذا اللَّفْظِ، لكن سيقول: يا عبادَ اللهِ، أو كلمةً نحوَها، لكنَّ الله أضاف ذلك إلى نفسه؛ ليُبيِّن الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ في هذه العبادة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الرَّبَّ وهو الخالق المالِك المُدَبِّر؛ هو أهل التقوى دون غيره، كما قال تعالى في سورة المدثر: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ للمُحْسنين في هذه الدنيا حَسَنَةٌ؛ لقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الله تعالى بِفَضْله وكَرَمِه يُعَجِّل الثَّواب لمن يَسْتَحِقُّ الثَّواب في الدنيا قبل الآخرة؛ لأنَّ حَسَنَةَ الدنيا دون حَسَنَةَ الآخرة بكثيرٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وجوب المهاجَرَة إلى الله ورسوله إذا كان الإنسانُ في بلد كُفْرٍ لا يَقْدِرُ على إظهار دِينِهِ؛ لقوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابعَةُ: أن من الدَّعوة إلى الله ومِن حُسْنِ الدعوة إقامَةَ الحُجَّة؛ لقوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فإنه لا عُذْرَ لأحد أن يقول: لا أَجِدُ مَلْجَأً، أو لا أَجِدُ مُهَاجَرًا.

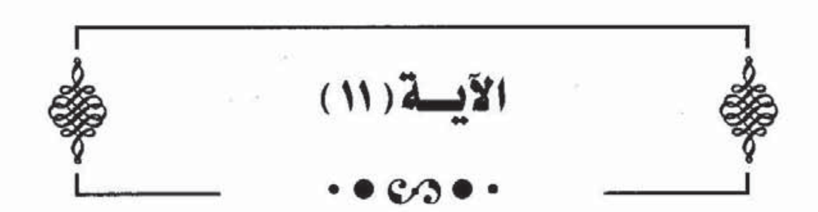
(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٠٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الأرض لله؛ لقوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ وهذا كما قال موسى لقومه: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فضيلة الصَّبْر وأنَّ صاحبه يُوَفَّى أَجْرَه بغير حسابٍ؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: كَرَمُ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث جعل الثَّوابَ بِمَنْزِلة الأَجْرِ كأنه معاوَضَة يعاوِضَ به المعامَل؛ لقوله: ﴿أَجْرَهُم﴾.

• ● ۞ ● •



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:١١].

• • • •

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ قوله: ﴿قُلْ﴾ يعني: يا محمد.

قوله: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ أي: أمرني ربِّي، وهذه الصيغة تأتي بالبناء للمَجْهول؛ لأنَّ الفاعل معلومٌ، وهذا يُشْبهُ حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ الرَّسول ﷺ قال: «**أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ**»[1]؛ (أُمِرْتُ) لأنَّ الآمِرَ معلومٌ، وهو الله.

فقوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، وجاءت بكلمة ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ للإشارة إلى مقامِ النَّبي ﷺ، وأنه عَبْدٌ يُؤْمَر ويُنْهَى، وليس له من حَقِّ الربوبِيَّة شَيءٌ.

وقوله: ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ أي: أتذَلَّلَ له، والعبادة تطلق على مَعْنيينِ:

المعنى الأول: التَّذَلُّل لله الذي هو فِعْل العابِدِ.

والمعنى الثاني: المُتَعَبَّد به، وهي العبادات على جميع أنواعها، وعلى هذا المعنى يكون تعريفُ شيخِ الإسلام ابن تَيْمِيَةَ العبادةَ في قوله: «العبادةُ اسْمٌ جامِعٌ لكلِّ ما

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب لا يكف ثوبه في الصلاة، رقم (٨١٦)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب أعضاء السجود والنهي عن كف الشعر والثوب، رقم (٤٩٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يُحِبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطِنَة والظَّاهِرَة»[١] وقوله: ﴿مُخۡلِصٗا﴾ حالٌ من فاعل ﴿أَعۡبُدَ﴾ أي حالَ كَوْني مُخْلِصًا لله من الشِّرْك؛ لأنَّ الإخلاص يعني التَّنْقِيَة من الشِّـرك؛ لأنَّ العمل إذا شابه الشِّـرْك أفسده وأبطله؛ قال الله تعالى في الحديث القُدُسِيِّ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[٢].

وقوله: ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنَ الشِّرْك]، والمراد بـ﴿ٱلدِّينَ﴾ هنا: العمل الذي يفعله الإنسان لِيُدَان به، وأما عَمَلٌ لا يُؤَمِّل أن يُدانَ به فهذا لا يُسَمَّى: (دِينًا) وإن كان عَمَلًا، لا بد أن يكون عامِلًا من أجل أن يُدانَ بهذا العمل.

يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، وتقدَّم كثيرًا أنَّ الدِّينَ يُطْلَق على العمل ويطلق على الجَـزَاء، ففي قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]: أي الجـزاء؛ وفي قوله: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]؛ أي: العمل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الإنسانَ مأمورٌ بأن يُعْلِنَ ما أمر الله به من عبادَتِهِ؛ لقوله تعالى: ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ ولهذا فائدتان:

الفائِدَة الأولى: الحَثُّ على اتِّباعِه في هذا.

والفائِدَة الثَّانية: بيانُ اسْتِحْقاق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لذلك، وأنه هو المُسْتَحِـقُّ أن يُعْبَد وحده ﴿إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا﴾.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه يَجِبُ في العبادة الإخلاصُ؛ لأَنَّه أُمِرَ أن يعبد الله على هذا الوَصْفِ: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

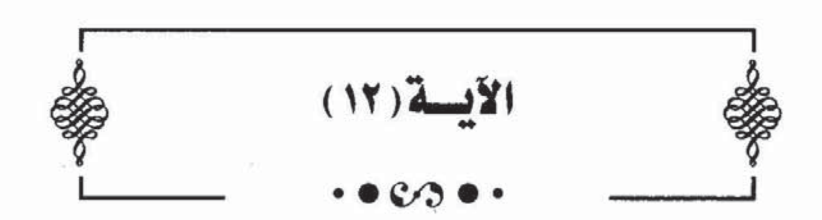
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ من لم يُخْلِصْ لم يَكُنْ قد أتى بالأَمْر.

ويتفرَّع على هذه القاعدة: أنَّ عَمَلَه يكون مردودًا عليه، فإذا أشرك يكون قد عَمِلَ عملًا ليس عليه أَمْرُ الله ورسولِهِ، وقد قال النَّبي ﷺ: **«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»**[1].

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر:١٢].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: بِأَنْ]، فجعل اللام بمعنى الباء؛ وذلك لأنَّ أَمَرَ إنما تتعدَّى بالباء ولا تتعدى باللام، فلهذا فسَّرَها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالباء، وهذا أحد المَسْلَكَيْنِ للنُّحاة فيما إذا تلا الفِعْلَ حرفٌ لا يتعدَّى به غالبًا فإنهم يجعلون هذا الحَرْف بمعنى الحَرْف الذي يتعدى به العامِلُ؛ أي: الفعل أو غير الفعل غالبًا؛ فمثلًا هنا: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾ يجعلون اللام بمعنى الباء؛ وفي قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [المطففين:٢٨] يجعلون الباء بمعنى مِنْ؛ أي: يَشْرَبُ مِنْها.

والمسلك الثاني للنحاة: أَنَّهُم يُحَوِّلون الفِعْل إلى فعلٍ مناسِبٍ للمُتَعَلَّق، ويُسَمُّون هذا: تَضْمِينًا؛ أي: إنَّ الفعل المذكورَ ضُمِّنَ معنى فِعْلٍ يتعدَّى بالحَرْف المذكور؛ فمثلًا: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ يقولون: المعنى: يَرْوَى بها، فضُمِّنَ الشُّرْبُ معنى الرِّيِّ.

ولا شك أن هذا يُعْطِي النَّصَّ معنًى أكْثَرَ؛ لأنَّه يُبْقِي الحرف على ما هو عليه، ويُعْطي الفعْلَ المذكور معنًى زائدًا على ما يَدُلُّ عليه لفظه، فيكون هذا المَسْلَك أولى، لكن أحيانًا يَصْعُب على طالب العلم -ولا سيما المبتدئ- أن يُقَدِّرَ الفِعْل المناسب الذي يكون مُضَمَّنًا للفِعْل المذكور، حينئذٍ يلجأ إلى الأسهل، وهو تحويل الحَرْف إلى حرف يناسب الفِعْل المذكور.

فهنا في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾ لا شكَّ أنه من السَّهْل أن أقول: إنَّ اللَّام بمعنى الباء، يعني أُمِرْتُ بأنْ أكونَ.

لكن لو أردنا أن نُضَمِّنَ أُمِرْتُ معنًى يناسِبُ اللَّامَ؛ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ؛ فهذا يحتاج إلى تأمُّلٍ وتَفْكيرٍ في المعنى؛ لماذا قال: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾؟

فيمكن أن نُقَدِّرَ: أُمِرْتُ أن أَعْبُدَ الله لِأَنْ أكونَ أَوَّلَ المسلمين، فتكون اللام تعليلًا للفِعْلِ المَحْذوفِ، وهو أن أَعْبُدَ الله لأنْ أكون أَوَّلَ المسلمين؛ يعني: وُجِّهَ الأَمْرُ إليَّ أولًا لأنْ أكونَ أَوَّلَ المسلمين؛ أي: المنقادينَ لِأَمْر الله، وحينئذٍ نستفيد من هذا معنيين: معنى الأمْرِ، ومعنى العبادة التي حُذِفَت ليَصِحَّ تَعْليقُ الحَرْفِ بها.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأُمَّة] وكلمة: ﴿أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الإسلام يُطْلَق على الانقياد؛ لأنَّه مأخوذٌ من: أَسْلَمَ أَمْرَه إلى غيره، ومنه الاستسلامُ في الحرب؛ لأنَّ المُسْتَسْلِم ينقادُ للغالب الذي غَلَبَه، فالإسلام هو الانقيادُ ظاهرًا.

وبناءً على هذا: يكون المنافقون مُسْلِمينَ ظاهرًا، ولهذا يُطْلَق الإسلامُ على ضعيف الإيمان، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤] وأحيانًا يُطْلَق الإسلام على الشَّريعَةِ كُلِّها فيشمل الاسْتِسْلام ظاهرًا وباطنًا، وهو: الإيمان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]؛ فليس المراد الاستسلامَ الظَّاهِرَ، وإنما المراد: الشَّرائِعُ كُلُّها؛ شرائِعُ الإِسْلام كلُّها، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ﴾ أي: شرائِعَ الإسلامِ كلَّها دينًا.

يقول أهل العلم: الإسلامُ إذا قُرِنَ بالإيمان فُسِّرَ الإسلامُ بالأَعْمال الظاهرة، والإيمانُ بالأَعْمال الباطِنَة، قالوا: ومن ذلك: حديثُ جِبْرِيلَ لما سأَلَ النَّبي ﷺ عن الإسلام؛ قال: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ»، ولما سأله عن الإيمانِ، قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ؛ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1].

أَمَّا إذا أُفْرِدَ أَحَدُهُما فإنه يَشْمَلُ الآخَر؛ فالإسلام إذا ذُكِرَ وحده شَمِلَ جَميعَ الشَّرائع، ومنه: الإيمانُ، والإيمان إذا ذُكِرَ وَحْدَه شَمِلَ جَميعَ الشرائِع، ومنه: الإسلامُ.

ويقول المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ هنا: [﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأُمَّة]؛ وقيَّد الآيَةَ مع أَنَّها مطلقة؛ لأنَّه رَحِمَهُ اللَّهُ فَهِمَ أَنَّ الأَوَّلِيَّة هنا أَوَّلِيَّة الزَّمَن، وإذا كانت أَوَّلِيَّة الزَّمَن فإنه لا يَصِحُّ أن يكون النَّبي ﷺ أَوَّلَ المسلميـن؛ لأَنَّ قَبْله أُمَمًا مُسْلِمَةً كثيرة، فكان لا بدَّ أن نُقَيِّد هذا بأَوَّلِ المسلميـنَ من هذه الأُمَّة؛ ومنه قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٣]؛ فعلى ما مشى عليه المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ من الفَهْم نقول: وأنا أَوَّلُ المسلمين من هذه الأُمَّة.

وهناك احتمالٌ آخرُ: أَنَّ الأَوَّلِيَّة هنا أَوَّلِيَّة الصِّفَة؛ يعني أنني أَسْبَقُ المسلمينَ من حيثُ التَّقَدُّم إلى الإسلام، كما تقول مثلًا لمن يُخاطِبُك: إنْ كان هذا الذي قُلْتَه حقًّا فأنا أَوَّلُ من يساهم؛ مثلًا: لو قال إنه فَتَحَ مَشْروعًا في البلد خَيْرِيًّا، فقلتَ: إذا كان حقًّا فأنا أَوَّلُ من يساهم؛ يعني أول من حيث الانقياد والصِّفَة؛ هذا احْتِمالٌ، وإذا كان هذا المعنى في الآيَةِ الكريمة فإنَّنا لا نحتاج إلى القَيْدِ الذي قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ؛

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لأَنَّنا نَعْلَمُ أنَّ رسول الله ﷺ هو أوَّلُ من ينقـاد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وأنه أَعْظَمُ النَّاس انقيادًا وأَشَدُّهُم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنه يَجِبُ المبادَرَة بالإسلام من غير توقُّف؛ لأنَّ الله أمَر بذلك، وهذا بناءً على أنَّ المراد بالأَوَّليَّة هنا أوَّليَّة الصِّفَة يعني السَّبْق.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الرَّسول ﷺ عبدٌ مأمورٌ.

ويتفرَّع على هذا: أنَّه ليس له مِن الأمْرِ شيءٌ، وقد صـرَّحَ الله بذلك في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨].

ويتفرَّعُ على ذلك أيضًا: ضلالُ أولئك القَوْم الذين يَدْعُون رسول الله ﷺ أن يُغِيثَهُم، أو أن يَجْلِبَ لهم الخَيْرَ ويدفع عنهم الشَّرَّ.

• • ۞ • •



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر:١٣].

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قوله: ﴿عَذَابَ﴾ مفعولُ ﴿أَخَافُ﴾.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ﴾ الخَوْفُ لا يمكن أن نُعرِّفه بأَبْيَنَ مِن لَفْظِه، فكُلُّنا يَعْرِفُ الخَوْف؛ ولهذا نقول: إنَّ الانفعالاتِ النَّفْسِيَّة لا يمكن لأحدٍ أن يُعَرِّفَها؛ لأنَّه ليس هناك شيءٌ أَبْيَنُ مِن لَفْظِها أبدًا؛ لو قال إنسانٌ: عَرِّفْ لِيَ الكَراهَة فماذا تقول؟

تقول: (الكراهَةُ مَعْرُوفة)؛ فالكراهَةُ هي الكراهَةُ، وكذلك لو قال: عَرِّفْ لي المحبة؟ لا تَقْدِرْ أن تقول: المَحبَّة هي المَحبَّة.

ولو قال قائل: المَحَبَّة هي المَيْل؛ فالجواب: المَيْل آثارُ المَحبَّة، فبعدما يُحِبُّ يَميل؛ ولهذا يقول ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: لا يمكن أن نَحُدَّ المَحبَّة بأَبْيَنَ مِن لَفْظِها أبدًا؛ فكُلُّ الذين عرَّفوها -فيها أكثر من عشرين تعريفًا- كُلُّهم إنما يُفَسِّرونَها بِلَوازِمِها ونتائجها. وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ، فالانفعالات النَّفْسِيَّة لا يستطيع الإنسان أن يُعَرِّفَها بأَكْثَرَ مِن لَفْظِها.

(١) انظر: طريق الهجرتين (ص٣١٠)، ومدارج السالكين (٣/ ١١).

قوله: ﴿عَصَيْتُ﴾ المعصية: المُخالَفَة، وتكون بأمْرَيْنِ: إمَّا بِتَرْكِ مَأْمورٍ وإمَّا بفِعْلِ مَحْظورٍ، هذا إذا أُفْرِدَتْ عن الطاعة، فإن قرنت بالطَّاعة صارت الطَّاعةُ فِعْلَ المأمور والمَعْصِيةُ ارتكابَ المَحْظورِ؛ وهنا: ﴿عَصَيْتُ﴾ مُفْرَدَة عن الطاعة، فتشمل المعْنَيَينِ: مُخالَفَته بفعل المنْهِيِّ عنه أو بِتَرْك المأمور به.

وفي قوله: ﴿رَبِّي﴾ إشارةٌ إلى أنه عَزَّوَجَلَّ هو الذي له الأمْرُ والنَّهْيُ؛ لأنَّه ربٌّ، والرَّبُّ خالقٌ مالكٌ مدبِّر.

وقوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يومُ القيامة، ووصَفَهُ الله تعالى في القرآن الكريم بعِدَّة أوصاف؛ منها: العظيم؛ وذلك لشِدَّتِه وشِدَّة أهواله وشِدَّة ما يكون فيه، وإذا رأيت الأوصافَ، أو إذا سَمِعْتَ الأوصافَ التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ لهذا اليوم العظيم، فإنه -لا شَكَّ- يَعْتريكَ من الخوف بِقَدْرِ ما أنت مُؤْمِنٌ به؛ فكُلَّما كان الإنسان أقوى إيمانًا باليوْمِ الآخر فهو منه أشَدُّ خوفًا، وكُلَّما ضَعُفَ إيمانه باليوم الآخِرِ ضَعُفَ خَوْفُه منه.

ولهذا لدينا عبارة مأثورة: كُلُّ من كان بالله أَعْرَفَ كان منه أَخْوَفَ، وكُلُّ من كان أيضًا باليَوْمِ الآخِرِ أَعْرَفَ وأقوى إيمانًا كان أقوى إخافَةً.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّه ينبغي -بل يجب- على الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يُعْلِنَ هذا الإعلانَ للمَلأ: أنَّه يَخافُ عذابَ يومٍ عظيمٍ إنْ عصَى الله؛ وفائدته: ما ذَكَرْنا قبلَ قليلٍ مِن أجْل التأَسِّي به في ذلك، ومِن أجْلِ بيان عَظَمَةِ الله وأنه مُسْتَحِقٌّ أن يخاف منه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات اليوم الآخر؛ لقوله: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ وهل يمكن أن يُسْتَفاد منها أنَّ النَّبي ﷺ تَجوزُ عليه المَعْصِيَة؛ لقوله: ﴿إِنۡ عَصَيۡتُ﴾؟

ولكن قد يقول قائل: في هذا نظَرٌ؛ لأنَّ الشَّـرْط قد يتحَقَّقُ وقد لا يتحقّق، وقد يكون تَحَقُّقه مُمْتَنِعًا، مثل قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]، وقوله تعالى لرسوله: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزُّمَر:٦٥].

إِذَنْ: فهذه الفائِدَة فيها نظر؛ لأنَّ قوله: ﴿إِنۡ عَصَيۡتُ﴾ لا يدلُّ على أنَّ المَعْصِيَة تقع منه، لكن على فَرْضِ أن تقع فإنِّي أخاف.

وقد يقول قائل: إنَّ كَوْنَه يخاف أمرٌ مُحَقَّقٌ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ وإذا كان أمرًا محققًا فإن المُعَلَّق عليه وهو المعصية يكون كذلك؛ أي: يمكن أن يكون، يعني معناه: أنَّني إن عَصَيْتُ فإنِّي أخاف.

وعلى كلِّ حال: فإن الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثبت عنه أنه كان يدعو الله أن يَغْفِرَ الله له ذَنْبَه أوَّلَه وآخِرَه[(١)]، وثبت أنه ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ**»[(٢)].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تعظيم يوم القيامة وأنَّه يومٌ عظيم.

ويتفرَّع على هذا: أنَّه ينبغي للعاقِلِ أن يَحْذَر منه.

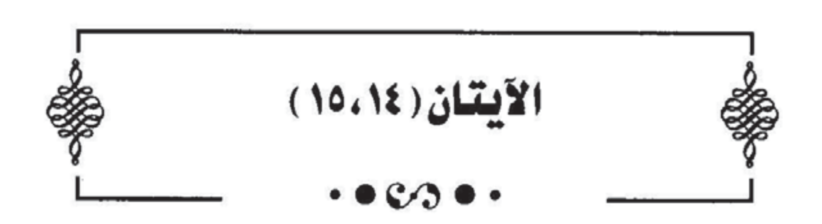
---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب ما يقول بعد التكبير، رقم (٧٤٤)، ومسلم: كتاب المساجد، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة، رقم (٥٩٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جواز وَصْفِ غير الله بالعِظَم؛ لقوله: ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وقد قال الله تعالى عن ملكة سبأ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، ووصف الإِفْك بأنه عظيم، إلى غير ذلك، فوَصْفُ غَيْرِ الله بالعِظَم لا بأس به، لكنَّ العِظَم المُطْلَق إنَّما يكون لله عَزَّوَجَلَّ.

• ● ● •



الآيتان (١٤، ١٥)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٤-١٥].

•●○●•

يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ في الآية الأُولى قال: ﴿أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ في الأوَّل يفعل هو يَعْبُد الله مخلصًا له الدِّين، وفي الثاني أُمِرَ أن يُعلِنَ للمَلَأِ أنه مُخْلِصٌ، وإعلانه أنه مُخْلِصٌ؛ يعني أنه متبَرِّئٌ من شِرْكِهم.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ إعرابُ اسم الجلالة: مفعولٌ به لـ﴿أَعْبُدُ﴾ قُدِّم المفعول به للحَصْر؛ يعني لا أعبد غَيْرَه، ونظيره من حيث التَّرْكيبُ قولُه تعالى: في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] ثم أكد هذا أيضًا بقوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ يعني: لا أعبد غَيْرَ الله، وفي عبادتي له أيضًا أكونُ مُخْلِصًا له لا يَشوبُ عبادتي إياه شَيءٌ من الشِّرْك.

وقوله: ﴿دِينِي﴾ يعني: عَمَلي، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من الشِّرْك].

وإذا جَمَعْت بين الآيتين: الآية الأولى: وهي قوله: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ والثانية هنا؛ عَرَفْتَ شِدَّة امتثال الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لربِّه، وأنه عَبَدَ الله مُخْلِصًا له الدِّين، وأَعْلَنَ ذلك للمَلَأِ غيرَ مُبالٍ بمخالَفَتِهم.

قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾: ﴿فَٱعْبُدُوا۟﴾ هذا يُحْتَمل أن يكون تهديدًا،

ويُحْتَمل أن يكون تحدِّيًا، فالمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [فيه تَهْديدٌ]، ويمكن أن يكون تحدِّيًا، أما كوْنُه تهديدًا فظاهِرٌ ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ لأنَّه قال بعده: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إلخ، وأما كونه تحدِّيًا فلأنَّه لَمَّا ذكر أنه يعبد الله وحده مُخْلِصًا تحدَّاهم، قال: أنا لا أُبالي، أنتُم اعبُدوا ما شِئتُم وأنا لا أُبالي بكم، فسوفُ لا أُشْرِك بالله، وسوف أَعْبُد اللهَ وَحْدَه مُخْلصًا.

والقاعدة عندنا في التَّفْسير: أنَّه إذا كانت الآيةُ تَحْمِلُ مَعْنيينِ لا يتنافيان تُحْمَلُ عليهما جميعًا.

وقوله: ﴿مَا شِئْتُم﴾ يعني الذي شئتم.

وقوله: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: مِن سواه، اعبدوا ما تشاؤون مِن سواه، مَلِك، وَلِي، شَجَر، حجر، شمس، قمر؛ أي أَحَد تعبدونه، فلا يُهِمُّني، وأنا سوف أبقى مُخْلِصًا لله، وأنتم اعبدوا ما شئتم.

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ غَيْره] أي: غير سواه [فيه تهديدٌ لهم، وإيذانٌ بأنَّهُم لا يعبدون الله تعالى]: [إيذان] يعني إعلان؛ أي: إنَّ هذه الجملةَ فيها تهديدٌ، وفيها أنَّهُم لا يعبدون الله وإنما يَعْبُدون غيره.

وقوله: ﴿قُلْ﴾ يعني: قل لهم مع تهديدك إيَّاهم: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ والجملة فيها تأكيدٌ وفيها حَصْر؛ فالتَّأكيد: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، والحصر أنَّ طَرَفَي الجملة مَعْرِفتانِ: ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾، فكأنه قال: إنَّ الخاسرينَ هم الذين خسِروا أنْفُسَهم وأهليهم يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الخاسِرُ بيَّنَه الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [العصر:٣] يعني: الخُسران ضِدُّ الربح، وذلك أنَّ المُعامِل إما أن

يأخُذَ رأس ماله، وإمَّا أن يَخْسَر فيأتيه أقَلُّ من رَأْسِ ماله، وإما أن يَرْبَحَ فيأتيه أكثر، والخُسْـران الحقيقي هو ما ذكره الله هنا ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، فهؤلاء هم الذين خَسِروا، وليس الخاسِرُ من فقد ملايينَ الدَّراهم، وليس الخاسِرُ من فقد أهله في الدنيا، وليس الخاسر من فقد نَفْسَه في الدنيا، بل الخاسِرُ من خسر نفسه وأهله يوم القيامة.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِتَخْلِيدِ الْأَنْفُس فِي النَّار وَبِعَدَمِ وُصُولِهِمْ إِلَى الْحُور الْمُعَدَّة لَهُمْ فِي الْجَنَّة لَوْ آمَنُوا] قوله: بتخليد الأنفس في النار؛ هذا بيانٌ لخسرانِهم أنْفُسَهم؛ لأنَّه خَسِرَ نفسه في الحقيقة؛ ووجه الخسران: أنَّ حياته في الدُّنيا لم يَسْتَفِدْ منها في الآخرة إطلاقًا، فخسر نفسه، خَسِرَ عُمُرَه كله راح هباءً منثورًا؛ فلو أنه مؤمن مُخْلِص لاستفاد، لكان كلُّ حياته الدنيا رِبْحًا؛ لأنَّه سوف يُخَلَّد في الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سَمِعَت ولا خطر على قلب بشر؛ أمَّا الآن فسَيُخَلَّد في النار؛ هذه خسارة النفس.

وأما خسارَةُ الأَهْل فقد فسَّرها المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: بأنه يَفوته الحُورُ العِينُ في الجنة لو آمن، وهذا وإن كان له وَجْهٌ لكنه بعيدٌ من الصَّواب؛ وذلك لأنَّ الحور في الجنة لم تكن أهلًا له حتى يقال: خَسِـرَهم، وإنما المراد: خَسِـرُوا أَهْليهم؛ لأنَّ أهليهم إن كانوا مؤمنين فهم في الجَنَّة ولم يَجْتَمِعوا بهم، وإن كانوا كفَّارًا فهم في النار ولم يجتمعوا بهم أيضًا، ولو كانوا مؤمنين وذُرِّيَّتهم مؤمنة لكانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور:٢١] يعني لن يَجْتَمِع أحـدٌ مع أهله في الآخِرَة إلا إذا كان هو وهم مُؤْمِنِينَ، فسيجتمعون اجتماعًا لا فِرَاقَ بعده، أما من لم يكن كذلك فلا اجتماعَ.

وعلى كلِّ حال: الصَّحيحُ أنَّ المراد بـ(أهليهم) يعني أهليهم الذين في الدنيا؛

حيث خسروا الاجتماع بهم في الآخِرَة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ إِيْ والله، ﴿أَلَا ذَٰلِكَ﴾ وهذا التَّأكيد البالغ؛ فقوله: ﴿أَلَا﴾ أداة اسْتِفْتاح، والفائِدَة منها: التَّوْكيد والتَّنْبيه ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة للبُعْد؛ لأَنَّه خُسْرانٌ سحيقٌ -والعياذ بالله- يعني لم يقل: ألا هذا، مع أن ذِكره قريبٌ لكنه خسرانٌ سحيقٌ، فأشير إليه بإشارَةِ البعد، ثم حَصَر، قال: ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ﴾ يعني: لا غَيْره، ثم أكَّدَ بفداحَتِه فقال: ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ أي: [البيِّن] الذي لا يَخْفَى على أحد، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الرَّابِحينَ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّه ينبغي للإنسانِ أن يُعْلِنَ بالحَقِّ الذي هو عليه، ولا يبالِي بمن خالَفَه؛ لقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ يعني: فلا أبالي بكم، أنا سأعبد الله وأسيرُ على الطَّريقَة السَّليمَة، وأنتم سيروا على ما شِئْتُم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ مِن أشَدِّ النَّاس امتثالًا لأَمْرِ الله؛ لأَنَّه قال فيما سبق: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ مُحْتاجٌ إلى العمل الذي يُنْجِيه من عذاب الله؛ لقوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ بالياء بالإضافَةِ، وهو كذلك، ولَمَّا حَدَّث أصحابه بأنه: «**لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ**»، قالوا: ولا أَنْـتَ يا رسول الله؟ قال: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تحريم عبادةِ غَيْـرِ الله؛ تؤخَذُ من قوله: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ لأَنَّنا ذَكَرْنا أنَّ الأَمْرَ هنا للتَّهْديد، ولا تهديدَ إلا على شيء مخالِفٍ ومَعْصِيَةٍ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ إلخ؛ بيان أنَّ الخَسارة الفادِحَة التي ليس معها رِبْحٌ هي خسارة هؤلاء الذين خَسِروا أَنْفُسَهم وأهليهم يومَ القِيامَة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الإشارَةُ إلى أنَّ الشِّرْكَ هو سبب هذه الخَسارَة؛ لأنه تلا قوله: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ أَهْلَ الشِّرْك يَوْمَ القيامة لا يَجْتَمِعون بأَهْليهم؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ عُمُرَ الإنسان حقيقةً هو ما أمضاه في طاعَةِ الله؛ ولهذا وصَف الله هؤلاء بأنَّهُم قد خَسِرُوا أَنْفُسَهم؛ لأنَّهُم لم يعملوا خيرًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ هذه الخَسارَةَ أعْظَمُ خَسارةٍ تكون؛ لقوله: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

فضمير الفصل حرفٌ ليس اسمًا على القَوْلِ الرَّاجِحِ، فليس له مَحَلٌّ من الإعراب، لكنه يُؤْتَى به لفوائِدَ ثلاثٍ:

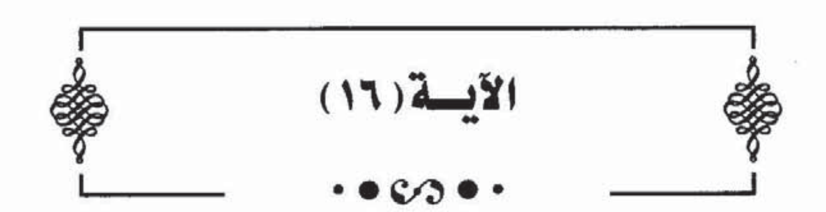
الأولى: حتى لا يَشْتَبِهَ الخَبَرُ بالصِّفَة؛ يعني: يَفْصِل بين الخَبَر والصِّفَة، ويظهر هذا بالمثال؛ فلو قُلْتَ: زيدٌ الفَاضِلُ فهنا يُحْتَمَل أن يكون الفاضِلُ صِفَةً، وأنَّ الخبر محذوفٌ؛ أي: زيدٌ الفاضِلُ في البيت مثلًا، فإذا قلت: زيدٌ هو الفاضِلُ. تعَيَّن أن تكون الفاضِلُ خبرًا.

الثانية: الحَصْر؛ فإنك إذا قُلْتَ: زيدٌ هو الفاضِلُ؛ يعني: لا غيره، بخلاف لو قلت: زيدٌ الفاضِلُ، فهو فاضل وقد يكون غَيْرُه فاضلًا أيضًا.

الثالثة: التَّوْكيد؛ لأنَّ قَوْلَ القائِلِ: زيدٌ هو الفاضل، أَوْكَدُ من قوله: زيدٌ الفاضل.

أما هو فليس له محلٌّ من الإعراب؛ ودليل ذلك في القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء:٤٠] ولو كان له مَحَلٌّ من الإعراب لكانَ مُبْتَدَأً ولَرُفِعَ الذي بعده، ولكانت الآيَةُ: لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إن كانوا هُمُ الغالِبونَ.

• ● ۞ ● •


الآيـة (١٦)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٦].

•••

ثم قال الله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ قوله: ﴿لَهُم﴾ الضَّميرُ يعود على الخاسِرينَ الذين خَسِرُوا أَنْفُسَهم وأَهْليهم يَوْمَ القيامة وهم الكُفَّار.

قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ من فوق رُؤُوسِهم، وكلمة: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ تدلُّ على أن هذه الظُّلَل مُحِيطةٌ بهم.

وقوله: ﴿ظُلَلٌ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [طِباقٌ ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾] وهذه الطِّباقُ من النار لا نعلم كَيْفِيَّتَها، فلا نعلم هل هي حديدٌ مُحَمَّاة، أو حجارة، أو غير ذلك؟ لكن إذا تأمَّلْنا قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤] فقد نقول: إنَّها من الحِجارة، وليست أيضًا كحِجارَتِنا، بل هي حجارةٌ لا تُعْلَم كَيْفِيَّتُها.

وقوله: ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أي: [من النار] كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١]. أي: شَيْءٌ يَغْشاهم؛ أي: يُغَطِّيهم.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المشارُ إليه مِنْ ذِكْرِ هذه الظُّلَل.

قوله: ﴿بِهِۦ﴾ الضمير يعود على العذاب المَذْكورِ، والباء للسَّبَبِيَّة؛ أي: يخوف بِسَبَبِه، ويجوز أن تقول: للتَّعْدِيَة؛ أي: يُخَوِّف به نَفْسِه.

وقوله: ﴿عِبَادَهُۥ﴾ قال: [أَيِ المُؤْمِنِينَ لِيَتَّقُوهُ يَدُلُّ عليه: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾] المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ سلك في تفسير الآية أنَّ المرادَ بالعباد هنا: شيءٌ خاصٌّ وهم المؤمنون، مع أنَّ ظاهِرَ الآيَةِ العُمُومُ، وأنَّ المراد بالعباد هنا من يتعَبَّدون لله بالمعنى العامِّ، وهي العبودية الكَوْنِيَّة؛ لأنَّ العبادة نوعان: عبادةٌ يَتَعَبَّد الإنسانُ لله بالشَّرْع، وهذه خاصَّةٌ بالمؤمنين؛ وعبادَةٌ يتَعَبَّد الإنسان لله بالكَوْن؛ أي: يكون عبْدًا لله كَوْنًا وقَدَرًا، يفعل الله فيه ما شاء.

فقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] هل المراد بالآية هنا: العبادة العامَّة، وأنَّ الله يوجِّهُ الخطاب إلى جَميعِ العِبادِ؛ جميع النَّاس أن يتَّقُوه، أو هي خاصَّةٌ؟ يرى المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها خاصَّة، ولكن لا دليل على ذلك، وإذا لم يكن هنالك دليلٌ فالأَوْلى إبقاءُ النَّصِّ على عمومه، فكما أنَّ المؤْمِنَ يُخَوَّف بهذا الوَعيدِ فكذلك الكافر، فالكافِرُ أيضًا يُخَوَّفُ، بل إنَّ تَخْويفَ الكافر أَوْكَدُ من تخويف المُؤْمِنِ؛ لأنَّ مع المؤمن ما يُنْجيه من الخُلْدِ في النار، لكنَّ الكافِرَ ليس معه ما يُنْجيه من الخُلودِ في النار.

إذن: الأَرْجَحُ العموم؛ وَجْهُه: أنَّ هذا هو ظاهِرُ النَّصِّ، وأنَّ الكافِرَ أَوْلَى أن يُخَوَّف بالنَّارِ من المُؤْمِنِ؛ لأنَّ مع المؤمن ما ينجو به من الخلود في النَّار، وليس مع الكافر شيءٌ ينجو به، فكيف نَصْرِفُ التَّخويف عمن هو أحَقُّ بالتَّخويفِ؟!

إذن: فالصَّحيح أنَّ المراد بالعباد العُمُوم؛ يعني: يُخَوِّف اللهُ بهذا العذابِ جَميعَ النَّاسِ. ثم وجَّه اللهُ الخطابَ إلى النَّاس عُمُومًا، فقال: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾: ﴿يَٰعِبَادِ﴾

يعني: جميع العباد؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ﴾ [لقمان:٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء:١]، والآيات كثيرةٌ في تَوْجيهِ الأَمْر بالتَّقْوى إلى جميع النَّاس، والكافر محتاجٌ للتَّقْوى؛ كما أنَّ المؤْمِنَ كذلك؛ فقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَدُلُّ عليه] فيه نظر، ففي حكم المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ نَظَرٌ، وفي الاستدلال لهذا الحُكْم نَظَرٌ.

وقوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ غريبٌ أن تأتي النونُ مع فِعْلِ الأمر، والمعروف أنَّ فِعْل الأمر المقرون بواو الجماعَةِ أو ألفِ الاثْنَينِ أو ياء المخاطبة تُحْذَفُ منه النون؛ وهذه النونُ هي للوِقايَة؛ وأَصْلها: فاتَّقُوني؛ والدليل: كَسْرُ النون؛ لأنَّها لو كانت نونَ الرَّفْعِ لكانت بِفَتْحِ النون، فإنَّ نون الرفع تكون مَفْتوحَةً.

ومن مثال ذلك أيضًا: قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورة الأنبياء: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء:٣٧] بعض الطَّلَبَة يُشْكِل عليه كيف قال: (لا تَسْتَعْجِلونِ) لا الناهية، وتأتي النون مع النَّاهِيَة؟ نقول: النون هنا للوِقَايَة بدليلِ أنَّها مَكْسُورة، ولو أنَّكَ واصلتَ فقلت: فلا تَسْتَعْجلونِي وَجَبَ الكَسْرُ، وكذلك في سورة الذَّارياتِ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات:٥٩]؛ فالنون هنا للوِقايَة وليست نونَ الرَّفْع.

أمَّا قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ فقد سبق معنى التَّقْوى مرارًا، فلا حاجة لإعادتها؛ ومن جملة التقوى تَرْكُ الكُفْر؛ لأنَّ التقوى اتخاذ الوِقايَة من عذاب الله؛ ومن جُمْلَتِها الإيمانُ؛ ولهذا جاءت الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ﴾ [لقمان:٣٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي: عمومًا؛ وجاءت آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ

عَظِيمٌ﴾ [الحج:١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:١].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ عُقوبَةِ الخاسرينَ الذي خسروا أَنْفُسَهُم وأهليهم يوم القيامة؛ قال تعالى في بيان عُقُوبَتِهِم: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: شِدَّةُ العذاب على أَهْلِ النَّار؛ لأَنَّ العذاب يغشاهُم من فَوْقِهِم ومن تحت أَرْجُلِهِم، وإذا كان الإنسانُ لا يَتَحَمَّل النَّار إذا أَتَتْه من وجهٍ ولو بعيدًا، فكيف إذا أتته من الوَجْهَينِ الفَوق والتَّحت!

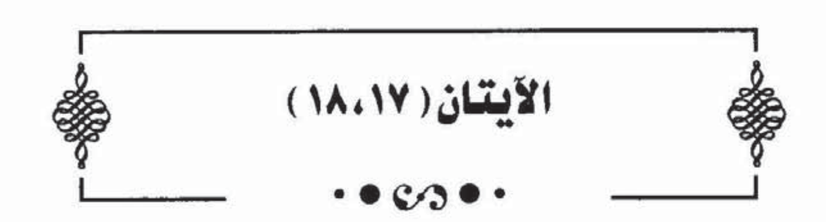
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه يجب على الإنسان أن يخاف مما خَوَّفه الله حتى يُحَقِّقَ العبوديَّة؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّه يَنبغي للإنسان أن يسيرَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ على جانبٍ من الخَوْف من العذابِ، وقد ذكَرنا كثيرًا: هل يُغَلِّبُ السَّائِرُ إلى الله جانب الخَوْف أو جانب الرجاء على ما سبق.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ رَبُّ كُلِّ شيء، وأَنَّ كُلَّ شيءٍ فهو عابدٌ لله؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وجوب التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

• • ❁ • •



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:١٧-١٨].

• • • •

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا﴾ أي: ابْتَعَدُوا عن الطَّاغُوت؛ لأنَّه مأخوذٌ من الجَنْب وهو الشَّيْء المُنْفَصِل عن الشَّيْء؛ يعني تقول: إلى جانبي فلان؛ أي: إنَّه مُنْفَصِل غيرُ مُتَّصِل.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي: ابْتَعدوا عنه. والطاغوت اسمٌ من الطُّغْيانِ والتاءُ فيه للمبالَغَة، فما هو الطَّاغوتُ الذي اشْتُقَّ من الطُّغْيانِ؛ يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الطَّاغُوتُ كُلُّ ما تجاوَزَ به العَبْدُ حَدَّهُ من معبودٍ أو مَتْبُوعٍ أو مُطَاعٍ»[1].

فكل ما تجاوز به الإنسان حَدَّه، وإنما قال: ما تجاوز به حَدَّه من أجل أن يَصْدُق عليه أنه طُغْيانٌ من مَعْبودٍ أو مَتبوعٍ أو مُطاعٍ؛ فمثلًا: الأصنامُ التي يَعْبُدها الكُفَّار تسمَّى: طواغيت، المَتْبوعينَ من العلماء طَوَاغِيت، المَتبوعينَ المطاعِينَ من الأمراء كذلك أيضًا طَوَاغيتُ.

لكن كلام ابن القيم ليس على ظاهره، مرادُهُ بالمعبود الذي لا إرادَة له كالأصنام

(١) إعلام الموقعين (١/ ٤٠).

من الجماداتِ، أو المعبود الذي رَضِيَ بِعِبادَتِهِم، وأما المعبود الذي عُبد وهو لا يَرْضى بالعبادة فلا يُسَمَّى طاغُوتًا؛ ولهذا لا يُمْكِنُ أن نُسَمِّيَ عيسى بْنَ مريم: (طاغوتًا)؛ وكذلك أيضًا: (المَتبوعُ)؛ فالعلماء الذين لا يرضون أن يَعْبُدَهم النَّاس ليسوا طواغيتَ، و(المُطاعُ) أيضًا، الأمراء الذين لا يَرْضَوْنَ أن يَعْبُدَهم النَّاس لا يُسَمَّوْن طواغيتَ.

فكلام ابن القيم إذن ليسَ على إطلاقه، ويمكن أن نقول: إنَّ قَوْلَ ابنِ القَيِّم: «ما تجاوز به العَبْدُ حَدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ». أنه عائِدٌ على العمل؛ يعني: أنَّ الطاغوتَ عَمَلُ الإنسان في معبوداته أو من يُطيعُهُم أو من يَتْبَعُهُم؛ يعني معصية الله في طاعَةِ هؤلاء، فيكون الوَصْف الطغيانُ عائِدًا على الفِعْل لا على المفعول، وحينئذٍ نَسْلَمُ من الإشكال الذي قلنا: إنَّه لا بدَّ أن يُقَيَّد المَعْبودُ والمتبوعُ والمطاعُ بأنه راضٍ.

وعلى كلِّ حالٍ: فإن الطاغوت مأخوذ من الطُّغْيان وهو مجاوَزَةُ الحَدِّ، والصيغة فيه صيغَةُ مبالَغَة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الأَوْثان] ففسَّر الطَّاغوت بالمعبودات وهي الأَوْثان؛ ولهذا قال: ﴿أَن يَعۡبُدُوهَا﴾: (أن) هذه مَصْدَرِيَّة، وتأويلُ المَصْدَر بعدها منصوبٌ على أنه بدلٌ من الطاغوت، بدل اشْتِمال، فنقول: ﴿أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ في مَحَلِّ نصبٍ بدلٌ من ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

وقوله: ﴿أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ هم يعبدون الأَصْنامَ بِدُعائِها، ولكن يَدَّعُونَ أنَّهُم لا يعبدونها إلا لِتُقَرِّبَهُم إلى الله. وقوله: [﴿وَأَنَابُوٓاْ﴾ أَقْبَلُوا إلى الله] والإنابة تكون بمعنى الإِقْبال؛ كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتكون بمعنى الرُّجوع؛ أي رَجَعوا إلى الله، والرُّجوع إلى الله يَسْتَلْزِم الإقبال عليه؛ لأنَّ الإنسانَ يَفِرُّ بالمَعْصِيَة بعيدًا عن الله، فإذا تاب وأناب ورجع إلى الله فهو مُقْبِلٌ.

وقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ الجملة هذه خَبَرِيَّة قُدِّم فيها الخَبَر ﴿لَهُمُ﴾ لإفادةِ الحَصْر؛ لأنَّ ما كان حَقُّه التَّأخيرَ إذا قُدِّمَ أفاد الحَصْر. وقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ الجملة هذه خَبَر ﴿ٱلَّذِينَ﴾، فالذين اجتنبوا الطاغوت لهم البشرى؛ فتكون هذه الجملة في مَوْضِعِ رَفْعٍ على الخَبَر. والبشرى: ما تَحْصُل به البِشَارة، والبشارة هي في الأصل: الخَبَرُ السَّارُّ، وسُمِّيَ الخبر السارُّ بِشارَةً؛ لأنَّه يظهر أثَرُه على البَشَرَة التي هي الجِلْد، فإنَّ الإنسان إذا أُخْبِر بما يَسُرُّه استنار وَجْهُه وتغَيَّر فسُمِّيَتْ بُشْرَى.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الجَنَّة] هذا لا شك أنه مما يَدْخُل في البشرى، لكنه أعَمُّ مِمَّا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يونس:٦٤] فمن البُشْرَى الرُّؤْيا الصَّالِحَة يراها الإنسانُ لِنَفْسِه أو يراها له مُؤْمِن، فإن هذه مِنَ البُشْرى.

وكما قال النَّبي ﷺ: «**تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ**»[(١)]، وقال: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا أَوْ تُرَى لَهُ**»[(٢)]؛ مثل: أنْ يرَى مَن يُبَشَّرُ بالجنة؛ أنْ يرى أنَّه في نعيم، وما أشبهَ ذلك، هذا من البُشْرَى.

ومِنَ البُشْرَى أيضًا: أنْ يُوفَّقَ للعَمَلِ الصَّالِح، فإذا رأيتَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفَّقَكَ للعَمَلِ الصَّالِح المبنِيِّ على الإخلاص والمتابَعة لرَسولِ الله ﷺ فإنَّ هذا من البُشْرى.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره، رقم (٢٦٤٢)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، رقم (٤٧٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ومن البشرى أيضًا: أنْ يُوفِّقك اللهُ عَزَّوَجَلَّ لمصاحَبَةِ الأَخْيارِ، فكما جاء في الحديث: «إِنَّ الْمَرْءَ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»(١)، فإذا وجَدْتَ أنَّ الله وفَّقَك لمصاحَبَةِ الأخيار، فإن هذا عنوانٌ على السَّعادَة.

ومن البشرى أيضًا: أنْ يُحِبَ الإنسانُ من يُحِبُّه اللهُ، فإنَّ النَّبي ﷺ سُئِلَ عن الرَّجُلِ يُحِبُّ القَوْم ولَمَّا يَلْحَقْ بهم، فقال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ»(٢)؛ قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا فَرِحْنَا بعد الإسلام بِشَيْءٍ أحَبَّ إلينا من هذا الحديث»؛ ثم قال: «فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وأُحِبُّ أبا بَكْرٍ وعُمَرَ»(٣)؛ فهذه من البُشْرَى.

المهم: أنَّ البُشرى كلُّ خبرٍ سارٍّ، فيشمل ما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الجَنَّة] وهي الغاية لكلِّ إنسانٍ، ويشمل ما كان علامةً على ذلك. قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ أمر اللهُ النَّبي ﷺ بأن يُبَشِّرَ عباد الله بالجَنَّة، وبكل ما يَسُرُّهم حتى في الدنيا، فالمؤْمِنُ مسرورٌ دائمًا وإن أصيب ببلاءٍ فإنه مسرورٌ؛ لأنَّه إذا أصيب بالبلاءِ فَصَبَرَ كان خيرًا له.

قوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ الدال مكسورة مع أنها مفعولٌ به؛ لأنَّ أَصْلَها (عبادِي) فحُذِفَتِ الياءُ للتَّخْفيفِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١]. أي: مِنْ (والِي)، وإن كان الياء في (والِي) غير الياء في (عبادي)؛ لأنَّ الياء في (والٍ)

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٠٣)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم (٤٨٣٣)، والترمذي: كتاب الزهد، باب (٤٥)، رقم (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب علامة حب الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٦١٦٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، رقم (٢٦٤٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «المرء مع من أحب».

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب علامة حب الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٣٦٨٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، رقم (٢٦٣٩/ ١٦٣)، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله ﷺ: «أنت مع من أحببت».

من أَصْلِ الكَلِمَة، وأما هنا فهي كلمةٌ أخرى: الياء.

والمراد بالعباد هنا: خُصوصيَّة العبودِيَّة؛ أي: عباد الله الصَّالحين لا كُل عَبْد.

ثم بيَّن تعالى من صِفاتِهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ هذا من علاماتِ عبادِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ أنَّهُم لا يُضيِّعونَ الفُرَص.

قوله: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: يُصْغونَ إليه، ولم يَقُلْ يَسْمَعونَ؛ لأنَّ الاستماع هو متابعة المُتكَلِّم والإنصاتُ إليه، بخلاف السَّماعِ، ونَضْرِبُ مثلًا لرَجُلٍ مَرَّ بقارئ يقرأ فسَمِعَه يقرأ، ورجل آخر مَرَّ بقارئ يقرأ فجَلَسَ إليه يُنْصِتُ؛ فالأول سامِعٌ، والثاني: مُسْتَمِعٌ؛ ولهذا قال العلماء بناء على هذا الفَرْق: إذا قرأ القارئ آية فيها سَجْدَة وسَجَدَ، فإن السَّامِعَ لا يَسْجُد والمُسْتَمِع يَسْجُد؛ لأنَّ المُسْتَمِع متابعٌ، والسَّامِع ليس بمتابعٍ.

إذن: هؤلاء الذين يَسْتَمِعون القول لا يضيعون فُرْصَة، والمراد بـ﴿ٱلْقَوْلَ﴾: القول (أل) هنا للعَهْد، وتشبه أن تكون للعهد الذِّكْري؛ لقوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ أي: أنَّهُم يَسْتَمِعون القَوْل الحَسَن، ليس كلَّ قَوْل

إذن: المرادُ بالقول هنا: القَوْل الحَسَن، أما اللَّغْوُ أو السَّيِّئ، فإن الله يقول: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [القصص:٥٥]، فإذا كانوا يُعْرِضون عن اللَّغْو لأنَّه لا فائِدَة فيه، فالمُحَرَّم من باب أَوْلى.

إذن: هؤلاء قومٌ عندهم حَزْم، عندهم شُحٌّ في الوقت، لا يستمعون إلا إلى القَوْل الحسن؛ فإذا استمعوا إلى القَوْل الحَسَن، فنحن نعلم أنَّ الحَسَن فيه ما هو

أحسن وما حَسُن، فهم يتَّبِعون: ﴿أَحْسَنَهُۥٓ﴾، فمثلًا: إذا سَمِعوا التَّرغيبَ في صلاة اللَّيل، وأنَّ أَكْثَرَها مثلًا إحدى عَشْرَة رَكْعَةً، وأدناها ركعة واحدة، فالذي يتبعونه: الإِحْدى عشرة؛ لأنَّها أَحْسَن، وإذا سمعوا الإنفاقَ في طلب العلم، والإنفاق على فقيرٍ ليس في ضرورةٍ يتبعون: على طَلَبِ العِلْم؛ لأنَّهم يتبعون الأَحْسَن.

إذن: لم يفرطوا في الوَقْت، ولم يفرطوا في الأَفْضَل، بل كانوا يَسْتَمِعون كلَّ قولٍ حَسَن، ويتبعون الأَحْسَن منه، فإن تبعوا الحَسَن وتركوا الأَحْسَن، فإنَّهم لا يُلامون على ذلك، لكنهم ليسوا في قِمَّة الكمال؛ إذ الذي في قمة الكَمالِ هو الذي يتَّبِعُ الأَحْسَن؛ قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ وهو ما فيه صَلَاحُهُم] لكنَّ الأَصْلَح يَتَّبِعون الأَصْلَح فالأَصْلَح.

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإشارَةُ للبعيدِ، وإنما أشار إليهم إشارَةَ البَعيدِ مع قُرْبِ ذِكْرِهم للدَّلالة على عُلُوِّ مَنْزِلَتِهم، وهذا يقع كثيرًا في القرآنِ، يُشيرُ الله إلى الشَّيْءِ القَريبِ بِصيغَةِ البَعيدِ لعُلُوِّ مَرْتَبَتِه؛ كما قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢]؛ لأنَّه يقول: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الكتابُ قريبٌ، لكن إشارة لعُلُوِّ مَرْتَبَتِه؛ وأحيانًا يشير بالقريب لقُرْبِهِ من مريدِهِ، كما في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥].

يعني ليس بعيـدًا عليهم؛ قريبٌ، قريبٌ لهم، ﴿مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾، وهنا يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أشار إليهم إشارَةَ البعيد إشارةً إلى عُلُوِّ مَرْتَبَتِهِم.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ هذه الجُمْلَة خبَـرِيَّة طرفاها مَعْرِفَة، وقد

قال العلماء: إنَّ الجُمْلة الخَبَرية إذا كان طرفاها مَعْرِفَة فإنها تفيد الحَصْر ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني: لا غَيْر.

وقوله: ﴿هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ يشمل هدايةَ الدَّلالة وهداية التَّوْفيق؛ يعني بَيَّن لهم الحقَّ وعَلِمُوه ثم اهْتَدَوْا به، والنَّاس في هذا المقام ثلاثَةُ أَقْسامٍ:

١- قِسْمٌ ضلُّوا عن الهدى عِلْمًا وعَمَلًا.

٢- قِسْمٌ هُدُوا إلى الحَقِّ عِلْمًا وعَمَلًا.

٣- قِسْمٌ هُدُوا إلى الحَقِّ عِلْمًا ولم يَهْتَدوا إليه عَمَلًا.

فهل يمكن أن نقول: وقِسْمٌ اهتدوا إلى الحَقِّ عملًا، ولم يهتدوا إليه عِلْمًا؟

الجواب: لا يمكن؛ لأنَّه لا عَمَلَ بالحَقِّ إلا بعِلْمٍ بالحَقِّ، فالقِسْمَة رُباعية، لكن الطرف الرابع منها مُمْتَنِع.

إذن: في قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ هداية دلالة وتَوْفيقٍ، وإن شِئْتَ فقل: هداية علم وعمل، فالدلالة العِلْم، والتَّوْفيق العَمَل.

وقوله: ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: ﴿وَأُولَٰٓئِكَ﴾ كرَّرَ اسْمَ الإشارة تنويهًا بعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِم.

وقوله: ﴿هُمْ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أصحابُ العُقُولِ؛ لأنَّ الإنسانَ كُلَّما كان للحَقِّ أَتْبَعَ كان أكْمَل عقلًا، وكلما نَقَصَ اتِّباعُ الحَقِّ في عقله كان أَدَلَّ على قِلَّةِ عَقْلِه، فأَعْقَلُ النَّاس أَتْبَعُهُم لدين الله لا شكَّ؛ لأنَّهُم هم الذين عندهم الحَزْم وانتهاز الفُرَصِ وحِفْظُ الوقت؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أصحاب العقول].

فإن قال قائل: أليس الكُفارُ ذَوي عَقْلٍ؟

فالجوابُ: بلى، لكنهم ذوو عَقْلٍ إدراكيٍّ، لا عَقْلٍ رُشْدِيٍّ؛ ولهذا كانوا مُكَلَّفِينَ ومُلْزَمينَ؛ لأنَّ عِنْدَهم عقل إدراك، لكنهم غير مُوَفَّقينَ؛ لأَنَّهُم فقدوا عقل الرُّشْد.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الثَّناءُ على مُجْتَنِبِ الطَّاغوت؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن لهم هذا الثَّوابَ العظيمَ، وهو قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ التَّوْحيدَ لا يتِمُّ إلا باجتناب الطاغوت والإخلاصِ لله تعالى؛ لقوله: ﴿ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الذين اتَّصفُوا بهذه الصِّفَة؛ اجتنابِ الطَّاغوتِ والإنابَةِ إلى الله، هم أهل البُشْرى؛ لقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ ولم يُبيِّنِ الله وقت البشرى؛ فهو شاملٌ للبشرى في الدنيا وفي الآخِرَة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: حرمان من أَشْرَك بالله من هذه البشرى؛ لأَنَّه جعَل البُشرى للذين: ﴿ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات العبوديَّة الخاصَّة؛ لقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾، والعبوديَّة الخاصَّة تكون منقَسِمَة إلى خاصَّةٍ أخصَّ، وإلى خاصَّةٍ ليست بأخصَّ، فالمؤمنون جميعًا كلُّهُم عباد الله، والرُّسُل عبوديَّتُهم أَخصُّ؛ فقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]. هذه من الأَخَصِّ، وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [ص:٤٥] هذه من العبادة الأَخَصِّ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن عباد الله حريصونَ على استماع ما فيه المَصْلَحة والمَنْفَعَة؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن هؤلاء السَّادَة لا يُضِيعونَ وقتًا؛ حتى إنهم يَسْتَمِعون إلى عملِ غَيْرِهم وهو قول غَيْرِهم، فكيف بِعَمَلِهِم أَنْفُسِهم؟! فلا بد أن يكونوا قائمين به.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن عباد الله عَزَّوَجَلَّ الذين ذكرهم الله بما ذكر يأخُذونَ من القَوْل بأَحْسَنِه؛ لقوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن هؤلاء القَوْمَ هم الذين هداهم الله؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾.

ويتفرَّع على هذه القاعِدَة: أَنَّك إذا رأيت من نَفْسِك الحِرْص على استماع قَوْلِ الخَيْرِ واتِّباعِ أَحْسَنِه فاعلم أن هذا مِن هِدايَة الله لك؛ لأَنَّه قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾، وإذا رأيت من نَفْسِك كَراهَةَ الاسْتِماعِ إلى القول الحَسَنِ فاتَّهِمْ نَفْسَكَ؛ لأنَّ الله جعَلَ الهدايةَ في هؤلاءِ القوم، فإذا لم يَحْصُلْ لك هذا فاتَّهِمْ نَفْسَك، وصَحِّحِ الخطأ، وأَقْبِلْ إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

ونِعمة الهداية أبلغُ مِن الإنعامِ بالأَكلِ والشُّرب، لأَنَّه كلٌّ يأكل ويشرب حتى البهائم، لكنِ الهدايةُ ليس كلُّ أحدٍ يهتدي، فإنعام اللهُ علَى الإنسانِ بالهِدَايةِ العِلميَّة والعَمَليَّة أعظمُ مِن إنعامِه عليه بالأكلِ والشُّرب.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن أفعال العباد واقعةٌ بتقديرِ الله، وأَنَّهُم لا يَسْتَقِلُّون بها، تؤخذ من قوله: ﴿هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ ولهذا ذهب أهل السُّنَّة والجماعة: إلى أن أفعالَ العبادِ مخلوقةٌ لله مرادَةٌ له، خلافًا لمن قال: إنَّ أفعال العبادِ ليست مُرادَةً لله ولا مخلوقةً له، وهم القَدَرِيَّةُ مجُوسُ هذه الأُمَّةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: بيان مِنَّةِ الله عَزَّوَجَلَّ على هؤلاء الذين وُفِّقُوا لاستماع القَوْل واتِّباعِ أَحْسَنِه؛ يعني: إظهار مِنَّة الله عليهم في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنه يجب عقلًا أن تَحْمَدَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا هداك إلى مِثْل هذا؛ لأَنَّك إذا عَلِمْتَ أنَّ الهداية من الله فالعَقْل يقتضي أن تَحْمَدَه وتشكره، وهذه النِّعْمَة أبْلَغُ من الإنعام بالأَكْل والشرب؛ لأنَّ الأَكْل والشُّرْب، كلٌّ يأكل ويشرب حتى البَهائِم، لكِنَّ الهدايَةَ ليس كُلُّ أحدٍ يَهْتَدي، فإنعامُ الله على الإنسان بالهداية العِلْمِيَّة والعملية أعْظَمُ من إنعامِهِ عليه بالأَكْل والشُّرْب.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن الُمتمسِّكين بدِين الله تعالى الُمتَّبعين لأحسَنِ القول هُمْ أصحاب العُقول، فمِنَ الُمتعارَف عند الناس الآنَ أنهم إذا رأَوْا إنسانًا ذكيًّا مُتأَنِّيًا في الأمور يَقولون: هذا عاقِل ما شاء الله. ولو كان من أَفجَرِ الناس، والحقيقة أننا نَقول: العاقِل مَن وفَّقه الله تعالى للعِلْم والعمَل ولو كان من أبلَدِ الناس، لو كان من أبلَدِ الناس باعتِبار الذَّكاء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنه لا تَلازُمَ بين الذَّكاء والعَقْل، فالذَّكاء شيء والعَقْل شيءٌ آخَرُ، حتى في عَقْل الإِدْراك لا تَلازُمَ بين الذَّكاء وعَقْل الإدراك؛ لأن من الناس مَن تَجِده ذكيًّا شديد الُملاحَظة يَفهَم الشيء بسرعة ويُعطِي الجَواب بسرعة، لكنه في التَّصـرُّف أحمَقُ ليس عنده عَقْل، ومِن الناس مَن يَكون بالعَكْس؛ عنده شيء من البَلادة ولكنه في التَّصرُّف عاقِل مُتَأَنٍّ، ولكنَّ أعقَلَ الناس أَطوعُهم لله تعالى، فلا شَكَّ أن أَعقَلَ الناس أطوعُهم له تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: الإشارة إلى انقِسام الناس إلى قِسْمين: مُوفَّق ومُخفِق؛ لأن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يَدُلُّ على أن

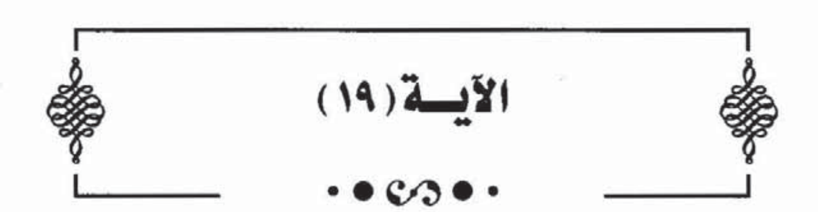
هناك قِسْمًا آخَرَ، وهم الذين لم يُوفَّقوا، ولم يَهدِهمُ الله تعالى، والآية أَشارَت إليه، والواقِعُ يَشهَد له.

فإن قال قائِل: لماذا لم يَجعَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الناس على دِينٍ واحِد أُمَّةً واحِدة؟

قلنا: لأن هذا يُنافِي الحِكْمة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، ولو لم يُوجَد هذا الانقِسامُ ما مُلِئت النار، ولا دخَلها أحَد، وما عرَف الإنسان قَدْر نِعْمة الله تعالى عليه بالإيمان والعمَل الصالِح، وما مدَحَ مَن آمَن وعَمِل صالِحًا؛ لأن الرجُلَ لا يَستَطيع أن يَخرُج عمَّا عليه الناس، ولو لم يُوجَد هذا لم يَكُن هناك سُوقٌ للجِهاد؛ لأنك لا يُمكِن أن تُجاهِد مَن هو مِثْلك في الإيمان والعمَل الصالِح، ولم يَقُمْ سُوق الأَمْر بالمَعروف والنَّهيِ عن المُنكَر، ولا سُوق الدَّعوة إلى الله تعالى، إلى غير ذلك من المَصالِح الكثيرة التي تَفوت بفَوات هذا الانقِسامِ.

أمَّا مِن حيثُ القُدْرة الإلهية فإن الله تعالى قادِر على أن يَجعَل الناس أُمَّةً واحِدة على الدِّين، على الدِّين الحقِّ، ولكن الحِكْمة الإلهية تَأبَى ذلك، وقد علِمْتم شَيئًا من كثيرٍ من حِكْمةِ تَفرُّق الناس إلى مُؤمِن وكافِر.

• • ❁ • •



الآية (١٩)

• ● ○ ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ [الزمر:١٩].

• ● ○ ● •

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ ما هي كلِمة العَذاب؟ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩].

وقيل: كلِمة العَذاب هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧]، وهذا القولُ أقرَبُ للصواب؛ لأن هذا القَوْلَ أخصُّ ممَّا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] لا تَدُلُّ على شخصٍ بعَيْنه، بل تَدُلُّ على أن كلِمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اقتَضَت أن تُملَأَ النَّار، لكن ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هؤلاء قَوْم بعَيْنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

فالصحيح أن المُراد بـ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ هي ما ذكَره الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس:٩٦] أنهم من أهل النار هؤلاءِ لا يُمكِن أن يُؤمِنوا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾ كلِمة: ﴿أَفَمَنْ﴾ فيها ثلاث كلِمات: (الهَمْزة والفاء

ومَنْ) فالهَمْزة للاستِفْهام، والفاء عاطِفة، و(مَن) يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنها: إنها [شَرْطية]. ويَقول آخَرون: إنها مَوْصولة، ويَكون مَعناها حينئِذٍ: (أَفالَّذي حَقَّ عليه كلِمة العذاب).

فإن قيل: إن حديث: «**خَيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ**»(١) قد يُخالِف هذه الآيةَ في المَعنَى؟

قُلنا: لا، لأن مَعنَى قوله ﷺ: «**خَيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ**» أن العرَب كانوا قبائِلَ، وبعض القبائِل أشرَفُ من بعضٍ، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من كان له حسَبٌ وشَرَف في الجاهِلية، فهذا حسَبُه وشرَفُه له إذا فَقِه في دِين الله تعالى.

والرجُل الذَّكيُّ لا يَنطَبِق عليه هذا الحديثُ؛ لأن كونَه ذكيًّا، ثُم يَكون عاقِلًا قد يُحمَد وقد لا يُحمَد، ولاحِظْ أنه أحيانًا قد يَكون الذَّكاء المُفرِط سببًا للضلال -والعِياذُ بالله-؛ لأن الرجُل الذَّكيَّ يُورِد على نفسه أشياءَ، ويَفتَح على نفسه أشياءَ مثل: لو كان كذا لكان كذا، ولو كان غافِلًا عن هذا لكان أحسَنَ له؛ ولهذا ما ضَرَّ أصحابَ الكلام والمَنطِق والفلاسِفة إلَّا حِدَّةُ ذَكائِهم، لكن السليم هو الذي يَستَمِرُّ، وقد تَمنَّى بعض أهل الكَلام أن يَموت على دِين عجائِزِ نَيْسابورَ.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ الهمزة هنا كما بيَّنَّا للاستِفهام، ويُحتَمَل أن يَكون المُرادُ به الاستِفْهامَ الحقيقيَّ، أو أن المُراد به الإنكار، ويَتبَيَّن ذلك من تفسيرها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ الآية، رقم (٣٣٧٤)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، رقم (٢٣٧٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ﴾ أي: وجَبَ عليه، وذُكِر الفِعْل مع أن لَفْظة ﴿كَلِمَةُ﴾ مُؤنَّث؛ لوَجْهين:

الوجه الأوَّل: أن تأنيث لفظة ﴿كَلِمَةُ﴾ تأنيث مَجازِيٌّ.

والوجه الآخَر: أنه مُنفَصِل عن عامِله، ولا يَجِب تأنيث الفِعْل إلَّا إذا كان الفاعِل مُؤنَّثًا حقيقيًّا مُتَّصِلًا، كما قال ابنُ مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَإِنَّمَا تَلْزَمُ فِعْلَ مُضْمَرِ مُتَّصِلٍ أَوْ مُفْهِمٍ ذَاتِ حِرِ [١]

يَقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾، أي: وجَب عليه كلِمة العَذاب وهي أنهم لا يُؤمِنون ولو جاءَتهم كلُّ آية، أو كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] والأوَّلُ أَظهَرُ.

وقوله تعالى: ﴿كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ يَعنِي: الكلمة التي يَستَحِقُّون بها العَذاب، وهي أن كلَّ مَن خالَف أَمْر الله تعالى فإنه مُستَحِقٌّ للعَذاب.

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾؛ فقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ﴾ الخِطاب للرسول ﷺ، يَعنِي: هل تُنقِذه إذا حقَّتْ عليه كلِمة العَذاب؟

الجواب: (لا)، وإذا كان الجَوابُ: (لا)، فهو عَلامة على أن الاستِفْهام للنَّفيِ، وهنا نَسأَل الهَمْزة في ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾، والهَمْزة في ﴿أَفَأَنْتَ﴾ هل لكل واحِدة مَعنًى مُستَقِلٌّ، أو أن الثانية تَوْكيد للأُولى؟

الجواب: إن كانت الجُمْلتان جُمْلةً واحِدة فالثانية تَوْكيد للأُولى، وإن كانت كلُّ جُملة مُستَقِلَّة عن الأخرى فالثانية أَصليَّة، يَعنِي: تَأسيسية لا تَوْكيدية، ومَهما يَكُن من

(١) الألفية (ص:٢٥).

أَمْر فإن مثل هذا التَّركيبِ أَعنِي: إذا أَتَت همزة الاستِفْهام وبعدها حَرْف عَطْف -قد سبَقَ لنا مِرارًا- أن لعُلَماء النَّحْو في ذلك قَوْلين في الإعراب:

القول الأَوَّلُ: منهم مَن يَرَى أن الهَمْزة داخِلة على جُملة مُقدَّر تُناسِب المَقام، وحَرْف العَطْف على تِلكَ الجُمْلةِ المَحذوفة.

القولُ الآخَرُ: ومِنهم مَن يَرَى أن الهَمْزة داخِلة على الجُمْلة التي بعد حَرْف العَطْف، فيَكون حرف العَطْف على ما سبَقَ، وقُدِّمَت الهَمْزة للصدارة.

والقول الثاني أيسَرُ؛ لأن القول الأَوَّلُ صعوبتُه أنه قد يَتعَذَّر على الإنسان مَعرِفة المُناسِب للسِّياق، أو ربَّما يُقدِّر ما يَظُنُّه مُناسِبًا، وليس بمُناسِب.

وقوله تعالى: ﴿تُنقِذُ﴾ فسَّرَها المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بمَعنَى: [تُخرِج]، لكنه تَفسير قاصِر؛ لأن كلِمة (تُخرِج) لا تَدُلُّ على أنه مُنقِذٌ من هلَكة، بل تَدُلُّ على معنًى أَخصَّ، ولا يَنبَغي أن نُفسِّر الأخصَّ بالأَعَمِّ؛ لأنك إذا فسَّرْت الأخصَّ بالأَعَمِّ نقَصْتَ التَّفسير، فالإخراج يَكون إنقاذًا ويَكون غير إنقاذ، لكن الإنقاذ يَكون عن هلَكة، ولهذا لو فسَّر ﴿تُنقِذُ﴾ بـ(تُنجِي) لكان أَوْضَحَ؛ لأن الإِنْجاء أيضًا يَكون من هلَكة، ويَكون قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ أي: تُنجِي مَن في النار، أي: مِن عَذابها.

قوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾: ﴿مَن﴾ بمَعنَى (الذي)، ومَوْقعها الإعرابي مَفعولٌ به للفِعْل ﴿تُنقِذُ﴾، وجُملة ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ جارٌّ ومَجرور مُتعَلِّق بالفِعْل ﴿تُنقِذُ﴾، والتَّقدير: مَن دخَل في النار، أو يُقدَّر بما يُناسِب السِّياق، فإن قُدِّر بكَلِمة (داخِل) مثَلًا قُلْنا: لا يَصلُح في صِلة المَوْصول؛ لأنك إذا قَدَّرْت (داخِل) تَحتاج إلى تَقدير مُبتَدَأ لتكون جُملة، لكن إذا قدَّرْت فِعْلًا ما احتَجْنا إلى تقدير شيءٍ آخَرَ، فنَقول: إنه في جميع صِلات

المَوْصول لا يُقدَّر فيها إلَّا فِعْل؛ لأنك لو قَدَّرتَ اسمًا احتَجْت إلى تَقدير مُبتَدأ؛ لتتِمَّ الجُملة، فيَكون التقدير مرَّتَيْن، أمَّا إذا قدَّرْت فِعْلًا صار التَّقدير مرَّة واحِدة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَنْ) شَرْطية، وهذا أَحَدُ الوَجهين في (مَن).

والوجهُ الآخَرُ: قال بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إن (مَن) اسمُ مَوْصول، والمَعنَى: أَفالَّذي حَقَّ عليه كلِمة العَذاب تُنقِذه أنت، ودائِمًا اسمُ الشَّرْط والمَوصول يَتعاوَران، أي: يُستَعار بعضُهما مَكانَ الآخَر.

قوله تعالى: ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: جواب الشَّرْط: وأُقيم فيه الظاهِر مَقام المُضمَر ومَعنى كلامه أنه أُقيم فيه الظاهِر الذي هو (مَن) مَقام المُضمَر، ويَكون المَعنى على هذا الوَجْهِ: أفمَنْ حَقَّ عليه كلِمة العَذاب أفأَنْت تُنقِذه وكلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ هذا يُوحِي بأن الجُملَتَيْن مُرتَبِطَتان، وليس كلُّ واحِدة مُستَقِلَّة عن الأخرى.

ولكِنْ هناك احتِمالٌ آخَرُ خِلافُ ما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ وهو أن الثانية مُنفَصِلة عن الأُولى، وأن تَقدير الجُملة الأُولى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ تَدفَع عنه أو كلِمة نحوها، يَعنِي: أَفتَدْفَع عمَّن حَقَّ عليه كلِمة العَذاب، ثُمَّ استَأنَف فقال: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾، ولها مَعنَيان؛ الأَوَّلُ: أن تَجعَله مُؤمِنًا بحيث لا يَستَحِقُّ النار، والثاني: تُنقِذه مِن النار إذا دخَل فيها.

والحاصِلُ: أن مُؤدَّى الجُمْلتين واحِد: أن مَن حَقَّ عليه كلِمة العَذاب فإنه لا يُمكِن لا للرسول ﷺ ولا لغيره أن يُنقِذه من النار.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وأُقيم فيه الظاهِر مَقام المُضمَر يُفيد مَعانِيَ، منها: أن مَن حَقَّ عليه كلِمة العذاب فهو في النار، لأنه لو قال: أفأَنْتَ تُنقِذه. لكان الإنسان يَقول: من أيِّ شَيءٍ أُنقِذه، فإذا قال: أَفأَنْتَ تُنقِذ مَن في النار. علِمْنا أن هذا الذي حَقَّ عليه كلِمة العَذاب في النار.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والهمزة للإنكار يَعنِي الهَمزة المَوْجودة في: ﴿أَفَمَنْ﴾ وفي: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ وهُما هَمْزة واحِدة على القول بأن الجُمْلتين واحِدة، فتكون الثانية تَوْكيدًا للأُولى.

والحاصِلُ: أن الله تعالى يَقول للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: هل مَن حقَّتْ عليه كلِمة العذاب يُمكِن أن تَمنَعه مِن استِحْقاقها، وتُنقِذه.

والجَوابُ: أنه لا يُمكِن لا هذا ولا هذا؛ لأن النبيَّ ﷺ لا يَملِك أن يَهدِيَ أحدًا حتى لا تَحِقَّ عليه كلِمة العَذاب، ولا يُمكِن أن يُنقِذ أحدًا من النار؛ ويَدُلُّ عليه قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين نزَل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] جمَعَ أَقارِبَه وصار يُخصِّصُهم: يا فُلان ابنَ فلان لا أُغنِي عنك من الله شَيئًا. إلى أن قال ﷺ: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»[1]، فهي ابنتُه يَقول لها: المال أَستَطيع أن أَنفَعَكِ به، ولكن لا أُغنِي عنكِ من الله شيئًا، فإذا كان لا يُغنِي عن ابنَتِه شيئًا فمَن سِواها من بابِ أَوْلى.

فإن قال قائِل: كيف نَجمَع بين هذا وبين شفاعة النبيِّ ﷺ لعَمِّه أبي طالب

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب، رقم (٢٧٥٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (٢٠٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

حتى كان في ضَحضاحٍ من نار وعليه نَعْلان من نارٍ يَغلِي منهما دِماغُه[١]؛ فكيف هنا أَغنَى شَفْع ونَفَعَتْه الشفاعة؟

فيُقال: أوَّلًا: الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يَتمَكَّن من إخراجه من النار، وإذا لم يَتمَكَّن من إخراجه من النار لم يَكُن مُعارِضًا للآية، لأن الله تعالى قال: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، والنبيُّ ﷺ ما أَنقَذَه.

ثانيًا: أن التَّخفيف عن أبي طالِب ليس من أجل أنه عمُّ الرسول ﷺ، فهذا أبو لَهَبٍ عَمُّه ولكن لم يُغْنِ عنه شيئًا، لكن لِمَا قام به أبو طالب من الدِّفاع العظيم عن الإسلام وعن رسول الإسلام ﷺ، فإنه دافَع عنه مُدافَعةً عظيمة، بل إنه كان يَمدَح الرسول ﷺ في المَحافِل وشَهِد له بالرِّسالة، فقال:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ[٢]

هذا بَيْتٌ من لامِيَّته المشهورة التي قال عنها ابنُ كثيرٍ[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «هذه يَنبَغي أن تَكون من المُعلَّقات، بل هي أَبلَغُ من المُعلَّقات، والمُعلَّقات هي قصائِدُ اختارَها العرَب وسَمَّوها: المُعلَّقاتِ السَّبعَ، وأَضافوا إليها ثلاثًا سمَّوْها: المُعلَّقاتِ العَشرَ، وهذه القصائِدُ علَّقوها في جوف الكعبة حِفاظًا عليها وتَنويهًا بها، لكن لامِيَّة أبي طالب أشَدُّ وأشَدُّ، يَعنِي: أحسَنُ وأعذَبُ، فشهِد للرسول ﷺ بأنه غير مُكذَّب، وأنه لا يُعنَى بقول الأَباطِل: السحَرة، بل إنه ﷺ أصدَقُ الناس وأنزَهُ الناس.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢١٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠)، وديوان أبي طالب (ص٨٤). وقال ابن هشام بعد أن ذكرها: هذا ما صح لي من هذه القصيدة، وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها.

(٣) البداية والنهاية (٤/ ١٤٢-١٤٣).

ثُمَّ يَقول في قصيدةٍ أُخرى:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ   مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلَا المَلَامَةُ أَوْ حَذَارِ مَسَبَّةٍ   لَرَأَيْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا[1]

مثل هذا الكَلامِ لو سمِعه الناس آمَنوا، فهو في الحقيقة داعِية للإسلام لكنه غير مُسلِمٍ، نَسأَل اللهَ تعالى العافِيَة!.

إِذَنِ: التَّخفيفُ عنه لا من أَجْل أنه عمُّ الرسول ﷺ، لكن لأَجْل أنه دافَع عن الإسلام وحَمى النبيَّ ﷺ حِمايةً تامَّة، وأَعاله أيضًا فإنه بَعْد موت جدِّه عبد المُطَّلِب كان عند عَمِّه أبي طالِب، وهذا معروف، فمِن عدْل الله عَزَّوَجَلَّ أن الله شكَرَ هذا العَمَلَ وخفَّف عنه بشفاعة النبيِّ ﷺ حتى صار «فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ وَعَلَيْهِ نَعْلَانِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»، أَعاذَني الله تعالى وإيَّاكم من النار.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمعنى: لا تَقدِر على هِدايته فتُنقِذه من النار وصدَق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالإنسان لا يُمكِن أن يُنقِذ أحَدًا من النار أبدًا، فإذا كان نبيُّ الله ﷺ لا يَقدِر على ذلك فمَن دُونَه من بابِ أَوْلى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن مَن حقَّت عليه كلِمة العَذاب فلا هادِيَ له، ويَشهَد لهذا قوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف:١٨٦].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات كلام الله تعالى؛ لأن الذي يَقضِي بالعَذاب هو الله عَزَّوَجَلَّ لا غيره، فكلِمة (العَذاب) صادِرة من الله تعالى، وفي هذا إثبات الكلام لله عَزَّوَجَلَّ،

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (١٠/ ١١١)، وخزانة الأدب (٢/ ٧٦)، وديوان أبي طالب (ص٨٧، ١٨٩).

والقُرآن كلُّه فيه إثبات كلام الله تعالى؛ لأنه كلام الله تعالى، فكُلُّ حَرْفٍ منه فهو كلام الله تعالى إذ إن كلام الله تعالى حَرْف وصَوْت.

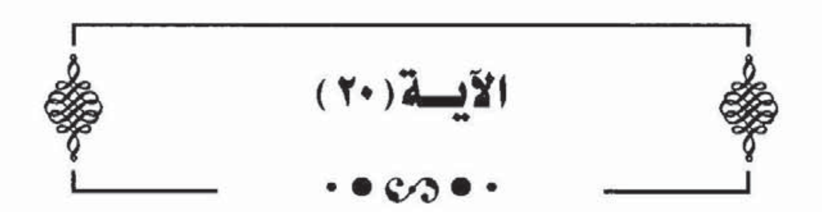
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن النبيَّ ﷺ لا يَستَطيع أن يُنقِذ مَن في النار، وإذا كان هذا للرسول ﷺ فغيرُهُ من بابٍ أَوْلى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن مَن حقَّت عليه كلِمة العَذاب فإنه في النار؛ لأننا قُلْنا: إن الظاهِر هنا نائِب مَناب الْمُضمَر، وأن التَّقدير أفَأَنْت تُنقِذه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَلاغة القُرآن، وشِدَّة زواجِره حيث يَأتي بمِثْل هذا الأُسلوبِ الشديد الذي يَصرِم القلب الواعيَ الحيَّ: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾، فهذا أُسلوب شديد جِدًّا، ولا شَكَّ أن الأُسلوب الشديد في مَوْضِعه يُعتبَر من البلاغة، لأن البَلاغة هي أن يَأتيَ الكلام مُطابِقًا لُمقتَضى الحال؛ أي: لِما تَقتَضيه الحال من لينٍ وشِدَّة وتطويلٍ وإيجاز.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات النار، والنار هي الدار الثانية التي يَستَقِرُّ فيها الإنسُ والجِنُّ، وهي دار مَنِ اعتَدَى وكفَر، وهي مَوْجودة الآنَ، وستَبْقَى أبَدًا.

• • ۞ • •



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر:٢٠].

•••

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ هذا الاستِدراكُ من أحسَن ما يَكون؛ فلمَّا قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي﴾ استَدرَك هذه الحالَ، أَعنِي: حالَ مَن لا يَدخُل النار، فقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ...﴾ إلخ.

لكن هنا لا تَعمَل؛ لأنها مُخفَّفة، وإذا خُفِّفَت تَكون لمُجرَّد العَطْف فقَطْ، ومَعناها: الاستِدْراك، وعليه يَكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مُبتَدَأ، وخبَرُه جُملة ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾.

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ بأن أَطاعوه فأَفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن التَّقوى هي الطاعة، وأَجمَع ما قِيل في التَّقوى: أنها طاعة الله عَزَّوَجَلَّ بامتِثال أَمْره، واجتِناب نَهيه؛ لأنه أَمَر ونَهى لا للهَوى؛ ولهذا مَن أَطاع الله تعالى لمُجرَّد الهوى لا يَكون كمَن أَطاع الله تعالى؛ لأن الله تعالى أمَر أو نَهى، هناك كثيرٌ من الناس يُطيع الله تعالى؛ لأن نَفْسه تَهْوى ذلك، لكن الطاعة الحقيقية هي التي يَكون الباعِث عليها امتِثال أمر الله تعالى تَركًا للمَنهِيَّات وفِعْلًا للمَأمورات.

وقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾: ﴿ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ إشارة إلى أن تَقواهم مَبنِيَّة

على أَساس؛ لأنه ربهم، والرُّبوبية هنا تَشمَل الربوبية القدَرية والرُّبوبية الشَّرْعية؛ لأن الله تعالى ربٌّ مالِكٌ للكون قدَرًا، ومالِكٌ للحُكْم شَرْعًا، فهُمْ يَتَّقون ربهم؛ لأنه الذي خلَقَهم، ورَزَقهم، وأَعَدَّهم، وأَمَدَّهم، يَعبُدون ربهم؛ لأنه الحاكِم فيهم، وهو الذي يَأمُرهم ويَنهاهُم، فيَقومون بأَمْره ويَدَعون نَهيَه.

مَسأَلة: هناك بعض الناس عندما يُؤدِّي عِبادة من العِبادات يَتَّخِذها عادةً ليس كأَمْر من الله تعالى، فهل يُؤجَر على فِعْل هذا؟

الجَوابُ: أنه على كل حال تَبرَأ الذِّمَّة بذلك، لكنه لم يَصِل إلى درَجة الكَمال؛ ولهذا نحن نَقول دائِمًا: يَنبَغي للإنسان عند فِعْل العِبادة أن تَكون له ثلاثُ نوايا: نِيَّة العمَل، ونِيَّة المَعمول له، ونِيَّة المُتابَعة.

فنِيَّة العمَل هي أن الرجُل يَنوِي عند الظُّهر صلاة الظُّهر، ونِيَّة المَعمول له أنه يُريد بذلك التَّقرُّب لله عَزَّوَجَلَّ، وهذا كثيرًا ما يَغفُل الإنسان عنه، ويَصُدُّه الشيطان عن ذلك.

ونِيَّة المُتابَعة للرسول ﷺ، فكُلُّ هذه المَعاني -نَسأَل الله تعالى أن يَعفوَ عنَّا- تَغيب عنَّا كثيرًا؛ لأنك إذا نوَيْت أو إذا شعَرْت بهذه النِّيةِ أَحبَبْت الله عَزَّوَجَلَّ، وأَحبَبْت الرسول ﷺ، وشعَرْت بأنك عبد لله مُتَّبع للرسول ﷺ، وتَجِد للعِبادة طَعمًا لا تَجِده إذا أَتَيت بها على سَبيل العادة.

ولهذا نَقول: عادات المُوظَّف عِبادات، وعِبادات الغافِل عادات.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ غُرَف جمع غُرْفة، والغُرْفة هي البِناء العالي؛ لأن البِناء العاليَ إذا كان في الأسفَل يُسمَّى: حُجْرة، وإذا كان فوقَ

يُسمَّى: غُرْفة، وهذه الغُرَفُ مَبنيَّة يَقول عنها: ﴿مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٌ مَّبۡنِيَّةٌ﴾ يَعني: طبَقات قُصور عالية شامخة، مَبنيَّة من لبِنات من الذهَب والفِضَّة، فلهم جَنَّتان من ذهَب آنيَتُهما وما فيهما، وجَنَّتان من فِضَّة آنيتُهما وما فيهما، وهذه الغُرَفُ المَبنيَّةُ من الذهَب والفِضَّة أيضًا ليست على ما نُشاهِد في الدنيا من اللَّمَعان والحُسْن الجذَّاب، بل هي أَشَدُّ وأعظَمُ، فلا يُمكِن أن نَتصوَّر حُسْن هذه الغُرَفِ، ولا مَوادَّ بِنائِها أبدًا، لأن الله تعالى يَقول: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، ويَقول في الحديث القُدسيِّ: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[(١)]. وهي ليس فيها شيء ممَّا في الدُّنيا إلَّا الأَسْماء فقط، لكن الحقائِق تَختَلِف اختِلافًا عظيمًا، فهي فيها عِنَب، نَخْل، ورُمَّان، لكن ليس كالمَوجود عِندنا في الدُّنيا، بل هي شيء لا يُمكِن أن يَتصوَّره الإنسان، فهذه الجَنَّةُ مُعدَّة للمُتَّقين الذين اتَّقَوْا ربهم كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣].

فالعمَل يَسير والعِوَض كثير، فالعمَل يَسير على مَن يَسَّره الله تعالى عليه، والله تعالى يُيَسِّره على مَن صدَق النِّيَّة في التَّوجُّه إلى الله تعالى، ولم يَركَن إلى الدنيا، لأن الرُّكون إلى الدُّنيا ولا سيَّما ممَّن أَعطاه الله تعالى العِلْم ذُلٌّ وانحِطاط؛ قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، والمَثَل أخَسُّ الأمثال؛ قال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، رقم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَّلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ...﴾ إلخ [الأعراف:١٧٤-١٧٦].

فهذه الغُرَفُ التي أَعدَّها الله تعالى للمُتَّقين الذين أَخلَصوا النِّيَّة لله تعالى رجاءَ الوُصول إلى ثوابه، ولا يَفعَلون طاعة إلَّا وهُمْ يُؤمِنون بأنَّ لها ثوابًا في هذه الجَنَّةِ؛ لأن هذه العَقيدةِ يَحمِلك على إحسان العِبادة، فإذا علِمْت أنه ما من عِبادة تَقوم بها إلَّا من أَجْل الحُصول على هذا الثوابِ سَوْف تَحرِص على العمَل، وتُتقِن العمَل.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تَحْت هذه الغُرَفِ العُليا وما تَحتَها.

و﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جمع نَهْر أو نَهَر؛ لأن نهر أو نهر من الكلمـات الثلاثية التي ثانيها حرفُ حَلْق؛ ومثلها بحر، فيَجوز فيها تَسكين الحَرْف الثاني وفَتْحه، تَقول:

و﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جمع نَهْر أو نَهَر؛ لأن الكلِماتِ الثلاثيةَ التي ثانيها حَرْف حَلْق مثل كلمة نَهْر وبَحْر يَجوز فيها تَسكين الحَرْف الثاني وفَتْحُه، تَقول: نَهَر ونَهْر وبَحْر وبَحَر، فهنا نَقول: أنهار جَمْع: نَهْر، وهي أربعة أنواع بيَّنها الله تعالى في سورة القِتال، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥]؛ فهذه أربعةُ أنواعٍ.

فمِن نِعَم الله تعالى ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾، يَعنِي: غير قابلٍ لأَنْ يَكون آسِنًا، والآسِ هو المُتغيِّر، وأنتم تَعلَمون أن الماء إذا بَقِيَ في الإناء مُدَّة أو في مَقرِّه في البِئْر مُدَّة يَتغيَّر.

ومِن نِعَم الله تعالى أنها أنهار لا تُحلَب من الضُّروع، ولا تَأْتِي من نَحْل؛ أنهار

تَمشِي على الأرض تَجرِي، وقد جاء في الأثَر: «أنَّها تَجرِي بلا أُخدودٍ»[١] أي: بلا مَجارٍ على وجهِ الأَرْض، ولا تَحتاج إلى حَفْر سَواقٍ، ولا إلى جُدران تَمنَع من سَيَلان الماء، بل تَجرِي بدون شيء، وورَد أيضًا: «أنها تَجرِي باختِيار الإنسان حيث يُوجِّه النهرَ حيث شاء، ويُمسِكه حيث شاء»[٢]؛ لأن الله تعالى يَقول: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف:٧١]، نَسأَل الله تعالى أن يَجعَلنا وإيَّاكم مِنهم.

ومِن نِعَم الله تعالى علينا في الأرض أن: نَهْر النِّيل وسَيْحونَ وجَيْحونَ من الجَنَّة، وقد ورَد فيه الحديث أنها «مِنْ أَنْهَارِ الجَنَّةِ»[٣]، لكن المَعنى أنها تُشبِه أنهار الجَنَّة بالصَّفاء، وليس مَعناه: أنها نزَلَت من السَّماء، فهو من باب التَّشبيه البَليغ.

وقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾: ﴿وَعْدَ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَنصوب بِفِعْله المُقدَّر]، أي: وعَدوا وَعْدَ الله، أو على رأيٍ آخَرَ مُحتَمَل: التَّقدير أَنجَزوا وعدَ الله، يَعنِي: أَنجَز الله لهم وَعْده، وعلى هذا يَكون مَنصوبًا بِفِعْلٍ مُقدَّر من غير فِعْله، أمَّا على رأيِ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فهو مَصدَرٌ مَحذوف العامِل.

قوله تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: وَعْدَهُ فأَفادَنا بأنَّ (أل) هُنا نائِبة مَناب الضمير، وأن المِيعاد بمَعنَى: الوَعْد؛ فقوله تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي: أنه لا يُخلِف ما وعَده بشيء آخَرَ؛ لأن لفظة (أَخلَفَ) تَدُلُّ على

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٢٧٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٨٤٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٨/ ٤٠٧)، عن مسروق من كلامه.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٢٤٠).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ما في الدنيا من أنهار الجنة، رقم (٢٨٣٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إبدال شيء بشيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ:٣٩]، بخِلاف (خلَف) فإنها تَدُلُّ على خُلفِ شيءٍ لشيءٍ، فيُقال: خلَفَه. أي: أتَى بعدَه، أَخلَفَه بمَعنَى: جعَل له بَديلًا؛ ولهذا يَقول المُصاب: «اللَّهُمَّ آجِرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا»(١)، يَعنِي: أَعطِني بدَلًا عنها.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ إنما كان كذلك لكمال صِدْقه، وكمال قُدْرته، لأن إخلاف الميعاد إمَّا أن يَكون لكذِب الواعِد، وإمَّا أن يَكون لعَجْزه، والله عَزَّوَجَلَّ مُنزَّهٌ عن هذا وهذا، فهو كامِل الصِّدْق كامِل القُدْرة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيان عُلوِّ مَنزِلة المُتَّقين؛ لأن الاستِدْراك هنا كأنه انتِشالٌ لهم ممَّا سبَق ذِكْره من الوعيد الشديد لهؤلاء الذين حَقَّت عليهم كلِمة العَذاب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن التَّقوى سبَبٌ لدُخول الجَنَّة؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ ...﴾ إلخ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن تَقواهم لله تعالى له سبَب سابِق ولاحِق، فالربوبية الخاصَّة في قوله تعالى: ﴿رَبَّهُمْ﴾ اقتَضَت أن يَتَّقوه، وهم يَتَّقون ربهم الذي سيُثيبُهم، فالتَّقوى لها سبَب سابِق، وهو: عِناية الله عَزَّوَجَلَّ بهِمْ، ولها سبَبٌ لاحِق وهو: ما يَرجونه من ثواب الله عَزَّوَجَلَّ، وكل هذا يُحمَل على التَّقوَى، فهو ربُّهم حيث وفَّقَهم للتَّقوى، وربُّهم حيث أَثابهم عليها.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب: الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، رقم (٩١٨)، من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن مَنازِل الجَنَّة غُرَف مَبنيَّة بعضُها فوقَ بعض؛ لقول الله تعالى: ﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾، وهذه الغُرَفُ تَختَلِف بحسَب العامِل، وقد بيَّن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن جَنَّتَيْن من جنَّات الخُلْد من ذهَب آنِيَتُهما وما فيهما، وأن جَنَّتَيْن من فِضَّة آنِيَتُهما وما فيهما[1].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَمام النعيم حيث كانت هذه الغُرَفُ تَجرِي من تحتها الأنهار، وفيها الأشجار، وفيها من كُلِّ ما يَتمَنَّاه الإنسان، بل فوقَ ذلك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن هذا النَّعيمَ ثابِتٌ بوَعْد الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات أن الله تعالى لا يُخلِف الميعاد؛ لكَمال صِدْقه وكمال قُدْرته، ففيها: إثبات كَمال الصِّدْق، وكمال القُدْرة.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، رقم (٤٨٧٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رقم (١٨٠)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٢١].

•••

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ...﴾ الهمزة هنا للاستِفهام، والغالِب أن همْزة الاستِفهام إذا دخلَت على نفيٍ تكون للتَّقرير، فمَعنَى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: قد رأَيْت، ونَظير هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، أي: قد شَرَحْنا لك صَدْرك، فيَكون الاستِفْهام هنا للتَّقرير، أمَّا (لم) فهِيَ حرف جَزْم ونفيٍ وقَلْب.

وتَفسير المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تَرى بـ[تَعلَم] فيها احتِمال: أن الرُّؤية هنا رُؤية العِلْم، واحتِمال: أن الرُّؤية رُؤية البصَر، فإن كان شيء مُشاهَدًا للإنسان حيث يَكون حولَه، فهي رُؤية بصَر تَتْبَعها رُؤية العِلْم، وإن كان بعيدًا يَسمَع عنه سماعًا فهي رُؤْية عِلْم.

والخِطاب في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، إمَّا للنبيِّ ﷺ، وإمَّا لكل مَن يَصِحُّ خِطابه.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من العُلوِّ، وليس المُرادُ بذلك السَّماءَ السَّقْف المَحفوظ، لأنه من المعلوم أن المطَر يَنزِل من السَّحاب، والسَّحاب مُسخَّرٌ بين السماء والأرض، وعلى هذا يَكون المُرادُ بالسماء العُلوَّ.

وقوله تعالى: ﴿مَآءً﴾ هو المَطَر.

وقوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، سلكه بمَعنَى: أدخَله، ومنه سَلْك الخَرَز، يُدخَل فيها حتى يَنظِمها، واليَنابيع جَمْع يَنبوع، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَدخَله في أَمكِنةٍ في الأرض]، يَعنِي: يَنبُع متى أَراده الإنسان، وذلك من تَمام الحِكْمة وتَمام الرَّحْمة؛ لأن هذا الماءَ لو بَقِيَ على ظَهْر الأرض لأَنْتَن وفسَد ولأَفسَد غيره أيضًا، فكان من رحمة الله أن يُدخِله في الأرض يُخزِّنه كما قال تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون:١٨]، ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ﴾ [الحجر:٢٢].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ﴾: ﴿ثُمَّ﴾ تَدُلُّ على التَّرتيب بمُهْلة؛ لأن هذا الذي يَنزِل يَخرُج بالمطَر لا يَخرُج فورًا، لكنه يَخرُج بالتَّدريج، ومن سُنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن تَكون الأشياء بالتَّدريج؛ لئَلَّا يَحصُل التَّصادُم في الكون.

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾: ﴿بِهِۦ﴾ الباء للسَّببية، أي: بسَبَبه، وليس المطَرُ هو الذي يَخلُق هذا النَّباتَ، لكنه سببٌ له.

وقوله تعالى: ﴿زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ هذه صِفة للزَّرْع، لكن هل المُختَلِف الزَّرع أو لَونُه؟

الجَوابُ: أن المُختَلِفَ ألوانُه لأن الصِّفة هنا عادت إلى غير المَوْصوف مَعنًى، ويُسمِّي عُلَماء النحو رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ هذا النَّعتَ نعتًا سبَبيًّا؛ لأن مَعناه يَعود إلى غير المَنعوت، فهو تابع للمَنعوت في الإعراب، ولكن مَعناه لغيره، كما قُلْت: رأيت رجُلًا كريمًا أبوه. فالكريم أَبوه، وإجراء الصِّفة على الأبِ لا على الرجُل؛ لهذا تَقول: (كريمًا) نَعت لـ(رَجُلًا) أو صِفة لـ(رجُلًا)، مع أن حقيقة الوَصْف في غيره، فيُسمَّى هذا: نعتًا سببيًّا.

قوله تعالى: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥ﴾ هل المُراد بالألوان: الأَشْكال أو الأَلْوان التَّلوينُ أو يَشمَلها؟

الظاهِر أنه يَشمَل هذا وهذا، فأَلوانه يَعنِي أصنافه، ويَعنِي أيضًا اللون، فهذا الزَّرعُ الذي يَخرُج من الأرض بالمطَر تُشاهِدونه يَختَلِف في ألوانه، ويَختَلِف في أَشكاله، واخرُجوا إن شِئْتم إلى أدنى شارِع ستَجِدون الاختِلاف العجيب، تَجِدون شجَرتين إلى جَنْب، ومع ذلك تَجِد هذه أوراقها مُختَلِفة عن هذه، وتَجِد لونها مُختلفًا عن هذه، وتَجِد الزهرات التي فيها أيضًا تَختَلِف، وتَجِد الثمَر الذي يَخرُج منها يَختَلِف مع أن الماء واحد والأرض واحِدة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يَعنِي: [ييْبَس] ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: أن هذا النباتَ الذي خرَج يَسُرُّ الناظِرين، مُختَلِف الألوان أَصابه رِيح أو حَرٌّ شديد أو مع طول الزمَن يَبْبَس ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد أن كان أَخضَرَ ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فُتاتًا مُتحطِّمًا؛ لأنه إذا يَبِس تكسَّر، ثُم تحطَّم.

وقوله: [﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ تذكيرًا] ﴿لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يَعنِي: العُقول الذي [يَتَذكَّرون به لدَلالته على وَحْدانية الله تعالى وقُدْرته].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المُشار إليه كل ما سبَق من إنزال المَطَر من السماء، وإدخاله يَنابيعَ في الأرض، وإخراج الزَّرع به، وعود الزرع إلى الاصفِرار والتَّحطُّم، فهذه عِدَّة أشياءَ تُذكِّر الإنسان: إنزاله من السماء وإدخاله في الأرض، وإخراج الزَّرْع به واختِلاف الألوان، وهذا كلُّه آية وذِكرى يَتذكَّر به أُولو الألباب على قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى رحمته، وعلى حِكْمته.

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا...﴾ إلخ، أي: يَتذكَّر به أُولو الأَلْباب

على أن كل ما كمَل من الدُّنيا عاد ناقِصًا، ويَدُلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس:٢٤]، فالذِّكْرى هنا ليسَت مُجرَّد الدَّلالة على وَحْدانية الله تعالى وقُدرته، بل هي أَشمَلُ.

ومن أهمِّها: الدَّلالة على أن ما كمَل في الدنيا فمَآله إلى النَّقْص، فالصِّحَّة مَآلها إلى المَرَض، والحياة مَآلها إلى الموت، وهكذا قِسْ كل ما في الدنيا على هذا المِثالِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيان قدرة الله عَزَّوَجَلَّ في إنزال هذا المطَرِ من السماء، لأنه لا يُمكِن لأَحَد أن يَستَطيع إنزاله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان:٣٤].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حِكْمة الله ورحمته، حيث جعَل هذا الماءَ يَنزِل من السَّماء؛ لأنه لو كان يَنبُع من الأرض لم تَستَفِدْ به عامة الأرض من وجهٍ ولم يَصعَد إلى قِمَم الجِبال إلَّا إذا أَغرَق الناس الذين يَعيشون تحت الجِبال، فكان من الحِكْمة أنه يَنزِل من السَّماء ليَعُمَّ المُرتَفِع والمُنخَفِض، وليَشمَل الأرض كلَّها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ في كيفية نُزول هذا الماءِ على قَطَرات، ولو نزَل صَبًّا كما تُصَبُّ أَفواه القِرَب لأَهلَكَ الناس، وهدَم البِناء، ولكن من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أنه يَنزِل قَطَراتٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن السماء يُطلَق على العُلوِّ.

ويَترتَّب على هـذه الفائِدة: أن قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] يُمكِن أن يُراد به مَن في العُلوِّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيان قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته بالعِباد حيث سلَكَ هذا الماءَ يَنابِيعَ في الأرض، ولم يَبقَ راكِدًا على ظَهْرها؛ لِمَا في ذلك من الحِكْمة والرَّحْمة، فنَراه مَخزونًا في الأرض، متى احتاجه الناس استَخْرَجوه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيان قُدْرة الله تعالى حيث أَخرَج بهذا الماءِ ذلك الزرعَ المُختَلِفَ الألوان.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات الأسباب كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن السبَب لا يَستَقِلُّ بالتَّأثير في المُسبَّب؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ﴾ فأَضاف الإخراج إلى الله تعالى، وهذا هو الذي عليه سلَف الأُمَّة وأئِمَّتها، فالأسباب لها تَأثيرٌ في المُسبَّبات، ولكن تَأثيرها بفِعْل الله تعالى.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بَيان قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ حيث أَخرَج هذا الزَّرعَ المُختَلِفَ الألوان مع أنه يَتغذَّى بماء واحِد ومن طينةٍ واحِدة؛ لقوله تعالى: ﴿مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن كمال الدُّنيا مُؤْذِنٌ بنَقْصها؛ لأن الله تعالى ضرَب ذلك مثَلًا للدُّنيا كما في الآيات التي سُقْناها.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن الذين يَتذكَّرون بآيات الله تعالى الكونية هم أُولو العُقول، وأمَّا مَن لا يَتذكَّر بها ويَقول: هذه الطبيعةُ تَتفاعَل وتَتجارَى! فإنه لا عَقلَ له.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنه يَنبَغي للإنسان أن يَستَعمِل عَقْله في مَخْلوقات الله عَزَّوَجَلَّ لِيَتَذكَّر به فيما في هذه المَخلوقاتِ من عظَمة الخالق؛ لأنه عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

• • ۞ • •



الآية (٢٢)

• ● ❦ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢].

• ● ❦ ● •

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كمَن طبَع اللهُ على قَلْبه ﴿أَفَمَن﴾ الهَمْزة للاستِفهام والفاء عاطِفة، واختَلَفوا في المَعطوف عليه على قولين: إمَّا شيء مُقدَّر، أو على ظاهِر ما سبَق.

وقوله تعالى: ﴿شَرَحَ﴾ أي: وسَّع، ومنه قولنا: فُلان شـرَح الكِتاب، يَعنِي: وَسَّعه، ومنه: شرَحَ صَدْره للإسلام.

ويُحتَمَل أن يُراد ما في الصَّدْر، ويَكون المَعنَى أن الله تعالى يُوسِّع القَلْب فيَجعَله مُنفَتِحًا للإسلام لا يَضيـق به ذَرْعًا، ويُحتَمَل أنه الصَّدْر نَفْسه؛ لأن الإنسان يُحِـسُّ بالشيء إذا أَغمَّه أن صَدْره ضاق، وإذا جاءَه ما يُفرِحه نَفْس الصَّدْر يَنشرِح -وإن كان الأصل القَلْـب، لكن مكان القَلْـب يَكون فيه اتِّساع وضِيق- وهذا شيءٌ مُشاهَد، فإبقاء الآية على ظاهِرها، وهو أن المُراد بالصَّدْر حقيقته، أي: أن حقيقة الصَّدْر أَوْلى، فيَنشَرِح الصدر للإسلام، ويَتقبَّل جميع شرائعه؛ إن أُمِر بالشيء انشَرَح لقَبوله والعمَل به، وإن نُهِيَ عن شيء انشَـرَح لقَبوله واجتِنابه، وإن أُخبِر عن شيء انشـرَح لقَبوله وتصديقه وهكذا، وقِسْ هذا برجُل فاسِق إذا أمَرْته بالصلاة تَجِده يَضيق صَدْره

وربما يَقول: أنا لا أُصلِّي لك! دَعْني! وبعض الناس إذا أَمَرْته وذكَّرْته فرِحَ وانشَرَح صَدْره، وقد بيَّن الله تعالى في سورة الأنعام صورةً مُقرَّبة لهذا المَعنَى فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ يَعنِي: شديد الضيق ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥] يَعنِي: كأنه إذا عُرِض عليه الإسلام يَصعَّد في السماء، أي: يَتكلَّف الصعود.

وقدِ اختَلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في مَعنَى ﴿يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ هل مَعناه: ما اشتُهِر الآنَ من أن الإنسان كُلَّما ارتَفَع في الجَوِّ كثُر عليه الضَّغْط، أو أن المَعنى: يَصعَد جَبلًا عاليًا شامخًا يَتعَب في رُقيِّه، فالمُفسِّرون السابِقون لا شَكَّ أنهم لا يَعرِفون عن مَسأَلة الضَّغْط، والمُتأخِّرون يَعرِفونه، والله عَزَّوَجَلَّ يَعلَم هذا وهذا، والآية صالِحَةٌ للأَمْرين؛ لأنك لو تَصوَّرت جبلًا صَعْبَ الرُّقيِّ، وعاليًا يَعنِي: في السماء، مَعناه: عالٍ، وصَعِده الإنسان يَتكلَّف لا سيَّما إن كان عنده ضَغْط يَتعَب جِدًّا، وإذا قُلْنا: إن المُراد بذلك أن الإنسان يَصعَد في السماء فوق الغِلاف الجَويِّ فهو ظاهِر أيضًا.

قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ من عَلامة شَرْح الصَّدْر: قَبول الخبَر، وتَصديقه، وقَبول الأمر وامتِثاله، وقَبول النهي واجتِنابه، أي: لا يَكون عنده تَردُّد فهذا لا شَكَّ أنه كما قال تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فاهتَدى فهو على نور فأَفادَنا المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن في الآية حَذْفًا، تَقديره: فاهتَدَى، ويُؤيِّده: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ﴾، لكن الواقِع: أنه لا حاجةَ لهذا التَّقديرِ؛ لأن قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: بمُجرَّد أن يَشرَح الله تعالى صَدْره للإسلام يَصير على نور، وهو إذا شرَحَ الله تعالى صَدْره للإسلام فهو سيَهتَدي قَطْعًا.

وقوله: ﴿نُورٍ﴾ يُحتَمَل أن يَكون نورًا حِسِّيًّا، أو مَعنَويًّا، فالمَعنوِيُّ، أَيْ: على نورٍ، والحِسِّيُّ أي: ولو كان في حُجْرةٍ مُظلِمة فهو على نور، يَعنِي: يَجِد نَفْسه أنه يَمشِي على نور.

وهو يَشمَل نور الدنيا ونور الآخِرة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم﴾ [الحديد:١٢].

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾، الربوبية هنا مُضافة إلى هذا الذي شـرَحَ الله تعالى صَدْره للإسلام، وهي رُبوبية خاصَّة؛ لأنها أُضيفَت إلى مَن هَداه الله تعالى.

وفي الآية شيء مَحذوف دلَّتْ عليه الهَمزة، وقَدَّره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [كمَن طُبع على قَلْبه]، ولو أن المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (كمَن ضاقَ صَدْره بالإسلامِ)، لكان هذا أنسبَ في المُقابِلة؛ لأنه يَنبَغي أن تَجعَل مُقابِل الشيء مُضادًّا له، ولا تَأتِي بشَيْء آخَرَ.

فمثَلًا: لو قال الله تعالى: (أَفَمَن وسَّع الله قَلْبه) لكان المُناسِب أن يَكون المُقدَّر كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ يَكون التَّقدير المُناسِب كمَن ضَيَّق الله تعالى صَدْره بالإسلام فضاق به ذَرْعًا.

وجوابُ هذا الاستِفْهامِ المَذكور في الآية: (لا)، فيَكون الاستِفهام مع المُقدَّر للنَّفي، أي: مَن لم يَشـرَح الله تعالى صَدْره للإسلام فإن قَلْبه مُظلَم -والعِياذُ بالله تعالى- ليس فيه نور، لا نور عِلْم ولا نور إيمان.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَوَيْلٌ﴾ أي: كلِمة عَذاب ﴿لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾]، ﴿وَيْلٌ﴾ مُبتَـدَأ و﴿لِّلْقَـٰسِيَةِ﴾ خبَـرُه و﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّق بالقاسِـية ﴿وَيْلٌ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها كلِمة عَذاب وما قاله المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أصَحُّ ممَّا قيل: إنها وادٍ في

جَهنَّمَ؛ لأن الإنسان يُقال له: ويلٌ لك من كذا في غير النار؛ قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩]، فهي كلِمة عَذاب ووعيد.

وقوله تعالى: ﴿لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ القاسِية اسمُ فاعِل، و﴿قُلُوبُهُم﴾ فاعِلٌ به، والقاسِي ضِدُّ اللَّيِّن، واللَّيِّن قَلْب المُؤمِن، والقاسِي قَلْب الكافِر.

وقوله تعالى: ﴿مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: عن قَبول القُرآن، فأَفادَنا المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: أن ﴿مِّن﴾ بمَعنَى (عَنْ)، وأن المُراد بـ﴿ذِكْرِ اللَّهِ﴾: القُرآن، والمَعنَى: فوَيْلٌ للذين تَقسُو قلوبُهم عن القرآن، لكن الأَوْلى إبقاء الآية على ظاهِرها.

ويُحتَمَل أن يَكون قوله تعالى: ﴿مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: بسبَب ذِكْر الله تعالى: فتكون (مِن) للسَّببية أي: تَقسو قلوبُهم بسبَب ذِكْر الله تعالى، ويُحتَمَل أن المُراد بذِكْر الله تعالى ما هو أعمُّ من القرآن، ويَكون المَعنَى: أن هؤلاءِ كلَّما ذُكِر الله تعالى قسَتْ قُلوبهم.

ووجهُ ذلك: أنهم لا يُريدون ذِكْـر الله تعالى، فإذا كرِهوا ذِكْـر الله تعالى قَسا القَلْب عُقوبةً لهم، ويَدُلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٥].

فتَجِد هَؤلاءِ القومَ أَعنِي: المُؤمِنين تَزيدهم السُّورة إيمانًا، والذين في قُلوبهم مَرَض تَزيدهم رِجْسًا إلى رِجْسهم.

إِذَنْ نَقول: القاسِـية قُلوبهم من ذِكْر الله تعالى يَعنِي الذين إذا ذُكِـر الله تعالى قسَـتْ قُلوبهم، فلا يَقبَلونه، وإذا لم يَقبَلـوه ازدادت قُلوبُهم قَسـوةً وقوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المُشار إليهم همُ القاسِية قلوبُهم.

وقوله تعالى: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بمعنَى بَيِّن، والأحسَن أن تَكون للظَّرْفية، وما أَحسَنَها في هذا المَوضِع إشارةً إلى أن الضَّلال قد أَحاط بهم من كل جانِب كما تُحيط الحُجْرة بساكِنها، وإذا كان الضَّلال قد أَحاط بهم من كل جانِب، فإنه لا يُرجَى لهم خَيْر -والعِياذُ بالله تعالى-؛ لأنهم في ضَلالٍ مُبين.

وعندما تُقابِل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ بقوله تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يَتبيَّن لك أن النور في الآية: نور العِلْم ونور الإيمان وضِدُّ العِلْم الضَّلال.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: نَفيُ التَّساوِي بين الفَريقين، بين مَن شَرَح الله تعالى صدره للإسلام ومَن لم يَشرَح؛ لأن الاستِفهام هنا بمَعنَى النَّفيِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الهِداية بيَدِ الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ﴾.

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: أنه متى عَلِم الإنسان أن الهِداية بيَدِ الله تعالى، فإنه لا يَلتَفِت في طلَب الهِداية إلَّا إلى الله تعالى، وإذا عَلِم أن الهِداية بيَدِ الله تعالى فلا يُعجَب بنَفْسه إذا اهتَدى، بل يَقول لنَفْسه: لولا أن الله تعالى هَداه لكان ضالًّا. فلا يَقول: إنما أُوتيتُه على عِلْمٍ عندي. أو يَقول: هذا لي. بل يَعترِف بفَضْل الله تعالى عليه، وأنه لولا هِداية الله تعالى ما انتَفَع إلى يوم الدِّين.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن قوله تعالى: ﴿لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ أي: لقَبوله والتِزامه، والإسلام له مَعنَيان: الأوَّل: عامٌّ، والثاني: خاصٌّ؛ فالعامُّ يَشمَل كلَّ مَنِ استَسلَم لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بطاعته حين كان الشَّرْع قائِمًا، وعلى هذا فاليَهود في زمَن موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مُسلِمون،

وفي زمَن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كافِرون، والنَّصارى في زمَن عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُسلِمون، وفي زمَن محمَّدٍ ﷺ كافِرون؛ لذلك نَجِد أن الله عَزَّوَجَلَّ يَصِف بالإسلام قومَ نوحٍ ومَن بَعدَهم.

أمَّا المَعنَى الخاصُّ للإسلام فهو ما كان خاصًّا بشَرْع محمدٍ ﷺ، فالناس بعد بعثة مُحمدٍ ﷺ إمَّا مُسلِمون وإمَّا كافِرون، فالمُسلِمون مَنِ اتَّبعوا الرسول ﷺ دون غيره، وهذا يُسمَّى: الإسلامَ الخاصَّ، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ يَعنِي به الإسلام الذي بُعِث به مُحمَّد ﷺ، ولا يُمكِن لأَحَدٍ أن يَدَّعيَ أنه مُسلِم بعد بعثة النَّبيِّ ﷺ إلَّا إذا كان مُتَّبِعًا له؛ لأن الإسلام بعد بعثته صار خاصًّا بمَنِ اتَّبَع شَريعته.

فهنا قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ نُفسِّره بالمَعنَى العامِّ، فيَشمَل مَن شرَح الله تعالى صَدْره للإسلام في عهد الأنبياء السابِقين، ومَن شرَح الله تعالى صَدْره للإسلام في عهد الرسول ﷺ، قال موسى ﷺ: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ [طه:٢٥-٢٦]، لكن إذا كان الخِطاب مُوجَّهًا إلى ما بعدَ بعثة الرسول ﷺ فإنه يَتَعيَّن أن يَكون المُرادُ به الخاصَّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن مَن شَرَح الله صدره للإسلام -وأسأَل الله تعالى أن يَجعَلَني وإيَّاكم منهم- يَجِد نَفْسه قابِلًا لشرائِع الإسلام مَسرورًا بها، ويَفرَح إذا أدَّى طاعةً من طاعاتِ الله تعالى، ويَحزَن إذا فعَل مَعصيةً من مَعاصي الله تعالى، حتى إن الذين بلَغوا الغاية في هذا يَغتَمُّون لما حصَل منهم من خَلَل وإن لم يَكُن عن قَصْد، يَعنِي: إذا فاتَتْه عِبادة يَجِد نفسه في غمٍّ وحُزْن وهو لا يَشعُر بذلك.

وأَضرِب لهذا مَثَلًا بالنبيِّ صلوات الله وسلامه عليه لَمَّا سلَّم من ركعتين من

صلاة الظُّهر انفَتَل من صلاته كأنه مَغموم، فقام على غير عادته إلى خشَبةٍ في قِبْلة المسجِد، واتَّكأ عليها، ووضَع يديه كأنه مُغضَب[1]؛ لأن صلاته لم تَتِمَّ، فانقبَضت نفسُه من حيث لا يَشعُر، لكن هذا لكمالِ درجاتِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يجعَل في نَفْس الإنسان انقِباضًا وإن كان لا يَشعُر؛ لأنه لم يُتِمَّ العِبادة المَطلوبة منه، اتَّكأ عليها وشبَّك بين أصابعه كجِلسة المَهموم حتى ذُكِّر.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن القَسوة هي الشِّدة بحيث إذا لَمَسْتَ الشيء لم يَنضغِط بضَغْطك عليه مثل: الحجَر، وقد ضَرَب الله عَزَّوَجَلَّ قَسْوة القَلْب بالحِجارة فقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤]، ولم يَقُل: فهي كالحديد مع أن الحَديد يَكسِر الحِجارة، والحِجارة لا تكسِر الحَديد؛ وذلك لأن الحَديد يَلين بإِحْمائه على النار، والحِجارة لا تَلين، فلهذا شُبِّهَت قَسوةُ القُلوب بالحِجارة. فالقاسِيةُ قلوبُهم بمَعنى: التي قَسَت فلم تَلِن للحقِّ، نَسأَل اللهَ تعالى العافِيةَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أنه أَشار إليهم بإشارة البَعيد للتَّنويه بسُفولهم وانحِطاط مَرتَبَتهم؛ لأن الإشارة بالبَعيد تارةً تكون إشارةً إلى عُلوِّ المَرتَبة، وتارةً تكون إشارةً إلى انحِطاط المَرْتبة، ففي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:٢] لعُلوِّ المَرتَبة، وفي قوله هنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ لانحِطاط المَرتَبة.

فإن قال قائِل: هذه المعاني التي تَختَلِف واللَّفْظ واحِد ما الذي يُعيِّن أحَدَ المَعنَيَين؟

قُلنا: يُعيِّنه السِّياق، وحالُ المُتحدِّث عنه؛ لأن السِّياق والقَرائِن كلٌّ منها يُعيِّن المُراد.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم (٤٨٢)، ومسلم: كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقوله: ﴿مُبِينٍ﴾ هنا تَحتَمِل أن تكون من (أَبان) اللازِم ومن (أَبان) المُتعَدِّي؛ فالفِعْل (بان) اللازِم تَقول: بانَ الأَمْر، بان الصُّبْح، بان المَعنَى؛ وبالهَمْز (أَبان): تَصِحُّ أن تكون مُتعَدِّية وأن تكون لازِمة حَسَب السِّياق، تَقول مثَلًا: أَبان الفَجْر؛ بمَعنى: بان، أي: ظهَر، وتَقول: أَبان الرجُلُ الحَقَّ؛ بمَعنَى: أَظهَره، فهنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ الظاهِر أنها من اللازِم أي في ضَلالٍ بيِّنٍ ظاهِر. وقول الشارِح: إن «مِن بمَعنى عَنْ»[1] مَبنيٌّ على مَسألة خِلافية بين النَّحْويِّين الكُوفيِّين والبَصريِّين، وهي أنه إذا جاء الحَرْف في غير مَوْضعه فهل هو نائِبٌ عن حَرْفٍ يَكون مُناسِبًا للسياق؟ أو إن المُتعلِّق به يُقدَّر بمَعنًى يُناسِب الحرف؟ ولتَوْضيح ذلك نَأخُذ مِثالًا بقوله الله تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦]، فالعَيْن لا يُشرَب بها، بل يُشرَب مِنها، فهُنا اختَلَف النَّحويُّون: هل الباء بمَعنَى: (مِن) فيَكون حَرفٌ نابَ عن حَرْف؟ أو (يَشرَب) بمَعنَى (يَروَى)؛ أي: يَروَى بها عِباد الله تعالى، فيَكون الشُّرْب مُضمَّنًا مَعنَى الرِّيِّ، والرِّيُّ يَتضمَّن الشُّرْب وزيادة؟

الجَوابُ: في هذا خِلاف بَيْن النَّحويِّين الكوفيِّين والبَصريِّين، وشيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ[2] رَحِمَهُ اللَّهُ يُرجِّح القولَ الثانيَ: أن الفِعْل يُضمَّن مَعنًى يَتناسَب مع الحَرْف؛ لأننا إذا قُلنا بالتضمين استَفَدْنا فائِدتَيْن: الأُولى: مَدلول المَذكور، والثانية: مَدلول المُضمَّن؛ لأنك إذا قُلت: (يَروَى بها) استَفَدْنا أنهم يَشرَبون ويَرْوَوْن، لكن إذا قُلنا: (يَشرَبون) لم نَستَفِد إلَّا مَعنًى واحِدًا، فالتَّضمين فيه زيادة مَعنًى، لكن جَعْل حَرْفٍ بدَلَ حَرْف لا نَستَفيد به مَعنَى زائِدًا، فصار القول الراجِح في هذه المَسأَلةِ ما ذهَبَ إليه شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ أن الفِعْل يُضمَّن مَعنًى يُناسِب الحَرْف.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين (٣/ ٧١٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٢).

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيان تَفاضُل الناس في قَبول الحَقِّ، وأن منهم مَن يَقبَل الحقَّ بانشِراح ومنهم مَن ليس كذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن مَن شرَح الله تعالى صَدْره للإسلام فقَبِل الحقَّ فإنه على نورٍ من الله تعالى.

ويَتفرَّع عليها: زِيادة عِلْمه؛ لأن العِلْم نور كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤].

ويَتفرَّع عليها: قوة الفِراسة بمَعنَى أن الله تعالى يُعطِي الإنسان فِراسة بحيث يَعلَم ما في قُلوب الناس من لَمحات وُجوههم، بل أكثَر من ذلك يَستَدِلُّ بالحاضِر على الغائِب ويُعطيه الله تعالى استِنْتاجاتٍ لا تكون لغَيْره، وقد ذكَر ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتاب (مَدارِج السالِكين)[1] عن شيخ الإسلام ابنِ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامًا عَجيبًا في فِراسته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإن كان ذَكَر أشياءَ قد لا تَكون مَقبولة، ولكنه ذكَر شيئًا كثيرًا ويَستَدِلَّ لذلك بقوله تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن مَن شَرَح الله تعالى صَدْره للإسلام فإن له رُبوبية خاصَّة وعِنايةً خاصَّة منه، وذلك مَأخوذ من قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾، فإن هذه الرُّبوبية خاصَّة غير الرُّبوبية العامَّة.

فإن رُبوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِخَلْقه نوعان عامَّة وخاصَّة؛ فالعامة كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، والخاصَّة كقول الله عَزَّوَجَلَّ عن أُولي الأَلْباب: الذين يَتفكَّرون في خَلْق السَّموات والأرض يَقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ...﴾ إلخ [آل عمران:١٩١].

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٥٨).

وقدِ اجتَمَع النَّوْعان في قوله تعالى عن سحَرة آل فِرعونَ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢]، فالأوَّل عامٌّ، والثاني خاصٌّ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: ذِكْر الوعيد الشديد لَمْ قَسا قلبُه عن ذِكْر الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنك إذا رأَيْت من قَلبك عدَم لينٍ لِذِكْر الله فعالِجْ نَفْسك لتَسلَم من هذا الوَعيدِ، وهذا نَشكو منه كثيرًا، فأَحيانًا يَقْسو القَلْب ولا يَلين، ويَقرَأ الآياتِ العظيمةَ الرادِعة ولا يَتأَثَّر، وأَحيانًا يَقرَأ نَفْس الآيات، ثُم يَتأَثَّر، فإذا عَرَفت من نَفْسك قَسوة القَلْب فالْجَأْ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، واسْأَله أن يُلين قَلبك لِذِكْره، وتَأَهَّب للوعيد إذا لم يَتَدارَكْكَ الله تعالى بلُطْفه ومَغفِرته.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن القُلوب قِسْمين: قلوبٌ تَلين من ذِكْر الله تعالى وأُخرى تَقْسو منه.

فإن قال قائِل: كيف يَكون الشيء الواحِد مُؤثِّرًا لنَتيجتَيْن مُتبايِنَتَيْن؛ أَيْ: شيء واحِد يُؤثِّر نَتيجتين مُتَقابِلتين؟

فالجَوابُ: أن هذا مُمكِن، وذلك لاختِلاف المَحلِّ الوارِد عليه هذا الشيءُ، وليس هذا بغريبٍ، لا في المَعنويات ولا في الحِسِّيَّات، أمَّا في المَعْنويَّات فكما تَقدَّم في كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وكما أن الإنسان يُلقِي الدرس على جماعة بعضُهم يَلتَهِمه التِهامًا، ويَفهَمه فَهْمًا تامًّا ويَجِده لذيذًا، والبعض الآخَرُ يُغلَق عليه ولا يَفهَمه، ثُم إذا أُغلِقت عليه كلِمةٌ واحِدة انغَلَق عليه جميع الدرس، وعَجَز أن يَفهَم مع أن المُعلِّم واحِد والمَوْضوع واحِد.

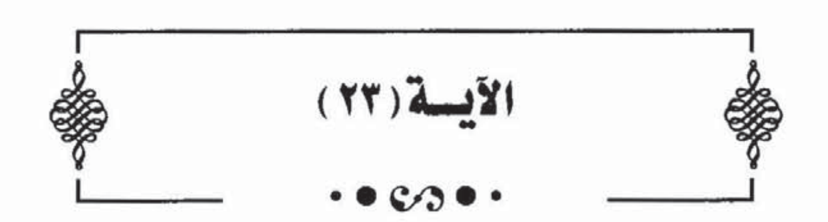
مثال ذلك أيضًا أنك تَجِد التَّمْر يَأكُله رَجُلان: أحدُهما يَكون داءً عليه، والثاني يَكون له غِـذاءً، فمُصاب السُّكَّر إذا أكَل التَّمْر صار داءً عليه، والرجُل الصحيح لا يَكون داءً عليه.

وذلك مثل الأرض تَمامًا، فإننا نَجِد الماء يَجرِي عليها، فأَرْضٌ تَقبَله وتَشرَبه وتُنبِت، وأُخرى لا تَقبَله ولا تَنتَفِع به، فهذا ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ يَرِد على القَلْب الليِّن فيَنتَفِع به، ويَرِد على القَلْب القاسي فيَزداد قَسوة والعِياذ بالله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن القاسِيةَ قلوبُهم من ذِكْر الله تعالى على عَكْس مَن شرَح الله تعالى صَدْره للإسلام، فإن مَن شرَحَ الله تعالى صَدْره للإسلام يَكون على نور، ومَن قَسا قلبه من ذِكْر الله تعالى فهو في ضَلالٍ مُبين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن هؤلاءِ الذين قسَتْ قُلوبهم من ذِكْر الله تعالى قد انغَمَسوا انغِماسًا تامًّا في الضَّلال، ويُؤخَذ هذا من حَرْف الجرِّ (في)؛ لأن (في) للظرفية، والظَّرْف مُحيطٌ بالمَظروف، ومَعلوم أن المَظروف دون الظَّرْف؛ لذا يَكون في جوفه، فكأن هؤلاء انغَمَروا في الضَّلال، وأَحاط بهم إِحاطةَ الظَّرْف بمَظروفه، فصَدَق الله تعالى في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ نَسأَل الله تعالى لنا ولكمُ الهِداية والنور.

• • ❁ • •



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

• • ◦ • •

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ﴾ جُملة خبَرية اسمِيَّة الصَّدْر، فِعْلية العَجُز ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾، و﴿نَزَّلَ﴾ من الفِعْل المُضعَّف ويَأتي التَّعبير أحيانًا بـ(أَنزَل) من الرُّباعيِّ المَزيد بالهَمْزة، واختَلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: هل هُما بمَعنًى واحِد أو لا؟ والصحيحُ: أن مَعناهما واحِد إلَّا مع وجود قرينة، فمعَ وجود القرينة يَكون التَّنزيل لما يَنزِل شيئًا فشيئًا، والإِنْزال لِما يَنزِل جُملةً واحِدة، لكن هذا لا يَكون إلَّا مع القرينة، أمَّا مع عدَم القَرينة فأَنزَل ونَزَّل المُضعَّف بمَعنًى واحِدٍ؛ ولهذا يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨]، ويَقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق:٩]، وهُما بمَعنًى واحِد.

وكذلك في القُرآن؛ فمرَّة يَقول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾، وأُخرى يَقول: ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ وهُما بمَعنًى واحِد، لكن مع وجود القَرينة يَكون التَّنزيل شيئًا فشيئًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦].

فهُنا (نَزَّلنا) تَختَلِف عن (أَنزَلنا) فهي بمَعنَى: التَّنزيل شيئًا فشيئًا، بدليل قوله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾، أمَّا ﴿أَحْسَنَ﴾ فهي اسمُ تَفضيل من الحُسْن، والحُسْن يَتضمَّن حُسْن الأُسلوب وحُسْن المَوْضوع، ويَشمَلهما قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ﴾ يَعنِي: أحسَن في أُسلوبه، وأَحسَن في مَوْضوعه:

أمَّا الأُسلوب فأَنْ يَكون مُطابِقًا للبلاغة في غايتها؛ إيجازٌ في مَوْضِع الإيجاز، وإطنابٌ في مَوْضِع الإطناب، وتَوْكيدٌ في مَوضِع التَّوْكيد، وتَخليةٌ من التَّوكيد في مَوْضِعٍ يَقتَضي ذلك، وهُلَمَّ جرًّا.

وأمَّا ﴿أَحْسَنَ﴾ في المَوْضوع، فلأَنَّ مَوْضوعه أخبارٌ وأحكام، فالأَخْبار أَحسَنها أَصدَقها، وأَنفَعها في العِبْرة، والأَحكام أَحسَنها أَعدَلُها، وأَقومُها بمَصالِح العِباد، والقُرآن الكريم مُتضمِّنٌ للأَحْسَنَيْن الأُسلوب والمَوْضوع.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كِتَٰبًا﴾ بدَل من ﴿أَحْسَنَ﴾] أو عَطْف بَيان، فتكون عَطْف بَيان إذا جعَلْنا ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ شيئًا واحِدًا، وتكون بدَلًا إذا جعَلْنا ﴿كِتَٰبًا﴾ مُستقِلًّا عن ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾.

فيَصِحُّ أن نَقول: بدَلًا أو عَطْف بَيان بشَرْط أن يُوصَل بما بعدَه ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾؛ وذلك لأن عَطْف البَيان يَكون مُبيِّنًا للمَعطوف عليه؛ ولهذا سُمِّيَ: عَطفَ بَيانٍ، ولا يَكون مُبيِّنًا إلَّا إذا جعَلْنا كلِمة (مُتَشابِهًا) صِفةً لازِمة.

و﴿كِتَٰبًا﴾ أي: مَكتوبًا؛ لأن صيغة فِعال تَأتي بمَعنَى مَفعولٍ كثيرًا، ومنه: الغِراس، والبِناء، والكِساء، والفِراش، والوِطاء، وأَمثِلةُ هذا كَثيرة في اللغة العربية.

و﴿كِتَٰبًا﴾ بمَعنَى: مَكتوبٍ، والقُرآن مَكتوب في ثلاثة أشياءَ: في اللَّوْح

المَحفوظ، وفي الصُّحُف التي بأَيْدي المَلائِكة، وفي الصُّحُف التي بأَيْدينا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ أي: قُرآنًا] هذا مَعنوِيٌّ، والفَرْق بين التَّفسير اللَّفْظيِّ والمَعنَويِّ أننا إذا أَرَدْنا أن نُفسِّر تفسيرًا لفظيًّا أَتَيْنا باللفظ نَفْسه، وإذا أَرَدْناه مَعنويًّا أَتَيْنا بالمعنى.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ قال: أي: يُشبِه بعضُه بعضًا في النَّظْم وغيره] أي: يُشبِه بعضُه بعضًا في النَّظْم، واعلَمْ أنه لا يُراد بالنَّظْم هنا ما يُقابِل النَّثْر، فإن القُرآن ليس شِعرًا، لكن في النَّظْم، أي: نَظْم الكلام وتَنظيمه حتى يَكون مُشبِهًا بعضُه لبعض.

فقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ يَعنِي: كِتابة يُشبِه بعضُها بعضًا في الكَمال والجَوْدة وحُسْن المَوْضوع، فلا تَجِده مُتَناقِضًا أبدًا، ولا تَجِده مُختلِفًا أبدًا، لكن بحسَب المَقام تارةً يَكون المَقام يَقتَضي الاختِصار، وتارةً يَكون المَقام يَقتَضِي البَسْط، فإذا نظَرْنا إلى سورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والسورة التي قَبلَها وجَدْنا بينهما تَشابُهًا في الحُسْن، حيث إن كل سورة كانت مُناسِبةً للحديث أو للمُتحدَّث عنه، فسُورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَتحدَّث عن الربِّ عَزَّوَجَلَّ وأسمائه وصِفاته فجاءَت بالأُسلوب المُناسِب، وسورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ تَتحدَّث عن رجُلٍ كافِر، فجاءَت بالأُسلوب المُناسِب؛ فالتَّشابُه مَعناه أنه كلام جاء على الوَجهِ المُناسِب لمَوْضوعه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَّثَانِىَ﴾ ثُنِّيَ فيه بالوَعْد والوَعيد وغيرهما]، أي: يُؤتَى بالوَعْد، ثُمَّ يَعقُبه الوعيد، فيُؤتَى بذِكْر النار، ثُم يَعقُبه ذِكْر الجَنَّة، ويُؤتَى بصِفات المُؤمِنين، ثُمَّ يُؤتَى بصِفات غيرهم، وكلمة ﴿مَّثَانِىَ﴾ عامَّة فتَحتَمِل أن يَكون ذِكْر الوَعيد وذِكْر التَّوْحيد وذِكْر قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ... إلخ.

ففي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة:٢٧٥] جاء بضِدِّهم، أَعنِي: الَّذين كفَروا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]، وانظُرْ إلى قوله تعالى في سورة الكهف لَمَّا ذكَر ما للمُؤمِنين من الثواب في الجَنَّة ذكَر ما للكُفَّار من العِقاب في النار، والأمثال في هذا كثيرة جِدًّا.

فقوله تعالى: ﴿مَّثَانِيَ﴾ الـ﴿مَّثَانِيَ﴾ مَأخوذ من التَّثنية؛ لأن القُرآن مَثانٍ، يَعنِي: من اثنَيْن اثنَيْن؛ والمَثاني أنه يَقرُن المَعنَى وما يُقابِله، فتَأمَّلِ الآياتِ الكريمةَ تَجِد أنه إذا ذُكِرت النار ذُكِرت بعدها الجَنَّة، وإذا ذُكِر أهلُ النار ذُكِر بعدهم أهلُ الجَنَّة، وهكذا، وذلك من أجل أن لا يَملَّ السامِع من موضوعٍ واحِد، ومن أَجْل أن يَتنَقِل من تَخويف إلى تَرغيب فيَنشَط لفِعْل الواجباتِ، ويَحذَر من فِعْل المُحرَّمات، وهذا من أَساليب البَلاغة الكامِلة.

قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَقشَعِرُّ: تَرتَعِد عند ذِكْر وَعيده ﴿جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ يَخافون ربَّهم]، قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ﴾ أي: عند الوَعيد أو ذِكْر النار أو ما يُوجِب الخوف والفَزَع كذِكْر ما حَلَّ بقوم نوحٍ وقوم لوطٍ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ وغيرِهم.

ثُمَّ يَقول: [﴿يَخْشَوْنَ﴾ يَخافون]، وهذا التَّفسيرُ ضعيف؛ لأنه فُسِّر المعنى بما دونَه، إذ قُلْنا: إن الخَشية هي الخوف مع العِلْم، واستَدْلَلْنا لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

فلو أن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: يَخشَوْن ربهم خوفًا مَبنيًّا على العِلْم بعظَمته لكان التفسيرُ صوابًا، لكن الآنَ نَعتَبِر التفسير قاصِرًا.

فقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: أن الجُلود عندما تَسمَع آياتِ الوعيد والتَّخويف تَرتَعِد وتَخاف وتَضطَرِب، وقد كان بعض السلَف يَمرَض أيَّامًا حتى يُعاد إذا سمِع بعض الآيات، كما جرى ذلك لأمير المُؤمِنين عمرَ بنِ الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين تَلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور:٨-٩]، فمَرِض أيامًا حتى عادَه الناس[1].

وقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ الذين يَخشَوْنه، أي: يَخافونه مع العِلْم بعظَمته وجَلاله؛ لأن الخَشْية لا تَكون إلَّا بعِلْم كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

وقد فرَّق العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ بين الخَشْية والخوف بوُجوهٍ:

أوَّلًا: أن الخَشْية تَكون مَقرونةً بعِلْم.

وثانيًا: أن الخَشْية تَكون من عظَمة المَخشيِّ وإن كان الخاشِي عظيمًا.

أمَّا الخوف فيَكون من ضَعْف الخائِف، وإن كان المَخوف منه غيرَ عَظيم.

فهذان فَرْقان بين الخَشْية وبين الخَوْف؛ فالخَشْية تَكون بعِلْم، والخَوْف قد يَكون بوَهْم: فإنه قد يَرى الإنسان شبَحًا من بُعْدٍ ويَخافه وليس بشيء.

وقوله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ هذه الرُّبوبيةُ من الرُّبوبية الخاصَّة التي مَنَّ الله تعالى عليهم بها بالخَشْية التي أَلقاها في قُلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ تَلين أي: تَطمَئِنُّ وتَهدَأ بعد القَشعريرة، فتَلين أي: تَطمَئِنُّ وتَهدَأ ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي:

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٧/ ٤٠٠)، نقلًا عن ابن أبي الدنيا.

مُنقادةً إلى ذِكْره، فتكون هذه اللُّيونةُ غايتها ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ. ولكن لا شَكَّ أن ذِكْر اللِّين أبلَغُ من ذِكْر الطُّمأنينة؛ لأن القَشعريرة تَقتَضِي نُشوز الجِلد وارتِفاعه وتَصلُّبه، والذي يُقابِل ذلك اللِّينُ والهُدوءُ والطُّمأنينةُ، فتَفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا اللينَ بالطُّمأنينة تَفسيرٌ باللازِم في الواقِع، وإلَّا فإن اللِّين غير الطُّمأنينة؛ لأن الجِلْد إذا اقشَعَرَّ يَتصَلَّب؛ ولهذا تَجِد أطراف الإنسان تَبرُد لانحِسار الدَّمِ عنها بعضَ الشيء، فإذا هدَأ الرَّوْع فإنه يَلين ويَزول ذلك التَّصلُّبُ.

ولين القَلْب ضِدُّ قَسْوته يَعنِي عندما يَسمَعون الوعيد تَقشَعِرُّ الجُلود وتَنفِر القُلوب، ثُم بعد ذلك تَلين الجُلود والقُلوب ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: عند ذِكْر وَعْده] ولكن الصواب: أنها عند ذِكْر الله تعالى مُطلَقًا حتى الوعيد إذا تَأمَّل الإنسان وهدَأَت نَفْسُه بعد أن ورَدَ عليها ما يُخوِّفه فإنه يَلين حتى للوعيد فتَخصيص المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك بذِكْر الوَعْد في النَّفْس منه شيء، ومع ذلك فله وَجهٌ إذا كان القُرآن مَثانيَ وجاء ذِكرُ النار ثُم جاء بعده ذِكْر الجَنَّة لانَتِ القلوبُ، أو ذِكْر أهل النار وجاء بعده ذِكْر أهل الجَنَّة لانَتِ القُلوب أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ لم يَقُل: لذِكْر الله. بل قال: ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ وكأنَّ هذا اللِّينَ صار له غاية وهو ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ هل هو من باب إضافة المَصدَر إلى الفاعِل يَعنِي: إلى ما ذكَرهم الله به، أو من باب إضافة المَصدَر إلى المَفعول به أي: إلى ذِكْرهمُ اللهَ؟

الجَوابُ: هذا وهذا، فالكلِمة صالِحةٌ لهذا وهذا، أي: إلى ذِكْرِهم لله، أو إلى ما ذكَرهم الله به، وهو القُرآن الذي جعَله الله تعالى به مَثانيَ.

ثُم إنَّه لا مانِعَ أن أَقول: صلَح قَلْبي وعمَلي؛ وهذا لأن الله تعالى وصَف الجُلود نَفسَها فقال: ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ﴾ واقشِعْرار الجُلود مَبنيٌّ على خوف القَلْب، فذَكَر اللهُ تعالى أن هذه القَشعريرةَ تَزول، وأنها تَتحوَّل إلى لين، وكذلك القَلبُ الذي هو أصلُها.

وقد ذكَر شيخُ الإسلام[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هناك أُناسًا يُصعَقون عند سَماع بعض الآيات وذمَّهم، وذكَر أن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لم يَكونوا كذلك -كما في الآية-، وذلك لأن هُناك فَرقًا بين قَشعريرة الجِلْد وبين الذي يُصعَق، فالذي يُصعَق يُغشَى عليه، والخَشية المَطلوبة أن يَكون عند الإنسان عِلْم بالله تعالى وعظَمته وخوف منه، أمَّا أن يَعجِز عن تَحمُّل ما ورَد على قلبه حتى يُصعَق ويَموت، أو يَفعَل فِعْل المَجانين كالذي تَجِده يَقول: الله! الله! الله! الله! فهذا خِلاف ما كان عليه السلَف.

ولذلك عند الصُّوفية تَسبيحة يُسمُّونها: الغبيـرة، وهي أنهم يَأتون بأسواط معهم، ثُمَّ يَجلِسون حِلَقًا، ثُم يَتكَلَّم الذي يَذكُر الله تعالى، فإذا زعَق (لا إلهَ إلَّا اللهُ)، وسُبحان الله. خبَّطوا بالأَسْواط على الأرض، والجَـيِّد منهم الذي يُثيـر غُبارًا على الأرض أكثرَ؛ لأنه يَكون عنده انفِعال بقُوَّة وشِدَّة، فيُسمُّون هذه: الغبيرة. وأَظُنُّ بعضهم يَقول لبعض: هل غبرت اليومَ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ﴾ لِين القُلوب ليس فيه مَجاز، بل على الحقيقة الحِسِّيَّة، لأن لين القَلْب الذي هو لِين المَلمَس ليس بوارِد هنا، فالظاهِر أنه لا يَكون كالجِلْد يَقِف ويَتصَلَّب، فإن كان يَقِف ويَتصلَّب فيَسأَل عن هذا عُلماء التَّشريح إذا قالوا: إنه عند الخَوْف يَتصلَّب فصار اللين حِسِّيًّا.

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٧).

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يُحتَمَل أن يَكون المُشار إليه باسْمِ الإشارة (ذلك) ما حصَل لهم من الخَشْية، وعلى هذا فيَكون المُراد بالهِداية هِداية التَّوفيق؛ لأن الخَشْية عمَل، ويُحتَمَل أن يَكون المُشار إليه بـ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الكِتاب الذي هو أحسَنُ الحديـث، فتكون الهِدايةُ هنا هِدايةَ دَلالة؛ لأن الكِتاب يَهدِي بمَعنَى: يَدُلُّ، والتَّوفيق بيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذَٰلِكَ﴾ أيِ: الكِتاب] أَفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإشارة في قوله ذلك تَعود إلى الكِتاب، وعلى هذا فيَكون المُراد بالهِداية هنا هِداية الدَّلالة، فإن القُرآن هُدًى بمَعنَى أنه دالٌّ على كل خَير، بل على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

فقوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾ هنا الهِداية هِدايةُ الدَّلالة والتَّوفيق؛ لأنها أُضيفت إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيَدِه الهِدايتان، والباء في قوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾ لم يُبيِّن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مَعناها، ولكن مَعناها: السَّبَبية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ هذه جُمْلة شَرْطية بيَّن الله تعالى فيها أن مَن كتَبه ضالًّا فما أَحَدٌ يَهديه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أَصـلُها (هادِي) بالياء، لكن حُذِفـت الياء لالتِقاء الساكِنيـن وهُما التَّنوين في الدال والياء الساكِنة المَحـذوفة، ويَجوز إبقاؤُها فيُقال: هادِي، لكنها تُحذف كثيرًا للتَّخفيف والتِقاء الساكِنين.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات أن القُرآن نزَل من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات عُلوِّ الله تعالى، ووجهُه: أنه إذا كان القُرآن كلامه ووصَف القُرآن بأنه مُنزَّل دلَّ على أن المُتكلِّم به عالٍ، وعُلوُّ الله عَزَّوَجَلَّ ينقَسِم إلى قِسْمين: عُلوِّ ذات، وعُلوِّ الصِّفة.

فأمَّا عُلوُّ الصِّفة فمُتَّفَقٌ عليه بين أهل السُّنَّة وأهل البِدْعة.

وأمَّا عُلوُّ الذات فمُختَلِفٌ فيه:

فأَهلُ السُّنَّة يُؤمِنون بأن الله تعالى عالٍ فوق خَلْقه بذاته.

وأَهْل التَّعطيل يُنكِرون ذلك، ثُم انقَسَموا إلى قِسْمين:

القِسْم الأوَّل: قالوا: إنه بذاته في كلِّ مَكان، وليس فوقَ السَّمَوات، بل هو فوق السَّمَوات، وفي السَّمَوات وفي الأرض وفي البُيوت وفي المَساجِد وفي الأسواق وفي كل شيء حتى تَوصَّلت الحال في بَعضِهم إلى أن قالوا: إنه حالٌّ حتى في الأجسام حتى في البشَر حتى في الكِلاب حتى في الحَمير! والعِياذُ بالله تعالى! وهَؤلاءِ هم حُلولية الجَهْميَّة الذين فتَحوا البابَ لحُلول الاتِّحاد.

القِسْم الثاني: قالوا: إن الله تعالى لا يُوصَف بعُلُوٍّ ولا نُزول، فهو ليس فوقَ العالَم ولا تَحتَه ولا مُتَّصِلًا بالعالَم، ولا مُنفَصِلًا عن العالَم، ولا داخِلَ العالَم، ولا خارِج العالَم، وهذا تَعطيلٌ مَحضٌ؛ ولهذا قال بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: لو قيل صِفوا لنا العدَم؟ ما وجَدْنا أدَقَّ من هذا الوَصفِ: أن العدَم كلُّ مَن ليس في داخِل العالَم، ولا خارِجه، ولا فوقَ العالَم، ولا تَحتَه، ولا مُتَّصِلًا، ولا مُنفَصِلًا؛ ولهذا قال محُمود بنُ سبكتكين رَحِمَهُ اللَّهُ لابنِ فَورك ما مَعناه: بيِّنْ لنا ربَّك إذا كنتَ تَصِفه بهذا الوَصْفِ؟! فأينُ الرَّبُّ الذي تَعبُده؟! وصدَق.

إِذَنِ: المُنكِرون لعُلوِّ الله تعالى انقَسموا إلى حُلولية ومُعطِّلة تَعطيلًا محَضًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هذا القُرآنَ أحسَنُ الحديث؛ لقوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ وهكذا حديث الله عَزَّوَجَلَّ هو أحسَنُ الحديث، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن القُرآن مَكتوب؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا﴾، وسَبَق أنه يُكتَب في ثلاث مَواضِعَ: اللَّوح المَحفوظ، الصُّحُف التي بأَيْدي المَلائِكة، الصُّحُف التي بأَيْدينا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن القُرآن مُتشابِهٌ؛ لقوله تعالى: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾، وحينئذٍ يُطلَب الجَمْع بين هذه الآيةِ، وبين قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧]، ففي هذه الآيةِ جعَل الله تعالى القُرآن نَوْعَيْن: مُحكَمًا ومُتَشابِهًا، وفي الآية التي في الزُّمَر جعَله نوعًا واحِدًا مُتَشابِهًا؟

والجَمْع بينهما أن يُقال: إن التَّشابُه المَذكور في الزُّمَر غير المُتَشابِه المذكور في آل عِمرانَ، فالتَّشابُه المَذكور في الزُّمَر أنه يُشبِه بعضُه بعضًا في الكمال والجَوْدة، والتَّشابُه المذكور في آل عِمرانَ هو اشتِباه المَعنَى وخَفاؤُه، فالقُرآن بهذا الوجهِ يَنقَسِم إلى قِسْمين:

الأوَّلُ: مُحكَم، أي: واضِح المَعنى، والثاني: مُتَشابِه أي: خَفيُّ المَعنَى.

فالتَّشابُه في الزُّمَر بمَعنَى أن بعضَه يُشبِه بعضًا، كل القُرآن مُتَشابِه، وأمَّا في آل عِمرانَ هو الخَفاء، فـ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ أي: خَفيَّات المَعنَى، فالقُرآن بعضُه مُحكَمٌ بيِّن، وبعضُه مُتَشابِه، لا يَعرِفه إلَّا الراسِخون في العِلْم.

وفي بعض الآيات وَصَف القُرآن بأنه حَكيم بدون أن يَذكُر التَّشابُه، مثل قوله تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس:١]، وهذا بمَعنَى المُحكَم المُتقَن الذي لا يَتَناقَض، فهو عكس المُتشابِه؛ لأن المُحكَم هو الذي لا يَتَناقَض.

فالقُرآن إِذَنْ وُصِف بأنه مُحكَم كلُّه، وأنه مُتشابِه كُلُّه، وأن بعضَه مُحكَم، وبعضُه مُتَشابِه، فوَصْفه أنه كلُّه مُحكَمٌ مُتقَن لا يَتَناقَض في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، ووَصْفه بأنه كلُّه مُتَشابِه، أي: يُشبِه بعضُه بعضًا في الكَمال والجَوْدة وصفُه بأن بعضَه مُحكَمٌ وبعضُه مُتشابِه، أي: أن بعضَه واضِح المَعنَى وبعضَه خَفيُّ المَعنَى.

ومِثال الواضِح المعنى: السماء والأرض والنُّجوم الشمس والقمر والإنسان وما أَشبَهها، فهذا واضِح.

ومِثال المُتشابِه: أن تُوجَد آيتان ظاهِرُهما التَّعارُض مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢]، وفي آية أُخرى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، فكيف تَجمَع المَعنيَيْن هنا، ففي هذه الآيةِ يُنكِرون، وفي الآية التي ذكَرْناها قبلُ لا يَكتُمون الله تعالى حديثًا، إذ قد يَأتي إنسان فيقول: أنا لا أَعرِف وجهَ الجَمْع!!

ولكن الراسِخون في العِلْم يَعلَمون كيف يَجمَعون بين هذه وهذه، فالجَمْع بينهما أن يومَ القِيامة للناس فيه أحوال؛ لأنه يَومٌ مِقدارُه خمسون ألفَ سَنَةٍ، فمَرَّةً يَكتُمون ومرَّةً يُقِرُّون ولا يَكتُمون الله تعالى حديثًا.

ومن ذلك أيضًا ذكَر الله أنه ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:١٠٢]، وقال تعالى:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦] فكيف نَجمَع، فإنه مرَّةً يقول: تَسوَدُّ، ومرَّةً يَقول: زُرْقًا؟

الجَواب: أن يُقال: إن بعضهم هكذا وبعضهم هكذا، أو إنهم في وقتٍ يَكونون زُرقًا، وفي وقتٍ يَكونون سُودًا، أو أن الأزرق الداكِن يَكون مائِلًا إلى السَّواد فيُطلَق عليه أنه أسودُ، أو أن الزُّرقة في عُيونهم والسَّواد في بقية الجِسْم، وما أَشبَه ذلك.

فالمُهِمُّ: أن الراسِخين في العِلْم يَعرِفون كيف يَجمَعون، لكن غيرهم يَكون خَفيًّا عليهم؛ ولهذا يَقول العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إن القُرآن وُصِف بالتَّشابُه على سبيل العُموم وبالإِحْكام على سبيل العُموم، ووُصِف بأن بعضَه مُحكَم وبعضه مُتشابِه، والجَمْع للراسِخين في العِلْم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن القرآن قد بلَغ الغايةَ في البَلاغة؛ لكونه يَأتي مَثانيَ.

ويَتفرَّع على هـذه الفائِدةِ: أنه يَنبَغي لَمن تَكلَّم في مَوْعِظـة الناس أن لا يَأتِيَ بالتَّرغيب المُطلَق ولا بالتَّرهيب المُطلَق، وذلك أنه إذا أَتَى بالتَّرغيب المُطلَق حمَلهم على الرَّجاء فتَهاونوا، وإذا أَتَى بالتَّرهيب المُطلَق حمَلهم على اليَأْس فقنَطوا من رحمة الله تعالى، فالذي يَنبَغي للإنسان الذي يَتكلَّم مع الناس في المَواعِظ: أن يَكون يَتكلَّم أحيانًا بهذا وأحيانًا بهذا حتى لا يَحمِل الناسَ على القُنوط أو على الرَّجاء الذي يُوجِب الأَمْن من مَكْر الله تعالى.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن المُؤمِن يَتأثَّر بالقُرآن، ويَقشَعِرُّ منه جِلْده، ويَخاف، ثُمَّ بعد ذلك تَرجِع إليه الطُّمأنينة ويَلين قَلْبه.

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: أنك إذا رأَيْت نَفْسك على غير هذه الحالِ فاعلَمْ أن

إيمانك ضعيف؛ لأن هذا الخبَرَ خبرٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يُمكِن أن يَتخَلَّف مُخبِره فكل مُؤمِن يَقشَعِرُّ جِلْده ممَّا يَسمَع من القُرآن الكريم في الوعيد، وإذا لم تَكُن كذلك فإن إيمانَك ضعيف.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ سببٌ للِين القُلوب وطُمأْنينتها؛ لقوله تعالى: ﴿تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، ويَشهَد لهذا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: امتِنان الله عَزَّوَجَلَّ على هَؤلاء بالـهِداية؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾ الباء للسببية كما تَقدَّم في التفسير، وإثبات الأَسباب هو المُوافِق للمَنقول والمَعقول:

أمَّا المَنقول فما أكثَرَ الآياتِ التي فيها إثبات الأَسباب مِثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج:٦٣]، وقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق:٩]، والآياتُ في هذا كثيرةٌ.

والمَعقول كذلك يَدُلُّ على إثبات الأَسباب، وأن لها تَأثيرًا في مُسبَّباتها، فكُلُّنا يَعرِف أن ضَرْب الزُّجاج بالحجَر يَكسِره، وأن الزُّجاج انكَسَر بضَرْب الحجَر؛ وهذا خِلافًا لَمِن أَنكَر الأسباب، وقال: إنه لا أَثَرَ للأسباب في مُسبَّباتها، فإن قوله هذا خِلاف الشَّرْع وخِلاف العَقْل؛ حتى إنه قيل لهم: أَلَيْسَتِ الوَرَق تَحترِق بالنار؟ فقالوا: لا، تَحترِق عند النار لا بالنار! وقيل لهم: أَلَيْس الزُّجاج يَنكَسِر بالحجَر يُرمَى به؟ فقالوا: لا، يَنكَسِر عند الحجَر لا بالحجَر. قالوا: لأننا لو أَثبَتْنا تَأثير الأسباب

في أسبابها لأَشْرَكْنا بالله تعالى، وجعَلْنا معه فاعِلًا مُؤَثِّرًا! ولا أحَدَ يَرضَى أن يُشرِك بالله تعالى شيئًا!.

وجَوابُنا على هذه الشُّبْهةِ أن نَقول: إن الأسباب لم تُؤثِّر بذاتها، وإنما أَثَّرت بما أَودَع الله تعالى فيها من القُوة؛ والدليلُ على هذا أن الله تعالى قال لنار إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ [الأنبياء:٦٩]، فكانت بَرْدًا وسلامًا ولم تُحرِق، فإذا قُلنا: إن هذه الآثارَ المُترتِّبة على الأسباب إنما هي بما أَوْدَع الله تعالى في هذه الأسبابِ من القُوَّة المُؤثِّرة، فإننا بذلك لم نُشرِك بالله تعالى.

وتَطرَّف آخَرون من وجهٍ آخَرَ فقالوا: إن للأسباب تَأثيرًا بذاتها، وإننا نَعلَم أن الحجَر إذا أُرسِل على الزُّجاج كسَره بنَفْسه. ولكن هؤلاءِ همُ الذين جعَلوا مع الله تعالى شُرَكاءَ فإننا نَقول: هذا الحجَرُ لو شاء الله تعالى أن لا يَكسِر الزُّجاجة لم يَكسِرها كما أن الله تعالى لَمَّا شاء أن لا تُحرِق النارُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لم تُحرِقه.

فأهلُ السُّنَّة والجماعة وسَطٌ بين هاتين الطائِفتَيْن المُتطرِّفتين؛ الغالية في الأسباب، والغالية في مَشيئة الله تعالى، فنَقول: الأسبابُ مُؤثِّرة، لكن بمَشيئة الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات أن الهِداية بمَشيئة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، وهذه الآيةُ فَرْدٌ من أفراد أدلَّةٍ كثيرة تَدُلُّ على أن فِعْل العَبْد واقِعٌ بمَشيئة الله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

وهذا المَوطِنُ حصَل فيه مُعتَرَكٌ عظيمٌ جِدًّا بين ثلاثة طوائِفَ: طائِفتان مُتطرِّفتان وطائِفةٌ مُعتَدِلة:

الطائِفتان المُتطَرِّفتان: إحداهما قالت: إن الإنسان يَشاء عمَله، ولا عَلاقةَ لله تعالى به، فالإنسان حُرٌّ يَتصرَّف كما يَشاء، وليس لله تعالى فيه تَدخُّل إطلاقًا هو يَهدِي نفسه، وهو يُضِلُّ نَفْسه. قالوا: ولولا ذلك لكان تَعذيب الله تعالى للعاصي ظُلمًا وثوابه للطائع عبثًا؛ لأنك إذا قُلت: إن الإنسان ليس بحُرٍّ، فهو مُدبَّر، والمُدبَّر لا يُحمَد على فَضْل، ولا يُذَمُّ على سوء.

ومن المَعلوم: أن الله تعالى رتَّب الذَّمَّ على العاصي والمَدْح على المُطيع، فهذا يَدُلُّ على أن فِعل العَبْد فِعْلٌ مُستَقِلٌّ.

أمَّا المُتطرِّفون الآخَرون فقالوا: إن الإنسان لا مَشيئةَ له، ولا قُدرةَ له، ولا اختِيارَ له في فِعْله، بل هو مُجبَرٌ عليه عاجِزٌ عن المُخالَفة يُجبَر جبرًا؛ فيَأكُل جَبْرًا، ويَشرَب جبرًا ويَتقدَّم جبرًا، ويَتأخَّر جبرًا، وليس له اختِيار على أيِّ حال، وتعذيب الله تعالى للظالِم ليس ظُلْمًا، وإن كان الظالِم يَفعَل بغير اختِيارِه؛ لأن تَعذيب الله تعالى له تَصرُّفٌ في مِلْكه، والله عَزَّوَجَلَّ يَفعَل ما يَشاء، لا مُعقِّب لحُكْمه، فحينئذٍ لا يَرِد علينا ما استَدَلَّ به الطرَف الأوَّل الذي قال: لو كان الإنسان غير مُطلَق الحُرِّية لكان تَعذيب العاصي ظُلمًا، وإثابة الطائِع لَغوًا.

ونحن نَقول: إن تعذيب الظالِم ليس بظُلْم، وإن كان مُجبَرًا؛ لأن الله تعالى مالِكه يَفعَل فيه ما يَشاء كما أنت تَفعَل في مِلْكك ما تَشاء؛ فتَهدِم البيت، وتَبني البيت، وتَبيع السَّيَّارة، وتَشتَري بدَلها، وما أَشبَه ذلك.

فالطرَف الثاني يُسمَّوْن: الجَبْرية، والطرَف الأوَّل يُسمَّوْن: القدَريَّة، وسُمِّيَ الطرَف الأوَّل: القَدَرية؛ لأنهم يُنكِرون قَدَر الله عَزَّوَجَلَّ فيما يَتعلَّق بفِعْل العَبْد، وسُمِّيَ هؤلاء: جَبْرية؛ لأنهم يَرَوْن أن العَبْد مُجبَر على عمَله.

ويَتساوَى عند هؤلاء مَن نزَل من السُّلَّم بتُؤدة وطُمأنينة دَرجةً دَرجةً ومَن دُفِع من أعلى السُّلَّم حتى انزخَّ[1] على وَجْهه، يَقولون: كلٌّ سواءٌ، كلٌّ مُجبَر.

أمَّا أَهْل السُّنَّة والجماعة فإنهم تَوسَّطوا في هذا، وقالوا: إننا نُثبِت الأدِلَّة الدالَّة على أن كل شيء واقِع بمَشيئة الله تعالى، ونُثبِت الأدِلَّة الدالَّة على أن للإنسان اختِيارًا وإرادةً، وبذلك نَجمَع بين الأدِلَّة، فنَقول: فِعْل العبد واقِعٌ بمَشيئته، لكن مَشيئته تَحت مَشيئة الله تعالى، فإذا شِئْت أنا شيئًا فإنني أَعلَم أن الله تعالى شاءَه، ولا يُمكِن أن أَعلَم بأن الله تعالى شاء شيئًا إلَّا بعد أن يَقَع؛ لأن قضاء الله تعالى سِرٌّ مَكتوم لا نَعلَم عنه، لكن إذا وقَعَ علِمنا بأن الله تعالى شاءَه، فأَنا لا أَشاءُ إلَّا ما شاء الله تعالى، ولكني في نَفْس الوقت لي حُرِّية أن أَشاء ما شِئْـت إلَّا أنني أُومِن بأن مَشيئتي هذه كانت بمَشيئة الله تعالى.

ويَدُلُّ لهذا: أن الإنسان أحيانًا يَعزِم على فِعْل شيء، وبين ما هو مُتَّجِهٌ له إذ انتَقَضَت عَزيمته إلى اتِّجاهٍ آخَرَ أو إلى إلغاء العمَل؛ إِذَنْ فهناك سُلْطة فوقَ سُلْطته، لكِنَّ هذه السُّلطةَ غير مَعلومة، ولا تُعلَم إلَّا بآثارها؛ وقد قيل لأَعرابيٍّ: بمَ عرَفْت ربَّك؟ قال: بنَقْض العَزائم، وصَرْف الهِمَم. فهذا أَعرابي بدَويٌّ أَجاب بهذا الجوابِ العَجيب: عرَفْت ربِّي بنَقْض العزائِم، يَعنِي: أَعزِم على الشيء ثُم تَنتَقِض عَزيمتي بدون سبَب، وصَرْف الهِمَم، أي: أَهِمُّ بشيء إلى اليَمين، ثُم أَجِدني مُنصرِفًا إلى اليسار بدون سبَب إلَّا من الله عَزَّوَجَلَّ.

فأَهْل السُّنَّة والجَمـاعة يَقولون: الإنسان يَشاء ويَختار، وليس مُجبَرًا، لكن أي شيء يَشاؤُه فهو بعد مَشيئة الله تعالى نَعلَم أن ذلك بمَشيئة الله تعالى، وهذا هو الذي

(١) انزخ: أي دُفع ورُمي إلى مكان منخفض. تاج العروس (زخخ).

تَطمَئِنُّ إليه النَّفْس، وتَجتَمِع به الأدِلَّة.

فإن قال قائِل: إِذَن يكون قول المُشرِكين: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام:١٤٨]؛ لأننا لَمَّا عبَدْنا غيرَ الله تعالى: علِمنا أنَّ الله تعالى شاء ذلك، وليس لنا القُدرة في مُخالَفة المَشيئة، فهل هذا صحيح؟

فالجَوابُ: أَقولُ: لا، بل هذا حُجَّة داحِضة أَبطَلها الله عَزَّوَجَلَّ ويُبطِلها العَقْل، فأَبطلَها الله تعالى بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥].

فلَمَّا أَبطَلها الله تعالى شَرْعًا، نَنظُر هل هي باطِلة عَقْلًا أو لا؟

نَقول أيضًا: هي باطِلة عَقْلًا؟ لأنك لم تَعلَم أن الله تعالى ما قضَى عليك بعِبادة الأصنام إلَّا بعد العِبادة، فلماذا لم تَعدِل عن عِبادة الأصنام وتُقدِّر أن الله تعالى قضَى عليك بتَرْك عِبادة الأَصْنام؟! فإِقدامُك على عِبادة الأصنام وأنت لم تَعلَم أن الله تعالى كتَب ذلك هو منك وأنت الذي أرَدْتَه، ولو أنك قدَّرْت الأفضَل والأحسَن، وأن الله تعالى قدَّر أن تكون مُوحِّدًا مُجتَنِبًا لعِبادة الأصنام لحصَل لك ذلك.

ثُمَّ إننا نَقول: هناك أيضًا دَليل حِسِّيٌّ؛ فلو خُيِّر الإنسان بين شَيْئين أحدُهما أفضَلُ من الآخَر سيَختار الأفضَل، وهل يُمكِن لشَخْص أن يَختار الأَردَأَ ويَقول: هذا الذي قُدِّر لي؟! أبدًا.

ولو قيل له: لِمَكَّةَ طُرُق، طريقٌ آمِن وطريق مَخُوف. فقال: نَذهَب مع الطريق المَخوف؛ لأن الله تعالى كتَب علينا هذا!! فهل هذا يُمكِن أو لا يُمكِن؟

الجَوابُ: لا يُمكِن أبَدًا، بل سيَسلُك الطريق الآمِن بلا شَكٍّ.

ولو عُرِض عليه عمَلانِ في وظيفة مثَلًا أحَدُ العمَلَيْن شاقٌّ وأُجرَتُه قليلة، والثاني خَفيف وأُجْرته كثيرة، فسيَختار الثانيَ بلا شَكٍّ.

فهذه أدِلَّة محَسوسة تَدُلُّ على أن الاحتِجاج بالقَدَر على المَعاصي أو على تَرْك الواجِبات احتِجاجٌ باطِل لا يَستَقيم، لا شَرْعًا ولا عَقلًا ولا حِسًّا، فهذا هو مَذهَب أهلِ السُّنَّة والجَماعة؛ يَقولون: نحن نَفعَل باختِيارنا، ولكن اختِيارنا نَعلَم أن الله تعالى قدِ اختاره لنا قبل أن نَختاره نحن إلَّا أنه لا حُجَّةَ لنا في أن نَقول: هذا مُختار الله تعالى لنا، فلا نَستَطيع أن نَتخَلَّص منه لأننا حين الفِعْل لم نَعلَم ما قدَّر، ولا يُمكِن لأيِّ إنسان يَدرِي أن الله تعالى قدَّر شيئًا إلَّا بعد الوقوع؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف:٥]، فجعَلهم السبب في ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنه يَنبَغي للإنسان -وهذه فائِدة مَسلكية- أن يَلجَأ إلى الله تعالى وحدَه في طلَب الهِداية؛ لقوله تعالى: ﴿يَهۡدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، فأنت لا تَعتَمِد على نَفْسك فتَهلِك، بلِ اعتَمِد على ربِّك، واتَّجِه إليه دائِمًا في سُؤال الهِداية حتى يَهديَك الله تعالى، وكان النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ -وهو الهادِي المَهديُّ- يَستَفتِح ويَقول: «**عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمْ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم**»[1] فهذا وهو النبيُّ ﷺ! فكَيْف بنا نحن! فعليك أن تَلجَأ إلى ربِّك في طلَب الهِداية، وألَّا تَعتَمِد على نفسِك، بلِ اعتَمِدْ على الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الله تعالى مَرجِعك.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن مَن يُضِلُّه الله تعالى فلا هاديَ له؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، وفي آية أُخرى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر:٣٧].

فإن قال قائِل: أفلا يُوجِب لنا هذا الحُكْمُ أن نَتوقَّف عن دَعوة الناس إلى الحقِّ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؟

فالجَوابُ: لا يُوجِب، لكن الفائِدة من ذلك أننا إذا دعَوْنا أحَدًا للحَقِّ ولم يَقبَل فإننا لا نُهلِك أَنفُسنا من أَجْله، بل نَقول: هذا قد قَضَى الله تعالى عليه بالضَّلال، وليس لنا في أَمْره من شَأْن؛ ولهذا نَجِد الله عَزَّوَجَلَّ يَقول لنبيِّه مُحمَّدٍ ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، أي مُهلِك نَفْسك ألَّا يَكونوا مُؤمِنين، فلا تُهلِك نَفْسك، وأَنزَل الله تعالى عليه تَسلية حين دعا عمَّه أبا طالِبٍ ولم يَهتَدِ، فقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

وحينئذٍ لا يَمنَعنا مثل هذا الحُكم أن نَدعوَ إلى الله تعالى، ولكن إذا دعَوْنا إلى الله تعالى ولم نَجِد الناس اهتَدَوْا فإننا لا نُكلِّف أَنفُسنا، ولا نُهلِكها بالهَمِّ والغَمِّ؛ لأن الإنسان إذا نظَر هذه النَّظرةَ سوف تَتكدَّر عليه دُنياه، بل سَوْف يَضيع عمَله الصالِح؛ لأن الناس ليسوا بمُهتَدين على ما يُريد، فإذا أَتعَب نَفْسه وراءَ الناس، وصار يَلهَث وراءَهم تَعِبَ، فالواجِب عليه أن يَبذُل ما يَجِب عليه، والباقي على الله عَزَّوَجَلَّ.

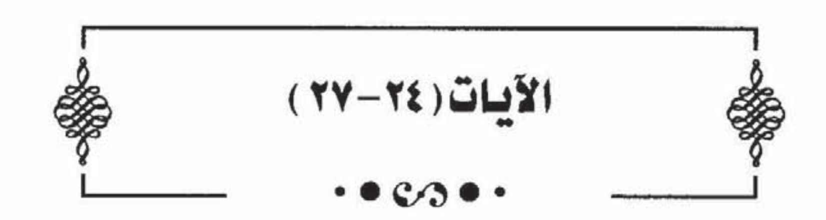
وبالنِّسبة لَمِن يَدعو الناس والناس لم يَهتَدوا، فعليهم أن يَستَمِرُّوا؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قد يُؤخِّر هِدايتهم إلى أجَلٍ مُسمًّى.

وبخُصوص مَن لم يَصِلهم الإسلام فهؤلاءِ كفَّار، لكن لعُذْرهم بعدَم وُصول الرِّسالة إليهم يُكلِّفهم الله تعالى يومَ القيامة بما شاء من أنواع التَّكليف، ثُم إنِ اهتَدَوْا

في ذلك الوقتِ فهم من أهل الجَنَّة، وإن ضلُّوا فهُمْ من أهل النار، هذا أَصَحُّ ما قيل في الجَواب عن هؤلاء، أَعنِي: أَهل الفَتْرة والذين بعد الرِّسالة، ولكن لم تَبلُغهم؛ فالصحيح: أنهم يُمتَحَنون يوم القِيامة بما شاء الله تعالى من التكاليف التي لا نَعلَمها، ثُمَّ إنِ اهتَدَوْا فنَجَوْا وإلَّا عُوقبوا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن اسمَ الهادِي يُطلَق على غير الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:٧]، فالهادِي تُطلَق على الله تعالى وعلى غيره، لكن الذي يَمتَنِع إطلاقه على غيره هو هِداية التَّوْفيق، فإن هِداية التَّوْفيق لا تكون إلَّا لله تعالى وحدَه، أمَّا هِداية الدَّلالة فإنها تكون لله تعالى ولغيره.

• • ۞ • •



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٢٤-٢٧].

• • • •

قوله تعالى: ﴿يَتَّقِى﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يلْقى]، لكِنَّ المُتَّقِيَ للعَذاب هو من يُحاوِل النَّجاة منه، لكِنَّ المُلاقِيَ للشيء قد يُلاقيه ببُشرى وفرَحٍ وسُرور، فتفسير ﴿يَتَّقِى﴾ بـ(يَلقَى) لا شَكَّ أنه قاصِر، ولكنه بعض الأحيان يُفسِّر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ القُرآن بما يُقارِبه كما فسَّر قوله تعالى قال: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ بـ[أَشَدِّه]، ففسَّر كلِمة سُوء بأَسوَأَ، وأَسوَأُ لا شَكَّ أنه اسم تَفضيل، وسوء ليس كذلك، وعلى هذا فيَكون المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّر الكِتاب بما هو أعلى مِنه، والواجِب: أن يَكون المُفسِّر مُطابِقًا للمُفسَّر، ولو قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العَذاب السيِّئ لكان أَبلَغ مُطابَقة للقُرآن.

والعَذاب هو الشيء الذي يُصيب الإنسان إصابةً مُباشِرة يُقال: ذاقه، لكن ليس باللسان، إنما لمَّا أَصابه مُباشَرة صار كالمَطعوم الذي يُدخِله الإنسان في جَوْفه، وعلى كل حال فإحساسُ الوَجْه بالعَذاب أَشَدُّ من إحساس بقية الجَسَد، ويَكون الوَصْف للعَذاب نفسِه إذا كان أَسوَأَ العذاب، ويَكون في الوجه صار أَشَدَّ على

الإنسان ممَّا لو كان في طرَف آخَرَ، لكن الذي يَظهَر لنا: أن سوء العَذاب ليس على اسمِ تَفضيل، ولكنه من باب إضافة الصِّفة إلى مَوْصوفها، يَعنِي: العَذاب السيِّئ.

ومن هذا البابِ أيضا كلِمتا (خَيْر) و(شَر) تُطلَقان على باب اسم التَّفضيل إذا قلت: هذا خيرٌ من هذا وهذا شَرٌّ من هذا. وقد تُطلَقان ويُراد بها الوَصْف بالشَّرِّ فقط، كما تَقول: (هذا شرٌّ)، (هذا خَيْر).

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بأن يُلقَى في النار مَغلولةً يَدُه إلى عُنُقه] كأنه أُخِذ من كونه يَتَّقي العَذاب بوَجهه؛ لأنه لو كانت يَدُه مُطلَقة لاتَّقَى العَذاب بيده، ولكنِّي أَقول: لا يَلزَم منِ اتِّقاء العَذاب بوَجْهه أن تُغَلَّ يدُه؛ لأن يدَه قد تَكون مُرسَلة غير مُقيَّدة، ولكن لا يَستَطيع أو يَظُنُّ أن مُدافعته بوجهِه أشَدُّ، فيُدافِع بوجهه.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في جواب الشَّرْط في ذِكْر المُعادِل: [كمَن أمِن منه في دُخول الجَنَّة؟].

والجَوابُ: لا، وحينئذٍ يَكون الاستِفْهام للنَّفيِ، يَعنِي: لا يَستَوي مَن يَتَّقِي بوَجْهه سُوء العذاب مع من أمِن العَذاب ولم يَتَّقِه ثُمَّ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ أي: كُفَّار مَكَّةَ ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: جزاءَهُم]؛ وقوله: [﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ أي: كُفَّار مكَّةَ] كأنه أَخَذه من قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وإلَّا فإن الظالِمين هنا عامٌّ، لفظ عامٌّ يَشمَل كفَّار مكَّةَ وغيرهم، وهذا هو الأَوْلى.

فإن قيل: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يَدُلُّ على أن هذا في المُتأخِّرين؟

قُلنا: نعَمْ، هو يَدُلُّ على أنه في المُتأخِّرين، لكن كل رَسول قد سبَقه رسول، فهنا نَقول: كذَّبَت قبلَهم قومُ نوحٍ وثَمودُ، كذَّبت قبلهم قوم عاد، وهَلُمَّ جرًّا، فيَكون

(الظالِمون) عامًّا لكُفَّار مكَّةَ ولغيـرهم، لكن أوَّل مَن يَدخُل فيهم بلا شَكٍّ كفَّار مكَّةَ؛ لأن القُرآن نزَل توبيخًا لهم وإنذارًا ودَعوةً.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من جِهةٍ لا تَخطُر ببالهم] وهذا في التَّفسيرُ أشَدُّ وأبلَغُ من أن يَكون من أن يَأتيَهُمُ العَذاب وهم على أُهْبة الاستِعْداد له.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾ من الذُّلِّ والهَوان من المَسخِ والقَتْل وغيره] ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ فأَذاقَهمُ الله تعالى، أي: مسَّهُم به حتى كأنهم طعِموه وذاقوه بمَذاقاتهم.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من المَسْخ والقَتْل وغيره] المَسْخ مثل اليَهود الذي قال الله لهم: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥]، والقَتْل مثل قَتْل بني إسـرائيلَ أنفسَهم حينها أُمِروا بالتوبة وقيل لهم: إن كُنْتم صادِقين في التَّوْبة فاقتُلوا أَنفُسكم.

يَقول المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وغيره] وذلك مثل الإِهْلاك بالصاعِقة والرَّجْفة وما أَشبَهَها، فالمُهِمُّ أن المُكذِّبين للرُّسُل كلُّهم أَهلَكهم الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائل: أليس مِن الرُّسُل مَن قُتِل؟

فالجَوابُ: بلى، ولكن هؤلاء الذين قُتِلوا إمَّا أن يَكونوا لم يُؤمَروا بالقِتال فاعتَدَى عليهم مَنِ اعتَدى بدون قِتال، وإمَّا أنهم أُتوا على غِرَّة دون أن يُجاهَروا بالقَتْل، ثُمَّ إذا قُتِلوا هل مَعنَى ذلك أن ما دُعوا إليه يَموت بمَوْتهم؟ لا، قد يَبقَى فيَكون هذا نَصْرًا لهم ولو بعدَ وفاتهم، فأَذاقهم الله تعالى الذُّلَّ والهَوان من المَسْخِ والقَتْل وغيره في الحَياة الدُّنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كانوا أي: المُكذِّبون يَعلَمون عذابَها ما كذَّبوا، فقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: (ما كذَّبوا) هو جَواب (لو) المَحذوفة.

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبْنَا﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [جعَلنا]، ولعلَّ الضَّرْب أخَصُّ من الجَعْل، وهذا التَّفسيرُ تَفسيرٌ بما هو أعَمُّ؛ لأن ضَرْب المثَل ليس مُجرَّدَ جَعْلٍ له، بل ضَرْب المَثَل للاعتِبار به، فضرَبْته مثَلًا أي: جعَلْته شبَهًا حتى يَعتَبِر به؛ فقوله: ﴿ضَرَبْنَا﴾ أي: بيَّنَّا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، والجُملة هنا مُؤكَّدة بمُؤكِّداتٍ ثلاثة: وهي اللَّام، و(قد)، والقسَم المُقدَّر؛ لأن تَأكيد الكلام في مثل هذا التركيبِ: (واللهِ لقَدْ) فيَكون مُؤكَّدًا بمُؤكِّداتٍ ثلاثة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ **إذا قال قائِل**: كيف يُؤكَّد هذا وهو أَمْرٌ مَعلوم، والغالِب أن التأكيد إنما يُصار إليه للحاجة إليه؟

فالجَوابُ: أن التَّأكيد قد يَكون للحاجة إليه عندما يَكون المُخاطَب شاكًّا أو مُنكِرًا، وقد يَكون التَّأكيد لأهمية المُؤكَّد وإن لم يَكُن ثَمَّة إنكار أو تَردُّد، ومنه هذه الآيةُ فإن ضَرْب الله تعالى الأَمْثال للناس في القُرآن أَمْرٌ محسوس مُدرَك، ولكن لأَهَمِّيته أكَّده الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل شَبَه، فيَضرِب الله تعالى الأشباه والنظائِر ليَحذَر مَن كان على مِثْل هذا النَّظيرِ وهذا الشبيهِ حتى لا يَقوم بمِثْل ما فعَل.

وقوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يَشمَل كل الناس المُؤمِن والكافِر؛ لأَجْل أن يَتذكَّر هؤلاء وهؤلاء.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يَتَّعِظُون] و(لعَلَّ) هنا للتَّعليل وهو أحَد معانيها، ومن مَعانيها التَّرجِّي مثل: لعَلَّ الحبيبَ قادِمٌ، ومن مَعانيها الإِشْفاق مثل: لعلَّ الحبيبَ هالِكٌ، ففي الأوَّل: لعَلَّ الحَبيب قادِم، رجاءٌ، وفي الثاني إِشْفاق يَعنِي: أَخشَى أن يَكون هالِكًا، وتَأتي للتَّعليل كما في هذه الآيةِ، وكما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]، وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ قد تكون هذه للتَّوقُّع، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣] للتَّوقُّع أيضًا، وهي في القرآن كثير، وقوله تعالى: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ [غافر:٣٦] للتَّرجِّي، ويُحتَمَل أن تَكون للتَّعليل، وإنَّما هو كثير في القُرآن.

وإنما بيَّنته لئَلَّا يَظُنَّ بعض الناس أنها للتَّرجِّي في كل مَكان فيقول: كيف يَترجَّى الله عَزَّوَجَلَّ الشيءَ وهو قادِر على كل شيء؟ نَقول: (لعَلَّ) إذا جاءَت في كلام الله تعالى فهي للتَّعليل.

وقوله المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ يَعنِي: [يَتَّعِظون]؛ لأن هذا هو الغرَض من ضَرْب الأمثال.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن كلَّ مثَل في القرآن فإن فيه دَليلًا على إثبات القِياس.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه ليس كلُّ حقٍّ يَترُكه الإنسان ثِقةً بالله تعالى يوم القِيامة يَصير عنده؛ لأنه إن كان تَركه للاختِصام عند الله تعالى فهذا لم يَترُكْه، لكن إن ترَكَه للثواب عند الله تعالى فقد ترَكَه، وهذا إن ترَكَه للاختِصام عند الله تعالى يوم القيامة وعفا عنه في هذه الحالِ؛ لأنه إذا طالَب به في الدنيا وأخَذ حقَّه سلِمَت حَسَناته من هذا

الذي ظلَمه يوم القِيامة، فكان عذاب الدُّنيا أَهوَنَ من عذاب الآخِرة، ويَكون بذلك مُحسِنًا إليه، أو يَترُك للأَحسَن وهو العَفوُ وانتِظار الأَجْر من الله عَزَّوَجَلَّ؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].

فالأحوالُ ثلاثة: إمَّا أن يَأخُذ بحَقِّه في الدُّنيا، أو يُؤجِّل حقَّه للآخِرة، أو يَعفو؛ والمَراتِب من الأَشَدِّ إلى الأخَفِّ؛ نَقول: إن أشَدَّها أن يُؤخِّر ذلك للآخِرة، ثُم أن يَأخُذ به في الدنيا، ثُم أن يَعفوَ مع أن العَفْو لا بُدَّ فيه من قَيْدٍ؛ أن يَكون في العفو إصلاح، فإن كان في العَفو إفسادٌ بحيث إذا عفَوْنا عن هذا الرجُلِ زاد في شَرِّه وطُغيانه، فهنا الأَخْذ بالحَقِّ أَوْلى من العَفْو، أمَّا إذا عِلمنا أن هذا الرجُلَ سيَنظُر إلى العَفو نَظْرة إكبار ويَحسُن خُلُقه بعد ذلك فلا شَكَّ أن العفو أفضَلُ، وهذا الرجُلُ لو عفَوْنا عنه ولم يُصلِح فأَجِّل حقَّك في الآخِرة؛ لأن الله تعالى قيَّد العَفو بالإصلاح، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ لكن أَخبِرْه وقُلْ له: (أنت الآنَ ظلَمْتني في كذا وكذا وكذا، وأنا سأُؤَجِّل أَخْذي ليَوْم القِيامة)؛ ولا أَظُنُّ أنك عفَوْت بهذا.

واعلَمْ أن العَفو يَكون مع القُدرة ومع عدَم القُدرة، لكن العَفْو المَحمود هو العَفو مع القُدرة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنزَل هذا القُرآنَ تِبيانًا لكل شيءٍ، ومنه -أي: من التِّبيان-: ضَرْب الأمثال؛ لأنها تُقرِّب المَعنَى وتَضَع المَعقول في سورة المَحسوس، ومِن ذلك قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: رحمةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعِباد حيث بيَّن لهم هذا البَيانَ التامَّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه يَنبَغي للمُعلِّم غيرَه أن يُكثِر له من ضَرْب الأمثال التي تُعينه على فَهْم المَعنى؛ لأن هذا هو أُسلوب القُرآن.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات العِلل والحِكَم في أفعال الله تعالى وشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الردُّ على الجَهْمية وأشباهِهم ممَّن أنكَروا حِكْمة الله تعالى وقالوا: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يفعَل الشيء لا لعِلَّةٍ وحِكْمة، ولكن لمُجرَّد المَشيئة، ووجهُ ذلك: أن (لعَلَّ) هنا للتَّعليل، والتعليلُ يَعنِي: إثبات الحِكْمة.

• • ❁ • •



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:٢٨].

•••

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال] يَعنِي: أن (قُرآنًا) هذه حال، و(عربيًّا) حالٌ أُخرى، يَعنِي: هذا القُرآنُ الذي فيه من كل مثَل هو قُرآن، والقُرآن تَأتي بمَعنَى المَصدَر، وتَأتي بمَعنَى اسمِ الفاعِل أو المَفعول، فمِن إِتْيانها مَصدَرًا: الغُفران والشُّكْران، وأنا أَقصِد بهذا وَزْن: فُعْلان تأتي مَصدَرًا مثل: الغُفران والشُّكران والقُرآن، وهذا المَصدَرُ في لفظ القُرآن يُحتَمَل أنه بمَعنَى اسمِ المَفعول، فـ(قُرآن) بمَعنَى: مَقروء، وعلى هذا فيَكون بمَعنَى: مَتلُوٌّ، ويُحتَمَل أن يَكون اسمَ فاعِلٍ بمَعنَى: قارِئ، وهو من: قَرَأَ الماء إذا جمَعَه في الحَوْض، والقُرآن إذا تَأمَّلت وجَدْت أن الوَصْفين يَنطَبِقان عليه، فهو مَتلُوٌّ وجامِع.

ولهذا قال العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ في عِلْم أُصول التَّفسير: إنه يَصِحُّ أن يَكون بمَعنى اسمِ الفاعِل، ويَصِحُّ أن يَكون بمَعنَى اسم المَفعول.

وقوله تعالى: ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي: باللُّغة العرَبية التي هي لِسان مُحمَّدٍ ﷺ ولسان القَوْم الذين بُعِث فيهم، والعربية هي أفضَلُ الأَلسُن وأَعرَبُها وأَفصَحُها وأَبيَنُها؛ ولهذا اختارها الله عَزَّوَجَلَّ لرِسالة مُحمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإن قيل: أَليسَ في القُرآن من الكلِمات ما أصلُه أَعجميٌّ في القُرآن؟

قُلْنا: بلى فيه، ولكِنَّ هذه الأَلفاظَ التي أَصلُها غيـر عرَبيٍّ لَمَّا نطَق بها العرَب عرَّبوها وصارت عربية؛ ولهذا لا تَخلو هذه الكلِماتُ المُعرَّبة من تَغييرِ بعض الشيء، فلا بُدَّ أن يَكون فيها شيء من التَّغيير في الغالِب، فإذا نطَق بها العرَب واستَخدَموها وسادت في أَلسِنَتهم صارت مُستَعرَبة. إذا فهي كلِمات مُستَعرَبة من قوم مُستَعرِبين أيضًا؛ لأن أصل العرَب مُستَعرِبين؛ لأنهم ليسوا عربًا في الأصل، فإسماعيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو ابنُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وليس لُغتُه العَربيةَ، لكن لَمَّا جاء عرَب جُرْهم إلى أُمِّ إسماعيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ونزَلوا عندها صار عربيًّا، واستَمَرَّتِ العُروبة إلى يومنا هذا. ودليل هذا أيهما أَفضَلُ، رسالةُ مُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأُمَّته أو الرِّسالات الأُخرى وأُمَّتهم؟

الجَوابُ: رِسالة النبيِّ ﷺ؛ إِذَن: ليس هناك شَكٌّ؛ ولهذا ورَدَ في حديث، لكِنْ فيه نظَر: أن اللغة العربية لُغة أهل الجَنَّة.

وكون الله تعالى اختـار هذه الرِّسالةَ العظيمـة في اللغة العربية يَكفِـي؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، فصار هذا المكانُ صالِحًا لهذه الرِّسالةِ العَظيمة؛ لأنه عظيم؛ ومَعلوم أن البيان لو جاء بغير اللغة العربية ما أَبانَ، لكن كونه اختار أن يَكون في هؤلاءِ العرَبِ، وبِلُغتهم فهذا دليل على فَضْلهم.

فإذا قال قائِل: إن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خاصٌّ بالعرَب؟

قُلْنا: نعَمْ، هو بُعِث في الأُمِّيِّـن، لكن لجميع الناس كما لو أن أحَدًا صار في الشرق أو في الغرب وهو أميرٌ على جميع المَنطِقة على جميع القارَّة التي هو فيها، فهذا مُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بُعِث في هؤلاء القومِ، لكن إلى جميع الناس، ومَعلوم أنه لا بُدَّ أن يُبعَث في قوم، فافْرِضْ أنه بُعِث في العجَم وهو رسول إلى الناس فهو نفس الشيء.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ هذا الوَصـفُ سَلبي وليـس ثُبوتيًّا، واعلَمْ أنه لا يُوجَد في أوصاف القُرآن ما هو سَلْبيٌّ محض؛ لأن السَّلبيَّ المَحْض ليس فيه مَدْح، بل كل شيءٍ وُصِـف به القرآن على وجه النَّفي فإن ذلك لكمال ضِدِّه؛ ولا بُدَّ أن يَتضَمَّن الكَمـال أيضًا في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَـلِدْ وَلَـمْ يُولَـدْ﴾ [الإخلاص:٣] لم يَلِد ولم يُولَد؛ لكَمال وحدانِيَّته.

فإذا قال تعالى: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أي: لكَمال استِقامته، بَلْ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ فالقُرآن الكريم يَهدي للتي هي أَقومُ في أمور الدِّين وفي أمور الدُّنيا على وجهٍ ليس في اعوِجاج بوَجهٍ من الوُجوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: لأَجْل أن يَتَّقوا، فبيَّن الله تعالى لنا بهذا القُرآنِ، وجعَله غيرَ ذي عِوَج من أَجْل تَقواه عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن القُرآن عرَبيٌّ؛ أي: نازِلٌ بلُغة العرَب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه لا يُوجَد في القُرآن لفظٌ أَعجميٌّ؛ لأن الله تعالى وصَف القُرآن كلَّه بأنه عرَبيٌّ، وهذا يَقتَضي أن ليس فيه شيءٌ من لُغة العجَم، ولا شَكَّ أن هذا هو الواقِع، فليس في القُرآن لفظٌ أعجَميٌّ.

لكن اختَلَف العُلَماء المُفسِّرون رَحِمَهُمُ اللَّهُ وغيرهم: هل في القُرآن كلِمةٌ أَصلُها أَعجَميٌّ ثُم عُرِّبت؟

فمِنهم مَن يَقول: نعَمْ. ومنهم مَن يَقول: لا. فالذين قالوا: نعَمْ. قالوا: هناك كلِمـات في القُرآن الكريم لا تَنطَبِق عليها قواعِـدُ اللغة العرَبيـة، ويَعنِي هذا أنها

أَعجَمية، وهذا لا يُنافِي أن يَكون القُرآن عَربيًّا؛ لأن العرَب لَمَّا عرَّبَتْها صارت عربيةً بالاستِعْراب، كما أن العرَب أصلُهم مُستَعرِبون، وإلَّا فلُغَة أبيهم إسماعيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ليسَتْ عرَبيَّة؛ ومنهم مَن قال: هذه الكلِماتُ التي هي كلِمات أَعجَميَّة إنما جاءت بِلِسان العرب من باب تَوارُد اللُّغَتين، ولا مانِعَ أن تَتوارَد اللُّغَتان على كلِمةٍ واحِدة.

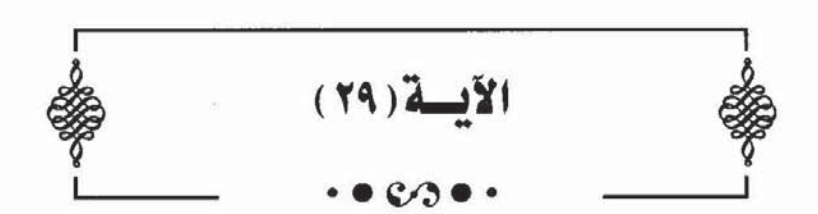
والخِلاف في هذا قريبٌ من اللَّفْظي، وذلك لأنهم مُتَّفِقون على أنه لا يُوجَد في القُرآن لفظٌ أَعجَميٌّ هو أَعجَميٌّ حتى نُزول القرآن أبَدًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ في إنزال القُرآن باللِّسان العرَبيِّ؛ لأن الرسول ﷺ بُعِث في قوم عرَبٍ، فكانت الحِكْمة أن يَكون لِسانه عرَبيًّا كما هو الشأن في جميع الرُّسُل، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن فَهْم المَعنَى مُعينٌ على التَّقوَى؛ لقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وهذا أَمْرٌ واقِع، ففَهْم المَعنَى من أسباب التَّقوى؛ لأنه لو تَكلَّم لك إنسان بما لا تَفهَم مَعناه لم يُؤثِّر فيك شيئًا، إنما يُؤثِّر فيك ما تَفهَم مَعناه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

ونَستَفيد من هذه الجُملةِ: ما استَفَدْنا من الجُملة السابِقة وهي قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

• • ۞ • •



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩].

••൦••

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ لما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الزمر:٢٧]، فبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ هـذا المَثَلَ العَظيـم، فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي: مُتَنازِعون مُختَلِفون كل واحِدٍ منهم يَقول: أنا صاحِبه، أنا الذي أُريد أن أَستَخْدِمه. وما أَشبَه ذلك، فهُم دائِمًا في نِزاع وفي خُصومة؛ لأن كل واحِدٍ منهم يُريد أن يَنفَرِد به عن الآخَر.

والرجُل الثاني: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾: ﴿سَلَمًا﴾ أي: سالِمًا لهذا الرجُلِ لا يَشرَكه فيه أحَدٌ.

فإن قال قائِل: بِمَ عرَفْتم أن ﴿سَلَمًا﴾ بمَعنَى: سالِمًا من الشُّرَكاء؟

قُلنا: عرَفْنا ذلك بذِكْر المُقابِل، وهو قوله تعالى: ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾؛ لأن الكلِمة تُعرَف بالسِّياق وبذِكْر المُقابِل، ومن أَبـرَز مِثالٍ على ذلك قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١].

فلو قال لك قائِل: ما مَعنَى: ثُبَاتٍ؟ لفَهِمْـت مَعناها ممَّا بعدَها: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾، فيَكون الثَّبات ضِدَّ المُجتَمِعيـن، أي: فُرادى: فانفِـروا فُرادى أو انفِروا جميعًا.

وهذه من قواعِد التَّفسير أن يُعرَف تَفسير الكلِمة بذِكْر ما يُقابِلها.

إِذَنْ: يَجِب أن نَعرِف الفَرْق بين المملوك الذي فيه الشُّرَكاء المُتَشاكِسون والمملوك الذي ليس فيه شُرَكاءُ، ثُمَّ نَقيس عليه المُخلِص لله تعالى الذي يَعبُد الله تعالى وحدَه، والذي يَعبُد مع الله تعالى غيرَه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود:٢٤]، أي: هل يَستَوي رجُلان: أحدُهما فيه شُرَكاءُ مُتَشاكِسون والآخَر سَلَمٌ لرجُل؟ هل يَستَوِي هذان؟

الجَوابُ: لا، فالاستِفْهام حينئذٍ بمَعنَى النَّفي، يَعنِي: لا يَستَوِيان، والاستِفهام يَأتي لمَعانٍ كثيرة كما هو مَعروف في عِلْم البَلاغة، ولكنه إذا أَتى في مَوضِع النفيِ فإنه يَكون مُشْربًا معنَى التَّحدِّي؛ لأنه لو قيل: لا يَستَوِيان لفَهِمنا انتِفاء استِوائِهما.

لكن إذا قيل: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ فهِمنا أَمْرين:

الأمر الأوَّل: انتِفاء الاستِواء.

والأمر الثاني: التَّحدِّي.

ونَقول: هل عِندك شيء يُثبِت أنهما يَستَوِيان، فيَكون تَحويل النَّفيِ إلى استِفْهام أبلَغَ في النفي وبين ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؟ الجَواب: لا.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حَمِد نَفْسه عَزَّوَجَلَّ لكَمال صِفاته وكَمال إنعامه، ومن إنعامه أنه يَضرِب الأَمْثال للناس في القُرآن لعلهم يَتَذكَّرون مع أنه عَزَّوَجَلَّ غَنيٌّ عنهم؛

ومَن كفَر فإن الله تعالى غَنيٌّ عن العالَمِين كلِّهم، لكن رحمته تَأبى إلَّا أن يُبيِّن لعِباده ما يَحتاجون إليه في أمور دِينهم ودُنياهم، ولهذا قال بعد هذا البَيانِ التامِّ في المَثَل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وحرف ﴿بَلْ﴾ هنا للإِضْراب الانتِقالي، والإضراب له مَعنَيان:

المَعنَى الأوَّل: إضراب انتِقالي يَعنِي: يَنتَقِل من شيء إلى آخَرَ.

والمَعنَى الثاني: إضراب إِبْطالي، يَعنِي: يُبطِل الأوَّل ويُثبِت الثانيَ.

فإذا قلت: ما قام زَيْدٌ بل عَمرٌو؟ فهذا إضراب إبطال، أي: أبطَلت الأوَّل وأَثبَتَّ الثانيَ؛ وفي قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:٦٦]، هذا انتِقال من مَعنًى إلى مَعنًى أشَدَّ منه.

وفي هذه الآيةِ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إضراب انتِقال؛ لأنه لم يَسبِق شيءٌ أَبطَلته.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والمُراد بـ(أَكثَرُهُمْ) هنا: أكثَرُ الناس، كما جاء ذلك في آياتٍ أُخرى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ وانتِفاء العِلْم هنا لانتِفاء لازِمه: العمَل والامتِثال، فأَكثَرُ الناس في جَهْل، وأَكثَرُ الناس في غَيٍّ؛ في جَهْلٍ لا يَعرِفون الحَقَّ، وفي غَيٍّ لا يَقبَلون الحَقَّ، ولا يَعمَلون به، وكلُّهم يَصِحُّ أن نَنفيَ عنه العِلْم، أمَّا من كان في جَهْلٍ فنَفْي العِلْم عنه واضِحٌ، وأمَّا مَن كان في غَيٍّ مع العِلْم فنَفيُ العِلْم عنه لأنه لم يَنتَفِع به ولم يَعمَل به.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ للمُشرِك والمُوحِّد مثَلًا]، وتَقييد

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمُشرِك والمُوحِّد واضِح؛ لأن المثَل المَضروب وهو العَبْد المملوك بين شُرَكاءَ والعَبْد الخالِص يَنطَبِق تمامًا على المُشرِك والمُوحِّد.

وقوله تعالى: [﴿رَّجُلًا﴾ بدَل من ﴿مَثَلًا﴾] والبدَل يَقول فيه ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

التَّابعُ المَقْصُودُ بِالحُكْمِ بِلَا وَاسِطَةٍ......................[1]

فقوله: (التَّابعُ المَقْصُودُ بِالحُكْمِ) خرَج به بقيَّة التَّوابع؛ وقوله: (بِلَا وَاسِطَةٍ) خرَج به المَعطوف بـ(بَلْ)، فإن المعطوف بـ(بَلْ) إذا كان للإِضْراب الإبطاليِّ فإنه يَكون هو المَقصودَ بالحُكْم، لكنه بواسِطة فلا يُسمَّى: بدَلًا، فهنا قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾، فلو حذَف (مثَلًا)، وقال: ضرَب الله رجُلًا. يَصِحُّ الكلام؛ لأن المَقصود هو كلِمة رجُل، وأنت لو قُلت: رأيت مُحمدًا علِيًّا. عليًّا بدَل؛ لأن المَقصود هو عليٌّ إذا خاطَبني مُخاطِب وقال: رأَيت عليًّا مُحمَّدًا عرَفْت أنه أَراد محمَّدًا ولم يُرِد عليًّا؛ لأن محمدًا بدَل من عليٍّ.

والبدَل هو المَقصود بالحُكْم، لكن قد يَكون سببُه الغلَطَ، وقد يَكون سببُه النِّسيان، أو غير ذلك من الأسباب.

المُهِمُّ: أن البَدَل هو ما حدَّهُ ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله:

التَّابعُ المَقْصُودُ بِالحُكْمِ بِلَا وَاسِطَةٍ هُوَ المُسَمَّى بَدَلَا

يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ مُتَنازِعون سَيِّئَةٌ أَخلاقُهم] أُخِذ سُوءُ الخُلُق من قوله تعالى: ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾؛ لأن المُشاكَسة تُنبِئ عن سُوء الخُلُق إذ إن حُسْن الخُلُق يَتَنازَل عن حقِّه، ولو كان في ذلك أَذِيَّة له أو ضرَر عليه؛ لأن حُسْن

---

(١) الألفية (ص٤٩).

أخلاقه تتغلَّب على أَخْذه بحَقِّه.

وهكذا يَنبَغي للإنسان أن يَكون حسَن الأخلاق وأن يَتَغاضى عن بعض حَقِّه، ولو كان في ذلك أذيَّةٌ لنَفْسه، وأنه إن قالت له نَفْسه: إن تَواضُعَك وعَفوَك عن حقِّك ذُلٌّ لك. لِيَعلَمْ أن هذا من وَساوِس الشَّيْطان؛ لأن النبيَّ ﷺ قال: «مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ اللهُ»[1]، فلا تَغلِبك نَفْسك وتَأخُذك العِزَّة بالإِثْم فتَقول: لا يُمكِن أن أَسكُت عن هذا الرجُلِ -وأنا مَن أنا!- حتى يَعتَدِيَ عليَّ أنا فلانُ ابنُ فلان. فلْيَعلَم أن هذا من الشَّيْطان، ويَتذَكَّر قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠]، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: ما يُوفَّق لها ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [(ورَجُلًا سالِمًا لرجُل)] قوله: (سالِمًا) هي قِراءة، والمُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فسَّر عليها، والسالِمِ يَعنِي: الخالِص كما فسَّرَها خالِصًا لرجُل ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ يَقول: (مثَلًا) تَمييز.

والتَّمييز هو من مَيَّز إذا بَيَّن، وقد حدَّه ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في الألفية فقال:

اسْمٌ بِمَعْنَى (مِنْ) مُبِينٌ نَكِرَهْ   يُنْصَبُ تَمْيِيزًا بِمَا قَدْ فَسَّرَهْ[2]

ومِثاله: قولهم: تَصبَّب زيدٌ عرَقًا. فعرَقًا هذه تَمييز، بتَطبيقها على التَّعريف نَجِد أنها اسمٌ بمَعنى (مِن)؛ لأنك تَقول: تَصبَّب من العرَق. و(مُبِينٌ) أي: مُفسِّر لكلِمة

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الألفية (ص٣٤).

(تَصبَّب)؛ لأن (تَصبَّب) لا نَدرِي تَصبَّب دمًا أم تَصبَّب ماءً، أم تَصبَّب عرَقًا، فبيَّن المُتصَبِّب وهو نَكِرة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ومَعنَى الآية أنه لا يَستَوِي العبد لجَماعةٍ والعَبْد لواحِد، فإن الأوَّل إذا طلَب منه كُلٌّ من مالِكيه خِدْمته في وقتٍ واحِد تَحيَّر فيمَن يَخدُمه منهم]؛ فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا يَستَوي] بيَّنَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الاستِفْهام في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ للنَّفيِ حيث فسَّره بنَفيٍ أيضًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا يَستَوِي العَبْد لجَماعة والعَبْد لواحِد] صحيح، لأنه لا يَستَوِي العَبْد لواحِد يَتصَرَّف فيه متى شاء، فمتى شاء قال: اخدُمْني. ومتى شاء قال: استَرِحْ. ومتى شاء باعَهُ، ومتى شاء أَجَّره، لا يَستَوِي العبد لجَماعة مُتَشاكِسين أخلاقُهم سَيِّئة، تَنازُعُهم دائِمٌ، فلو قال أحَدهم: تعالِ اخْدُمْني. وقال الثاني: اخدُمْني أنا. وقال الثالِث: اخدُمْني أنا. وقال الرابعُ: اخدُمْني أنا!! صار أحَدُهم أَخَذ باليَد اليُمنى والثاني باليَد اليُسرى والثالِث بالرِّجْل اليُمنى والرابع بالرِّجْل اليُسرى، ثُم مزَّعوا العبد؛ لأن كلَّ واحِد يُريد أن يَكون عنده هو الذي يَخدُمه.

كذلك أيضًا في البيع لو أَراد أحدُهم: قال أنا أُريد بَيعَه. وقال الثاني: لا أُريدُه. والثالِثُ قال: أنا أُريد تَأجيرَه. والرابعُ قال: أُريد إعارَتَه؛ فدائِمًا في نِزاع وشِقاق، فالعَبْد نَفسُه في قلَق وفي حَيْرة وفي بلاء، والشرَكاء أيضًا كذلك مُتَشاكِسون دائِمًا، لا يُمكِن أن يَستَوِيَ هذا مع رجُل، وهذا لا شَكَّ أنه مثَل تَقريبي، وإلَّا فالفَرْق عظيم بين عِبادة الله عَزَّوَجَلَّ وعِبادة غيرِه معَه، فالله تعالى أَعظَمُ، ولكنه يُقرِّب هذا للعِباد كما قرَّب المَعاد بالماء يَنزِل من السَّماء ثُم تَنبُت به الأرض، إذ يَبقَى نبات الأرض بعد نُزول المطَر مُدَّة حسَب الأرض وحسَب كَثْرة المطَر وحسَب الجَوِّ المُناسِب وحسَب

الفَصْل، لكن يَبقَى البَعْث؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤].

فالأَمثال قد لا تَكون مُطابِقة تَمامًا، فقد يَكون مَورِد المَثَل أَسرَعَ من المَثَل لكن يُذكَر على سَبيل التَّقريب، ولا شَكَّ أن عِبادة الله عَزَّوَجَلَّ وحدَه وعِبادة غيره معه بينهما فرقٌ أعظَمُ من الفَرْق بين الرجُل السالِمِ للرَّجُل والرجُل المُشتَرَك بين شُركاءَ مُتَشاكِسين.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هذا مثَل للمُشرِك والثاني مثَل للمُوحِّد] والمُراد بالثاني (**رجُلًا سالِمًا لرجُل**) هذا للمُوحِّد والأوَّل للمُشرِك؛ والمَقصود من ضَرْب هذا المَثَلِ هنا: التَّحذير من الشِّرْك بالله عَزَّوَجَلَّ.

ثُم اعلَمْ أن الشُّرَكاء في العَبْد مُتَشاكِسون، لكن مع الله عَزَّوَجَلَّ يقول الله تعالى في الحَديث القُدسيِّ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1]؛ لأن الشُّركاء المُتَشاكِسين لا يُمكِن أن يَتنازَل أحَدُهم عن نَصيبه، لكن الشِّرْك بالله تعالى يَدَع اللهُ تعالى المُشرِكَ وشِرْكَه: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**».

ولهذا قال: [﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وحدَهُ]، وإذا كان الحَمْد له وحدَه وجَبَ أن تَكون العِبادة له وحدَهُ؛ لأنه أَهْل الحَمْد وأهل العِبادة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو وحدَه المُستَحِقُّ لأن يُعبَد.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أهل مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يَصيرون

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

إليه من العَذاب فيُشرِكون]؛ فقوله تعالى: [﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أهل مَكَّةَ] هذه عادة المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيثُ نَجِده دائِمًا ولا سيَّما في الآيات والسُّور المَكِّيَّة يَجعَل مِثل هذا الخِطابِ مُنصَبًّا على أهل مَكَّةَ، ولكن الذي يَنبَغي فِعْله أن نَجعَل دَلالة القرآن عامَّةً دائِمًا إلَّا عند الضرورة؛ لأن القُرآن نزَل لجَميع الخَلْق إلى يوم القيامة، فتَخصيصه بأهل مكَّةَ يَعنِي أنه لا يَتناوَل غيرَهم إلَّا بالقِياس، لكن إذا أَخَذْنا بدَلالة اللَّفْظ العامة شمِل أهل مكَّةَ وغيرَهم بالنَّصِّ، وهناك فَرْق بين شُمول الحُكْم بالنَّصِّ وشُموله بالقِياس.

فالصحيحُ: أن الضمير في ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ يَعود على أكثَر الخَلْق، وأنهم لا يَعلَمون؛ ولهذا ثبَت في الحديث الصحيح: أن الله تعالى يَقول: «**يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: أَخرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ أَوْ بَعْثَ النَّارِ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُ مِئَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ**»[1]، وهؤلاءِ همُ الأَكثَرُ، فأكثَرُ الخَلْق لا يَعلَمون إمَّا لجَهْلهم أو لغَيِّهم، فإن كانوا لجَهْلهم فكما قلت قبلُ: فهُم قد انتَفَى عنهم العِلْم، وإن كان لِغَيِّهم فإن العِلْم انتَفَى عنهم؛ لانتِفاء فائِدته حيث لم يَستَرْشِدوا به.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هذه الآيةَ تَطبيقٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ فإن هذا مثَل.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾، رقم (٤٧٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: «**يقول الله لآدم: أخرج بعث النار**»، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن مثَل مَن يَعبُد مع الله تعالى غيره كمثَل عبْدٍ فيه شُركاءُ مُتَشاكِسون مُتَنازِعون مُتَخاصِمون؛ وجهُ ذلك: أن هذا العابِدَ مع الله تعالى غيرَه لم يَكُن قَلْبه خالِصًا لله تعالى فتَنازَعه الشُّرَكاء من يَمينٍ وشِمال حتى ضاع بينهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله تعالى يَأتِي بالخَبَر أو غيره؛ ثُمَّ يُقرِّر ذلك للمُخاطَب بأحسَن وَجْه، وذلك في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، فإن هذا الاستِفْهام الذي يُراد به النَّفيُ: الغرَض منه تقرير ما ذُكِر وإلزامُ المُخاطَب به.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله تعالى مُستَحِقٌّ للحَمْد؛ لكَمال تَوحيده؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

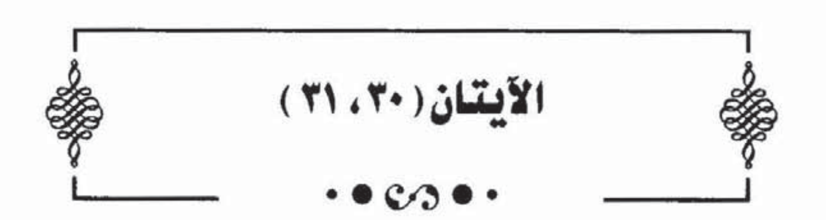
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الحَمْد المُطلَق إنما يَكون لله عَزَّوَجَلَّ، أمَّا غيره فهو وإن حُمِد فليس حَمْده على الإطلاق، بل يُحمَد على شيء مُعيَّن وجُزء مُعيَّن ممَّا يُحمَد عليه، أمَّا الحَمْد على الإطلاق فهو لله ربِّ العالَمين عَزَّوَجَلَّ، فهو المَحمود على كل حال، وكان النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا أَتاه ما يُسَرُّ به قال: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ**»، وإذا أَتاه ما يَسوؤُه قال: «**الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**»[1].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن أكثر بني آدَمَ لا يَعلَمون الحقائِق على ما هي عليه، وإن علِموها لم يَنتَفِعوا بها؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



الآيتان (٣٠، ٣١)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣٠-٣١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ﴾ الخِطاب لرسول الله ﷺ، و﴿مَيِّتٌ﴾ وَصْفٌ له في المُستقبَل، ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ كذلك وأكَّد الموتَ مع العِلْم به يَقينًا من أَجْل أن عمَل هؤلاء الذين كذَّبوا النبيَّ ﷺ عمَلُ مَن لم يُوقِن بالموت؛ لأن مَن أَيقَن بالموت حقيقةً فلا بُدَّ أن يَعمَل له، لكنهم هُمْ لا يَعمَلون له فكان عدَم عمَلهم له كالمُنكِر أو بمَنزِلة المُنكِر؛ فلهذا أُكِّد.

وقوله تعالى: ﴿مَيِّتٌ﴾ بتَشديد الياء يُقال لَمِن سيَموت وهو حَيٌّ، وأمَّا (مَيْت) فيُقال لَمِن وقَع به الموت، أي: بعد فِراق حَياته يُقال: مَيْت، وربما يُقال: مَيِّت، لكن الأكثر مَيْت، فعلى هذا يُفرَّق بين أن يُوصَف الحيُّ بالموت فيُقال فيه: مَيِّت. وبين أن يُوصَف المَيْت بالموت فيُقال: مَيْت.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ﴾ الخِطاب للنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ومَن عانَده وكفَر به.

وقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ عند ربِّكم الذي خلَقكم أوَّل مرَّة وأَعادَكم ثانيَ مرَّة.

وقوله تعالى: ﴿تَخۡتَصِمُونَ﴾ عِنده أيُّكم على الحقِّ، ونحن نَعلَم الآنَ نَتيجةَ هذه الخُصومةِ مَن سيَغلِب؟

الجَوابُ: المُؤمِنون لا شَكَّ؛ قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١]؛ فالكافِر لا سبيلَ له على المُؤمِن، فالنتيجةُ -والحمد لله تعالى- مَعلومة أن المُؤمِنين همُ الغالِبون يوم القِيامة وهُمُ الخاصِمون لأَعدائِهم.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّكَ﴾ الخِطاب للنَّبيِّ ﷺ].

وقوله تعالى: ﴿مَيِّتٞ﴾ أي: [ستَموت]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ستَموت ويَموتون]، وكما يَقول العامَّة عِندنا: الوَعْد قُدَّام. قُدَّام يَعنِي: يوم القِيامة؛ لأن الله تعالى يوم القيامة يَفصِل بين العِباد سَوْف يَتَنازَع الناس في أعمالهم ودِياناتهم ويَتَنازَعون في حُقوقهم الخاصَّة، فيَفصِل الله تعالى بينهم يوم القِيامة؛ يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فلا شَماتةَ بالمَوْت] يَعنِي: أنك إذا مِتَّ فلا شَماتةَ عليك؛ لأنهم سيَموتون مِثْلك.

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نزَلَت لمَّا استَبْطَؤوا مَوْته ﷺ] يَعنِي: أن سبَب نُزولها أن قُرَيْشًا استَبْطؤوا موت النبيِّ ﷺ، فنَزَلت هذه الآيةُ تُخبِره أنه سيَموت، وإذا مات فهم أيضًا سيَموتون ويَختَصمون يوم القِيامة.

ولكن هذه الدَّعوى تَحتاج إلى دَليل؛ لأننا إن نظَرْنا في سبَب النُّزول لا نَجِد هذا، فإذا كان كذلك فلا يَنبَغي أن نَتخيَّل سببًا للنزول في مَعنَى آية من كِتاب الله تعالى؛ لأنَّ سبَب النُّزول خبَر مَحْض، والخبَر المَحض لا دَخلَ للعَقْل فيه، ولكننا

نَقول: ذكَرَ الله تعالى هذه الجُملةَ إشارةً إلى أنه لن يَضيع عمَلُك ولا عمَلُهم، فلن يَضيع عمَلُك بدَعْوتك إلى التوحيد، ولن يَضيع عمَلهم بالإِشْراك، فإن لكم مَوْعِدًا ستَجتَمِعون فيه وتَختَصِمون فيه عند الله عَزَّوَجَلَّ، فيَكون في هذا تَسلية للرسول ﷺ، وفيه تَحذيرٌ للمُشرِكين.

فهو من وَجهٍ: تسلية وتَطمينٌ للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو من وجهٍ آخَرَ: تَحذيرٌ للمُشرِكين بأنهم سيَموتون وسيَكون أيضًا مَوتُهم عن قُرْب، وسيَكون مُؤكَّدًا لا إشكالَ فيه.

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أيُّها الناس فيما بينكم من المَظالِمِ] وهذا عجَبٌ من المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث صرَف الخِطاب ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ إلى عُموم الناس، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيُّها الناسُ] والسِّياق يَأبَى هذا التَّفسيرَ، بل الخِطاب للنبيِّ ﷺ ومَن كفَر به؛ هذا هو المُتعَيِّن.

وقوله تعالى: ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ أي: في المَظالِمِ التي بينكم من الحقِّ والباطِل، فأنت تَدعو إلى التَّوْحيد وهم يُنكِرون ذلك، ولكم مَوعدٌ تَختَصِمون فيه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أي: الرسول ﷺ ومَن كذَّبه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ إشارة إلى أن هذا الاختِصامَ من مُقتَضى رُبوبيته عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه حكَمٌ عَدْل، ومِن عَدْله: أنه يَفصِل بين المُتنازِعين فيه يوم القيامة كما يَفصِل بين المُتنازِعين في الحُقوق الخاصة.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن نبيَّنا ﷺ لن يُخلَّد أبَدَ الآبِدين، بل هو ميِّت، كما أن خُصومه أموات، وهذا كقَوْله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَسلية النَّبيِّ ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

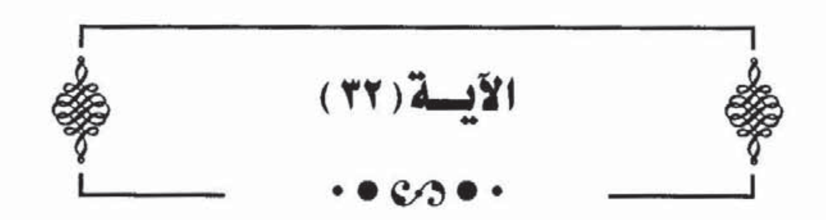
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إنذار هؤلاء المُكذِّبين بأنَّ لهم مَوعِدًا مع الرسول ﷺ وهو الاختِصام يوم القيامة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن أهل الشِّرْك والكُفْر خُصومٌ لأهل التَّوْحيد والإيمان في الآخِرة، كما أنهم خُصومٌ في الدنيا، ففي الدنيا لا شَكَّ في خُصومتهم وعَداوة بعضِهم لبعض، وفي الآخِرة أشَدُّ وأعظَمُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الخَلْق يَختَصِمون عند الله يوم القِيامة، ومن المَعلوم أن الخاصِم إذا كانت الخُصومة بين المُؤمِن والكافِر، فالمُنتَصِر هو المُؤمِن، قال الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات البَعْث والحِساب؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

• • ۞ • •



الآية (٣٢)

• ● ❁ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر:٣٢].

• ● ❁ ● •

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ﴾: (مَنْ) هذه استِفْهامية، وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾: (إِذْ) ظَرْفٌ بمَعنى: حين؛ والاستِفهام في قوله: ﴿أَلَيْسَ﴾ للتَّقرير.

يَقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هذا الاستِفْهام هنا بمَعنَى النفيِ، أي: لا أحَدَ أَظلَمُ ممَّن كذَب على الله تعالى.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَنْ﴾ أي لا أَحَدَ] وتَحويل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الاستِفهامَ إلى نفيٍ يُفيد أن مَعنَى الاستِفْهام النفيُ، والمَعنَى: لا أحَدَ أَظلَمُ فلا أحَدَ ممَّن كذَب على الله تعالى، أي: قال عليه الكذِب.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بنِسْبة الشَّريك والولَد إليه] وهذا على سَبيل التَّمثيل لا الحَصْر، فمَن قال: إن لله ولَدًا فقَد كذَب على الله تعالى، ومَن قال: إن لله تعالى شَريكًا. فقد كذَب على الله تعالى؛ لأن الله تعالى لا يُوصَف بهذه الصِّفاتِ التي وصَفوه بها، ومَن فعَل ذلك فقد كذَب على الله تعالى، ومَن قال: إن الله مُماثِلٌ لخَلْقه. فقد كذَب على الله تعالى، ومَن قال: إن الله حَرَّم السائِبة والوَصيلة والحامِ. فقد كذَب على الله تعالى.

المُهِمُّ: أن ذِكْر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذين الأَمْرين فقَطِ المرادُ به التَّمثيلُ لا الحصرُ، فالكذِب على الله تعالى كثير، وبعضُها أشَدُّ من بعض.

وقوله تعالى: ﴿كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: افترى عليه الكذِب، إمَّا بنِسْبة الشريك إليه، أو بأنه حرَّم شيئًا ولم يُحرِّمه، أو أحَلَّ شيئًا ولم يُحِلَّه، أو أَوجَب شيئًا ولم يُوجِبه، أو عطَّل صِفةً من صِفاته أو أَثبَت له ما لم يَصِفْ به نَفْسه، أو غير ذلك ممَّا يكون فيه الكذِب على الله تعالى، فلا أحَدَ أَظلَمُ ممَّن كذَب على الله تعالى، والكذِب على الله تعالى ليس كالكذِب على البَشَر، والكذِب على الرسول ﷺ ليس كالكذِب على غيره من البشَر، قال النبيُّ ﷺ: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[(١)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ بالقُرآن ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾]، ولا شَكَّ أن القرآن صِدْق، بل إنه صِدْقٌ وعَدْل كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، فهو باعتِبار الأخبار صِدْق، وباعتِبار الأحكام عَدْل، لكن المَسأَلة أعَمُّ ممَّا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فقوله تعالى: ﴿بِٱلصِّدْقِ﴾ أي: بما كان صادِقًا سواءٌ في القرآن أو في السُّنَّة، فإنه داخِلٌ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ فجَمَع بين الأَمْرين (كذَّب بالصِّدْق) أي: نسَب الصِّدقَ إلى الكَذِب فقال: هذا كذِبٌ. ومن ذلك: تَكذيب قُريشٍ للرسول ﷺ حيث قالوا: إنه ساحِرٌ كذَّاب.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، رقم (١٢٩١)، ومسلم في مقدمة صحيحه، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، رقم (٤)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ يَعنِي: إذ أَتاه، وليس شيئًا مَنقولًا له، بل هو قد أَتاه مُباشَرةً وأُخبِر به على لِسان الصادِق، فيُكذِّب به، فلو أن أحَدًا حدَّثَنا عن شيخه، وشيخُه عن شيخِه، وشيخُه عن شيخِه، حتى وصَل إلى الرسول ﷺ فهل يُمكِن أن نُكذِّب هذا إذا كان في أحَد الرواة من هو مُتَّهَم بالكذِب؟

الجَوابُ: نعَمْ يُمكِن، لكن إذا جاءَنا الخبَر من الرسول مُباشَرة فإن تَكذيبه كُفْر؛ ولهذا لو أن أحَدًا من الناس كذَّب حديثًا في أحدِ كُتُب الحديث وقُلْنا له: لمَ كذَّبْت؟ هل عندك شَكٌّ في أن الرسول ﷺ قاله؟ قال: لا شَكَّ عِندي أنه قاله، لكنه كذِب؛ فنَقول: هذا كافِرٌ؛ لأن الصِّدْق جاء بإِقْراره على نَفْسه، أمَّا لو قال: هذا كذِب لأن أحَدَ الرُّواة كاذِب أو كذَّاب فأنا أُنكِره لهذا. فلا يَكفُر؛ بل قد يَكون هذا هو الواجِبَ عليه إذا كان هذا مُؤدَّى اجتِهاده، ففائِدة قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أنه لا واسِطةَ بينَه وبين مَن جاء بالصِّدْق حتى يُقال: لعلَّ له عُذرًا وأنت تَلوم؛ فليس هناك واسِطة.

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ هذا الاستِفهامُ للتَّقرير، والغالِب: أن هَمزة الاستِفهام إذا دخَلت على ما يُفيد النفيَ الغالِبُ أن تَكون للتَّقرير، وجوابُها يَكون بالإثبات بلَفْظة (بلَى) مِثْل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، فالاستِفْهام هنا للتَّقرير، ومَعناه: قد شرَحْنا لك صَدْرك، ومثله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [التغابن:٥]، والمَعنَى: قد أَتاكُم، وأَمثِلة ذلك في القُرآن كثيرةٌ.

وكلِمة الكافِرين في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ إظهار في مَقام الإِضْمار، وكان مُقتَضى السِّياق أن يَقول: أَلَيْسَ في جَهنَّمَ مَثْوًى له، والإِظهار

في مَقام الإِضْمار له فَوائِدُ ذكَرْناها سابِقًا منها:

١- العُموم، وهذا يَعنِي: أن مَثْوًى له ولغَيْره من الكافِرين.

٢- تَسجيل الوَصْف على هَؤلاء بأنهم كُفَّار، يَعنِي: إثبات أن هؤلاءِ كفَّار.

٣- إفادة التَّعليل؛ لأنه لو قال: أَلَيْس في جَهنَّمَ مَثوًى له. لم نَستَفِد ما هي العِلَّةُ في أن مَثواه جهنَّمَ، لكن إذا قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ عرَفْنا أن العِلَّة كُفْرهم؛ ففيه بَيان العِلَّة.

فصار الإظهار في مَوضِع الإضمار له ثلاث فوائِدَ هنا.

وكلِمة: ﴿جَهَنَّمَ﴾ قيل: إنها من الأسماء المُعرَّبة، وأَصلُها في اللغة الفارِسية (كَهنام). وقيل: إنها اسْمٌ عربِيٌّ، وأنها مَأخوذة من الجهمة، يَعنِي: الظُّلْمة والنار؛ لبُعْد قَعْرها -أَعاذَني الله تعالى وإيَّاكم منها-، سَوداءُ مُظلِمة، فالله تعالى أعلَمُ، سواءٌ هذا أو هذا.

المُهِمُّ: أنها تُستَعمَل في لغة العرَب للنار العَظيمة المُسوَدَّة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾: بَلى] وهذا هو جوابُ ﴿أَلَيْسَ﴾ وأَشباهِها، وحاصِلُه: أنه إذا دخَلَت همزة الاستِفْهام على ما يُفيد النفيَ فجوابُ التَّقرير (بلَى)، ولو قُلْت: (نَعَمْ) لكان نَفيًا، فإذا قلت: أَلَمْ يَقُمْ زَيدٌ؟ فقال المُخاطَب: (نعَمْ)؛ يَعنِي: لم يَقُم، وإذا قُلت: أَلَمْ يَقُم زَيدٌ؟ فقال المُخاطَب: (بلى) أي: قد قامَ؛ ولهذا يُروَى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:١٧٢]، قال: «لو قالوا: (نعَمْ) لكَفَروا»؛ لأنهم إذا قالوا: (نعَمْ) يَعنِي: لسْتَ ربَّنا، هذا هو المَشهور في اللُّغة العربية، لكن ربما يَأتي الجوابُ بـ(نَعَمْ)

مُرادًا به الإثباتُ، ومنه قول الشاعِر:

أَلَـيْسَ اللَّيْـلُ يَجْمَـعُ أُمَّ عَمْـرٍو وَإِيَّانَـا فَـذَاكَ لَنَـا تَـدَانِي

نَعَـمْ وَتَـرَى الهِـلَالَ كَـمَا أَرَاهُ وَيَعْلُوهَـا النَّهَـارُ كَـمَا عَـلَانِي(١)

لو قال قائِل: لعَلَّ هذه ضرورةٌ؟

قُلنا: لا، لأنه لو أَتى بـ(بلى) بدَلَ (نعَمٍ) استقام البيتُ، فإن الشاعِر لو قال: بلَى وَتَرَى الهِلال كما أَراه. استقام البيتُ.

وعلى كل حال: المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أجاب بـ(بلى) أي: لإِثْبات ما ذكَر أن في جَهَنَّم مَثوًى للكافِرين.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنه لا أحَـدَ أَظلَمُ ممَّن كذَب على الله تعالى وكـذَّب بالصِّدْق؛ لجَمْعه بين سَيِّئَتَيْن:

السَّيِّئة الأُولى: الكذِب على الغير.

والسَّيِّئة الثانية: تَكذيب الغَيرِ الصادِق.

فإنِ انفَرَد أحدُهما فهل يَستَحِقُّ هذا الوَصفَ أن يَكون أَظلَمَ الناس لو كذَب على الله تعالى وصدَّق بالصِّدْق؟ هل يَستَحِقُّ هذا الوَصْفَ؟

الجَوابُ: لا، لأن الوَصْـف أو الحُكْم المُرتَّـب على مجَمـوع صِفات لا يَثبُـت إلَّا بثُبوتها، ولكن مع ذلك إذا تَفرَّقـتِ الأَوْصاف فله نصيـبٌ من هذا الوَصفِ،

---

(١) البيتان من شعر جحدر العُكْلي، انظر: الأمالي للقالي (١/ ٢٨٢)، وخزانة الأدب (١١/ ٢٠٩).

فقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون:٤-٧]، فمَن تحقَّق فيه أحَدُ هذه الأَوْصافِ له نَصيبٌ من الوَيْل، لكنَّ الويلَ كلَّه لا يَكون إلَّا باجتِماع الأَوْصاف.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر:٤٢-٤٦]، فهذه أربعة أَوْصاف هي سبَب دُخولهم النارَ، وإذا انفَرَد واحِدٌ منها لم يَكُن دُخولُهم النارَ مُستَحَقًّا، لكن له نَصيبٌ من هذا الوَعيدِ.

وهنا في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ وَصْفان هُما: كذَب على الله تعالى، وكذَّب بالصِّدْق؛ فلوِ افترَى بدون أن يُكذِّب بالصِّدْق لم يَنطَبِق عليه وَصْف الأَظْلَميَّة، لكنه ظالِم، ولو كذَّب بالصِّدْق ولم يَكذِب على الله تعالى كذلك.

فإن قال قائِل: هذه الآيةُ تَدُلُّ على أن مَنِ اتَّصَف بهذَيْن الوَصْفين هو أظلَمُ الناس. فكيف نَجمَع بينها وبين نُصوصٍ أُخرى تَدُلُّ على مثل هذه الدَّلالةِ، مثل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ [البقرة:١١٤]، وفي الحديث: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»[(١)]، ونُصوص مُتعَدِّدة؟

فالجَوابُ أن نَقول: إن هذه كلَّها تَشترِك في وَصْف الأَظْلمية، ولا مانِعَ من أن تَشترِك فتَقول مثَلًا: فُلان أصدَقُ الناس. والثاني أيضًا: فُلان أصدَقُ الناس.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، رقم (٧٥٥٩)، ومسلم: كتاب اللباس، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والثالِث: فُلان أَصدَقُ الناس؛ يَعنِي: اشتَـرَكوا في هذه المَرتَبةِ العالية التي أَعلى كل شيء؛ لأن اسمَ التَّفضيل يَدُلُّ على الكمال في هذه الصِّفةِ.

أو نَقول: إن الأَظْلمية باعتِبار جِنْس هذا الذَّنبِ. فمثَلًا: مِن أَشَدِّ الناس ظُلْمًا في الكَذِب على الغير: مَن كذَب على الله تعالى، ومِن أَشَدِّ الناس ظُلْمًا في تكذيـب الغَيْر: مَن كذَّب بالصِّدْق، وهذا الوجهُ أَقرَبُ، وذلك لأن الاشتِـراك في الأَظلمية قد يَمنَع اسم التَّفضيل في الجِنْس الآخَر، يَعنِي: أنه ليس الإنسان يَتصوَّر تَصوُّرًا تامًّا بأن اشتِراكَ هذه الأَعمالِ في الأَظْلمية يَقتَضي أن لا يَكون بعضُها أظلَمَ من بعض.

فإذا قُلنا: إن الأَظْلمية هنا باعتِبار جِنْس المُفضَّل عليه، يَعنِي: فمَن أَظلَمُ ممَّن كذَب على الله تعالى في الكاذِبيـن على الغيـرِ الكاذِب على الله تعالى أَشَدُّ ظلمًـا من الكاذِب على زَيْد وعَمرٍو، والمُكذِّب بما يَحتَمِل الصِّدْق والكذِب ليس كالمُكذِّب بما يَعلَم أنه صِدْق كذَّب بالصِّدْق، إذ جاء؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أي: مَن منَع مَساجِد الله تعالى فهو أَظلَمُ ممَّن منَع الغَيْر حقَّه، فلو منَعْـت رجُلًا أن يَدخُل بيته لكان مَنْعي لهذا الرجُلِ أن يَدخُل مَسجِد الله تعالى ويُذكَر فيها اسمُه أَظلَمَ.

ومثله قوله تعالى: «**مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي**» فلو أن أَحَدًا ذهَـب يَخلُق كخَلقِ فُلانٍ أو فلان ممَّن يَحرُم عليه مُزاحَمته في صَنْعته لكان الذي ذهَب يَخلُق كخَلْق الله تعالى أَظلمَ، وهَلُمَّ جرًّا، وهذا الجَوابُ جَوابٌ -كما يُرى- سَديد ولا يَرِد عليه إِشْكال.

والاستِفْهام هنا مَعناه النفيُ، والفائِـدة من إتيان النفيِ بصيغة الاستِفهام: التوبيخُ والتقريرُ، وهو مُتضَمِّن مَعنَى التَّحدِّي؛ لأن قوله تعالى: «**لَا أَحَدَ أَظْلَمُ**»

دون قوله تعالى: «فَمَنْ أَظْلَمُ»؛ لأن هذا يَكون مُشرَبًا مَعنَى التَّحدِّي فيَكون نَفيًا وزيادة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الكـذِب على الله تعالى أظلَمُ أنواع الكَـذِب؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وإذا كان النَّبيُّ ﷺ يقول: «**إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدِكُمْ**»(١)، فما بالُكم بالكذِب على اللهِ تعالى الذي أَرسلَهُ؟! أي: إذا كان هذا الكذِب على الرسول ﷺ بهذه المَثابةِ فما بالُكَ بمَن كذَبَ على الله تعالى؟!.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وجوب التَّحرِّي في تفسير القُرآن؛ لأن المُفسِّر للقرآن شاهِدٌ على الله تعالى بأنه أَراد كذا وكذا، وقد يَكون الأَمْر على خِلاف ذلك فيَكون كاذِبًا على الله؛ ولهذا كان الصحابة الأَجِلَّاء يَتحرَّزون من التَّفسير من تَفسير القُرآن، وهو نزَل بلُغَتهم وفي عصرِهم ومُشاهَدتهم، ومع ذلك يَتحرَّزون، سُئِل أبو بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٣١] قال: «أيُّ أَرْضٍ تُقِلُّني، وأيُّ سَماءٍ تُظِلُّني إن قُلتُ في كلام اللهِ ما لا أَعلَمُ»(٢) يَعنِي: أنه لا يَعلَم، وهذا مَشهور عند المُفسِّرين وعند غيرِهم، وقد نقَله شيخُ الإسلام في المُقدِّمة(٣).

وعِندنا الآنَ أُناس يُفسِّرون الآية وكأنه ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو من أَجهَل عِباد الله تعالى! ولا يُبالي أنه يُفسِّر كلام الله تعالى، ولو فسَّر كلام زَيدٍ وعَمرٍو ما همَّه

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، رقم (١٢٩١)، ومسلم في مقدمة صحيحه، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، رقم (٤)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه كتاب التفسير رقم (٣٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٥/ ٤٩٩-٥٠٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٧١-٣٧٢).

وما همَّنا به، لكن الذي يُهِمُّنا أنه إذا فسَّر كلام الله تعالى وشهِد على الله تعالى أنه أَراد كذا وكذا؛ ولذلك نَجِد أن من أَخطَر ما يَكون أن يُؤَوَّل كلام الله تعالى عن ظاهِره إلى مَعنًى يُخالِف الظاهِر بلا دليلٍ بيِّنٍ.

وبه نَعرِف ضلال أهل التَّعطيل الذين قالوا: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] يَعنِي: استوْلى عليه -كأنك تَشهَد على الله تعالى أنه أَراد هذا-؛ وقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أي: بقُوَّتي، أو بنِعْمتي، أو ما أَشبَه ذلك!! فهذا كذِب على الله تعالى؛ لأن الله تعالى خاطَبَنا في القُرآن باللِّسان العرَبيِّ، فيَجِب أن نَحمِل هذا القُرآنَ عليه بدون أن نُحرِّف.

وقد يَقول قائِل: هل هذا عامٌّ أو خاصٌّ بالآيات المُشكِلة؛ لأنه -أَحيانًا- تَمُرُّ آية يَسأَل عنها الإنسان ويَكون مَعناها واضِحًا جِدًّا مع العِلْم أنه لم يَسبِق أن قرَأ التَّفسير فيها، فهل في هذه يَقول: مَعناهُ الظاهِرُ هكذا، أو يَقول: أنا واللهِ لا أَدرِي؛ لأنِّي لم أَقرَأ تَفسيرًا عن هذه الآيةِ؟

أَقول: إن الشيء الواضِح تَفسيره بمُقتَضى اللُّغة لا بأسَ به، فلو قال قائِل: ما مَعنَى قوله تعالى: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؟ وجاء عامِّيٌّ فقال: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَعنِي قُل: اللهُ أَكبَرُ، اللهُ أَكبَرُ... قد قامَتِ الصلاة... إلى آخِره؛ فهذا حرامٌ، لكن لو سُئِل عنها طالِب عِلْم يَعرِف مَعنَى الإقامة -إقامة الشيء يَعنِي: فِعْله على وَجه مُستَقيم-، فقال: مَعنَى: أَقيموا يَعنِي: ائْتُوا بها كامِلة؛ فليس هناك مانِع في هذا. أمَّا في مَسأَلة تَأبير النخل[1]، فلو قال قائِل: إن النبيَّ ﷺ إذا تكلَّم في أُمور الدُّنيا كالطِّبِّ وغيره لنا أن

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا، رقم (٢٣٦٣)، من حديث عائشة وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

نَأخُذ بذلك أو نَرُدَّه على حسَب ما يُوافِق التَّجرِبة؛ فهل هذا يَكون من رَدِّ حُكْم النبيِّ ﷺ أو لا؟

أَقول: إذا قال النبيُّ ﷺ قولًا ولم يَثبُت في حياته أنه رجَعَ عنه فقوله باقٍ ولا يَجوز أن نُخالِفه، ولو كان في مَسأَلة طِبٍّ؛ ولهذا لَمَّا قال ﷺ: «إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ، ثُمَّ لْيَنْزِعْهُ، فَإِنَّ فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ دَاءً، وَفِي الْآخَرِ دَوَاءً» أو قال: «شِفَاءً»(١)، فلا يَجوز أن نَقول: واللهِ هذا يُخالِف الطِّبَّ. بل يَجِب علينا أن نَقول: هذا حَقٌّ، ثُمَّ نَعلَم أن الطِّبَّ لم يَصِل إلى هذا العِلْم، أمَّا إذا كان في حَياته ثُمَّ هو نفسه تَراجَع عنه فهذا لا بأسَ.

فمثَلًا الآنَ: النَّجَّارون أَعلَمُ مِنَّا بالنِّجارة، فالنَّجَّار يَعرِف كيف يَنجُر ونحن لا نَعرِف، والمُهَندِسون الذين يَصنَعون السيَّاراتِ، والذين يَصنَعون الراديو، والذين يَصنَعون الساعاتِ أَعلَمُ منَّا بها، فقوله ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ»، يَعنِي: ما تَصنَعونه وتُباشِرونه على وجهٍ محسوس فأنتُم أَعلَمُ بها، أمَّا أَحكام دُنْيانا فهي إلى الله تعالى ورسولِه ﷺ هما أَعلَمُ بذلك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: اختِلاف مَراتِب الذُّنوب؛ فإن الذُّنوب مَراتِبُ تَتَفاضَل كما أن الحَسَناتِ مَراتِب تَتَفاضَل.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه يَنبَني على هذه الفائِدةِ زيادة الإيمان ونَقْصه؛ لأنه كلَّما كان الذنب أَعظَمَ كان نَقْص الإيمان به أكبَرَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وجوب تَصديق مَن قامَتِ البَيِّنة على صِدْقه؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه، رقم (٣٣٢٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ فدَلَّ هذا على أن مَن كذَّب بالصِّدْق فهو داخِل في هذا الوَصفِ الذي هو أظلَمُ مَن قام بهذا العمَلِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الثَّناء على الصادِقين، ووجهُ ذلك: أن مَن كذَّبهم فهو داخِلٌ في هذا الجُرمِ الذي هو أَظلَمُ ما يَكون.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن مَن كذَّب بالشيء المُباشِر له فهو أَعظَمُ مِمَّن كذَّب بما سَمِع؛ لأن الواسِطة بينه وبين الواقِع قد تُضعِف مَقام الصِّدْق عنده؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تَقرير كون النار مَثوًى للكافِرين.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: بَيان أن ما يُطلِقه كثيرٌ من الناس اليومَ إذا مات الإنسان قالوا: (ذَهَبَ إِلَى مَثْواهُ الأَخيرِ)، فإن هذه الكلِمةَ لو أَخَذْناها بظاهِرها لكانت تَتَضمَّن إنكار البَعْث، فإذا جُعِل القَبْر هو المَثوَى الأخيرَ فلا بَعْثَ، والمَثوَى الأخير هي إمَّا الجَنَّة وإمَّا النار، وعلى هذا فيَجِب التَّنبُّه لهذه العِبارة، وأن يُقال: إن هذه عِبارة مُتلَقَّاة ممَّن يُنكِرون البَعْث، ولكن كَثيرًا من العامَّة يَأخُذون الكلِماتِ لا يُفكِّرون في مَعناها!.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنه لا يُخلَّد المُؤمِن في النار؛ لقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَثۡوًى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾، والمُؤمِن ليست النار مَثوًى له، بل إنْ عُذِّب في النار على قَدْر ذَنْبه فمَآله إلى الجَنَّة.

• • ۞ • •



الآية (٣٣)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣].

قوله تعالى: (الذي) مُبتَدأ، وخبَرُه جملة: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ فتَضمَّنَت هذه الجُملةُ جُمْلتين جملةً كُبرى وجملةً صُغرى؛ فالجُملة الكُبرى هي المُتضَمِّنة للمُبتَدَأ والخبَر، والصُّغرى هي الخبَر المُكوَّن من مُبتَدَأ وخبَر، فالجُمْلة الصُّغرى هي ما وقَعَت خبَرًا، وتُسمَّى: جملةً صُغرى؛ لأنها في مَقام المُفرَد والجُملة الكبرى هي المُكوَّنة من مُبتَدَأ وخبَر أو فِعْلٍ ومَعموله.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ فيه شيء من الإشكال يَتبادَر إلى الذِّهْن وهو أَخبَر عن الذي، وهو اسمٌ مُفرَد بكلِمة دالَّة على الجَمْع وهي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ولم يَقُل: أُولئك هو المُتَّقي؟ ووجهُ ذلك: أن (الذي) اسمٌ مَوْصولٌ والاسمُ المَوصول يُفيد العُموم حتى وإن كان مُفرَدًا فإنه يُفيد العُموم؛ ولهذا صحَّ الإخبار عنه بالجَمْع مع كونه مُفرَدًا.

يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾: (الذي جاءَ بالصِّدْق) عامٌّ يَشمَل: كل مَن جاء بالصِّدْق، من الرسُل عليهم الصلاة والسلام والأنبياء والصادِقين من غيرهم.

ومن ذلك مثلًا: كَعبُ بنُ مالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد جاء بالصِّدْق حين تَخلَّف عن غزوة تَبوكَ، وأَخبَر بالصِّدْق[1] وأمَرَنا الله عَزَّ وَجَلَّ أن نكون معهم لَمَّا ذكَر قِصَّتهم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

وقوله: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أي: صدَّق بالصِّدق الذي قامَتِ البَيِّنة على صِدْقه، والصِّدْق هو مُطابَقة الواقِع للخبَر، والكذِب مُخالَفته، يَعنِي: مَن أَخبَر بما يُطابِق الواقِع فهو صادِق، ومَن أَخبَر بما يُخالِف الواقِع فهو كاذِب.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أي بما قامَتِ البَينَّة على صِدْقه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ يَعنِي: الذين اتَّقَوُا الله عَزَّ وَجَلَّ فلم يَقولوا كذِبًا واتَّقوا الله عَزَّ وَجَلَّ ولم يَردُّوا صِدْقًا.

يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ وهو النبيُّ ﷺ]، وهذا تَخصيصٌ للعُموم بما لا دَليلَ عليه، والذي يَنبَغي إذا جاء القُرآن عامًّا إبقاؤُه على عُمومه، بل هو الواجِب أن يَبقَى على عُمومه إلَّا بدَليل، وهنا ليس هناك دَليل يَجعَل هذا خاصًّا بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالواجِبُ: أن نَجعَله عامًّا؛ لأن حَمْله على الخاصِّ بلا دَليلٍ قُصورٌ في مَدلول القُرآن.

إِذَنْ: يَشمَل النبيَّ ﷺ وغيرَه.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهُمُ المُؤمِنون] هذا أيضًا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم (٤٤١٨)، ومسلم: كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (٢٧٦٩)، من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خطأً؛ لأننا لو فسَّرْنا الآية بما فسَّرها به المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لزِم من ذلك تَشتيت في الضمائِر، وعدَم انسِجام الكلام؛ فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ هذه مَعطوفة على الجُملة التي هي صِلة المَوْصول، وإذا كانت مَعطوفةً على الجُمْلة التي هي صِلة المَوْصول لزِم أن يَكون المُتَّصِف بها المَوْصول ما دامَت مَعطوفة على الصِّلة فهي من جُملة الصِّلة، والصِّلة وَصْفٌ للمَوْصول.

والمُفَسِّر رحمه الله وعفا عنه شتَّتَ الضمائِر، فجعَل الضمير الأوَّل للرسول ﷺ، والضميرَ الثانيَ للمُؤمِنين، والحَقُّ أنهما يَرجِعان إلى شيء واحِد وهو المَوْصول؛ لأن صِلة المَوْصول صِفةٌ له، والمعطوف على الصِّلة صِفةٌ له أيضًا.

إذَنْ: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ يَشمَل كلَّ أحَد، حتى النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ صدَّق بأنه رسول الله ﷺ، فكان يَقول أحيانًا: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ**»(١)، فقد صدَّق بأنه رسول الله ﷺ، وأن ما أُنزِل إليه من ربِّه هو الحقُّ، وأوَّلُ مَن يَدخُل في هذه الآيةِ بعد الرسول ﷺ أبو بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فإن أبا بَكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ جاء بالصِّدْق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصَدَّق به حتى إنه في أَضيقِ حالٍ للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليلةَ الإسراء حينما أَشاعَت قريشٌ بأن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كذَب وصار يُخرِّف ويَقول ما لا يُمكِن، فلَمَّا بلَغه الخَبَرُ قال: «إن كان قد قال ذلك فهو صادِقٌ»، فمِن ذلك اليومِ سُمِّيَ بـ(الصِّدِّيق)(٢) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فهُمُ المُؤمِنون، فالذي بمَعنَى الذين]، يَعنِي: أنها اسمٌ مُفرَد، لكن بمَعنَى الجَمْع؛ لكونها دالَّة على العُموم.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة، رقم (٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٩٩).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الشِّرْكَ] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أتى باسْمِ الإشارة للبَعيد لعُلوِّ مَرتَبتهم ولم يَقُل: هؤلاءِ. بل قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يُشار بها للبَعيد، وإنما أُشير لها إشارة البَعيد مع دُنوِّ التَّحدُّث عنهم؛ لعُلوِّ مَرتَبتهم.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الشِّرْكَ] من أغرَب ما يَكون؛ لأن الحديث الآنَ عن الصِّدْق والتَّصديق بالصِّدْق، فأين الشِّرْك؟ فإنه لم يَتَقدَّم له ذِكْر، ولو أَرَدْنا أن نُخصِّص لقُلْنا: أُولئِك هُمُ المُتَّقون الكذِبَ والتَّكذيبَ بالحقِّ، مع أن الذي يَدُلُّ عليه الدليلُ: أن المَعنَى: أُولئك هُمُ المُتَّقون اللهَ تعالى، وذلك لأن التَّقوى إذا أُطلِقَت فإنما يُراد بها تَقوى الله تعالى، أمَّا إذا قُيِّدت فهي حَسبما قُيِّدت به، فقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١] هذا لليومِ، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١] هذا للنَّار.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا لله تعالى؛ وعند الإطْلاق لله تعالى؛ لأن الله تعالى أحقُّ أن يُتَّقى عَزَّوَجَلَّ؛ فهنا نَقول: (﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الله)؛ ولهذا جاؤُوا بالصِّدْق وصدَّقوا به تَقوَى لله عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الثَّناء على مَن قال بالصِّدْق، والصِّدْق واجِب، والكذِب مُحرَّم، **وقد يَقول قائِل**: إنه من كَبائِر الذُّنوب؛ لأن النبيَّ ﷺ جعَله من آيات النِّفاق[1]، والمُنافِق ليس من المُؤمِنين؛ **فلو قال قائِل**: إن الكذِب من كبائِر الذُّنوب لم يَكُن قوله بعيدًا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الثَّناء على مَن صدَّق بمَن قامَـتِ البيِّنة على صِـدْقه فصدَّق بالصِّدْق، وأمَّا مَن لم يُصدِّق بما يَشُكُّ فيه فلا حرَجَ عليه، والأخبار التي تَرِد على المرء تَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام:

الأوَّل: ما دلَّ الدليل على صِدْقه فيُصدَّق.

الثاني: ما دلَّ الدليل على كذِبه إمَّا لكون ناقِله معروفًا بالكذِب، وإمَّا لكونه مُستَحيل الوقوع، أو ما أَشبَه ذلك، فهذا يُكذَّب، ولا حرَجَ على مَن كذَّبه.

الثالِث: ما يَحتَمِل الصِّدْق ويَحتَمِل الكذِب، فهذا يُتوقَّف فيه، ولا يُردُّ؛ لعدَم القيام على رَدِّه ولا يُقبَل لعدَم قيام الدَّليل على قَبوله.

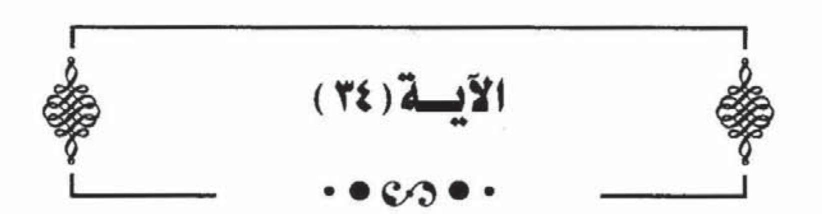
ودليلُ هذا القِسمِ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦].

ولهذا في الآيات التي قبلَ هذه قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ وهنا قال: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ فذَمَّ الأوَّلِين وأَثنى على الآخَرِين.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الصِّدْق من التَّقوى، وتَصديق مَن قامت البَيِّنة على صِدْقه هو أيضًا من التَّقوى؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ومن فوائِدها الأُصولية: أن المَوْصول من صِيَغ العُموم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

•●❁●•



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر:٣٤].

•●○●•

قوله تعالى: ﴿لَهُم﴾ أي: هـؤلاء المُتَّقين ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ أي: الذي يَشاؤُونه ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأَضاف الربوبية إليهم على وجه الخُصوص؛ لأن الرُّبوبية إلى المُتَّقين رُبوبيةٌ خاصَّة ليست كالربوبية العامة التي تَشمَل الكافِر والمُؤمِن والبَرَّ والفاجِر، وإنما هي رُبوبية خاصَّة.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: كون جزائِهم ما يَشاؤون.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: المُحسِنين الذين أَحسَنوا في عِبادة الله تعالى وأَحسَنوا إلى عِباد الله تعالى، فالإحسان في عِبادة الله تعالى يُفسَّر بما فسَّره به النبيُّ ﷺ بأن تَعبُد الله كأنَّك تَراه، فإن لم تَكُن تَراه فإنه يَراك، والإحسان في مُعامَلة الخَلْق أن تَأتِيَ إليهم ما تُحِبُّ أن يُؤتَى إليك، وتُحِبَّ لهم ما تُحِبُّ لنَفْسك.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هؤلاءِ المُتَّقيـن لهم ما يَشاؤُون عند الله تعالى في الآخِرة في الجَنَّة، وقد بيَّن الله تعالى في آيةٍ أُخرى أن لهم زِيادةً على ذلك؛ فقال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، وقد فُسِّرت الزيادة: بأنها النظَر إلى وَجْه الله عَزَّوَجَلَّ

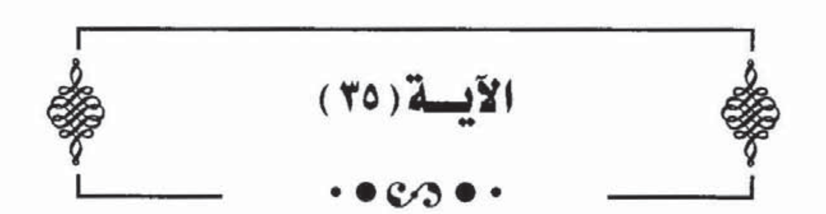
والذي يَظهَر أن النَّظَر من ذلك، وإلَّا فالزيادة أَشمَلُ من هذا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عِناية الله تعالى بهؤلاء القَوْمِ، وذلك بإضافة الرُّبوبية إليهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن التَّقوى من الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ولم يَقُل للمُتَّقين، والمُراد بهمُ المُتَّقون، لكن المُتَّقيَ محُسِن؛ لأن المُتَّقيَ عند الإطلاق هو مَن قام بمَأمور وترَكَ المَحظور، وهذا هو الإحسان.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الحَثُّ على الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ والحثُّ على الإحسان والأمر به كثيرٌ في الكِتاب والسُّنَّة، والإحسان يَتضمَّن الإحسان في عِبادة الله تعالى والإحسان إلى عباد الله تعالى، والإحسان إلى عِباد الله تعالى يَكون بالقَوْل وبالفِعْل وبالجاه، وغير ذلك من أنواع الإحسان، فلا تَدَّخِرْ وُسعًا في بَذْل الإحسان إلى إخوانك، فإن ذلك ممَّا يَكون سببًا لدُخول الجَنَّة، ويَكون أيضًا سببًا في عَوْن الله تعالى لك، فإن الله تعالى في عَوْن العَبْد ما كان العَبْد في عَوْن أخيه.

• ● ۞ ● •



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر:٣٥].

• • ◦ • •

قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾ اللَّام هنا للعاقِبة فيما يَظهَر؛ لأن لام التَّعليل تَأتِي أحيانًا للتَّعليل وأحيانًا لبَيان العاقِبة؛ فإن كان ما قَبلَها سببًا لما بَعدَها فهي للعاقِبة، وإن كان ما بعدَها عاقِبةً لما قَبْلها ولا يُراد به وليس مُرادًا فهي للعاقِبة، هذا هو الفَرْق بينهم.

فإذا قلت: جِئْت لأَقرَأ فاللَّام هنا للتعليل، وإذا قال قائِل: سافَرْت ليَحصُل لي الحادِث. فاللَّام هنا للعاقِبة؛ وفي قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ للعاقِبة، فالفَرْق بينهما:

١- إن كان ما قَبْلها سببًا لما بعدَها فهي للتَّعليل.

٢- إذا كان ما بعدَها عاقِبةً لما قبلها غير مَقصود فهي للعاقِبة.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ يَعنِي: عاقِبة التَّقوى أن يُكفِّر الله تعالى عنهم أَسوَأَ الذي عمِلوا، ويُحتَمَل أن تَكون للتَّعليل بمَعنَى: أنهم اتَّقَوا الله من أَجْل التكفير.

وقال تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ وذلك بأن يُنعِم عليهم بالعَفْو عنه، والغالِب أن التَّكفير يَأتِي مُكفِّرًا بأعمال مُقابِلة؛ فالسَّيِّئات تُكفَّر بالحسَنات، وانظُرْ إلى الظِّهار، فإذا ظاهَر الإنسان كفَّر بما ذكَر الله عَزَّوَجَلَّ، يَعنِي: أَتَى بحسَنات تُغطِّي ما فعَل من الذُّنوب، واليَمين إذا حنِثَ كفَّر، فالغالِب أن التَّكفير يَكون في مُقابَلة حسَناتٍ تُغطِّي السَّيِّئاتِ، ويَجوز أن يَكون التَّكفير مُجرَّد فَضْلٍ من الله عَزَّوَجَلَّ يَستُر الله تعالى على عبده الذَّنْب تَفضُّلًا منه.

وقوله تعالى: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾: ﴿أَسْوَأَ﴾ اسمُ تَفضيل، وهو على بابه، فإذا كان الله تعالى يُكفِّر عنهم أسوَأ ما عمِلوا فما دونه من بابِ أَوْلى، ويَكون التعبير بالأَسوَأ من باب البِشارة لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي: ثوابهم على ما عمِلوا من الحسَنات ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بأَحسَن الجزاء.

فقوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بأَحسَن جَزاء الذي كانوا يَعمَلون، وذلك أن الحسَنَة بعَشْر أَمثالها إلى سَبعِ مِئة ضِعْف إلى أضعافٍ كثيرة، و(أَحسَن) هنا على بابها؛ أي: أنها اسم تَفضيل، فلا يُجازيهم الحَسَنة بحَسَنة، بل بأَحسَن منها، فالحسَنة بعشَرة أمثالها إلى سَبْعِ مئة ضِعْف إلى أضعافٍ كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لا يَخفَى أن قوله: ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ صِلةٌ للمَوْصول ﴿ٱلَّذِى﴾، وصِلة المَوْصول تَحتاج إلى عائِد يَعود على المَوْصول؛ ليَربِط الصِّلة به، والعائِد هنا مَحذوف، والتَّقدير: يَعمَلونه.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(أَسوَأ) و(أَحسَن) بمَعنَى السَّيِّئ والحَسَن]، لكنه قولٌ غير صَحيح؛ لأنه يُعتبَر تحريفًا للقُرآن؛ لأن كلَّ واحِدٍ يَعرِف أن (أَسوَأ) اسمُ تَفضيل،

وسَيِّئ وَصْفٌ ليس فيه تَفضيل، وكذلك (أَحسَنُ) اسمُ تَفضيل وحَسَن وَصْفٌ ليس فيه تفضيل، فما بالُنا نَنزِل مَرتَبة من التَّفضيل إلى ما هو أَدْنى؟! فهذا يُعتبَر خطَأً وتَحريفًا.

فالصوابُ ما قُلناه أَوَّلًا: أن اسم التَّفضيل هنا على بابه، وأن الله تعالى بشَّرَهم بأنه يُكفِّر الأَسْوَأ، ومَن كفَّر الأسوَأَ كفَّر ما دونَه، وبشَّرهم بأنه يَجزيهم أَحسَن ما كانوا يَعمَلون، لا أنه يَجزيهم الحَسَنة بمِثْلها، بل أَحسَنَ، وهذا فرقٌ عظيم بين الحَسَن والأَحسَن والسَّيِّئ والأَسوَأ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنهم بتَقواهم يُكفِّر الله تعالى عنهم أَسوَأ أعمالهم لقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الله تعالى يَجزيهم بأحسَنِ الجزاء، وقد بيَّن ذلك في الكِتاب والسُّنَّة بأن مَن جاء بالحَسَنة فله عَشر أَمثالها إلى سَبْع مِئة ضِعْف إلى أضعافٍ كثيرة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الخطَراتِ التي تَخطُر على القُلوب لا حُكمَ لها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾؛ ولقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وقد جاء الحديث مُؤيِّدًا لذلك، فقال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ**»(١).

ولكن يَجِب على مَن كان له خطَراتٌ سيِّئة أن يُدافِعها بما يَستَطيع، ومِن

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان، رقم (٦٦٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مُدافعتها: أن يَستَعيذ بالله تعالى من الشيطان الرَّجيم، ويَنتَهي يَعنِي: يُعرِض عن هذه التَّقديراتِ، فإن ذلك يَزول، أمَّا إن خضَع لها واستكان لها واستَمَرَّ فإنها تُهلِكه؛ لأن الشَّيْطان يَقيس قَلْب المرء، فإذا رآه لَيِّنًا هشًّا تَسلَّط عليه حتى يُخرِجه من دِينه ودُنياه -والعِياذُ بالله تعالى- وإذا كان صُلْبًا لا يَقدِر الشيطان أن يَنفُذ فيه، فإنه حينئذٍ يَكون قويًّا تَتكسَّر عليه عِظام الشيطان.

وقد أَوْصى شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تلميذَه ابنَ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما كان يَعرِض عليه بعضَ الشُّبُهات فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تَجعَل قَلْبك كالإِسْفنجة؛ تَتشَرَّب الماء، ثُم لا يَخرُج منها إلَّا بعَصْرٍ، اجعَلْ قلبك كالزُّجاجة صافية يُرَى مِن ورائِها، ولا يَنفُذ إليها شيء يَرَى ما فيها» يَعنِي: ولا يَنفُذ إليها شيء من هذه الشُّبُهاتِ تَكون صافِيةً نقيَّةً خالية من الشُّبُهات، ولا يَنفُذ إليها شيء، وهكذا يَنبَغي للإنسان أن لا يَخضَع للشيطان في هذه الوَساوِس التي تَرِدُ عليه.

فإذا قال قائِل: هل الإرادة عمَل أو لا؟

أَقول: الإرادة عمَل لكنَّها عمَل قَلْب بخِلاف التَّحديث؛ لأن تَحديث النَّفْس لا يَعنِي الخُضوع للشيء، وإقرار الشيء، لكن الإرادة لا تَكون إلَّا بعد تقرير هذا الشيءِ؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الرَّجُلين المُسلِمَيْن يَلتَقيان بسَيْفَيْهما فيَقتُل أحدُهما الآخَرَ قال: «**إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ**» قالوا: يا رسول الله، هذا القاتِلُ فما بالُ المَقتول؟ قال: «**لِأَنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، رقم (٣١)، ومسلم: كتاب الفتن، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، رقم (٢٨٨٨)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ولَمَّا ذكَر الرِّجال الأربعة، ومنهم رجُلٌ أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المال فهو يُنفِقه في غير مَرضاة الله تعالى، فقال الرجُل الفقير: ليتَ لي مال فُلان فأَعمَل فيه كعمَل فُلان. قال: «فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ»(١)، مع أنه لم يَعمَل، لكن تَمنَّى وأَراد. والله تعالى أعلَمُ.

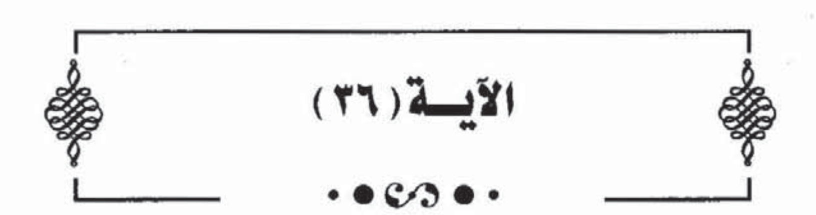
وإذا أَخبَرَ مُخبِر بخبَر وهو يَظُنُّ أنه يُطابِق الواقِع وكان يُخالِف الواقِع هل يُسمَّى: كذِبًا؟ نعَمْ، يُسمَّى كاذِبًا، لكن ليس عليه إِثْم الكاذِب.

وإذا قال الرجُل: أَعبُد الله تعالى ليَرضَى الله. فهذا صحيح، وأمَّا قول الصُّوفية: أَعبُد الله لله. فهذا خطَأ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ [المائدة:٢]، فبَدَأ بالفِضْل، وهذا في وَصْف الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأصحابه: حيث قال: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح:٢٩].

ومثله في طلَب العِلْم؛ فنَقول: نحن نُخلِص لأَخْذ العِلْم، فإنه لا شَكَّ أن الإخلاص لله تعالى مَعونة، وسبَب لتَحصيل العِلْم وبرَكة العِلْم الإِخْلاص سبَبٌ لحُصول المَفقود والبَرَكة في المَوجود.

• • ۞ • •

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، رقم (٢٣٢٥)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب النية، رقم (٤٢٢٨)، من حديث أبي كبشة الأنماري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٣٦].

•••

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ الاستِفْهام هنا للتقرير بِناءً على القاعِدة التي ذكَرْناها من قبلُ، وهي: أن هَمزة الاستِفْهام إذا دخَلَت على ما يُفيد النفيَ أَفادَتِ التقرير مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، يَعنِي: قد شَرَحْنا لك صدرَك، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون:١٠٥]، يَعنِي: قد كانَت وهكذا قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ يَعنِي: قد كفَى اللهُ تعالى عبدَه.

وقوله تعالى: ﴿بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ الذي نَصَب (عبدَه) قوله تعالى: (كافٍ)؛ لأن (كافٍ) اسم فاعِل وفاعِله مُستَتِر، و(عبد) مَفعولٌ به.

و(عَبْد) مُفرَد مُضاف فيَكون عامًّا لجَميع مَنِ اتَّصَف بهذا الوَصْفِ، فكُل مَن كان عبدًا لله تعالى حقًّا فإن الله تعالى كافيه، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، ومثلـه قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧]، فالعَبْد هنا وَصْفٌ شامِل لا يَختَصُّ بأحَد دون الآخَرِ، فكُلُّ مَن انطَبَقت عليه العُبودية حَقًّا فالله تعالى كافيه: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾، والجَوابُ على هذه الجُملةِ أن يقال: بَلَى.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هنا الخِطاب [للنبيِّ] ﷺ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ وعَطَف (يُخَوِّفونك) الخاصّ بالرسول ﷺ لا يَقتَضي تَخصيص اللَّفْظ العامِّ قبلَه، وقد تَقدَّم مثلُ هذا كثيرًا؛ يُذكَر لفظٌ عامٌّ، ثُمَّ يُذكَر حُكْمٌ يَختَصُّ ببعض أفراده.

قُلنا: إن هذا لا يَقتَضي التخصيص، ومن ذلك حديث: «قضَى النبيُّ ﷺ بالشُّفْعةِ فِي كُلِّ ما لَمْ يُقسَمْ»(١)، فكونه قَضَى في كُلِّ ما لم يُقسَم، في كل الذي لم يُقسَم عامٌّ، (فإذا وقَعَتِ الحُدودُ وصُرِفت الطُّرُق فلا شُفعةَ)، هذا حُكْم يَختَصُّ ببعض أحكام العامِّ بالأراضي، فهنا نَقول: إن الأوَّل عامٌّ، وذِكْر بعض أفراد العامِّ وذِكْر حُكمٍ يَختَصُّ ببعض أفراد العامِّ لا يَقتَضي التخصيص.

ومثله أيضًا في القُرآن: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ فالمُطلَّقات عامٌّ، وبُعولتُهن حُكْمٌ يَختَصُّ ببعض أفراد هذا العامِّ، أمَّا الفَرْد الذي يَختَصُّ به فإنه (الرَّجعية)؛ ونَقول: إن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ هذا عامٌّ، فالمَعروف عند أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أنه عامٌّ، المُطلَّقات اللاتي طُلِّقن بطلاقٍ بائِن أو بطلاقٍ رَجْعيٍّ.

وهنا هذا المِثالُ في القُرآن هل يَنطبِق عليه أو لا؛ أي: قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؟

الجَوابُ: يَنطبِق عليه، فقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ عامٌّ، ولم يَقُلْ: أَلَيْس اللهُ بكافِيكَ ويُخوِّفونك.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب بيع الشريك من شريكه، رقم (٢٢١٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب الشفعة، رقم (١٦٠٨)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ هذا خاصٌّ بالنبيِّ ﷺ؛ على أن لواحِدٍ أن يَقول: لماذا لا يَصِحُّ أن يَكون الخِطاب مُوجَّهًا لكل مَن يَصِحُّ خِطابه، أي: يُخوِّفونك أيُّها المُخاطَب، كما جرَت به العادة في كثيرٍ من النُّصوص؟

فالجَوابُ على هذا أن نَقول: إنه لا يَصِحُّ أن يَكون مُوجَّهًا لكل مُخاطَب؛ لأن كل مُخاطَب لا يَتأَتَّى عليه هذا الوصفُ، فليس كلُّ مُخاطَب خُوِّف بالذين من دون الله تعالى، وإنما الذي خوف من دون الله تعالى هو النبيُّ ﷺ الذي خُوِّف بالذي من دون الله تعالى؛ لأنهم كانوا يَتوعَّدونه بآلهتهم.

فهذا المِثالُ يَنطَبِق على ما ذكَرْناه من القاعِدة أنه إذا ورَد لفظٌ عامٌّ ثُم أُتِيَ بعده بحُكْمٍ يَختَصُّ ببعض أفراده فإن ذلك لا يَقتَضِي التَّخصيص، بل يَبقَى العامُّ على عُمومه، ويَثبُت الحُكْم لهذا الفَردِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ الخِطاب له] أي: للنبيِّ ﷺ [﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: الأصنام، أي: تَقتُله أو تُخبِله] وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

فهم يُخوِّفون النبيَّ ﷺ بالذين مِن دون الله تعالى، وتَخصيص هذا بالأصنام كما خصَّصه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه نظَر، بل يُخوِّفونه بالذين من دونه من الأصنام وغير الأصنام حتى من ذَوِي السُّلْطان، فيَقولون مثَلًا: يَفعَل بك فُلان، أو تَفعَل بك الجِنُّ، أو يُفعَل بك كذا أو كذا، فيَنبَغي أن نَحمِل ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ على العُموم لا على خُصوص الأصنام؛ لأن التَّخويف أعَمُّ من ذلك.

والآن مثَلًا في وَقتنا هذا لو قال قائِل لشَخْص: أنت إن نَهَيْت عن هذا المُنكَرِ سأَرفَع بك إلى فُلان. ممَّن يُخشَى شَرُّه، هل هذا مُخوَّف بالذين من دون الله تعالى؟

الجَوابُ: نعَمْ هذا مُخوَّف بالذين من دون الله تعالى، فالآية عامَّة ولا يَنبَغي أن نُخصِّصها، كما ذهَب إليه المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾: (مَن) شَرْطية فتُفيد العُموم؛ فمَن يُضلِلِ اللهُ تعالى فما له مِن هادٍ يَهديه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ الجُمْلة هذه اسمِيَّة مُكوَّنة من مُبتَدأ وخبَر؛ **فإن قال قائِل**: عجَبًا أن نَقول: إنها مُكوَّنة من مُبتَدأ وخبَر، ونحن لا نَجِد فيها لا مُبتَدأ ولا خبَرًا، أين الاسمُ المرفوعُ والمَعروف أن المُبتَدَأ والخبَر يَكونان مَرفوعَيْن، وهنا ليس هناك شيءٌ مَرفوع؟

فالجَوابُ: أن نَقول: (ما) نافية، و﴿لَهُۥ﴾ جارٌّ ومجَرور خبَر مُقدَّم و﴿مِنْ هَادٍ﴾ مُبتَدَأ مُؤخَّر، ونُعرِب ﴿مِنْ هَادٍ﴾ فنَقول: ﴿مِنْ﴾ حرف جَرٍّ زائِدٌ، و﴿هَادٍ﴾ اسمٌ مجَرور بـ﴿مِنْ﴾ لَفظًا، وهو مُبتَدأ مَرفوع بضَمَّة مُقدَّرة على الياء المحذوفة منَعَ من ظُهورها التِقاء الساكِنين، وهُما سكون الياء المَحذوفة، ونون التَّنوين؛ لأنه ليس هناك حرَكة على الياء هنا، بل على الياء المحذوفة؛ لالتقاء الساكِنَيْن، والتي قُدِّرت عليها الكَسْرة لمُناسَبة حَرْف الجرِّ الزائِد؛ وإلَّا يَكفي أن نَقول: ﴿مِنْ﴾ حَرْف جَرٍّ زائِدٌ، و﴿هَادٍ﴾ مُبتَدأ مَرفوع بضَمَّة مُقدَّرة على الياء المَحذوفة لالتِقاء الساكِنَيْن، ونَنْتَهي لأن حَرْف الجَرِّ الزائِدَ في مثل هذه الكلِمةِ لا يَظهَر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يَعني: مَن يُقدِّر الله تعالى ضلالَه فإنه لا أحَدَ يَهديه مَهما اجتَمَعَتْ عليه الأُمَّة، وها هو أَعظَمُ الخَلْق في الهِداية والدَّلالة مُحمَّدٌ ﷺ حرَص غاية الحِرْص لِهداية عمِّه أبي طالِب إلى آخِر أنْفاسه، ولكن لم يَهتَدِ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ كتَبَ عليه الضَّلالة فكان آخِرُ ما قال أَنْ شهِد شهادة الكُفْر، فقال:

هو على مِلَّة عبد المُطلِّب[١]. ولكن النبيَّ ﷺ لحُسْن أَخلاقه؛ ولأن عمَّه قام قِيامًا نصَر به الإسلام شفَع له عند الله تعالى، فكان في ضَحضاحٍ من نارٍ، وعليه نَعْلان من نارٍ يَغلِي منهما دِماغه[٢] أعلى ما فيه، والنِّعال في أسفَل ما فيه والدِّماغ يَغلِي؛ فما بالُك بما دونَه من الجِسْم فإنه أَشَدُّ غليانًا، وإنه لأَهـوَن أهل النار عذابًا، ويُرَى أنه أَشَدُّهم عَذابًا[٣]، ولماذا يُريه الله تعالى أنه أَشَدُّهم عذابًا؟ لِئَلَّا يَتَسلَّى بغيره؛ لأن صاحِب النار لو عَلِم أن غيـرَه أَشَدُّ منه أو مثلُه لتَسلَّى وهانَ عليه الأمـرُ، وقد أَشار الله تعالى إلى ذلـك في قـوله تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف:٣٩]، مع أنكم لوِ اشتَرَكْتم في العذاب في الدنيا لهان عليكم.

فإن قال قائِل: إن أبا طالِب يَرَى نَفْسه أنه أَشَدُّ الناس عذابًا؛ لأنه لو رأَى أنه أَقلُّهم يَعنِي: يَتَسلَّى به، فهل هـذا يَعنِي أنه ما عَلِم بشَفاعة النبيِّ ﷺ له أنه في هـذا الضَّحضاح أم علِم، ولكنه يَرَى أنه أَشَدُّ الناس.

قُلْنا: الظاهِر سواء أن علِم أو ما علِم هو يَرَى أنه أَشَدُّ الناس، وكونه اللهُ تعالى أَعلَمه أنه كان يَستَحِقُّ الدَّرْك الأَسْـفل من النار، ولكن له شَفاعة الرسول ﷺ قد يَكون اللهُ تعالى أَعلَمه بهذا؛ ليُعلِمه أن الله تعالى قد جازاه وكافَأه على ما صنَع بالرسول عَلَيهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقد لا يَكون، والله تعالى أَعلَمُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾، رقم (٤٧٧٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، رقم (٢٤)، من حديث المسيب بن حزن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢١٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذابا، رقم (٢١٣)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا.

وانظُرْ إلى كعبِ بنِ مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لَمَّا قيل: إنه تَخلَّف عن غَزوة تبوكَ فُلان وفُلان[١] هان عليه الأمر، وهذا شيءٌ مُسلَّم، والخَنْساء تَرثِي أخاها صَخرًا وتَقول:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي[٢]

إِذَنْ نَقول: مَن قدَّر الله تعالى ضلالَه فلن يَهديَه أحَدٌ مهما أُوتِيَ من الآيات، فإنها لا تُغنِي الآياتُ والنُّذُرُ عن قومٍ لا يُؤمِنون.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: كِفاية الله تعالى لعَبْده.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الحَثُّ على تَحقيق العُبودية لله تعالى؛ لأنك إذا حقَّقْتَ العبودية تَحقَّقَت لك الكِفاية، إذ إن الحُكْم المُعلَّق على وَصْف يَقوَى بقوَّة ذلك الوصفِ، ويَضعُف بضَعْف ذلك الوَصْفِ، فإذا كانتِ الكِفاية مُرتَّبةً على العُبودية حَصَل للعابِد من هذه الكِفايةِ بقَدْر عُبوديته على القاعِدة أن الحُكْم المُعلَّق بوَصْف يَقوَى بقوَّته ويَضعُف بضَعْفه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: دِفاع الله عَزَّوَجَلَّ عن المُؤمِنين؛ لأنه إذا كان كافيَه فسوف يُدافِع عنه، ويُحقِّق ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحج:٣٨].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم (٤٤١٨)، ومسلم: كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (٢٧٦٩)، من حديث كعب بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) ديوان الخنساء، ط. دار المعرفة (ص٧٢)، والكامل لابن المبرد (١/ ١٦).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن عِباد الله تعالى يُخَوَّفون بما دون الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الشيطان وهو زَعيم أعداء الله تعالى يُخَوِّف المُؤمِن العابِد لله تعالى بما دون الله تعالى، فتَجِده يَأتي للشخص الذي يُريد أن يَأمُر بالمعروف ويَنهَى عن المُنكَر يَقول: لا تَفعَل إن الناس سيُبغِضونك، وإن الناس سيَرمونك بالتَّشدُّد، وإن السُّلْطان ربما يُؤدِّبك. وما أَشبَه ذلك، ولكن المُؤمِن لا يَخاف من هذا أبدًا؛ لأنه مُعتَصِمٌ بالله عَزَّوَجَلَّ هو عبد الله، واثِقٌ بأن الله تعالى سيَنصُره، فلا يُهِمُّه هؤلاء، ولكن هل يَعنِي ذلك أن الإنسان يَتَجشَّم الأمور بالعاطِفة العاصِفة أو يَستَعمِل الحِكْمة ويَمضِي في الحقِّ؟

الجَوابُ: الثاني؛ ولذلك نحن نَنقِم على بعض الناس الذين عِندهم غَيْرة في دِين الله تعالى، ولكنهم لا يَأتون البُيوت من أبوابها، بل يُريدون أن يَأتوا الأمور بالعُنْف والقوَّة مع أنه ليس لهم قوَّة؛ فنحن نَقول: امضِ فيما أَمَرك الله تعالى به لكن مُستَعمِلًا في ذلك الحِكمةَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن كل ما سِوى الله تعالى فهو دون الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ فليس هنا إلَّا الله تعالى أو من دون الله تعالى.

ويَتفَرَّع على هذه الفائِدةِ: أن كل مَن سِوى الله تعالى فهو مَغلوب، وإذا كان الله تعالى كافيًا عبدَه وكلُّ مَن سِوى الله تعالى فهو مَغلوب فهذا يَعنِي أن الإنسان سيُغلَب إذا حقَّق العُبودية.

ولكن قد يُورِد علينا مُورِد أن الله تعالى ذكَرَ أن من الناس مَن قَتَل الأنبياء، فكيف يُجمَع بين هذه الآيةِ وبين ما ثبَتَ من قَتْل بعض الأنبياءِ؟

والجَوابُ عنه: أن قَتْل الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يَعنِي قَتْل ما جاؤوا به من الحَقِّ، والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إنما تكلَّموا من أَجْل إثبات الحَقِّ، لا من أَجْل إثبات شَخْصيتهم، بل أجل إِثبات الحَقِّ، ثُم إنه إذا فاتهم الانتِصار في الدنيا -أي: الانتصار الذي يُشاهِدونه- لم يَفُتْهم ذلك في الآخِرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١] والله تعالى أَعلَمُ.

فإن قال قائِل: الخِطاب في قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ هل يُجعَل لكلِّ خَوْف من دون الله تعالى؟

قُلْنا: نعَمْ، يُمكِن أن نَجعَله لكلِّ مَن خوَّف، لكن الظاهِر أنه خاصٌّ بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لكن هل هُناكَ فَرْق بين قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ وقول عاد لنبيِّ الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود:٥٤]؛ لأن المُشرِكين خوَّفوا النبيَّ ﷺ بأنه سيَعتَريه سُوءٌ من الآلهة؟

أَقول: لا، فأُولئك قالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ يَعنِي: خبَلوك وجعَلوك مجنونًا، أمَّا هؤلاءِ فقالوا: إن آلِهَتنا ستَخبِلك؛ فتوعَّدوه في المُستَقبَل.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن مَن كتَب الله تعالى ضَلاله فلا أحَدَ يَستَطيع هِدايته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الإنسان لا يَطلُب الهِداية إلَّا من الله تعالى؛ لأنه وحدَه هو الذي يُضِلُّ ويَهدِي، فتَطلُب الهِداية منه؛ لأنه ليس المُرادُ بهذه الآيةِ التَّيْئيس من هِداية الخَلْق، ولكن المُراد الرُّجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ في هِداية الخَلْق.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الرَّدُّ على الْمُعتَزِلة الذين يَقولون: إن الإنسان مُستَقِلٌّ بعمَله يَهدِي نفسه ويُضِلُّ نَفْسه ولا عَلاقةَ لَمشيئة الله تعالى في فِعْله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبات الهِداية لغير الله تعالى التي هي هِداية الدَّلالة، وأمَّا التَّوْفيق فإلى الله عَزَّوَجَلَّ.

• • ❁ • •



الآيــة (٣٧)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ﴾ [الزمر:٣٧].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ أي: مَن يُقدِّر اللهُ تعالى هِدايته فما له من مُضِلٍّ، ولا أحَدَ يَستَطيع أن يُضِلَّه مهما كثُرَتِ الشُّبُهاتُ وكثُرَتِ الشَّهَواتُ، فإذا قدَّر الله تعالى على العَبْد الهِداية فلن يُضِلَّه لا شهوةٌ ولا شُبهةٌ؛ لأنه عند الشَّهوة يُغلِّب العَقل فيَمتَنِع منها، وعند الشُّبهة يُغلِّب العِلْم فيَهتَدِي به منها، فمَن يَهدِه الله تعالى فما له من مُضِلٍّ.

وفي هذه الجُملةِ من تَشجيع الإنسان على الاستِمرار في الهِداية ما هو ظاهِر؛ لأن الله تعالى هو الذي هَداه ولا أحدَ يَستَطيع أن يُضِلَّه؛ وفيها اللُّجوء لله عَزَّوَجَلَّ في طلَب الهِداية منه والاستِمرار عليها.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ﴾ الجَواب: بلَى، وقوله تعالى: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ هذه خبَر (ليس) دخَلَت عليها الباء الزائِدةُ لَفْظًا الزائِدةُ مَعنًى؛ لأنها تُفيد تَوكيد العُموم في النَّفي إذ إن النفيَ يُفيد العُموم إذا أَتَى بعده اسمٌ نكِرة، لكن إذا دخَلَتِ الباء فإن حُروف الزيادة من أَحرُف التَّوْكيد، كما ذكَر ذلك عُلماء البلاغة.

وقوله تعالى: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ قال المُفسِّرون لأَسماء الله تعالى الحُسنى: (العَزيز) له ثلاثة مَعانٍ:

المَعنَى الأَوَّل: عِزَّة القَدْر.

والمَعنَى الثاني: عِزَّة القَهْر.

والمَعنَى الثالِث: عِزَّة الامتِناع.

أمَّا عِزَّة القَدْر فمَعناها: أن الله ذو قَدْرٍ عظيم وشـرَفٍ كبير، لا أحَدَ يُماثِله، ولا أحَدَ يُساوِيه أو يُقارِبه.

وأمَّا عِزَّة القَهْر فمَعناها: أن الله تعالى قاهِرٌ لكل شيء، غالِبٌ لكل شيء.

وأمَّا عِزَّة الامتِناع فمَعناها: أن الله تعالى يَمتَنِع عليه كلُّ عَيْبٍ ونَقْص.

وهذا معروفٌ في اللُّغة العربية، فالمَعنَى الثاني الذي هو الغلَبة قال فيه الشاعِر:

أَيْنَ المَفَرُّ وَالْإِلَهُ الطَّالِبُ ... وَالْأَشْرَمُ المَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ[1]

وأمَّا الأوَّل الذي هو عِزَّة القَدْر فيُقال: هذا عزيزٌ أي: نادِر لا يُوجَد؛ لشَرَفه وكرَمه.

وأمَّا الثالِث فقولهم: أرضٌ عَزاز. أي: قوِيةٌ صُلْبة يَمتَنِع، أو تَمتَنِع أن تَحفُرها المَعاوِل.

فالله عَزَّوَجَلَّ عزيزٌ بهذه المَعاني الثلاثة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾: ﴿ذِى﴾ بمَعنَى: صاحِب، وانتِقام

(١) نسبه ابن هشام في السيرة (١/ ٥٣) لنفيل بن حبيب.

نكِرة، والنَّكِرة في سِياق الإثبات لا تُفيد العُموم، ولكنها هنا في سِياق ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي: صاحِب انتِقام، فكلَّما كانت الحِكْمة في الانتِقام انتَقَمَ.

وتَأمَّل قوله تعالى: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ولم يَقُل: مُنتَقِم؛ لأنه ليس من أَسماء الله تعالى المُنتَقِم ولم تَأتِ المُنتَقِم في أسماء الله تعالى في حديثٍ صحيح، وإنما جاءَت باسْم الفاعِل مُقيَّدًا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢]، ولم يَقُل: إنا مُنتَقِمون. وقال: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي: صاحِب انتِقام في مَوضِعه، فالمُنتَقِم ليس من أسماء الله تعالى حتى وإن قُرِنت بالعَفوِ خِلافًا لما ذهَب إليه بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ من أنه إذا قُرِنت بالعَفو فلا بأسَ، بل نَقول: المُنتَقِم ليس من أسماء الله تعالى لا مَقرونًا بالعَفوِ ولا مُنفرِدًا عنه، لكنه يُوصَف بالانتِقام مُقيَّدًا ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾، ويُوصَف بأن الانتِقام يَصدُر مِنه لا أنه مُنتَقِم؛ لقوله تعالى: ﴿بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

فإن قال قائِل: هل يَجوز أن يَكون المُنتَقِم من أسماء الله تعالى المُقيَّدة؟

قُلنا: لا، لأن الله تعالى قيَّد الانتِقام لَّما وصَف نفسَه باسمِ الفاعِل قيَّده، وهنا نَقول:

أوَّلًا: إن أسماء الله تعالى كلُّها مُتضمِّنة لصِفات، فكلُّ اسمٍ فهو مُتضمِّن لصِفة، أو أكثَرَ من صِفة، وليس كلُّ صِفة تَتَضمَّن اسمًا.

إذَن: الصِّفات صارت أَوسَعَ من الأسماء.

ثانيًا: الصِّفاتُ منها ما وصَفَ الله تعالى بها نَفْسه فهذا لا شَكَّ في أنه جائِز، ولكننا نَصِفُ الله تعالى به على حسَب ما وصَفَ به نَفْسه؛ فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم:٤٧] هنا لا نَقول: إن الله تعالى مُنتَقِم، بل نَقول: ذو انتِقامٍ

أَيْ: لَه انتِقامٌ، وفَرْقٌ بين أن أُسمِّيَ الرجُل بالنَّجَّار؛ لأن مِهْنته النِّجارة، أو أَقول: له نِجَارةٌ. يَعنِي: يَنجُر إن دعَتِ الحاجة إلى ذلك؛ فيُوصَف الله تعالى بها وصَفَ الله تعالى به نَفْسه من الصِّفات؛ على حسَب ما يَصِف به نَفْسه، وما لم يَصِف به نفسه إن كان دالًّا على مَعنًى يَليق بالله جاز أن يُخبَر به عن الله تعالى، وإن كان دالًّا على مَعنًى لا يَليق بالله تعالى حرُم أن يُوصَف به الله تعالى لا خبَرًا ولا وَصْفًا لازِمًا.

وهذه مَسأَلة مُهِمَّة، يَعنِي: ما لا يَليـق بالله تعالى لا يَجوز أن نَصِفه به لا على سَبيل الفِعْل ولا على سَبيل الوَصْف اللازِم، وما كان لا يُخالِف ما يَليق بالله تعالى جاز أن نُخبـر به عنه، وقد ذكَرَ شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا التَّقسيمَ في كِتاب (الفتاوى) في قِسْم التَّوْحيد.

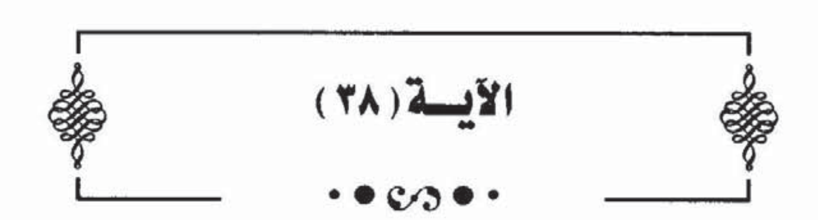
قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالِب على أَمْره].

وتَفسيره العَزيزَ بالغالِب على الأَمْر يُعتبَر قاصِرًا؛ لأن العِزَّة لها ثَلاثة مَعانٍ كما شـرَحْنا، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ من أَعدائـه؟ بلَى] والانتِـقام أَخذ المُجـرِم بجَريمته، وقوله تعالى: (بَلَى) هذا جَواب الاستِفْهام في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات عِزَّة الله عَزَّوَجَلَّ بجَميع مَعانيها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَهديد هؤلاء المُكذِّبين لرسول الله ﷺ تَهديدهم بهذين الوَصْفين؛ وَصْف العِزَّة المُستَفاد من (عَزيز)، والانتِقام المُستَفاد من قوله تعالى: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ فكأَنَّ الله تعالى يُهدِّدهم بعِزَّته وانتِقامه من تكذيب الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:٣٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الخِطاب إمَّا للرسول ﷺ، أو لكل مَن يَتَوجَّه إليه الخِطاب، واللَّام في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن﴾ مُوطِّئةٌ للقسَم، و(إِنْ) شَرْطية، والجَواب في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ جواب القسَم؛ لأنه قُرِن باللَّام، والذي يُجاب باللَّام هو القسَم وليس الشَّرط، والقاعِدة: أنه إذا اجتَمَع شَرْط وقسَم فالجَواب للسابِق منهما؛ قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ اللَّهُ في الأَلْفية:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ[1]

والمُؤخَّر هنا الشرط فيُحذَف جوابه ويَكون جوابه مَعلومًا من جواب القسَم.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ سُؤال استِفْهام ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ يَعنِي: مَن أَوْجَدهما على هذه الصَّنْعة البَديعة، والسموات مَأخوذة من السُّموِّ وهو العُلو؛ لعُلوِّها وارتِفاعها؛ وجمَعَها لأنها سَبْع سمَواتٍ وطباقًا،

(١) الألفية (ص٥٩).

أي: مُتَطابِقة، فكل واحِدة فَوْق الأخرى، وعلى هذا فتكون الثانية أَوْسَعَ من الأُولى، والثالثة أَوسَعَ من الثانية، والرابعة أَوسَعَ من الثالِثة... وهلُمَّ جَرًّا، وإذا كان بينهما مَسيرة خمسِ مِئة عام عرَفت سَعة كل سماءٍ بالنسبة لما تحتَها، وأن سَعَتها عظيمة، ومع هذا فهذه السَّمواتُ التي بهذه السَّعة العظيمة هي بالنِّسبة للكُرسيِّ كحلَقةٍ أُلقِيَت في فَلاةٍ من الأرض كحَلقة المِغفَر صغيرة أُلقِيَت في فَلاةٍ من الأرض، وفَضْل العَرْش على الكُرسيِّ كفَضْل الفَلاة على هذه الحَلقةِ، والرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ لا يَقدُر قَدْره إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ.

إِذَنِ: السمواتُ سبع مُتَطابِقة، والأرض واحِدة؛ لأنه قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾، ولم يَقُل: والأَرَضين؛ نَقول: المُراد بالأرض هنا الجِنْس، فلا يُنافِي أن تكون سبعًا، وقد أَشار الله تعالى في القُرآن إلى أنها سَبْع في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، وجاءَت السُّنَّة صريحةً في ذلك في مثل قول النبيِّ ﷺ: «**مَن اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»(١).

وقوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ هذا جَواب سُؤال؛ فيقولون: الله تعالى هو الذي خلَق السَّمواتِ والأرضَ، ولم يدَّعِ المُشرِكون أن السَّمواتِ والأرضَ كانت قَديمةً غير مُحدَثة، ولم يَدَّعوا أن أحدًا خلَقها سِوى الله تعالى، بل أَقَرُّوا بأن الخالِق هو الله تعالى وحدَه، كما أنهم إذا سُئِلوا: مَن خلَقهم ليَقُولُنَّ: الله. فكلَّما سُئِلوا عن شيء يَتعلَّق بالربوبية نَسَبوه إلى الله عَزَّوَجَلَّ من غير شَريك، فَهُمْ مُقِرُّون بتَوحيد الرُّبوبية غاية الإقرار، يَعلَمون أن الله تعالى هو الخالِق.

وقوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ في ضَمِّ هذا الفِعلِ مع اتِّصال نون التَّوْكيد به

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢، ٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إشكال، والمَعروف أن المُضارِع يُبنَى في مَوْضِعين: إذا اتَّصَلت به نون التَّوْكيد يُبنَى على الفَتْح، أو نون النِّسوة يُبنَى على السُّكون فلماذا هنا صار مَضمومًا؟ لأن نون التَّوْكيد هنا غير مُباشِرة للفِعْل، وعلى هذا التَّقديرِ يَكون بينها وبين الفِعْل واوُ الجماعة ونون الرَّفْع، فهي غير مُباشِرة حقيقةً مُباشِرة لفظًا، والفِعْل يُبنَى مع نون التوكيد المُباشِرة لفظًا وتَقديرًا، أمَّا هذه فهي في التَّقدير غير مُباشِرة؛ ولهذا بقِيَ الفِعْل مُعرَبًا، فيُقال: إنه مَرفوعٌ بالنون المَحذوفة لتَوالي الأَمثال، والواو المَحذوفة لالتِقاء الساكنين فاعِل.

وقوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾: ﴿ٱللَّهُ﴾ بالرفع خبَر مُبتَدأ محذوف، أي: هو الله، ويَجوز أن تَكون فاعِلًا لفِعْلٍ محذوف أي: خلَقها الله، ويَجوز أن تَكون مُبتَدأ، والخبَرُ محَذوف، والتقدير: الله خالِقُها، والأمر في هذا واسِع، بابُ الإعراب له وُجوهٌ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ يَعنِي: اسأَلْهم سُؤالًا آخَرَ إذا أَقرُّوا بأن الخالِق هو الله تعالى فقُلْ لهم: أَخبِروني ما تَدعون من دون الله تعالى.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَدْعُونَ﴾ تَعبُدون]، ويُحتَمَل أن يَكون المُرادُ به دُعاءَ المسألة؛ لأن الدعاء يُطلَق على مَعنيَيْن: الأوَّل: دُعاء المَسأَلة، والثاني: دُعاء العِبادة.

فمِن الأوَّل قوله تعالى: «**هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ**»(١)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، رقم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

[البقرة:١٨٦] هذا دُعاءُ مَسألة.

ومن الثاني -وهو دُعاء العِبادة- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

فهؤلاء القومُ يَدْعون من دون اللهِ تعالى دُعاءَ مَسألة ودُعاء عِبادة؛ لأن اللَّفْظ عامٌّ، والمَعنَى: أخبِرونا عن هذه الأَصنامِ التي تَدعونها من دون الله تعالى هل يَنفَعْنَ مَن دعاهُنَّ؟ هل يَجلِبن النفع أو يَدفَعْن الضُّرَّ: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾؟

الجَوابُ: لا، لا يَدفَعْن الضَّرر.

وإذا: ﴿أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾؟

والجَوابُ: لا، إِذَنْ كيف تُعبَد من دون الله تعالى؟! وكيف تُدعَى من دون الله تعالى؟! والله عَزَّوَجَلَّ إذا أَراد بي شيئًا ضَرًّا لم يَملِكن دَفْعه، وإذا أَرادني برحمة لم يَملِكْن إمساكَ هذه الرحمةِ.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [لا] ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يَعنِي: لا يُهِمُّني أن تُهدِّدوني بهذه الأصنامِ، فإن حَسْبي اللهُ، أي: كافِيني عمَّن سِواه، والجملة في ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ يَجوز أن يَكون فيها تَقديمٌ وتأخير، فنُعرب ﴿حَسْبِيَ﴾ خبَرًا مُقدَّمًا، و﴿اللَّهُ﴾ مُبتَدَأً مُؤخَّرًا، ويَجوز أن نَقول: ﴿حَسْبِيَ﴾ مُبتَدأً و﴿اللَّهُ﴾ خبَر، ويَختَلِف هذا الإعرابُ باختِلاف المَعنَى، فإن أَرَدْت أن تُخبِر عن الحَسْب بأنه اللهُ فاجعَلِ الحَسْب مُبتَدَأً، وإن أَرَدْت أن تُخبِر عن الله بأنه الحَسْب فاجعَلْ ﴿حَسْبِيَ﴾ خبَرًا مُقدَّمًا.

والآية من حيثُ المَعنَى صالِحةٌ لهذا وهذا، فالله تعالى هو الحَسْب، والحَسْب

هو الله تعالى، وليس لنا حَسْبٌ سِوى الله تعالى، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حَسْبنا وكافينا.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ التَّوكُّل هو الاعتِماد على الله عَزَّوَجَلَّ اعتِمـادًا حَقيقيًّا صادِقًا في جَلْب المَنافِع ودَفْع المَضارِّ مع الثِّقة به، هذا هو التَّوكُّل، وهو من العِبادة الخاصَّة بالله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٢٢]، أي: على الله تعالى وحدَه.

وأمَّا تَوكُّل غير العِبادة فإنه يَجوز للإنسان أن يَتوكَّل على غيرِه فيما وكَّله فيه، كما لو قُلْت لفُلان: وكَّلْتُك أن تَشتَرِيَ لي كذا وكذا. فاعتَمَدْت عليه في الشراء، وهذا ليس تَوكُّلَ عِبادة؛ لأن المُتوكِّل في هذه الصورةِ لا يَشعُر بأنه أَدنى مَرتَبةً من الوكيل، بل قد يَشعُر بأنه أَعلى مَرتَبة؛ لأنه جعَل ذلك خادِمًا له مُنفِّذًا لما يَقول، أمَّا التَّوكُّل على الله تعالى فإنك تَتوكَّل على الله تعالى مُعتَقِـدًا في نَفْسك أنك مُضطَـرٌّ إليه، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي بيده تَصريف أُمورك فتَتَوكَّل عليه رغبةً ورَهبةً وتَقرُّبًا إليه.

ولهذا نَقول: هل يَجوز أن أَقول: تَوكَّلت على فُلان؟

الجَوابُ: إن كان ذلك على وجه العِبادة فهذا حَرام وشِرْك، وإن كان على وجه الإنابة أي: أَنَبْته مَنابي فيمـا أَوْكَلته فيه فهذا لا بأسَ به ولا حرَجَ، وكان النبيُّ ﷺ يُوكِّل أصحابه في قَبْض الزَّكَوات وتَصريفها وغير ذلك(١).

يَقـول المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ لام قَسـم ﴿سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ﴾] يَعنِي: إذا أَقـرُّوا بهذا الإقـرارِ [﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ﴾ تعبُدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: الأصنام] يَعنِي: أَخبِرونا عنها [﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ

(١) من ذلك ما أخرجه البخاري: كتاب الهبة، باب من لم يقبل الهدية لعلة، رقم (٢٥٩٧)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال، رقم (١٨٣٢)، من حديث أبي حميد الساعدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾؟] الجـوابُ: يَقول: [لا] ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾؟ لا، وفي قِراءة: بالإضافة فيهما]، أي: في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَـٰشِفَـٰتُ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿مُمْسِكَـٰتُ﴾ فنقـرأ على هـذه القِـراءةِ: (هَلْ هُـنَّ كاشِفاتٌ ضُرَّه هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتٌ رَحْمَتَهُ)، والقِراءتان سَبْعيتان.

ومِن قاعِدة المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الكِتابِ: أنه إذا قال: (وقُرِئَ) فهي شاذَّة، وإذا قال: وفي قِراءة. فهي سَبْعية.

ثُمَّ قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يَثِـق الواثِقون].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إقرار هَـؤلاء المُشرِكين بالرُّبوبية لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: شَأْن الإقرار بالرُّبوبية لا يَنفَع العبد، ولا يُدخِله في الإسلام، ودليلُ ذلك: أن النبيَّ ﷺ قاتَل هؤلاءِ المُقِرِّين بالرُّبوبية، واستَباح دِماءَهم ونِساءَهم وأَموالهم، ولو كان إقـرارُه بالربوبيـة نافِعًا لكانـت دِماؤُهم مَعصـومةً، وأَموالهم مَعصومةً، وأَهلوهم مَعصومين.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإبطال لِمَا عرَّف المُتكَلِّمون به التوحيد؛ لأن عامة المُتكَلِّمين إذا فسَّروا التوحيد قالوا: إنه ثلاثة أنواع: التَّوْحيد في ذاته، وفي صِفاته، وفي أفعاله؛ هكذا يَقولون، ويَقولون: هو واحِدٌ في ذاته، لا قَسيمَ له، ويَعنُون بذلك أنه ليس له وجهٌ، وليس له يَدٌ، وليس له عَيـن، وما أَشبَـهَ ذلك، يَقولون لو قُلْنا: إن له هذه

الصِّفاتِ لزِمَ أن يَكون ذا أعضاءٍ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يَتَقسَّم، فهو واحِدٌ في ذاته، لا قَسيمَ له، واحِدٌ في أفعاله، لا شريكَ له، ثُمَّ يَجعَلون هذا النوعَ من التَّوْحيد هو توحيدَ الأُلوهية، فيَقولون: مَعنَى قول القائِل: (لا إلهَ إلَّا الله) أي: لا قادِرَ على الخَلْق والاختِراع إلَّا الله تعالى.

وأمَّا قولهم: (واحِدٌ في صِفاته لا شبيهَ له) كلام ظاهِره فيه الرَّحْمة وباطِنه من قِبَله العَذاب، فماذا يَعنون بقولهم: (لا شَبيهَ له)؟

الجَوابُ: أي: لا صفاتِ له؛ لأنهم يَعتَقدون أن كل مَن أَثبَت لله صِفة فهو مُشبِّه، فهو واحِدٌ في صِفاته لا شبيهَ له، هذا التنويعُ لو قرَأْته على عامِّيٍّ سيَقول: ما أَحسَنَه! ما أَجمَلَه! واحِدٌ في ذاته لا قَسيمَ له! سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى! ويُسبِّح ويُهلِّل، واحِدٌ في أَفعاله لا شريكَ له كذلك! واحِدٌ في صِفاته لا شبيهَ له كذلك! لكن لا يَدرِي أن وراءَ الأَكَمة ما وراءَها!!.

بل هم يُريدون بقولهم: (واحِدٌ في ذاته لا قسيمَ له) أي: ليس له صِفاتٌ هي بالنسبة إلينا أعضاء مثل: اليَدِ والوَجْه والعَيْن والقدَم والساق، وبقولهم: (واحِدٌ في أفعاله لا شريكَ له) يُريدون بذلك أن هذا هو مَعنى: (لا إلهَ إلَّا الله)، ولو كان هذا هو مَعنَى (لا إلهَ إلَّا الله) لكان المُشرِكون الذين قاتَلهم الرسول ﷺ مُؤمِنين مُوحِّدين، وهم كانوا إذا قيل لهم: لا إلهَ إلَّا الله. يَستكْبِرون، ولا يَقبَلون هذا، ويَقولون: أَجعَلَ الآلِهة إلهًا واحِدًا. فتَأمَّل كيف كان المُشرِكون في الجاهلية يَفهَمون من التَّوحيد ما لا يَفهَمه هؤلاءِ المُتكلِّمون.

وقد ذكَر شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره هذا المَعنَى، وقالوا: المُشرِكون

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٩٨).

خيرٌ في فَهْم التَّوْحيد من هَؤلاء المُتكَلِّمين؛ لأن هؤلاءِ المُتكلِّمِين جعَلوا التوحيد هو تَوحيدَ الربوبية فقَطْ، وهذا لا يُنكِره المُشرِكون يُقِرُّون به، ويُنكِرون توحيدَ الأُلوهية؛ لأنهم يَعرِفون أن معنى: (لا إلهَ إلَّا الله) لا مَعبودَ حقٌّ إلَّا اللهُ، يعرفون هذا، أمَّا أُولئك المُتكلِّمون فإنهم لا يُقيمون للأُلوهية وزنًا، يَجعَلونها خارِجًا لا يُدخِلونها في أنواع التوحيد، فيَعنُون بقولهم: (واحِدٌ في صِفاته لا شريكَ له لا شبيهَ له) تَعطيل الصِّفاتِ؛ لأنهم يَدَّعون أن كل مَن أَثبَت لله تعالى صِفة فهو مُشبِّه.

فهذه الآيةُ تُبيِّن الردَّ على أولئك المُتكَلِّمين الذين يَجعَلون توحيد الأُلوهية هو توحيدَ الربوبية، ويَأتي -إن شاء الله تعالى- بقِيَّة الكلام عليه.

فائِدةٌ: مُقاتَلة المُسلِم ليسَتْ كمُقاتَلة الكافِر، فمُقاتَلة المُسلِم تُقاتِله لأنه أخَلَّ بشَعيرةٍ من شَعائر الإسلام، ولا تَستَبيح نِساءه وذُرِّيَّته وأَرضَه، لكن مُقاتَلة الكافِر تُقاتِله لأنه ترَك الإسلام كلَّه؛ ولهذا تَستَبيح نِساءه وذُرِّيَّته وأرضَه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وجوب إفراد الله تعالى بالتَّوكُّل على الله تعالى؛ في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ للحَصْر، بطريق تَقديم المَعمول عليه.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أن ما يُعبَد من دون الله تعالى لا يَنفَع عابده بجَلْب نَفْع ولا بدَفْع ضَرَر؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات الإرادة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ﴾، ﴿أَوْ أَرَادَنِي﴾، وإرادة الله عَزَّوَجَلَّ تنقَسِم إلى قِسْمين:

أ- إرادةٌ شَرْعية.

ب- وإرادةٌ كَوْنيةٌ قدَرية.

فالكونية هي التي بمَعنَى المَشيئة، والشرعية هي التي بمَعنَى المَحبَّة؛ فإذا كانت (يُريد) بمَعنَى (يَشاء) فهي إرادة كونية، وإذا كانت (يُريد) بمَعنَى (يُحِبُّ) فهي إرادة شرعية.

إِذَنِ: الفَرْق بينهما:

أوَّلًا: أن الإرادة الكونية يَلزَم منها وقوع المُراد؛ لأنها كونية، ولا أحَدَ يُعقِب حُكْم الله تعالى، والإرادة الشرعية لا يَلزَم منها وقوع المُراد.

ثانيًا: أن الإرادة الشرعية لا تَكون إلَّا فيما يُحِبُّه الله تعالى، والإرادة الكونية شامِلة لما يُحِبُّه الله تعالى وما لا يُحِبُّه الله تعالى، ومثال ذلك: لو قال لك قائِل: هل الله تعالى يُريد المَعاصيَ؟ فإن قُلتَ: (نعَمْ) أَخطَأْت، وإن قُلتَ: (لا) أخطَأْت؛ والصواب أن نَقول: (بالإرادة الكونية: نَعَمْ يُريدها، ولم تَقَعِ المَعاصي إلَّا بإرادته)، و(بالإرادة الشَّرْعية: لا)؛ لأن الله تعالى يَكرَه المَعاصيَ، وبهذا التَّفصيلِ تَزول إشكالاتٌ كثيرة في المعاصِي: هل هي مُرادة لله تعالى أو غير مُرادة؟ نَقول: هي مُرادةٌ بالإرادة الكونية، غيرُ مُرادة بالإرادة الشرعية.

فإن قال قائِل: كيف يُريدها الله تعالى وهو لا يُحِبُّها؟

قلنا: نعَمْ هي مُرادة لغيرها، بمَعنَى: محَبوبة لغيرها، أي: لِما تُؤدِّي إليه من المَصالِح العظيمة.

إذن: ليسَتْ مُرادةً بالإرادة الشرعية، وإنما هي مُرادة بالإرادة الكَوْنية؛ فإذا أَورَدَ علينا مُورِد: كيف يُريدها الله عَزَّوَجَلَّ وهو يَكرَهها؟

فالجَوابُ: أن نَقول: يُريدها وهو يَكرَهها؛ لكونها مُرادة لغَيْرها، فالله عَزَّوَجَلَّ

يُوقِع المعاصِيَ يُريد المعاصِيَ من أجل خيرٍ كثيرٍ لفاعِلها إذا تاب إلى الله تعالى؛ لأن العاصيَ إذا تاب إلى الله تعالى كان خيـرًا منه قبل ا لمَعصِية، والدليل على هذا أن آدَمَ عصا ربَّه وغوَى، وتاب إلى الله تعالى، وبعد تَوْبته اجتَباه وهَداه، ولو لا هذه المَعصيةُ لم يَحصُل له الاجتِباءُ والهِداية التي حصَلَتْ بعد المَعصية، فكانت المَعصية الآنَ خَيْرًا لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثُمَّ إن فيها خيرًا آخَرَ؛ فالإنسان العاصِي إذا عصا الله تعالى عرَف قَدْر نَفْسه، وخَجِل من ربِّه، واستَصغَر كل عمَل خيرٍ يَفعَله؛ لأنه يَذكُر مَعصيته دائِمًا بين عَيْنيه، لكن إذا لم يَعصِ ربَّما يشمخر[1] ويَعلو بأَنْفه، ويُعجَب بنَفْسه، ويَقول: أنا ما عصَيْت الله تعالى أبدًا! وما أَشبَه ذلك، ثُمَّ يَحبَط عمَله من حيث لا يَشعُر.

فهاتانِ اثنَتانِ مَصلَحتها للعاصِي، وهناك مَصلحةٌ ثالِثة لعامة الناس، فلو لا العِصيان ما قام الأَمْر بالمَعروف والنهيُ عن المُنكَر؛ لأن الناس لو كان كلهم على البِرِّ والمَعروف فبأيِّ شيءٍ نَأمُر؟! وعن أيِّ شيء نَنهَى؟! فلا يَقوم الأَمْر بالمَعروف والنهيُ عن المُنكَر إلَّا بوجود أسبابه وهي المَعاصِي.

ثالثًا: لو لا المَعاصِي ما عرَف الإنسان قَدْر الإيمان الذي أَنعَم الله به عليه ولذَّتَه؛ لأن الناس لو كانوا على حَدٍّ سواءٍ ما عرَف الإنسان قَدْر نِعْمة الله عليه؛ ولهذا لا يَعرِف قَدْر العافِية إلَّا مَنِ ابتُلِيَ بالمَرض، وكذلك أيضًا المَعصية؛ لا يَعرِف العبد قَدْر نِعْمة الله تعالى عليه بالطاعة إلَّا إذا عرَف آثار المَعاصِي على فاعِلها.

رابِعًا: لو لا المَعاصِي التي أَعظَمُها الكُفر ما قام سُوق الجِهاد؛ لأننا لو كُنَّا كلنا

---

(١) أي: تكبَّر. تاج العروس (شمخر).

مُسلِمين فمَن نُجاهِد؟ لا أحَدَ، لكن إذا كان هناك كافِر ومُؤمِن قام سُـوق الجِهاد، ولا يَخفاكُم ما في الجِهاد من الخير والفَضْل العظيم.

خامِسًا: لولا المَعاصي لفاتَتِ الحِكْمة من خَلْق الخَلْق كلهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يَعنِي: على الهُدى ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩].

سابِعًا: لولا المَعاصِي لم يَكُن لخَلْـق الجَنَّة والنار حِكْمـة؛ لأن الجَنَّة لَمن عصَى واستَغفَر الله تعالى، ولو لم يَكُن عُصاةٌ لكان خَلْق النار عبَثًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

فتَبيَّن الآنَ أن ما يُقدِّره الله عَزَّوَجَلَّ ممَّا يَكرَهه له فوائِدُ كبيـرة عَظيمة، وحينئـذٍ يَكون مُرادًا لله تعالى مُرادًا لغيره، وهو من هذه الناحيةِ مَحبوبٌ إلى الله تعالى، فتَبيَّن بهذا سُقوط الإيراد الذي أَوْرَدناه أوَّلًا، وهو كيف يُريد الله تعالى المَعاصيَ وهو يَكرَهها؟ ومثل هذه الفوائِدِ قد لا تَجِدونها في كِتابٍ؛ ولذلك أَحُثُّكم على الاحتِفاظ بها وتَقييدها.

ونَظير ذلك في الأمور المَحسوسة أن الأبَ أو الأُمَّ يَأتي إلى ابنه المَريض فيَكويه بالنار وتُؤلِمه وتُحرِق جِلْده، لكن لطلَب الشِّفاء؛ فكَيُّه مَكروه غيـر مَحبوب له، لكنه مَحبـوبٌ لغيره، أي: لما يَنتُج عنه من المَصالِح، وبهـذا تَبيَّن أنه لا مانِـعَ من أن يَكون الشيء مَكروهًا من وجهٍ ومَحبوبًا من وجهٍ.

ونَرجِع إلى الفَرْق بين الإرادتين: (الشرعية والكونية)، فما هي التي يَلزَم فيها وُقوع المُرادُ؟

أَقولُ: الكونية هي التي يَلزَم منها وقوع المُراد، وعلى هذا فالكافِر مُرادٌ منه أن يُؤمِن ولم يُؤمِن، ومُرادٌ منه أن يَكفُر وقد كفَرَ، فمُرادٌ منه أن يُؤمِن بالشَّرْعية- ومُرادٌ منه أن يَكفُر- بالإرادة الكونية- فكفَر.

والمُؤمِن الذي آمَن؛ مُرادٌ منه أن يُؤمِن -بالإرادة الشرعية- ومُرادٌ منه أن يُؤمِن -بالإرادة الكَوْنية- لأنه آمَن.

وعلى هذا فالمُؤمِن اجتمَع في حَقِّه الإرادتان: الكَوْنية والشَّرْعية، والكافِر في حَقِّه الإرادة الكونية دون الشرعية.

فهنا قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾ أراد بهما الإرادة الكونية.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ يَبتَلي الإنسان بالضُّـرِّ وبالرحمة، وهو كذلك، فيَبتليه بالضُّـرِّ ويَبتليه بالرحمة؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [الروم:٣٣]، فالله عَزَّوَجَلَّ يَبتَلي بالضُّرِّ ويَبتَلِي بالرحمة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الفَرْق بين الضُّرِّ وبين الرحمة، أن الرحمة قال تعالى فيها: ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦ﴾ والضـرُّ قال تعالى فيه: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾؛ لأن الرحمة تَحتاج إلى بَقاء فإذا أَبقَى الله تعالى الرحمة، فهل هذه الأَصنامُ هي التي تُمسِك الرحمة أو الله تعالى؟ بل الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يُمسِك الرحمةَ، وليست هذه الأَصنامُ.

ويُحتَمَل في الآية وجهٌ آخَرُ، وهو أن قوله تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦ﴾ مَعناه: أن تَصِل إلى المَرحوم، فيَكون ﴿مُمۡسِكَٰتُ﴾ بمَعنى: مانِعات للرحمة؛ ليَكون ذلك في مُقابِل ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: وجوب اعتماد الإنسان على الله تعالى؛ لقوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: قُلْها باللِّسان مُعتَقِدًا إيَّاها بقَلْبك.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن أحقَّ مَن يُتوَكَّل عليه هو الله تعالى؛ لقوله: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

فإن قال قائِل: هل تحقيق التَّوكُّل يُنافي فِعْل الأسباب؟

فالجَوابُ: لا، إلَّا إذا تعذَّرتِ الأسباب ولم يَبْقَ إلَّا التَّوكُّل، فحينئذٍ يَكون هو سبب الأسباب، فالإنسان مَأمور بفِعْل السبَب، فإذا فعَله ولم يُفِد أو لم يَكُن السبَب مَوجودًا مَقدورًا عليه لم يَبقَ إلَّا التَّوكُّل.

وإن قال: ما هو الدليلُ على أن فِعْل الأسباب لا يُنافِي التَّوكُّل؟

قُلنا: وقوع ذلك من سيِّد المُتوكِّلين محمدٍ ﷺ، فإنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يَأْخُذ بالأسباب؛ فيَأكُل ليَندَفِع عنه الجوع، ويَشرَب ليَندَفِع عنه العطَش، ويَتدرَّع بالدُّروع في الحرب ليَتَّقيَ بذلك السهامَ، بل إنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في أُحُد ظاهَرَ بين دِرْعين[1]؛ لأن ذلك أَقوى في الصِّيانة والحِماية، وشَقَّ الخَندَق على المدينة في غَزوة الأحزاب[2] مَنعًا للعَدوِّ من دُخول المدينة، والشواهِدُ على هذا كثيرة.

ولكن نُقيِّد الأسباب بأن يَثبُت كونها سببًا شرعًا أو حِسًّا، فلا بُدَّ أن يَثبُت

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٤٩)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب في لبس الدروع، رقم (٢٥٩٠)، وابن ماجه: كتاب الجهاد، باب السلاح، رقم (٢٨٠٦)، من حديث السائب بن يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعند أبي داود عن السائب عن رجل قد سماه مرفوعا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب حفر الخندق، رقم (٢٨٣٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٣)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كونها سببًا إمَّا عن طريق الشَّرْع، وإمَّا عن طريق الحِسِّ والتَّجارِب، فأمَّا مُجرَّد تَوهُّم كون هذا سببًا فإن ذلك من الشِّرْك، وانتَبِهوا لهذه المَسألَةِ، فمِن دَلالة كون الشيء سببًا شرعًا أن القرآن شِفاءٌ لما في الصدور، وهو مرَض الشُّبُهات والشَّهَوات، وشِفاءٌ لما في الأبدان؛ لقول النبيِّ ﷺ للذي قرَأ بالفاتِحة على اللَّديغ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ»(١)، فمِن أين علِمنا أن القُرآن شِفاء من الشَّرِّ؟ وقد يَكون بالتَّجارِب مثل أن نَعرِف أن السَّنَا مُسْهِل، ومن أين عرَفنا: هل في القرآن والسُّنَّة أن السَّنا مُسهِل؟

الجَوابُ: لا، لكن بالتَّجارِب، والسَّنَا يُسمَّى بلُغَتنا في القَصيم (السَّناوَيْن) مُثنًّى، وهو سَنًا واحِد! لكنه نوع من أَوْراق الشجَر المعروف يُشبِه السِّدْر، فإذا دُقَّ ونُقِع في الماء لُمدَّة عِشرين ساعةً أو نحوها، وشرِبه الإنسان فإنه يَسْلُت ما في بَطْنه من الأذى ويُسهِله، وله رائِحة كريهة، لكن الناس يَجعَلون معه بصَلًا؛ ليُعمِّيَ رائِحته، وإن كان البصَل خَبيثًا، لكنه أهوَنُ؛ لأنه أخَفُّ الضرَرين.

وعلى كل حال: عرَفنا أن السَّنَا مُسهِل من التَّجارِب، وغالِب الأدوِية الموجودة الآنَ من هذا النَّوعِ من التَّجارِب، أمَّا شيء مَوْهوم فهذا لا يَجوز اعتِماده، بل هو نوعٌ من الشِّرْك، وقد ثبَت أن التِّوَلة شِرْك؛ لأنه لم يَثبُت كونها سببًا لَمحبَّة الرجُل لزوجته أو الزوجة لزوجها لا شرعًا ولا قَدَرًا، يَعنِي: ولا حِسًّا، فيَكون إثبات كونها سبَبًا شِرْكًا؛ لأنك أَثبَتَّ ما لم يُثبِتِ الله تعالى، فكأنك جعَلْت نَفْسك مثل الله تعالى في إثبات الأسباب ومَفعولاتها.

إِذَنْ: قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لا يُنافِي فِعْل الأسباب، بل

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، رقم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأسباب من التَّوكُّل في الواقِع؛ ولهذا قال عُمرُ بن الخَطَّاب لأبي عُبيدةَ بنِ الجَرَّاح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَمَّا قال: «أَفِرارًا من قَدَر الله؟ قال: نَفِرُّ من قَدَر الله إلى قدَر الله»[1]، والله تعالى أَعلَمُ.

مَسأَلة: هل العاصِي التائِب إلى الله أَفضَلُ أم الذي لم يَعصِ الله عَزَّوَجَلَّ؟

الجَوابُ: أَقول: الذي لم يَعصِ الله تعالى أحسَنُ؛ لأن العاصيَ ربما لا يُوفَّق للتوبة، لكن الإنسان يَشعُر من نفسه أنه إذا عصَى ثُمَّ تاب أنه خجِل من الله تعالى ورجَع إليه واستَحْيا منه، لكن إذا كان سائِرًا على الطاعة مُستَمِرًّا لا يَجِد لذَّة التَّوْبة، وهذا شيء مُجرَّب ومُشاهَد.

مَسأَلة أُخرى: هل الأدويةُ الموجودةُ الآنَ هل هي ثابِتة بالتَّجارِب؟

الجوابُ: نعَم، ولا شكَّ، والمريض يَعلَم أنها ثابِتة أيضًا؛ لأنه واثِق بأهل الطِّبِّ، فهو يَدرِي أنها مُفيدة، فأهل الطِّبِّ الآنَ لا يُمكِن أن يُنزِلوا للسُّوق أدوية إلَّا بعد أَخْذ تَجارِبَ عليها كثيرًا، فيُجرِّبونها على الفِئْران، وعلى الأرانِب، وعلى الكِلاب، ويُجرُونها خُصوصًا في الأمراض المُستَعْصية، فلا تَظُنَّ أن الواحِد منهم يَعجِن هذه الحُبوبَ ويُعطيك إيَّاها مُباشَرةً!

فإن قيل: لكن أَحيانًا لا يَجِد الإنسان نَتيجة من بعض الأدوية فماذا يَفعَل؟

فالجَوابُ: في الأصل أن الدواء لا بُدَّ أن يُصيب مَحلًّا قابِلًا، فإذا لم يُصِب مَحلًّا قابِلًا ما نفَع، وهذا مَوْجود، حتى القِراءة على المريض التي ثابِتٌ أنها سبَبٌ ولا شكَّ

---

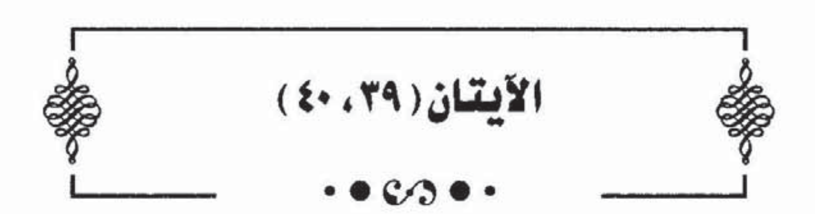
(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون (٥٧٢٩)، ومسلم: كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة، رقم (٢٢١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فيها، فكثيرًا ما تَقرَأ على المريض ولا يَستَفيد؛ لأن المَحلَّ غير قابِل، فتَقرَأ عليه وتَجِده يَقول: ما هذا القارِئُ؟ ليس عنده عِلْم!.

وهل يَحرُم استِعْمال الدواء غير المُجدِي؟

أَقولُ: لَا يَحْرُمُ الاستِعمالُ، لكن إذا كان يُؤدِّي إلى ضرَر مثل بعض المُضادَّات الحَيَوية التي تَضُرُّ الإنسان أكثَرَ ممَّا تَنفَعه، فإنه إذا لم يَجِد نفعًا فهنا يَجِب عليه أن يُمسِك حتى لو قال له الطَّبيب: استَمِرَّ، وهو لم يَجِد نفعًا، وهي من الأدوية التي يُسمُّونها: المُضادَّاتِ الحيويةَ، فهي خطَر على الإنسان.

• • ۞ • •



الآيتان (٣٩، ٤٠)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [الزمر:٣٩-٤٠].

• ● ● •

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ الخِطاب هنا للنبيِّ ﷺ، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ﴾ المُراد بهم مَن كذَّبوه وعانَدوه.

وقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ هذه مُنادى، وأَصلُها: يا قَوْمي، ولكنها حُذِفت الياء للتخفيف، وبَقِيَت الكَسْرة دَليلًا عليها، وعليه فنَقول في إعرابها: (قَومِ) مُنادى مَنصوب بفَتْحة مُقدَّرة على ما قَبْل ياء المُتكلِّم المحذوفة للتَّخفيف.

وقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ يَعنِي: على ما أنتم عليه من الكُفْر والعَداوة والإيذاء، فإن ذلك لا يُهِمُّني، ولن يَمنَعَني من أن أَستَمِرَّ في عمَلي؛ ولهذا أَكَّد قوله تعالى: ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ يَعنِي: عامِلٌ على ما أنا عليه، فأنتمُ اعمَلوا ونحن سنَعمَل، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالتكم]، فالمَكانة بمَعنَى الحالِ، وكما ذكَرْنا في التفسير: المكانة أي: ما كُنْتم عليه، وهي بمَعنى الحال في كلام المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إني عامِلٌ على حالَتي]، وفَهِم أن التَّقدير (على حالَتي)؛ لأنها مُقابِلٌ إلى قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ يَعنِي: إني عامِلٌ على مَكانتي،

يَعنِي: (على حالَتي)، والتَّقدير على مَكانَتي.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذه جُملة مُحقَّقة؛ لدُخول ﴿سَوْفَ﴾ عليها، فإن ﴿سَوْفَ﴾ تُحقِّق الجُملة كما تُحقِّقها السِّين، لكن الفَرْق: أن السِّين تُفيد ذلك عن قُرْب، و﴿سَوْفَ﴾ تُفيده عن مُهْلة؛ ولهذا يُقال: السِّين للتَّنْفيس، و﴿سَوْفَ﴾ للتَّسويف، أيِ: التأخير والتَّنفيس القُرْب.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ﴾: ﴿مَن﴾ هذه مَفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾، والعِلْم هنا بمَعنى المَعرِفة؛ ولهذا لا تَنصِب إلَّا مفعولًا واحدًا كما قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ اللَّهُ:

لِعِلْمِ عِرْفَانٍ وَظَنٍّ تُهْمَهْ تَعْدِيَةٌ لِوَاحِدٍ مُلْتَزَمَهْ[1]

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أي: تَعرِفون ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: ستَعلَمون الذي يَأتيه عذابٌ يُخزيه، والعَذاب هو العُقوبة، والخِزيُ مَعناه: الذُّلُّ والعار، وقوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: يَنزِل عليه عذابٌ مُقيم لا يُفارِقه، والمَعنَى العامُّ: (سوف تَعلَمون هذا: هل هُو لَنا نَحن أم لكُم؟) ولكِنَّهم سوف يَعلَمون ذلك في وقتٍ لا يَتمكَّنون فيه من الخَلاص، وإنما يُنادون بالوَيْل والثُّبور -والعِياذُ بالله تعالى-.

فقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَن﴾ مَوصولة مَفعول للعِلْم] فلو قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: مَفعول

---

(١) الألفية (ص٢٤).

﴿تَعۡلَمُونَ﴾ لكان أَوضَحَ؛ لأن الذي في الآية ليس المَصدَر، ولكنه الفِعْل، وكان عليه أن يَقول: مَفعول ﴿تَعۡلَمُونَ﴾، لكن الكِتاب[1] في الحَقيقة مُؤلَّف لطلَبة عِلْم؛ ولهذا نحن لا نَنْصَح بِقراءة هذا الكِتابِ للمُبتَدِئ؛ لأن هذا الكِتاب وإن كان صغيرًا أكبَرُ من فَهْم المُبتَدِئ.

إِذَنْ: ﴿مَن﴾ مَوْصولة مَفعول للعِلْم، وجُملة: ﴿يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ إذا كانت ﴿مَن﴾ مَوصولة فجُملةُ ﴿يَأۡتِيهِ﴾ لا مَحَلَّ لها من الإعراب صِلةُ المَوْصول، وقوله: ﴿عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ العَذاب عُقوبة وجُملة: ﴿يُخۡزِيهِ﴾ صِفة لـ﴿عَذَابٞ﴾، وليست جوابًا لـ﴿مَن﴾؛ لأن ﴿مَن﴾ اسمُ مَوْصول لا تَحتاج إلى جواب.

ثُمَّ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَيَحِلُّ﴾ [ينزل ﴿عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ دائم، وهو عذاب النار وقد أخزاهم الله ببَدْرٍ]، يَعنِي أن أكبَرَ ذُلٍّ حصَل لقُرَيْش ما حصَل في بَدْر؛ لأن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ جمَع زُعَماءهم وكُبَراءهم وأشرافهم حتى خرَجوا في ذلك اليومِ، وقُتِل هؤلاءِ الأشرافُ والكُبَراءُ، وسُحِبوا وأُلقوا في قَليبٍ من قُلُب بَدْر، وهي قَليبٍ خَبيثة مُنتِنة، فكان جَزاؤُهم -والعِياذُ بالله تعالى- هذا الجزاءَ، وهذا من أعظَمِ الخِزْي، حتى وقَف النبيُّ ﷺ عليهم يُوبِّخهم ويُندِّمهم؛ يَقول: «يا فُلانُ بنَ فُلانٍ». بأسمائهم وأَسماء آبائهم، «يا فُلانُ بنَ فُلانٍ، هل وجَدْتُم ما وعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا، فإنِّي وَجَدْتُ ما وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا». فقالوا: يا رسول الله: تُكلِّم أُناسًا قد جَيَّفوا! كيف تُكلِّم جِيفًا؟ فقال ﷺ: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ»، ولكنهم لا يَستَطيعون الجوابَ[2].

---

(١) أي: تفسير الجلالين.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم (٢٨٧٤)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه بنحوه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم (١٣٧٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وصَدَق الرسول ﷺ، فهُمْ يَسمَعون كلام الرسول ﷺ ولا يَزيدهم هذا الكلامُ إلَّا حَسْرةً ونَدامة؛ ولهذا قال أَبو جَهْل حينما جاء إليه عبد الله بنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه رمَقٌ من حياة قال له: مَن أنتَ؟ قال: ابنُ مَسعودٍ. قال: لقَدْ ارتَقَيْتَ مُرتَقًى صعبًا يا رُوَيْعيَّ الغَنَم! يَعنِي: كيف تَطَأ على رأس شَريف من أشراف قُريشٍ، ثُمَّ قال: لِمَن الدائِرةُ اليومَ؟ قال: لله ورسولِه[1].

المُهِمُّ: أن الرسول ﷺ وبَّخَهم على هذا الذي حصَل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنه يَنبَغي لِمَن معَه الحقُّ أن يَكون قوِيًّا مُتحَدِّيًا لخَصْمه، فلا يَقِف مَوقِف الضَّعْف، يُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ يَعنِي: ولا تَهُمُّونني.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَسلية النبيِّ ﷺ، فإن الله تعالى أمَرَه بذلك تَبشيرًا له وتَسلية بأنه ستكون العاقِبة له.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه لا بأسَ بإقرار الكُفَّار على كُفْرهم تهديدًا، وهذا أسلوبٌ مُتَّبَع حتى في تأديب الوالِد ابنَه فترَاهُ يَقول: استَمِرَّ على مَعصيتي! استَمِرَّ في اللَّعِب! لا تَحْضُر للضيوف! مثَلًا يَقصِد التهديد.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُريد من نبيِّه ﷺ أن يَكون عاليًا على قومه يَتكلَّم معهم من عَلٍ، وذلك بقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞ﴾، وهذا يُشبِه التَّحدِّيَ لهم أني لا يُهِمُّني أن تَعمَلوا ما عمِلْتم فإني سوف أَعمَل ما يُضادُّ ذلك.

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٦٣٦).

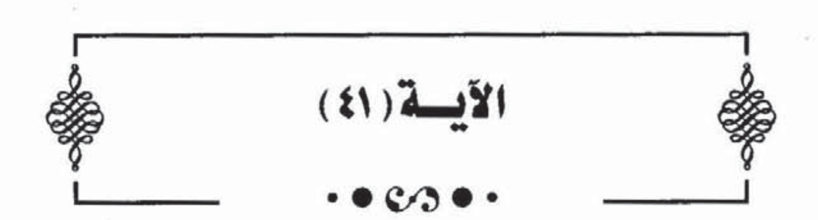
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تهديد أُولئك المُكذِّبين لرسول الله ﷺ، وأنهم سوف يَعلَمون مَن هو أحقُّ بالعذاب ومَن يَأتيه العَذاب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن عذاب الكُفْر عذابٌ مُخزٍ، عارٌ في الآخرة وذُلٌّ في الدنيا، بل ذُلٌّ في الدنيا والآخِرة -والعِياذُ بالله تعالى- لقوله تعالى: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن عذاب أهل النار مُقيم لا يَنفَكُّ عنهم.

ويَتفَرَّع على ذلك: أن فيها ما دلَّ عليه القُرآن والسُّنَّة من أن أهل النار مُخلَّدون فيها أبدًا، وأنها لا تَفنَى، وأن القول بفَنائها قولٌ ضعيف، بل باطِل لمُخالَفته للكِتاب والسُّنَّة.

• • ۞ • •



الآيــة (٤١)

• • ◆ • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر:٤١].

• • ◆ • •

ثُمَّ قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ تأمَّل ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾، وفي بعض الآيات: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ فهَلِ الحَرْفان بمَعنًى واحِد أو هُما يَختَلِفان؟

الجَوابُ: الأصل فيما اختَلَف لَفظُه أن يَختَلِف مَعناه هذا الأصلُ؛ لأن اللَّفْظ للمَعاني بمَنزِلة الثَّوْب للأجسام، فإذا وجَدْنا لَفْظين تَعدِيَتُهما واحِدة، لكنَّهما مُختَلِفان لفظًا، فالأصل اختِلافهما معنًى، فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ يُفيد أن غاية الإنزال إلى رسول الله ﷺ لا يَتَجاوَزه إلى غيره.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ﴾ تُفيد أن الإنزال على النبيِّ ﷺ حتى تَشَرَّبه كأنه نزَل في نَفْس الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ ألم تَقرَأ قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤]، ولم يَقُل: إلى قَلْبك هذا هو الفَرْق.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الكتاب هنا هو القُرآن الكريم، وسُمِّي كِتابًا؛ لأنه مَكتوب في اللَّوْح المَحفوظ، وفي الصُّحُف التي بأَيْدي الملائِكة، وفي الصُّحُف التي بأَيْدينا، وعلى هذا فيَكون فِعَال بمَعنَى: مَفعول، وهذا الوزنُ أَعنِي: فِعالًا بمَعنى: مَفعول يَأتي كثيرًا في اللغة العربية، ومنه فِراش بمَعنى مَفروش، وكِساء

بمَعنَى: مَكْسِيٌّ، وبِناء بمَعنَى: مَبنيٌّ، وغِراس بمَعنَى: مَغروس، وله أمثِلة كثيرة.

يَقول تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ اللَّام هنا للاختِصاص أو للتَّعدِية؟ جائِز هذا وهذا، والمَعنَى: أن الله تعالى أَنزَل الكِتاب على مُحمَّدٍ ﷺ ليَهتَدِيَ به الناس ويَنتَفِعوا به، والأمر كذلك، فإن الناس انتَفَعوا بهذا القُرآنِ انتِفاعًا لا يُماثِله انتِفاع، فالأُمَّة القُرَشية كانت لا تُساوِي شيئًا عند الأُمَم، وكانوا أَذِلَّة وكانوا فُقَراءَ، لهم رِحلة إلى الشام في الصَّيْف وإلى اليَمَن في الشِّتاء؛ لأنه ليس عندهم حرَكة ولا تِجارة ولا أموال، وببعثة النبيِّ ﷺ وبهذا القرآنِ صاروا سادةَ الأُمَم كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾، وقوله: (آوَى) يَعنِي: آواكَ، وأَوَى بك فكُنْت أبًا للناس بعد أن لم تكُن، وبعد أن كنتَ يَتيمًا لا أبَ لك؛ ولهذا نَقول: (آوَى) حُذِف المَفعول به من أجل العُموم، يَعنِي: آواك وآوَى بك، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾: ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي: هداك وهَدَى بك، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ يَعنِي: أَغناك وأَغنَى بك؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ للأنصار: «**وَكُنْتُمْ عَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي**»[1] فالنَّبيُّ ﷺ جاء بالبَرَكة لأُمَّته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لها مَعنَيان:

الأَوَّل: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يَعنِي: أن ما جاء به هذا القُرآنُ هو الحقُّ، والحقُّ هو الصِّدْق في الأَخبار، والعَدْل في الأَحْكام، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] يَعنِي أن هذا القُرآنَ نزَل بالحَقِّ أي: أتَى بالحَقِّ وهو صِدْق الأَخْبار وعَدْل الأحكام.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم (٤٣٣٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، رقم (١٠٦١)، من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والمَعنَى الثاني: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يَعنِي أنه مَصحوبٌ بالحَقِّ، أي: أنه نزولٌ حقٌّ، ليس فيه باطِلٌ كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء:٢١٠-٢١٢]، فهذا يَعنِي أن نُزوله حقٌّ، ليس بباطِلٍ، فإنه لا يَعتَريه الباطِل، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت:٤٢].

وهذا بخِلاف أَخْبار الكُهَّان فكلُّها من الشياطين، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء:٢١٠-٢١٢].

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ الفاء هذه مُفرَّعة على ما سبَق، يَعنِي: بعد نزول هذا القُرآنِ انقَسَم الناس فيه إلى قِسْمين: قِسْمٌ اهتَدَى به فانتَفَع، وقِسْمٌ ضلَّ عنه فهلَكَ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾: (مَنْ) هذه شَرْطية، وفِعْل الشرط فيها: ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾، وجَوابه: جُملة: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ لأن الجُملة هنا اسمِيَّة؛ ولهذا اقترَنَت بالفاء كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: هِدايةً عِلْمية وهِدايةً عمَلية، فهِداية عِلْمية بأن حرَص على هذا القُرآنِ فحفِظه وتَدبَّره وتَأمَّله، وهِداية عمَلية بأن طبَّق هذا القُرآنَ وعمِل به عَقيدةً وقولًا وفِعْلًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ اهتِداؤه] أي: فلنَفْسه اهتِداؤه، أو فهو لنَفْسه.

المُهِمُّ: أن المحذوف المُبتَدَأ ولا بُدَّ؛ لأن المَذكور جارٌّ ومجرور، والجارُّ والمجرور لا يُمكِن أبدًا أن يَكون مُبتَدَأ، فإن شِئْت قدَّرْت: (فلنَفْسه اهتِداؤه)، وإن شِئْت قدَّرْت (فهو لنَفْسه).

واقتَرَنت جُملة الجَواب بالفاء؛ لأنها جُمْلة اسمِيَّة، والقاعِدة أنه إذا وقَعَت جملة الجَواب اسمِيَّة وجَب اقتِرانها بالفاء، وربما تُحذَف الفاء، لكن قليلًا، ومنه قول الشاعِر:

مَنْ يَفْعَلِ الحَسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُهَا ....[1]

ولم يقل: فالله يَشكُرها. لكن هذا قليل.

ولنَتعَرَّضِ الآنَ لما يَجِب قَرْنه بالفاء من الجُمَل إذا وقَع جوابًا، وهي مَذكورة في قول الشاعِر:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدٍ وَبِـ(مَا) وَ(قَدْ) وَبِـ(لَنْ) وَبِالتَّنْفِيسِ

وقوله تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: ومَن ضَلَّ فلم يَهتدِ لا عِلْمًا ولا عمَلًا ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: على نَفْسه ولا يَضُرُّ الله تعالى شيئًا، ولا يَضُرُّ غيرَه شيئًا أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾: (ما) هذه حِجازية، أي: لا يَنطِق بها إلَّا أهل الحِجاز؛ وهي لا تَعمَل عمَل (ليس) إلَّا عند أهل الحِجاز، فلذلك سُمِّيَت حِجازية فهي عند أهل الحِجاز تَعمَل عمَل (ليس)، أي: تَرفَع المُبتَدَأ وتَنصِب الخبَر،

---

(١) اختلف في قائله، فنسبه سيبويه في الكتاب (٣/ ٦٤-٦٥) لحسان بن ثابت، ونسبه ابن هشام في مغني اللبيب (ص٨٠) لعبد الرحمن بن حسان، ونسبه جماعة لكعب بن مالك كما في خزانة الأدب (٩/ ٥١).

ومن ذلك قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف:٣١]، وعند بني تَميمٍ لا تَعمَل عمَل (ليس)، بل هي مُهمَلة، فيَقولون في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ يَعنِي: في غير القرآن: (ما هذا بشَرٌ)، فمِن لغة تَميم: (ما زيدٌ قائِمٌ)، ومِن الحِجازية (ما زيدٌ قائمًا)، فتَحصَّل لنا الآنَ أن لُغة قُريشٍ وهم أهل الحِجاز يَقولون: (ما هذا بشَرًا)، وبنو تَميم يَقولون: (ما هذا بشَرٌ)، وكانوا يَقرَؤُون القُرآن: (ما هذا بشَرٌ) قبل أن يُوحَّد على لغة قُريش؛ لأن القرآن أُنزِل على سبعة أَحرُف.

وفي ذلك بيت طريف قال فيه الشاعِر:

وَمُهَفْهَفِ الْأَعْطَافِ قُلْتُ لَهُ انْتَسِبْ فَأَجَابَ مَا قَتْلُ الُمحِبِّ حَرَامُ[(١)]

يَعنِي: قلت له: من أين أنتَ؟ فما قال: أنا من فُلان من آل فُلان؟ فأَجاب: (ما قَتْل المُحِبِّ حَرامُ) فتكون هذه المرأةُ تَميميةً؛ لأنها قالت: (ما قَتْلُ المُحِبِّ حَرَامُ)، أمَّا في وقتنا الآنَ فلا نَعرِف التَّميميَّ من القُرَشيِّ؛ لأنه قدِ اندَمَج الآنَ، فكلُّ تَميميٍّ وكلُّ قُرَشيٍّ تَجِده يَقول: (ما هذا بَشَرٌ)، وهذا يَقول: (ما هذا بَشَرًا) فكلُّهم قدِ اختَلَطوا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ إِذَنْ: نُعرِب الآنَ (ما) على لُغة قُرَيْش مع أن اللَّفْظ لا يَختَلِف في هذا التَّرْكيبِ؛ لأن بني تميم يَقولون: ما أنت عليهم بوَكيل. وكذلك قُرَيْش.

لكن لعِلْمنا أن القُرآن على لُغَة قُريش نَقول: إن (ما) هنا حِجازية، و(أن) اسمُها، والتاء للخِطاب، والباء حَرْف جرٍّ زائِدٌ، و(وكيل) خبَرُها مَنصوب بفَتْحة

(١) غير منسوب، وانظر: نفح الطيب للمَقَّري التِّلمساني (٥/ ٢٢٧).

مُقدَّرة على آخِره منَع من ظُهورها اشتِغال المَحلِّ بحرَكة حَرْف الجرِّ الزائِد.

فإن قال قائل: قُلْتم: (إن الباء حَرْفُ جرٍّ زائِدٌ) ونحن نَعلَم أن القُرآن الكريم ليس فيه لَغْو، والزيادة لَغْو؟

فالجَواب على هذا أن نَقول: الزيادة لَغْوٌ إذا لم تُفِـدْ مَعنًى، فإن أَفادَت مَعنًى فليسَت لَغْوًا، والمَعنى الذي تُفيده هنا تَوكيد النفيِ، وعلى هذا فليسَت لَغْوًا، بل هي زائِدةٌ لكنا نَقول: (زائِدة لَفْظًا زائِدة مَعنًى)، يَعنِي: تَزيد في المعنَى.

لكن قد يَقول قائِل: كيف (زائِدة زائِدة)؟

نَقول: (زائِدة) الأُولى من (زاد) اللازِم، و(زائِدة) الثانية من (زاد) المُتعَدِّي؛ لأن (زاد) مثل (نقَص) تُستَعمَل لازِمة لا تَتَعدَّى للمَفعـول، وتُستَعمَل مُتَعدِّيـة للمَفعول؛ فالمُتعَدِّية كما قال الله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران:١٧٣]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة:٤]، واللازِمـة كما تَقول: زاد إيمـان الرجُل، وتَقول: نقَص الماء.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر:٤١]، يَعنِي: لستَ عليهم بمُراقِب تُراقِبهم وتُحافِظ عليهم، وإنما ذلك إلى الله تعالى فأنت عليك البلاغُ، والحِسابُ على ربِّ العِباد عَزَّوَجَلَّ.

وقـول المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ مُتعلِّـق بـ(أَنزَل)]، ولم يَقُل: بـ(أَنزَلْنا)؛ لأن العامِل هو الفِعْل، و(نا) اسمٌ بتَقدير الانفِصال عن الفِعْـل، وهذا تعليمٌ من المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإذا أَرَدْتم أن تَقولـوا: هذا مُتعلِّـق فلا تَذكُروا إلَّا العامِل فقط، لا تَذكـروا الفاعِل معه ولا المَفعـول إن كان المَفعـول

مُتَّصِلًا به، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مُتعلِّق بـ(أَنزَل)، ونحن في الحقيقة في إعرابنا للقُرآن نَتجاوَز، ونَقول: في مثل هذا مُتعَلِّق بـ(أَنزَلنا)، وهذا غير مُحرَّر، والصواب: أن تَقول: «مُتعلِّق بـ(أَنزَل)» الذي هو العامِل فقَطْ، دون ما اتَّصَل به من فاعِل أو مَفعول.

وقـال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ اهتِـداؤه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ فتُجبـرهم على الهُدى]، وهذا كقولـه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق:٤٥]، فالرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس بجابِرٍ لهم على الاهتِداء، وليس بمُوكَّلٍ بهم يُحافِظهم ويُحافِظ عليهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيان أن القُـرآن كلام الله تعالى؛ لأن الله تعالى أَنزَله وهو كلام ليس ذاتًا مُعيَّنة كالحـديد الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥]، وكالمَواشِي التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦]، فالقرآن كلام، فإذا كان كلامًا فإنه لا يَكون مَخلوقًا؛ لأن الكلام صِفة المُتكلِّم، والمُتكلِّم به وهو الله هو الأوَّل والآخِر والظاهِر والباطِن.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات عُلـوِّ الله تعالى؛ مَأخوذ من الإنزال، والإنزال لا يَكون إلَّا من عُلوٍّ.

وعُلوُّ الله عَزَّوَجَلَّ دلَّ عليه الكِتاب والسُّنَّة والإِجْماع والعَقْل والفِطْرة:

أمَّا الكِتاب فدَلالته على عُلوِّ الله تعالى مُتَنوِّعة بأنواع كثيرة.

والسُّنَّة كذلك فقَدِ اتَّفقَتِ السُّنَّة القولية والفِعْلية والإِقْرارية على أن الله عَزَّوَجَلَّ عالٍ فوقَ عَرْشه فوقَ خَلْقه.

والإجماع كذلك، فقد أَجمَع السلَف على ذلك، وما منهم من أَحَد قال بخِلافه أبدًا؛ والقاعِـدة في هذا: أنه إذا دَلَّ الكِتاب والسُّنَّة على شيء ولم يُعلَم أن أحَـدًا من السلَف الصحابة والتابعين قال بخِلافه فإنهم لا يَقولون بسِواه، وهذه فائِدة مُهِمَّة؛ يَعنِي: **قد يَقول قائِل**: أين الدليلُ على أن الصحابة يَـرَوْن أن الله تعالى اسْتَـوى على العَرْش أي: علا عليه؟ هل أحَدٌ فسَّره بذلك؟

فنَقول: ما دام قد ثبَـتَ في القُرآن والسُّنَّة ولم يَرِد عنهم خِلافه فهم قد قالوا به؛ لأنهم يَأخُذون بدَلالة القُرآن التي أُمِروا أن يَأخُذوا بها.

إِذَنْ: نَأخُذ من هذا إجماعَ الصحابة على عُلوِّ الله تعالى، وكذلك التابِعون لهم بإحسان، والأئِمَّة من بعدهم، لم يَأتِ حرفٌ واحِـد عن أحدٍ منهم أنه قال بخِلاف ذلك.

والأدِلَّة العَقْلية على عُلوِّ الله عَزَّوَجَلَّ أن يُقال: العُلوُّ إمَّا صِفة نَقْص أو كَمـال، ولا أحَدَ يَشُكُّ أنه صِفة كَمال فوجَب ثُبوته لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الربَّ عَزَّوَجَلَّ قد وجَبَت له صِفاتُ الكَمال عقْلًا.

وأمَّا الفِطرة فإن الناس مَفطورون على أنهم إذا سأَلوا الله تعالى شيئًا إنما تَرتَفِع قلوبهم نحو السماء، وهذا أمرٌ لا يُنكِره أحَد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فضيلة رسـول الله ﷺ حيـث كان إنزال هذا القُرآنِ العَظيم عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن القُرآن نزَل لَمصلَحة الخَلْق؛ لقوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾، فالقُرآن لم يَنزِل ضِدَّ مَصالِح الخَلْق، بل نزَل لَمصالِح الخَلْق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: عُمـوم رسالة النبيِّ ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ ولم يَقُلْ: (لقَوْمك) مثَلًا للناس عمومًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن القُرآن نزَل بالحَـقِّ -على وَجهَي التَّفسير اللَّذَيْن سبقَا- وهو أنه هو حقٌّ وآتٍ بالحَقِّ؛ حقٌّ فيما جاء به حيث كانت أَحكامه عَدْلًا، وأَخباره صِدْقًا، وهو نفسه حَقٌّ، ليس بباطِل.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن القُرآن حُجَّة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الناس يَنقَسِمون نحو هذا القُرآنِ إلى مُهتدٍ وضالٍّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الرَّدُّ على الجَبْرية الذين يَقولون: إن الإنسان مُجبَر على عمَله، ووجهُ ذلك: أنه أَضاف الاهتِداء والضَّلال إلى العبد، فدَلَّ هذا على أنه فِعْله الذي اختار.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: شُؤْم المَعاصي، وأنها تَكون على العَبْد لا له.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: بَركة الاهتِداء، وأنه كَسْب للعبد؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾.

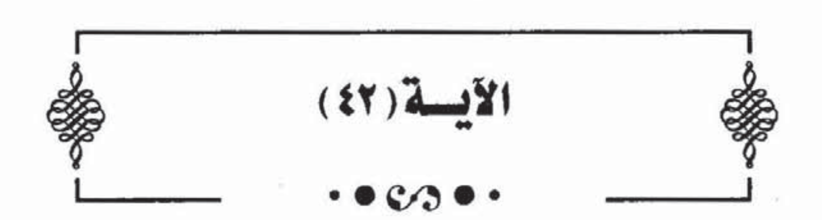
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: تَسلية النبيِّ ﷺ إذا ضَلَّ مَن ضَلَّ من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ فالله تعالى وحدَه هو الوكيلُ عليهم، أمَّا أنت فأنت مُبلِّغ، فإذا قُمْت بواجِب البَلاغ فالحِساب على الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: الردُّ على مَن تَعلَّقوا بالنبيِّ ﷺ خَوْفًا ورَجاءً ورَغبةً ورَهبةً

حتى صاروا يَدْعونه من دون الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن الداعِيَ المُبلِّغ لشـريعة الله تعالى إذا بلَّغ على الوجه الذي أُمِر به فقد بَرِئَت ذِمَّته ولا يَلزَمه شيءٌ وراءَ ذلك، ووجهُ الدَّلالة منها: أنه إذا كان إمام الداعين المُبلِّغين مُحمَّد ﷺ ليس وَكيلًا على الناس ولا حَفيظًا عليهم فمَن دونَه من بابِ أَوْلى.

• ● ۞ ● •



الآية (٤٢)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٤٢].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾: ﴿ٱللَّهُ﴾ مُبتَدَأ، وجُملة ﴿يَتَوَفَّى﴾ خبَرُه.

والتَّوفِّي بمَعنى القَبْض كما يُقال: تَوفَّى الرجُل حقَّه من قَرينه. أي: قبَضَه منه.

و﴿ٱلْأَنفُسَ﴾ جَمْع نَفْس، وهي الأَرْواح: الأَرْواح التي بها تَحيا الأجساد، والنَّفْس تُطلَق في القُرآن على مَعانٍ مُتَعدِّدة؛ منها هذا: أنها الرُّوح التي بها حياة الإنسان، فهو يَقبِض الأرواح حين موتها، أي: حين الموت، وهي مُفارَقة الروح للحياة مُفارَقة الروح للبدَن المُفارَقة التي تَزول بها الحياة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾: ﴿وَٱلَّتِى﴾ الواو حرف عَطْف و(التي) مَعطوفة على ﴿ٱلْأَنفُسَ﴾ يَعنِي: ويَتوفَّى التي لم تَمُتْ، ولك الخِيار في مثل هذا التَّركيبِ أن تَقول: الواو حَرْف عَطْف، و(الَّتِي) صِفة لمَعطوفٍ على ما سبَق، وتَقديرُه: والأنفس التي لم تَمُتْ، ولك أن تَعطِف الصفة رأسًا على ما سبَق فتقول: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ عطفٌ على الأَنْفس حين موتها والتي لم تَمُتْ يَتوفَّاها في مَنامها،

أي: يَقبِضها، لكنه ليس قَبْضًا تامًّا، بل قَبضٌ مُقيَّد.

ولهذا تَجِد النائِمَ له إحساسٌ من وجهٍ، وليس له إحساس من وجهٍ آخَرَ، فباعتِبار القُوَّة الظاهِرة لا إحساسَ له، لا يَرَى ولا يَسمَع، وباعتِبار القوَّة الباطِنة، وأنه لو نُبِّه وانتبَه يكون حيًّا، فصِلَة الرُّوح بالنائِم غير صِلَتها بالحَيِّ باليَقظان، وغير صِلَتها بالميت، فهي وسَط بين الحيِّ اليَقْظان وبين الميت.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾، وقد سمَّى الله تعالى النومَ وَفاةً، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [الأنعام:٦٠].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، ويتوفَّى ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾] فهو هنا قَدَّر الفِعْل بعد حَرْف العَطْف إشارةً إلى أنه مَعطوف على ما كان هذا عامِله؛ والذي هذا عامِله هو: ﴿الْأَنْفُسَ﴾، ويَتوفَّى الأنفُس التي لم تمُتْ في مَنامها، أي: يَتوفَّاها وقتَ النوم، فيَتبيَّن بهذا أن النومَ وَفاة.

وقوله تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يُمسِك التي قَضَى عليها الموت فلا تَرجِع إلى جسَدها يُمسِكها إلى أن يَأتِيَ البَعْث.

وقوله تعالى: ﴿قَضَى﴾ أي: حكَم كقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، أي: حَكَم أَلَّا تَعبُدوا إلَّا إيَّاه؛ والقضاء هنا قَضاءٌ كَوْنيٌّ، وأَقول: قَضاءٌ كونيٌّ؛ لأن قَضاء الله تعالى يَنقَسِم إلى قِسْمَيْن: شَرْعي وكَوْني.

فالشَّرْعيُّ ما أَمَر به مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، ومثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ [غافر:٢٠]، أي: يَحكُم به.

والقَضاء الكَونيُّ مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:٤]، فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يَقضِي بالفَساد في الأرض قضاءً شرعيًّا، إنما هو قَضاءٌ كونيٌّ، وهنا يَقول تعالى: ﴿قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾، أي: قضاءً كونيًّا.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ وهي التي تَوفَّاها في مَنامها يُرسِلها إلى أجلٍ مُسمًّى، أي: إلى أجلٍ مُعيَّن وهو الموت، يَعنِي: يُرسِلها تَذهَب إلى جسَدها وتَبقَى فيه إلى أَجلٍ مُسمًّى، أي: مُعيَّنٍ مُحدَّد.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وقت مَوْتها] هذا الأجَلُ المُسمَّى، [والمُرسَلة: نفس التَّمييز تبقَى بدونها نَفْس الحياة، بخِلاف العَكْس]، كأن المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول: إن الأنفس نَوْعان: نَفْس تَمييز، ونَفْس حَياة؛ فنَفْس التَّمييز هي المُرسَلة: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وتَبقَى بدونها الحَياة، فالنائِم في حياةٍ لا شَكَّ، فنَفْس التَّمييز تَبقَى بعدَها الحياة، والعَكْس لا؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بخِلافِ العَكْس]، فإن نَفْس الحياة إذا قُبِضت لا تَبقَى بعدها نَفْس التَّمييز، فأَفادَنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الأَنْفسَ في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أَنفُسُ الحياة ويَتبَعها أنفُس تَمييز، قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أي: أَنفُس التَّمييز.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ يَعنِي: الوفاة للنَّفْسين، والإِرْسال لإحداهما وإِمْساك الأخرى فيه آيات، والآيات التي معَنا واضِحة جِدًّا، وهي أربعة: وَفاة المـوت، ووفاة النَّوْم، وإمساك المَيْتة، وإرسال النائِمة؛ وكلها من آيات الله عَزَّوَجَلَّ، وإنك لتَأتي إلى القوم جماعةً نائِمين

فتَقول: سُبحان الله ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قوم كأنهم جُثَث لا يَسمَعون، اللهُمَّ إلَّا مَن كان خفيفَ النَّوْم، لكن الأَصْل أنهم في النَّوْم جُثَث فتَقول: سُبحان الذي أَماتَهم، ثُم أَحياهم بعد أن كانوا شِبهَ أموات، فهي آيات، وهي آيةٌ أيضًا على البَعْث، فإن النوم وفاةٌ صُغرى يَبعَث الله تعالى فيه النائِم حتى يَحيا يَستَيْقِظ تمامًا، كذلك الإحياء بعد الموت يَقيه الله عَزَّوَجَلَّ وهو قادِرٌ عليه، والعاقِل يَقيس الغائِب على الشاهِد والمُستَقبَل على الحاضِر ويَتبيَّن له الأَمْر.

وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ التَّفكُّر إِعْمال الفِكْر بحيث يَدور كارًّا وراجِعًا، يمينًا وشِمالًا حتى يَتبيَّن له ما يَتبيَّن بتفكُّر، وضِدُّ التَّفكُّر الغَفْلة، وأن يَكون القَلْب حجَرًا أَملَسَ لا يَقَرُّ عليه شيء، فلو قَرَّ عليه حَبَّةٌ من تُراب أَطارَتْها الرياح وجرَت بها المياهُ، فالإنسان المُتفكِّر هو الذي ليس بغافِل، بل يُدير فِكْره يَمينًا وشِمالًا، ذاهِبًا وراجِعًا حتى يَتبيَّن له الأمر.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المَذكور ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ دَلالات ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيَعلَمون أن القادِر على ذلك قادِرٌ على البَعْث، وقُرَيْشٌ لم يَتفكَّروا في ذلك] نعَمْ، في هذا المَذكورِ آيات، ونحن ذكَرْنا أربَعًا ظاهِرةً، ولو تَأمَّلنا لوجَدْنا أكثَرَ من ذلك بكثير، ولكنها تَحتاج إلى تَفكير وتَدبُّر وتَأمُّل فتَتَّضِح.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيان قوَّة سُلطان الله عَزَّوَجَلَّ وعُمومه؛ تُؤخَذ من كونه يَتصرَّف هذا التَّصرُّفَ حتى في الأَنْفس يَتوَفَّاها جميعًا فيُرسِل هذه ويُمسِك هذه، وهذا دليلٌ على كَمال المُلْك والسُّلْطان.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن المُتوفِّيَ للأنفُس حين موتها هو الله عَزَّوَجَلَّ؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾، وهذا هو الواقِع، وهذا هو ما تَدُلُّ عليه الآية، ولكِنَّ هذه الدَّلالةَ ربما يُعارِضها بعض الآيات في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة:١١]، فنَجِد أنه في آية الزُّمَر أَضاف الوفاة إلى نَفْسه عَزَّوَجَلَّ، وفي آية السَّجْدة إلى مَلَك المَوْت، وفي سورة الأنعام إلى الرسول ﷺ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾؛ فكيف نَجمَع بين هذه الآياتِ؟

فالجَوابُ على ذلك أن نَقول: يَجِب أن نَعلَم قاعِدة مُهِمَّة جِدًّا هو أنه لا يُمكِن أن يَتعارَض دَليلانِ قَطعِيَّان أبدًا، لا من القُرآن ولا من السُّنَّة ولا من العَقْل أبدًا؛ لأنهما لو تَعارَضا لكان أحدُهما ثابِتًا والآخَرُ مُنتفيًا، وإذا قُلنا: الآخَرُ مُنتَفٍ زال عنه اسمُ القَطْعيِّ.

وهذه القاعِدةُ تُفيدك في مَسائِلَ كثيرةٍ؛ فمثَلًا لو قال لك قائِل: القرآن يَدُلُّ على كذا، ثُم ثبَتَ حِسًّا أن الأمر الواقِعَ على خِلاف هذا المَدلولِ، فالأمر الحِسِّيُّ تَكذيبه غير مُمكِن، لكن نَقول: إن فَهْمك للقرآن هذا خطَأٌ، فمثَلًا لو قال: ليسَتِ الأرض كُروية؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:٢٠]، واعتِقاد أنها كُروية يُكذِّب هذه، ودَلالة القُرآن قَطعيَّةُ الثُّبوت، وقَطعيُّ الثُّبوت يَعنِي: ثابِت قَطْعًا لا إِشكالَ فيه، والله تعالى يَقول: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، وكُروية الأرض حِسًّا ثابِتة قَطْعًا لا شَكَّ فيه وحِسًّا، فمثَلًا الآنَ لو تَقوم طائِرة من مطار جُدَّةَ مُتَّجِهة نحو الغَرْب على خَطٍّ مُستَقيم رجَعَت إلى مَطارها لا يَرُدُّها شيء إِذَنْ هي كُروِيَّة لا إِشكالَ فيها.

ونَقول الآيـة لَفْظها قَطعيٌّ ثابِـت، لكن دَلالتها على أنها سَطحٌ واحِد ليـس بصحيح وليسـت بصَريحة، وإذا لم تَكُن الدَّلالة صريحة فهي غيـر قَطعية، وحَينئـذٍ نَقول: التَّعارُض الآنَ بين مَدلولٍ ظَنِّيٍّ ومَحسوسٍ قَطعيٍّ، فالمَدلول الظَّنِّيُّ أن الآية تَدُلُّ على أن الأرض سَطحٌ واحِد، والمَحسوس القَطعيُّ أن الأرض كُروية، نَقول: الحَمْد لله تعالى التَّعارُض الآنَ بين ظَنِّيٍّ وقَطْعيٍّ، وإذا تَعارَض ظَنِّيٌّ وقَطْعيٌّ يُقدَّم القَطعيُّ، ونَقول: سَـطْح الأرض باعتِبار القِطعة المُواجِهة أو الجانِـب المُواجِه من الأرض سَطْح، لكن على البُعْد يَكون فيه انحِناءٌ.

والدَّليل على ذلك: أنه لو كانـت سَفينة تَسير في البحر ولها أَعمِدة طويلة إذا أَبعَدَتْ عنك كلَّمـا أَبعَدَتِ اختَفَت غابَـت أكثر؛ لأن الأرض مُستَديرة فتَغيـب، ولو كانـت سَطْحًا لكُنتَ تَراها، فتَـراها من بُعْد كمـا تَراها من قُرب على السَّطْح، والأمر ظاهِر ليس فيه إشكال.

والخُلاصةُ الآنَ: أنه لا يُمكِن أن يَتعارَض دَليلانِ قَطْعيَّان في الثُّبوت والدَّلالة، ولا يُمكِن أن يَتعارَض قَطعيٌّ وظَنِّيٌّ؛ ومِثال ذلك: كم يَبقَى الناس في بُطون أُمَّهاتهم؟ الإجابة ستكون: تِسعة أَشهُر؛ فإذا قُلْت: أَعطوني تِسعَ دقائِقَ. فهل يُمكِن؟ لا يُمكِن؛ لأن الظَّنِّيَّ لا يُقاوِم القَطعيَّ، وإذا لم يُقاوِمه سقَط، فلا مُعارَضةَ، فيَبقَى الآنَ التَّعارُض بين الظَّنِّيَّيْن فقط، وإذا وُجِد تَعارُض بين ظَنِّيَّيْن حينئذٍ أَطلُب الترجيح، أو إذا كان النَّسْخ يُمكِن فأَعمَلُ بالنَّسْخ.

وهذه القاعِدةُ ذكَرها شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتابه العظيمِ (درء تَعارُض العقل والنقل)[1]، وهذا الكِتاب أَثنَى عليه ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النُّونية، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٧٤).

وَلَهُ كِتَابُ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ الَّذِي مَا فِي الْوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانِي[1]

يَعنِي: ممَّا يَرُدُّ به على الفلاسِفة هذا الكتابُ، وقد ذكَر فيه هذه القاعِدةَ المُفيدةَ، وهي أن التَّعارُض بين قَطعيَّيْن مُحال؛ لأنه لو حصَل التَّعارُض لكان أحدُهما غيرَ قطعيٍّ، وهذا لا يُمكِن؛ أمَّا التَّعارُض بين القَطعيِّ والظَّنيِّ فوارِد، لكن بلا مُقاوَمةٍ، يَعنِي: أن نُسقِط التَّعارُض، ونَقول: الحُكْم للقَطْعيِّ، أمَّا التَّعارُض بين الظَّنِّيَّيْن فواقِع، ويَجِب النظَر إليه والعمَل بالترجيح، أو العمَل بالنَّسْخ إذا كان ممَّا يُمكِن نَسْخه.

وبعد فهذه خُلاصة: الجَمْع بين الوفاة المُضافة إلى الله تعالى والوفاة المُضافة إلى الرُّسُل والمُضافة إلى مَلَك الموت، وكما قُلنا: لا تَعارُضَ، فالدَّلالة تَختلِف، ففي هذه الآياتُ في سورة الزُّمَر أَضاف الله تعالى الوفاة إليه؛ لأنها بأَمْره، وقد يُضاف الشيء إلى آخَرَ؛ لوقوعه بأَمْره، كما تَقول: بنَى المَلِك قَصرًا. فهلِ المَلِك رأَيْته يَعمَل بأيديه الأسمنت والرَّمْل ويَقول: (يا ولدُ هاتِ (الزِّنبيلَ)[2]، وهات كذا، وهات كذا)؟ الجَوابُ: لا، ولكنه أَمَرَ، ومنه المَثَل المَشهور في البلاغة: (بنَى عمرُو بن العاصِ مَدينة الفِسطاط) وهي تَقَع في مِصرَ، فهل عمرُو بنُ العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بناها بيَده؟ **الجَوابُ**: لا، بل أمَرَ، إِذَنْ فإضافة الوفاة إلى الله تعالى؛ لأنها بأَمْره إضافة.

وبَقِيَ عندنا الآنَ: إضافتها إلى ملَكِ الموت وإلى الرُّسُل فكيف الجَمْع؟

والجَمْع أن نَقول:

١ - إمَّا أن الرُّسُل يُراد بها الجِنْس ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام:٦١] يَعنِي: ملَك الموت؛

(١) النونية (ص٢٣٠).

(٢) وهو ما يُعمل من الخوص وغيره يحمل فيه التمر وغيره.

لأن ملَك الموت رَسولٌ، ومنه الحديث: «يُوشِكَ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ»[١].

٢- أو نَقول: إن وفاة ملَك الموت غير وفاة الرُّسُل، وذلك لما جاء في الحديث من أن ملَك الموت يَجلِس إلى المُحتَضَر ويَأمُر رُوحه أن تَخرُج، فيَأخُذها بيَدِه، ثُم يُسلِمها فورًا إلى المَلائِكة الذين نزَلوا من السماء معَهم الحَنوط والكفَن المُناسِب لها إن كانت مُؤمِنة -وأسأَل الله تعالى أن يَجعَل رُوحي وأَرْواحَكم مُؤمِنة-، فإنها تُجعَل في الكفَن الذي من الجَنَّة والحَنوط الذي من الجَنَّة، وإن كانتِ الأُخرى فكَفَنٌ من نار وحَنوطٌ من نار[٢]، نَعوذ بالله تعالى من ذلك؛ فهذا الكفَنُ والصعود بها إلى السماء تَتولَّاه الملائِكة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦١-٦٢]، تَحمِلها إلى الله عَزَّوَجَلَّ إن كانت مُؤمِنة تَجاوَز بها السمواتِ إلى الله تعالى؛ لأن الله تعالى غاية نَفْس المُؤمِن في الحياة وبعد المَمات، والمُؤمِن -قَلْبه ونَفْسه- مُعلَّقٌ بالله عَزَّوَجَلَّ، دائِمًا يَنظُر إلى الله عَزَّوَجَلَّ بعَيْن البَصيرة، إن قام فبالله ولله وفي الله، وإن قعَد فبالله ولله وفي الله، وكذلك إن ذهَب وجاء فهو لله وبالله وفي الله.

والتَّفريق بين هذه الكلِماتِ الثلاثة (فهو لله وبالله وفي الله) سَهْل وهو أن لله أي: لأَجْل الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الإخلاص، وبالله يَعنِي: بعَوْن الله، وهي الاستِعانة، وفي الله أي: في سبيل الله، أي: في شَرْعه وحُكْمه كذا، وانظُرْ إلى الفاتِحة تَضمَّنَتِ الثلاثَ بالتَّسلسُل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فهذا لله إخلاص، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بالله، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ في الله، ففي الشَّرْع أن نكون في الصِّراط المُستَقيم.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، رقم (٢٤٠٨)، من حديث زيد بن أرقم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٧)، من حديث البراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن النَّوْم يُسمَّى وفاةً؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ ويَشهَد لذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الوقت يَذهَب سريعًا بالنسبة للأموات ولو طالتِ الأيام والدُّهور؛ لأننا إذا قِسْنا الوفاة الصُّغرى أو إذا نظَرْنا الوفاة الصغرى وسُرْعة ذَهاب الوقت فيها فالوَفاة الكبرى من بابِ أَوْلى، ولكن لا شَكَّ أن مَن كان يُعذَّب في قَبْره فسوف يَستَطيل الوقت، ومَن كان يُنعَّم فسوف يَكون الوقت في حقِّه قَصيرًا، ومع ذلك فإن المُنعَّم يَقول: ربِّ أَقِمِ الساعة، ربِّ أَقِمِ الساعة حتى أَرجِع إلى أهلي ومالي. والمُعذَّب يَقول: ربِّ لا تُقِمِ الساعةَ، وذلك لأنه يَرَى عذاب القبر أَهونَ من عذاب يوم القيامة، نَسأَل الله تعالى العافيةَ!.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن النائِم لا يُؤاخَذ بعمله، لا له ولا عليه؛ لأن الله تعالى سمَّى النَّوْم وفاةً، وقد قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ**»(١). وعلى هذا فلو رأَى النائِمُ أنه يُصلِّي فهل يُكتَب له أجر الصلاة؟ لا، ولو رأَى أنه يَقتُل لم يُكتَب عليه إِثْم القَتْل؛ لأنه غير مُكلَّف.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات وصف الله تعالى بالإمساك والإرسال فهو يُمسِك ويُرسِل.

وقد بيَّنَّا فيما سبَق أن صِفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ تَنقَسِم أقسامًا:

أحدُها: ما عُلِم من أسمائه كالمَغفِرة من الغَفور، والرَّحمة من الرَّحيم.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والثَّاني: ما نصَّ عليه بذاتِه وليسَ مِن الأسماءِ مِثل الاستِواء على العَرْش، فهذا نصَّ عليه، لكنه ليس من أسمائه، بل صِفَة، إذْ إنه ليس من أسمائه ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، ومِثْله الصُّنْع كما في قوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]، ومثله الفِعْل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] وما أَشْبَهها.

الثالِث: ما يُخبَر به عنه، وإن لم يُذكَر في الكِتاب والسُّنَّة، لكن يُخبَر به عنه، فهذا أيضًا يَقول العلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: يَنقَسِم إلى قِسْمين:

قِسْمٌ لا يَليق بالله تعالى فهذا لا يجوز الخبَر به عنه.

وقِسْمٌ لا يُنافِي كماله، فهذا لا بأسَ به؛ لأن باب الخبَر أَوْسَع من باب الإِنْشاء.

فمثَلًا: لو قال قائِل: إن الله تعالى مُريد.

قُلْنا: نعَمْ لك أن تَصِف الله تعالى به:

أوَّلًا: لأن الله تعالى وصَف نَفْسه بالإرادة في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ [يس:٨٢].

وثانيًا: أن الإرادة وَصْف لا يُنافي كمالُه كمالَ الله عَزَّوَجَلَّ.

فائِدة: العَجيب أن أكثَرَ ما يَستَنصِر به بعض الناس كلِمة (الله مَوْجود)، فإذا اعتَدى عليه أحَدٌ قال: الله مَوجود. ومثلها قولهم: (يا ساتِرُ)، و(الله مَوْجود)، فهذا ممَّا لا يُنصَر، لكن قولنا: (اللهُ حكَم عَدْل) هذا هو الذي يُنصَر، وإلَّا مثلًا لو قلتَ: السُّلْطان موجود. فهل يَنصُرُك؟

الجَوابُ: أنه قد يَنصُرك وقد لا يَنصُرك، فكلِمة مَوْجود لا تَعنِي النَّصر؛ ولذلك نحن نَقول لبعض الناس: انتَبِهْ لهذه الكلِمةِ لا تَقُلِ: (الله مَوْجود) قلِ: (الله حكَمٌ

عَدْل)، (الله غير غافِلٍ عمَّا تَعمَل)، (اللهُ يَنتَقِم من الظالِمِ)، وما أَشبَه ذلك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: كمال أفعال الله تعالى حيث إنها تكون مُنتَظِمة مُحدَّدة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنه لا يُمكِن أن يُخلَّد أحَدٌ في الدنيا، وهذه تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مُحدَّد لا إلى شيء لا غايةَ له.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن هذا الحاصِلَ من الوفاتين فيه آياتٌ تَدُلُّ على كمال الله تعالى كمال وَحْدانِيَّته، وكمال سُلطانه، وكَمال تَدبيره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الحَثُّ على التَّفكُّر، وأنه مِفتاح العِلْم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ﴾ لمَن؟ الجوابُ: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

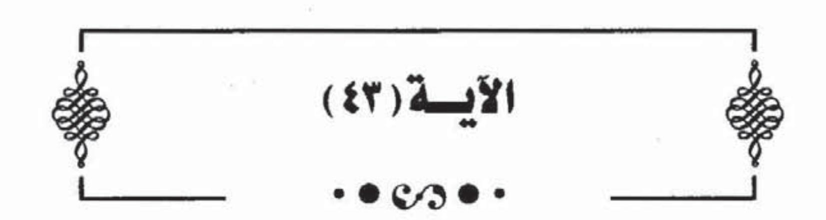
والتَّفكُّر إنما يَكون في آياتِ الله تعالى ومَعاني أسمائه وصِفاته، أمَّا في حقيقة الصِّفات أو في حقيقة الذات فلا تَتفكَّر؛ ولهذا يُروَى: «**تَفكَّروا في آلاءِ الله**» أي: نِعَمِه «**وَلَا تَتَفكَّروا في ذاتِهِ**»[1]، وذلك لأن التَّفكُّر في ذات الله تعالى يُؤدِّي إلى غَياهِبَ من الظُّلْم، ويُؤدِّي أحيانًا إلى التَّشكيك، وأحيانًا إلى التَّعطيل، وهذا هو الذي ضَرَّ أهل التَّعطيل -أَعنِي: التَّفكُّر في الذات-؛ لأن الذات لا يُمكِن الإحاطة بها، وما لا يُمكِن الإحاطة به فالتَّفكير فيه مَضيَعة للوقت، وهو في جانِب الربوبية خَطير على عقيدة الإنسان، فأنت تُفكِّر في آيات الله تعالى، وفي أسمائه، وفي صِفاته من حيث المَعنَى،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٧/ ٢٢١٩)، وأبو الشيخ في العظمة رقم (١)، والطبراني في الأوسط رقم (٦٣١٩)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة رقم (٩٢٧)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (١١٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أمَّا في نَفْس الذات العَلِيَّة فلا تَستَطيع أن تُفكِّر ولا ماذا تَتَصوَّر؛ ولهذا يَجِب الإعراض عن هذه المَسأَلةِ.

•●۞●•



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر:٤٣].

•●◦◦●•

ثُمَّ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾: ﴿أَمِ﴾ هنا مُنقَطِعة؛ ولهذا تُقدَّر بـ(بل) والهَمْزة أي: أنها بمَعنَى: (بل) والهَمْزة.

وقولنا: (مُنقَطِعة) يُفيد أن هناك مُقابِلًا لهذا المَعنَى وهو كذلك، والمُقابِل لهذا المَعنَى أن تكون مُتَّصِلة، وحينئذٍ نَحتاج إلى الفَرْق بين المُنقَطِعة والمُتَّصِلة، والفرق بينهما من وجهين:

الفَرْق الأوَّل: أن (أَم) المُنقَطِعة لا مُعادِلَ فيها، بمعنَى أنه لا يُذكَر فيها مُعادِل، بخِلاف (أَم) المُتَّصِلة فإنها تَحتاج إلى مُعادِل، فقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة:٦]، هذه مُتَّصِلة لذِكْر المُعادِل ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾، وأمَّا قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور:٣٣]، فهذه مُنقَطِعة؛ لأنها بمَعنَى: بل أيَقولون؛ لأنه لم يُذكَر فيها المُعادِل فتكون مُنقَطِعة.

الفَرْق الثاني بينهما: أن (أَم) المُتَّصِلة بمَعنى (أَوْ)، و(أَم) المُنقَطِعة بمَعنَى (بل) والهَمزة ففي قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ لو جعَل بعدَها (أَوْ)

لكان المَعنَى: أَنذَرْتهم أو لم تُنذِرْهم، فالمُنقَطِعة أي: بمَعنَى (بل) والهمزة، وليسَتْ بمعنى (أو).

ونُطبِّق هذا الفَرْقَ على ما معَنا ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾ تكون مُنقَطِعة؛ أوَّلًا: لأنه لم يُذكَر المُعادِل. وثانيًا: لأنها تُقدَّر بـ(بل) والهمزة، فقوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: سِواه، (دون) بمَعنَى (سِوى)؛ لا بمَعنَى دون الرُّتبة، بل (مِن دون الله) أي: (مِن سِوى الله).

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ هنا تَنصِب مَفعولين: الأوَّل: ﴿شُفَعَآءَ﴾، والثاني: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يَعنِي: اتَّخذوا من دون الله تعالى آلهةً شُفَعاءَ، ويَجوز أن نَقول: إن المَفعول الأوَّل مَحذوف تَقديرُه: آلهة، والثاني: ﴿شُفَعَآءَ﴾، يَعنِي: أنهم اتَّخذوا مَعبوداتٍ يَعبُدونها يَدَّعون أنها شُفعاءُ لهم عند الله تعالى، قال الله تعالى عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، فصرَّحوا بأنهم يَعبُدون هذه الآلهةَ، ولكنهم يُريدون أن تكون مُقرِّبةً لهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وسُبحان الله! كيفَ تَتَّخِذ بمَن عصَيْت اللهَ فيهم وَسيلةً ليُقرِّبوك إلى الله! وهذا من سَفَههم؛ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: الأصنام آلهة ﴿شُفَعَآءَ﴾ عند الله بزَعْمهم]، والشُّفَعاء جَمْع شَفيع، والشَّفيع مَن يَتوسَّط لغيره بجَلْب مَنفَعة أو دَفْع مَضرَّة، فالشَّفاعة لأهل المَوقِف إذا أَصابَهم الهمُّ والغَمُّ أن يَقضِيَ الله تعالى بينهم من باب دَفْع المَضرَّة، والشفاعة لأهل الجَنَّة أن يَدخُلوها من باب جَلْب المَنفَعة.

فالشفاعة هي أن تَتوسَّط لغيرك بجَلْب مَنفعة أو دَفْع مَضرَّة، وهي لا شَكَّ أنها خير، قال تَعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ [النساء:٨٥] إلَّا في بعض المَواطِن كالشفاعة في الحَدِّ بعد أن يَصِل إلى السُّلْطان، فإن مَن حالت شفاعته

دون حَدٍّ من حُدود الله فقد ضادَّ الله تعالى في أَمْره، وإذا بلَغتِ الحُدود السُّلْطان فلَعَن الله تعالى الشافِعَ والمُشفوع له، هؤلاء الجماعة الذين يَعبُدون الأصنام يَقولون: إنها شُفَعاءُ.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يَعنِي: أَتتَّخِذونهم شُفَعاءَ، وهم لا يَملِكون شيئًا لا شفاعةً ولا غير شفاعة، وهنا قال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ و(شيئًا) نكِرة في سِياق النفيِ، فتكون للعُموم، وكان مُقتَضى السِّياق أن يَقول: أَوَلَوْ كانوا لا يَملِكون الشفاعة، ولكنه أَتى بالعُموم ليَدُلَّ على أن هذه الأصنامَ لا تُفيد شيئًا أبَدًا لا تَشفَع ولا تَدفَع، وهي قد سُلِبت الشفاعة لدُخولها في العُموم، يَعنِي: لا يَملِكون الشفاعة ولا غيرها.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانُواْ﴾ فيها حَرْف عطفٍ بعد الهَمزة وقد ذكَرْنا مِرارًا ما يَقوله عُلماءُ النَّحو رَحِمَهُمُ اللَّهُ في مثل هذا التركيبِ وهو أنه إذا جاء حرف العَطْف بعد همزة الاستِفْهام يَقول علماءُ النَّحو رَحِمَهُمُ اللَّهُ: في إعرابه وَجْهان:

الوَجْه الأَوَّل: أن تكون الجُمْلة مَعطوفة، يَعنِي: الواو عاطِفة على الجُملة وتكون مُقدَّرة.

الوجه الثاني: أو تكون الهَمْزة في مَكانها، وحَرف العَطْف على شيء مُقدَّر يُناسِب المَقام.

وذكَرْنا أن الثانيَ رَأْي البَصْرِيِّين، والأوَّل رأيُ الكوفيين، وذكَرْنا أن القول بأن حَرْف العَطْف عاطِفٌ على ما سبَق أَوْلى؛ لأنه يَكفيك التَّقديرَ؛ ولأنه أحيانًا لا يَستَطيع الإنسان أن يُقدِّر الشيء المُناسِب، فإذا قال: الهَمزة حَرْف عَطْف، الهَمْزة للاستِفهام، والواو حَرْف عَطْف وما بعدها مَعطوفٌ على ما سبَق استَراح.

فقوله هنا: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ على رأيِ مَن يَرى أن حرف العَطْف على مُقدَّر يَقول: أيَتَّخِذونهم شُفَعاءَ ولو كانوا لا يَملكون؛ وعلى الرأيِ الثاني يَقول: الواو حَرْف عَطْف والمعطوف عليه ما سبَق من الجُملة ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يَعنِي: لا يَعقِلون أنكم تَعبُدونها، فالأصنام أحجار لا تَدرِي، ولا يَعقِلون أيضًا شيئًا من الشفاعة يَدخُلون منه، فهُمْ جهَلة في حالِكم، وجهَلة فيما تَستَحِقُّون.

فقوله الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمِ﴾ بل] لكنَّنا لا نَقرَؤُها: (أَتَّخذُوا) بهَمْزة القَطْع؛ لأن القرآن ليستِ الهَمزة فيه هَمْزة قَطْع، لكن لو كان التَّرْكيب في غير القُرآن لقُلْنا: (بلِ اتَّخذوا من دونه)، وإذا قُلنا: (أَتَّخذوا) سيَسأَل سائِل: أين ذهَبَت هَمْزة الوَصْل في (اتَّخذوا)؟ فنَقول: لأنه لمَّا دخَلَت هَمْزة القَطْع على الفِعْل استَغْنَيْنا بها عن هَمْزة الوَصْل؛ لأن هَمزة الوَصْل إنما يُؤتَى بها لسُهولة البَدْء بالساكِن، فإذا لم نَبدَأ به وبدَأْنا بهَمْزة قَطْع استَغْنَيْنا عنها وحذَفناها، قال تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ [الصافات:١٥٣]، فكلِمة: ﴿أَصْطَفَى﴾ هذه أَصلُها: (اصطَفَى) دخَلت عليها الهَمزة، فلمَّا دخَلَت عليها الهمزة صِرْنا في غِنًى عن همزة الوَصْل؛ لأن همزة الوَصْل يُؤتَى بها للضَّرورة؛ ولهذا سُمِّيَت: همزة وَصْل يُؤتَى بها للضرورة؛ لئلا نَبتَدِئ بالساكن، فإذا زالَتْ هذه الضرورةُ سقَطَتْ.

ثُم قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أيِ: الأصنامَ آلِهةً ﴿شُفَعَآءَ﴾ عند الله بزَعْمهم] يَعنِي: هم صَيَّروا هذه الأصنامَ آلِهة تَشفَع لهم عند الله تعالى.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بزَعْمهم] يَعنِي: لا بحسَب الواقِع؛ لأن هذه الأصنامَ لا تَشفَع لهم، بل إنه في يوم القِيامة يَكفُر مَنِ اتَّخذ إلهًا مع الله تعالى بعِبادة مَن عبَده،

وهذا كلام صحيح نَأْخُذه من قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٥-٦]، وكذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ [فاطر:١٤]، بل حتى الذين اتَّخذوا غير الرُّسُل اتَّخذوهم مَتبوعين من أهل الضَّلال يَتبَرَّؤُون منهم ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾ [البقرة:١٦٦].

فانظُرْ في القُرآن كُفْر مَن جعَلوا شُرَكاءَ في الرِّسالة، وكُفْر مَن جعَلوا شُرَكاء في العِبادة، لأن كلًّا منهم لم يُحقِّق شهادة أن لا إلهَ إلَّا الله، وأن محمدًا رسول الله، فالذين اتَّخذوا شُرَكاءَ في العبادة قال الله عنهم: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ [فاطر:١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٦]، والذين اتَّخذوا شُركاءَ في الرسالة قال الله تعالى عنهم: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾؛ لأن المُتابَعة لغير الرُّسُل والمُعارَضة لأقوال الرُّسُل شِرْك مع الرُّسُل في الرسالة؛ لأن الذي يَجِب اتِّباعه من البَشَر همُ الرُّسُل، فإذا جعَل هذا الرجُلُ مَتبوعه بمَنزِلة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيأخُذ بقوله فِعْلًا وتَرْكًا وتَصديقًا، فقد جعَله رَسولًا.

ولهذا بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يقول: إن التوحيد نوعان: تَوْحيد عِبادة، وتَوْحيد رِسالة؛ فتَوْحيد عِبادة فيما يَتعلَّق بحقِّ الله تعالى، وتَوْحيد رِسالة فيما يَتعلَّق بحقِّ الرسول ﷺ، والله تعالى يَقرُن بين هذا وهذا في القُرآن، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [المؤمنون:٦٨-٦٩].

فالحاصِلُ: أن هؤلاء الذين اتَّخذوا شُفَعاءَ قد ضَلُّوا ضلالًا مُبينًا؛ لأنها لا تَنفَعهم، قال الله تعالى لنبيِّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا

﴿وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيَشْفَعون ولو كانوا] المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ مشَى في هذا التَّفسيرِ على أحَد الرَّأْيَيْن المَشهورَيْن فيما إذا دخَلَت همزة الاستِفهام على حَرْف العَطْف، وهُما وَجْهان:

الوجهُ الأوَّل: أن يَكون العَطْف على ما سبَقَ، وعلى هذا يَكون تَقديرُ الهمزة بعد حَرْف العَطْف.

والوجه الثاني: أن العَطْف على جُمْلة مُقدَّرة يَكون تَقديرُها حسَب السِّياق.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ مشَى على الثاني؛ لأنه قَدَّر المعطوف عليه بين الهَمْزة وحَرْف العَطْف [أَيَشْفَعون ولو كانوا لا يَملِكون شيئًا ولا يَعقِلون] فلا يَملِكون شيئًا من الشَّفاعة وغيرِها، ولا يَعقِلون أنكم تَعبُدونهم ولا غير ذلك؟

والجَوابُ: لا، فهذه لا تَشفَع؛ لأنها لا تَعقِل، ولا تَملِك فهي لا تَعقِل عِبادة مَن عبَدها، ولا تَملِك له شيئًا لا شَفاعةَ ولا غيرَها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الإنكار على مَن عبَد الأصنام واتَّخَذها شُفَعاءَ، ونَأخُذ الإنكار من الهَمْزة التي تَضمَّنَتها، أم لأن (أَمْ) بمَعنَى (بَلْ) والهَمزة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الخَطأ الفَظيع في هؤلاءِ المُشرِكين حيث عبَدوا الأصنام وظَنُّوها شُفَعاءَ مع أنها لا تَزيدهم من الله تعالى إلَّا بُعدًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إقامة الحُجَّة العَقلية في مُجادَلة الخَصْم وهي قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾، فإذا كانوا لا يَملِكون شيئًا فكيف تَتَّخِذونهم شُفَعاءَ وتَعبُدونهم من دون الله تعالى.

واعلَمْ أن الأدِلَّة العَقْلية نَحتاج إليها حاجةً ماسَّةً إذا ضعُف الإيمـان، فكلَّما ضعُف الإيمان احتَجْنا إلى الأدِلَّة العَقْلية، وذلك لأن المُؤمِن يَكفيه النَّقْل، أي: يَكفيه السَّمْع، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]، واحتَجَّتْ عائِشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على التي سألَتْها: ما بالُ الحائِض تَقضِي الصوم ولا تَقضِي الصلاة؟ فقالت: كان يُصيبنا ذلك فنُؤمَر بقَضاء الصَّوْم، ولا نُؤمَر بقَضاء الصلاة(١).

فإذا قوِيَ الإيمان كفَى الاستِدْلالُ بالسُّنَّة والقِرآن، وإذا ضعُف الإيمان فلا بُدَّ من استِعْمال الدليل العَقْليِّ المُقنِع؛ ولهذا نَجِد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الكِتاب العَزيز يَحتَجُّ كثيرًا بالأمور العَقْلية الحِسِّيَّة على المعاني التي يُريد عَزَّوَجَلَّ تَقريرها وإثباتها، كإحياء المَوْتى، وما أَشبَه ذلك، ونحن الآنَ في زمَنٍ الإيمانُ فيه ضعيف، والجَدَل فيه كثير، فنَحتاج إلى فَهْم الأدِلَّة العَقلية حتى نَتمكَّن من إقناع خُصومنا.

ومَعلومٌ الآنَ: أن كثيرًا من الناس لو أُتِيَ بكل آية ما تَبِعها، فإذا أُتي بدليلٍ عَقليٍّ اقتَنَع به! هذا واحِد؛ وتَعلَمون أيضًا: أن أعداء الإسلام والمُسلِمين يَتحيَّنون الفُرَص في إدحاض حُجَج المُسلِمين، فتَجِدهم في كل مَجلِس يَتكلَّمون في أشياءَ يُشبِّهون بها على الشَّباب المُسلِم، فإذا لم يَكُن لدى الإنسان حُجَّة عَقْلية تَدحَض حُجَّته، فإنه ربما يَنقطِع ويَظهَر ذلك الخَصمُ الأَلَدُّ عليه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة:٢٠٤].

فأنا أَحُثُّكم على أن تَتَّخِذوا من الأدِلَّة العَقْلية ما يُنجيكم من خَصْمِ أُولئك

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).

الألِدَّاء حتى تَخصِموهم وتُحاجُّوهم وتَغلِبوهم بالحُجَّة.

وهذا هو إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حاجَّ قَوْمه بالعَقْل، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ فأفَل الكوكب وغابَ ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ أي: لا أُحِبُّ إلهًا يَغيب عنِّي، ولا يَعلَم بحالي ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أَقام الحُجَّة على ضَلال من عبَد الكواكِب ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٧٦-٧٨]، وكذلك احتَجَّ على الذي: ﴿حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨] إلى آخِر الآية، إلى غير ذلك.

فنحن في حاجة اليومَ إلى إعمال عُقولنا في الأدِلَّة العَقلية حتى نَحتَجَّ بها على مَن ضعُف إيمانه بالأدِلَّة السَّمْعية، أو على مَن فَقَد إيمانه بالأدِلَّة السَّمْعية.

مَسأَلة: بعض الناس يَعتَمِد على العَقْل في قَبول النُّصوص، يَعنِي: ما وافَق العَقْل قبِلوه وما لا فلا، نحن لا نُريد هذا؛ لأن كل عقلٍ يُخالِف النصَّ فليس بعَقْل، والذي دمَّر هؤلاء وقوَّض عُقولهم أنهم صاروا يَعتَمِدون على العَقْل قبل أن يَنظُروا في النُّصوص، ولو أنهم نظَروا في النُّصوص أوَّلًا، ثُم أَجرَوْها على العَقْل لعلِموا عِلْم اليَقين أن النَّقْل مُوافِقٌ للعَقْل.

فإن العَقْل في أمر الغَيبيَّات يَنبَغي ألَّا يُرجَع إليه؛ ولذلك نحن نَقول لهؤلاء الذين يَرجِعون إلى العَقْل في الأمور الغَيبيَّة نَقول: أنتُمُ الآنَ جانَبْتمُ العَقْل، إذِ العَقْل لا يُمكِن أن يَتحَدَّث عن شيء غائبٍ عنه أبدًا، فلو قال لك إنسان: تَحدَّث عمَّا وراء

الجِدار. فهل يُمكِن عقلًا أن تَتَحدَّث عنه؟! ولو تَحدَّثت عنه لكنتَ مُخرِّفًا، فهؤلاء الذين رجَعوا للعَقْل هم رجَعوا إلى الهوى في الحقيقة، فهو هوًى وليس بعَقْل، لكن صحيحٌ أنه عَقْلٌ؛ لأنه عَقَلَهُم عن إصابةِ الصواب وإلَّا فليس بعَقْلٍ.

ونحن حينما نَقول: احرِصوا على الأدِلَّة العَقليَّة. لا نقول: عَقْل هؤلاء؛ لأن كل حُجَّةٍ يُورِدها هؤلاء فليست بحُجَّة، ولكنها شُبْهة، والذي يُزيلها هو العَقْل الصريح مع النَّقْل الصحيح.

ثُمَّ إن بعض الأدِلَّة العَقْلية لا شكَّ أنها قد تَخفَى على بعض الناس، ولكن الإنسان إذا تَأمَّل في دَلالة القرآن وجَدَ فيها كثيرًا من الأدِلَّة العَقلية، مثل مُحاجَّة إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه، ومثل مُحاجَّة الله عَزَّوَجَلَّ عن الرسول ﷺ في آخِر سورة الطور، هذه كلُّها أدِلَّة عَقلية، وكذلك النظَر والتَّأمُّل في الكون والمخلوقات يَدلُّك على هذا، وكذلك في الطُّرُق الحِسابية تَهتَدي بها كثيرًا بالعقل، كأَنْ نَعرِف نِصْف الاثنَيْن واحِد، وضِعْف الواحِد اثنان، فيُمكِن أن تَهتَديَ بمِثْل هذه الطرُقِ إلى الأدِلَّة العَقلية.

وعلى كل حال: الأدِلَّة العَقلية في الحَقيقة هي أوَّلًا غَريزة من الله عَزَّوَجَلَّ يَجعَلها في قَلْب المَرْء، ثُمَّ اكتِساب ثانيًا بالتَّمرُّن على مُطالَعة الكُتُب، تَبحَث في هذا ككُتُب شيخ الإسلام ابنِ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فتَستَفيد فائِدة كبيرة.

ولا يَخفَى أن الأدِلَّة العَقْلية يَعنِي: الأدِلَّة الحِسِّيَّة؛ لأن الأدِلَّة الحِسِّية طريقٌ إلى الأدِلَّة العَقلية، والأدِلَّة العَقلية قِسمان: أدِلَّة نَظرية، وأدِلَّة حِسِّية، وهي أقوى من الأدِلَّة النَّظرية.

فالأدِلَّة الحِسِّية مثَلًا: حُدوث العالَم؛ بماذا نَعرِف أنه حادِث؟ بتَغيُّره من حالٍ إلى حالٍ، ومن شَخْصٍ إلى آخَرَ، فهذا يَموت، وهذا يَحيا، وما أَشبَه ذلك، ونَستَدِلُّ

أيضًا في حُدوث العالَم بأنه ما من شيء مَوْجود إلَّا وهو إمَّا حادِثٌ بنَفْسه، أو مُحدِثه غيره، أو حادِث صُدْفةً هكذا، وكل هذه الثلاثةِ مُمتَنِعة إلَّا واحِد، وهو: أنه أَحدَثه غيره.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الأصنام لا تَملِك شيئًا لعابديها لا جَلبَ نَفْع ولا دفعَ ضَرَر.

فإن قال قائل: إن من الناس مَن يَدعو الصنَم فيُستَجاب له كما نَسمَع عن ذلك كثيرًا؟

فالجَوابُ: أن كلام الله تعالى حقٌّ وصِدق مُطابِقٌ للواقِع تمامًا، وقد بيَّن الله تعالى في آية أُخرى أنه لا أحَدَ أضَلُّ عقلًا ولا أسفَهُ طريقًا ﴿مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٨]. لكن ما حصَل من مثل هذه الأُمورِ من كون الرجُل دعا وَليًّا أو صاحِب قَبْر أو ما أَشبَه ذلك فزال عنه ضُرُّه فإنما هو امتِحانٌ من الله عَزَّوَجَلَّ حصَل عند الشيء لا بالشيء، فمثَلًا: لو أن رجُلًا دعا قَبْرًا وكشَف عنه الضُّرَّ هل نَقول: إن صاحِب القَبْر هو الذي كشَفه؟ لا أبدًا، بل نَجزِم -مثل الشمس- أن صاحِب القبر لم يَنفَعْه، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ ابتَلى عابدَ هذا القبرِ بأَنْ حصَل الشيء عنده لا به، وفَرْق بين الشيء الذي يَحصُل بالشيء والشيء الذي يَحصُل عند الشيء.

والله عَزَّوَجَلَّ قد يَبتَلي الإنسان بمِثْل هذا فيُيسِّر الله تعالى له أسباب المَعْصية والشِّرْك ابتِلاءً وامتِحانًا، أرأَيْتم أصحاب الرسول ﷺ حين حَرَّم الله تعالى عليهمُ الصيد في حال الإحرام، فابتَلاهمُ الله تعالى بصيدٍ تَناله أيديهم ورِماحهم، الطائر يَناله الرُّمْح، والساعي العادي تَناله الأَيْدي، يَعنِي: الظِّباء والأرانب وما أَشبَهَها يُمسِكونه

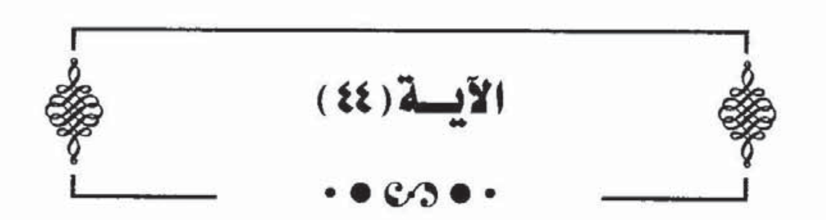
بأيديهم، والطيور بِرماحهم لا بسِهامهم فكانوا لا يَحتاجون إلى سِهام، فابتَلاهمُ الله بذلك؛ ليَعلَم مَن يَخافُه بالغَيْب، وعلى هذا فقد يَبتَلي الله تعالى العبد بتَيْسير أسباب المَعصية له حتى يَعلَم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هل يَصبِر أو يُقدِم؛ لأن بعض الناس قد يُخفَّف عليه تَرْكُ المعصية صعوبتها عليه، فبعض الناس يَترُك المَعصية لأنها صَعْبة عليه تَحتاج إلى عمَل، أو تَحتاج إلى مال، لكن إذا سهُلت ثُمَّ تركها علِمَ أن الرجُل صادِق في إيمانه.

إِذَنْ: فهِمْنا الجوابَ على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أن ما وقَعَ ممَّا يُظَنُّ أنه بسبَب هذه الآلهةِ فقد حصَل عندها لا بها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: انتِفاء العَقْل عن هذه المَعبوداتِ، وهذا فيمَن يَعبُد مَن لا عَقلَ له كالأصنام والأشجار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

وعليه إذا قيَّدْنا المسألة بمَن يَعبُد الأصنام والأشجار وما أَشبَهَها لا يَرِد علينا أن قومًا عبَدوا المسيحَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والمَسيح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أَكمَل الناس عَقْلًا لأنه أحَدُ أُولي العَزْم من الرُّسُل، بأن نَقول: يُريد الله تعالى بهذا الأصنامِ الجَماد التي لا تَعقِل.

• • ۞ • •



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الزمر:٤٤].

•●○●•

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾: ﴿قُل﴾ الخِطاب للرسول ﷺ، أو لكل مَن يَتأتَّى خِطابه ويَصِحُّ، وهذا الأخيرُ أعَمُّ من الأوَّل؛ لأنه يَشمَل النبيَّ ﷺ وغيره؛ فقوله تعالى: ﴿قُل﴾ أيها المُخاطَبُ -الأهل للخِطاب-: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾، ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ جُملة خبَرية تُفيد الحَصْر، وطريقه أن الخبَر تَقدَّم وحقُّه التأخيرُ، وكل تَقديمٍ لما حَقُّه التأخير يُفيد الحَصْر، والمَعنَى: لله الشَّفاعة لا لغيرِه فهو الذي يَملِكها، واللَّام في قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ﴾ للمِلْك يَعنِي: هو الذي يَملِك الشفاعة، أي: يَملِك أن يَأذَن فيها.

وقد بيَّنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن للشَّفاعة ثلاثةَ شُروط:

الشَّرْط الأوَّل: إِذْنه؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

الشَّرْط الثاني: رِضاه عن الشافِع؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ [النبأ:٣٨].

الشَّرْط الثالِث: رِضاه عن المَشفوع له؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]،

وهذه تكون أيضًا دليلًا على أنه يُشتَرَط رِضا الله تعالى عن الشافِع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

والآنَ لو أقول: يا رسولَ الله، اشفَعْ لي عند الله. هل يَجوز؟

والجَوابُ: لا يَجوز؛ لأنه لا يَملِك ذلك، فهو لا يَشفَع لا لك ولا لغَيْرك إلَّا بإِذْن الله تعالى، ومن ذلك ما يَفعَله بعض الإخوان المُجاهِدين يَقول الواحِد منهم للثاني: اشفَعْ لي عند الله؛ لأن المُجاهِد له شفاعة إذا قُتِل شهيدًا، فتَجِد بعض أقاربه أو بعض أصحابه يَقول: اشفَعْ لي عِند الله! وهذا لا يَجوز؛ لأنه سأَله ما لا يَملِكه، فإنه إذا قال: اشفَعْ لي! نَقول: الشفاعة لمَن؟ الجَوابُ: لله تعالى، إِذَنْ قُلْ له: اللهُمَّ شفِّعْه فيَّ. ولا بأسَ في ذلك، فيَنبَغي عليك أن تَحرِص على الشفاعة ممَّن يَملِك الشفاعة، أمَّا ممَّن لا يَملِك لا تَصِحَّ، فهذا سُؤالٌ في غير مَحلِّه، فالشَّفاعة إِذَنْ: لله، وإذا كانت لله فلا تَسأَل إلَّا الله.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ كلمة ﴿جَمِيعًا﴾ إعرابها حال من الشَّفاعة، لكن ما مَعنَى الجَمْع هنا؟ وهل الشَّفاعة مُتعدِّدة؟

الجَوابُ: نعَم، الشفاعة مُتعدِّدة؛ شفاعة في الدنيا، وشفاعة في الآخِرة، وشفاعة في جَلْب نَفْع، وشفاعة في دَفْع ضرَر، فلا شَفاعةَ إلَّا لله عَزَّوَجَلَّ، فوَكُل الشفاعات تكون لله تعالى، وهناك شَفاعة في الدنيا كأَنْ يَدعوَ الإنسان لشَخْص إذا دعا الإنسان لشَخْص فهذه شَفاعة قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ»[1]، فدُعاء الإنسان

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه، رقم (٩٤٨)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لأَخيه شفاعةٌ له عند الله تعالى، وهذه هي الشفاعة في الدُّنيا، والشفاعة في الآخِرة مَعروفة وهي الشَّفاعة العُظمى، وهذه لرسول الله ﷺ ولا تَكون لأَحَدٍ سِواهُ.

فما هي الشَّفاعة العُظمى؟

الجَوابُ: هي أن الناس في ذلك المَحشَرِ؛ كما جاء في النُّصوص: حُفاة عُراة غُرل شاخِصةٌ أبصارهم أَفئِدتُهم هواءٌ، الشمس تَدنو منهم قَدْر مِيل، والعرَق يُلجِم بعضهم، لا يَلوِي أحدٌ على أحَد، ولا يَستَغيث أحَدٌ بأَحَد، قال الله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، فيَلحَقهم من الهَمِّ والكَرْب ما لا يُطيقون، فيَقول بعضُهم لبعض: انظُروا مَن يَشفَع لنا عند الله تعالى لنَستَريح من هذا المَوقِفِ راحة، فيَذهَبون إلى آدَمَ، ثُمَّ إلى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُم إلى إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ إلى مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ إلى عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ولا يَحصُلون على شيء، ثُمَّ يَأتون إلى مُحَمَّدٍ ﷺ يَطلُبون منه الشفاعة فلا يَشفَع، فيَستَأذِن من الله تعالى أوَّلًا؛ لأن الملك عظيم والسُّلطان تامٌّ، فيَسأَل الله تعالى أن يَأذَن له بالشَّفاعة، فيَأذَن له، ثُمَّ يَسجُد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تحت العَرْش سُجودًا طويلًا طويلًا طويلًا؛ يَفتَح الله تعالى عليه فيه من المَحامِد ما لم يَكُن يَعرِفه من قبلُ، ثُمَّ يَشفَع إلى الله تعالى أن يَقضِيَ بين الخَلْق ويُريحهم من هذا المَوْقفِ، فيَقبَل الله تعالى شَفاعته[1].

وهذه الشَّفاعةُ تُسمَّى الشفاعة العُظمي؛ لعُمومها وشِدَّة الحاجة إليها، ولا تَكون إلَّا للرسول ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، وسُمِّيَت كذلك؛ لأن هذا المَقامَ يَحمَده فيه الأوَّلون والآخِرون الذين

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، رقم (٤٧١٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من أُمَّته والذين من غير أُمَّته، وفي هذا اليومِ شَفاعة فيمَن دخَل النار أن يَخرُج منها، وفيمَن استَحَقَّها أن لا يَدخُلها.

وهذه الشفاعةُ نَوعان: شَفاعة فيمَن دخَلها أن يَخرُج منها، وفيمَنِ استَحَقَّها أن لا يَدخُلها، وهذه عامَّة للرُّسُل، والصِّدِّيقين، والشُّهَداء، والصالِحين، والمَلائِكة، والبشَر عامة، لكن يُنكِرها طائِفتان من طوائف الضَّلال من هذه الأُمَّةِ وهُما المُعتَزِلة والخَوارِج؛ لأنهم يَقولون: إن فاعِل الكبيرة مُخلَّدٌ في النار، محكومٌ عليه بذلك قَضاءً وقدَرًا، وإذا كان كذلك فلن يَتخلَّف هذا القضاءُ، ولا يُمكِن أن يَخرُجوا من النار.

والشفاعة الرابِعة في دُخول الجَنَّة، إذا عبَر الناس الصِّراط -أَسأَل الله تعالى أن يَجعَلنا وإيَّاكم ممَّن يَعبُره سَليمًا- إذا عبَروا الصِّراط لا يَدخُلون الجَنَّة مُباشَرة، بل يُوقَفون عند قَنْطرة وهي طرَف الجِسْر الذي على النار أو غيرها -الله تعالى أَعلَمُ- فيُقتَصُّ لبعضهم من بعض، وهذا قِصاص تَنْقية، والقِصاص السابِق في عَرَصات القِيامة قِصاص تَخْلية، يَعنِي: في عرَصات القِيامة يُقتَصُّ للمَظلوم من الظالِمِ، أمَّا هذا فهو قِصاص تَنْقية، يُنقَّوْن حتى يَزول ما في قلوبهم من غِلٍّ وحِقْد؛ لأنه ليس القضاء للشَّخْص بحَقِّه مُزيلًا للحِقد والبَغْضاء.

نعَمْ، ربَّما قد أَقول: أنا اعتُدِيَ عليَّ وأَخَذْت حَقِّي الآنَ منه، لكن بقِيَ أَثَرُ هذا العُدوانِ في قَلْبي، هذا مَوْجود ولا أَحَدَ يُنكِره، لكن المُوفَّق يَسعَى في زواله، وإنما لا بُدَّ أن يَبقَى أَثَرُ الجُرْح حتى ولو برِئ، وهل إذا بَرِئ الجُرْح يَعود الشيء كما كان؟ بل يَصير فيه بُقَع، فلا بُدَّ أن يُؤثِّر العُدوان، ولوِ اقتَصَّ الإنسان لنَفْسه من قلب الإنسان، فهُمْ إذا اقتُصَّ لبعضهم من بعض في يوم القيامة في عرَصات القيامة وعبَروا الصِّراط يَحتاجون إلى تَنْقية تُنقَّى وتُصفَّى قلوبهم حتى يَدخُلوا الجَنَّة -وما في قُلوبهم

من غِلٍّ- على أكمَل وَجْه.

فإذا اقتُصَّ لبعضهم من بعض أيضًا لا يَدخُلون الجَنَّة مُباشَرة، بل يَجِدون الجَنَّة مُغلَّقة الأبواب، فيَطلُبون مَن يَشفَع لهم، فيُشفِّع النبيُّ ﷺ خاصَّة، وهذه خاصَّة بالرسول ﷺ لكن ليسَتْ عُظمى؛ لأنها لأهل الجَنَّة خاصَّة فيَشفَع أن تَفتَح أبواب الجَنَّة، فيُؤذَن له فتُفتَح أبواب الجَنَّة.

وأوَّل مَن يَدخُلها هو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[1]، وأوَّلُ مَن يَدخُلها من الأُمَم أُمَّته بعد الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مُباشَرةً، فالنَّبيُّون أوَّلًا، ثُمَّ الأُمَم، يَبدَأ بقائِد النَّبيِّين محمد ﷺ، ثُم قائِد الأُمَمِ هذه الأُمَّةُ؛ لأن هذه الأُمَّةَ -ولله تعالى الحمد- مُتأخِّرة في الزمن في الدنيا، لكنها سابِقة في كل المَواقِف في الآخِرة، فقد قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2].

ففي كل العرَصات -ولله تعالى الحمد- نحن السابِقون في العُبور على الصِّراط في القَضاء بين الناس في عرَصات القِيامة قبل دُخول الجَنَّة همُ السابِقون يوم القيامة في كل شيء، فيَدخُلون الجَنَّة، وتَأمَّل هذا في كِتاب الله عَزَّوَجَلَّ قال الله تعالى في أهل النار: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧١]، وهم كارِهون لها من حين أن يَصِلوا إليها تُفتَّح الأبواب؛ أمَّا أهل الجَنَّة فلا، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧٣].

فأَفاد قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتۡ﴾ أن هناك شَيْئًا بين مَجيئهم وبين الفَتْح، ولقد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٤٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، رقم (٨٧٦)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، رقم (٨٥٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَخطَأ من قال من أَهْل العِلْم رَحِمَهُمُٱللَّهُ: إن الواو هنا زائِدة، وإن التَّقدير: حتى إذا جاؤُوا فُتِّحت أبوابها. نَقول: سُبحانَ الله! أنتُمْ أَعلَمُ بكلام الله تعالى من الله تعالى! الله عَزَّوَجَلَّ يُفرِّق في النار يَقول: ﴿إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ﴾، وفي الجَنَّة يَقول تعالى: ﴿إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ﴾، وأنتم تَقولون: هذه الواوُ زائِدة، وهذا خَطير.

وكذلك أَخطَأَ مَن قال: الواو واوُ الثَّمانية، وادَّعى أن في اللغة واوًا تُسمَّى واوَ الثمانية، وهذه الدَّعوى باطِلة، ويَقول المُدَّعي: عندي دَليل، وهو قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم:٥]، قال: فالواو قبل كلِمة (أبكارًا) هي واوُ الثَّمانية؛ لأن هذه ثَمانية أشياءَ مَعطوفات.

ونَقول ردًّا على مَن قال هذا: إِذَنْ فقُل: جاء زيدٌ وبَكرٌ. الواو واوُ الاثنَيْن، وخالِد واو الثلاثة... وامشِ على هذا، والصواب أن الواو هنا عاطِفة، وأن المَعطوف عليه مَحذوف بَيَّنت السُّنَّة هذا المعطوفَ عليه.

الخُلاصةُ: على هذا فتكون الشفاعة الخاصَّة بالرسول ﷺ ثلاثة أنواع: الشفاعة العُظمى والشَّفاعة في دُخول الجَنَّة وشَفاعته في عمِّه أبي طالِب الذي مات على الكُفْر والشِّرْك -والعِياذُ بالله- وهو في النار، لكن الله تعالى أَذِنَ لنَبيِّه أن يَشفَع فيه، فكان في ضَحضاحٍ من نار وعليه نَعلان يَغْلي منهما دِماغه، وهو أَهوَنُ أهل النار عَذابًا؛ ودَليلنا على أن الشفاعة بعَمِّه خاصَّةً به قول الرسول ﷺ: «لَوْلَا أَنَا كَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»(١)، لكن الدليلَ على أنه خاصٌّ به: أن هذا مَخصوص بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، رقم (٢٠٩)، من حديث العباس عم الرسول ﷺ ورضي الله عنه.

إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾، والله تعالى لا يَرتَضي أن يُشفَع للكافِر، فيُستَثْنى هذا، وقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]، وهذا مُستَثْنًى إِذَنْ فهو خاصٌّ به.

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: هو الذي يُعطيها مَن يَشاء ويَمنَعها ممَّن يَشاء وقد بيَّنَ أن الشروط الإِذْن ورِضاه عن الشافِع ورِضاه عن المَشفوع له.

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ هذه الجُملةُ فيها حَصْر، وهو تَقديم ما حقُّه التَّأخير، فهنا قدَّم الخَبَر ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يَعنِي: لا لغيره.

وقوله تعالى: ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَشمَل مُلْك الذوات، أي: مُلْك ذات السموات والأرض، ومُلْك التَّصرُّف فيهما يَتصرَّف فيهما كما يَشاء فهو الذي أَوْجَدهما، وهو الذي يُمسِكهما أن تَزولا، وهو الذي يُدبِّر ما فيهما، وهو الذي يُتلِفهما ويُفنيهما عند قيام الساعة، فللهِ مُلْك السموات والأرض خَلْقًا وتَدبيرًا وتَصرُّفًا، وكل شيء يَؤول إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذه الآلِهةُ لا تَملِك شيئًا من ذلك، إِذَنْ ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: مُلك الذوات والتَّصرُّف كما يَشاء.

ثُمَّ نُفصِّل فنَقول: خلَقهما أوَّلًا وأَمسَكهما أن تَزولا، ويَطوِي السمواتِ كطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُب، ويَقبِض الأَرَضين يوم القِيامة، فكل هذه من جُملة تَصرُّفاته في هذه المَملوكاتِ، وإذا كان له مُلك السموات والأرض فلا أَحَدَ يَشفَع إلَّا بإِذْنه ولا أَحَدَ يَستَحِقُّ العِبادة إلَّا هو.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يَعنِي: يوم القِيامة نَرجِع إلى الله عَزَّوَجَلَّ فيُحاسِبنا على حسَب أعمالنا، والله تعالى قد بيَّن لنا ووضَّح وأَقام الحُجَّة، وبيَّن أن الحسَنة بعَشْر أمثالها إلى سبعِ مِئة ضِعْف إلى أضعافٍ كثيرة، وأن السيِّئة بمِثْلها وبين

الأشياء التي تُعتبَر حَسَناتٍ حتى نَعمَلها، وتُعتبَر سَيِّئاتٍ حتى نَتجنَّبها، وحينئذٍ يَكون رُجوعنا إليه عَزَّوَجَلَّ رُجوعًا عن بَصيرة لا حُجَّةَ لنا في مُخالَفته.

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: هو مُختَصٌّ بها] أخَذَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [هو مُختَصٌّ بها] من الحَصْر وهو تَقديم الخبَر [وهو مُختَصٌّ بها فلا يَشفَع أحَدٌ إلَّا بإذْنه]، وهذا أحَدُ شَرْطَيِ الشفاعة. والثاني: رِضا الله تعالى عن الشافِع ورِضاه عن المَشفوع، قال تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وقد ذكَر عُموم مِلْكه وانفِراده بالمِلْك بعد ذِكْر الشفاعة؛ لأن الشَّفاعة من المِلْك في الواقِع، فهي داخِلة في عُموم مِلْك الله تعالى للسمَوات والأرض ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ولم يُفسِّرها لوُضوحها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات الشفاعة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾، ووجهُ إثباتها: أنه لولا وُجودها ما صَحَّ أن يَقول تعالى: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الردُّ على المُعتَزِلة والخوارِج؛ لأن المُعتَزِلة والخوارِج يُنكِرون الشفاعة في أهل الكَبائِر -سواءٌ دخَلوا النار أم لم يَدخُلوها-، وذلك لأن أهل الكَبائر عند المُعتَزِلة والخوارِج مُخلَّدون في النار، لكنهم عند الخَوارِج كُفَّار، وعِند المُعتزِلة لا مُؤمِنون ولا كافِرون، بل في مَنزِلةٍ بين مَنزِلتين.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات شَفاعات مُتعدِّدة؛ لقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾؛ لأن (جَميعًا) تَقتَضي أن يَكون هناك شيء مجَموع.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه لا أحدَ يَشفَع إلَّا بإِذْن الله تعالى، ووجهُه: أنه إذا كانت الشَّفاعة خاصَّةً بالله فإنها لا تكون إلَّا منه وإليه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات مُلْك الله تعالى للسَّموات والأرض، وانفِراده بالمُلْك؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

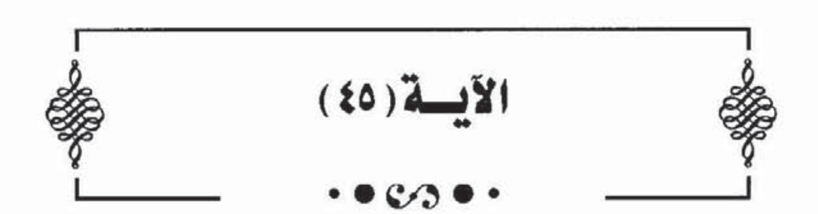
الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات البَعْث والرجوع إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الإنذار والبِشارة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فإن المُؤمِن يُسَرُّ بلِقاء الله تعالى بلا شَكٍّ، ويُحِبُّ لِقاء الله تعالى، والكافِر بالعكس، وقد قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»[1]، فإذا علِمنا أننا نَرجِع إلى الله تعالى فإننا نُحِبُّ لِقاء الله تعالى، والكافِر يَكرَه لِقاء الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَذكُر الشيء مُنذِرًا بلازِمه؛ لأن مُجرَّد الرجوع ليس فيه شيء يُذكَر، لكن المُراد الرجوع الذي يَحصُل به الحِساب والجَزاء.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم (٦٥٠٧)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم (٢٦٨٣)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:٤٥].

•●◌●•

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ﴾ أي: دون آلِهَتِهم ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾ نفَرَت] والمَعنَى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾: (إذا ذُكِر الله) يَعنِي: أُثْنِيَ عليه بالذِّكْر والإِخْلاص، وأنه هو الربُّ المَعبود، وأن غيره لا يَستَحِقُّ العِبادة، وإذا ذُكِر على هذا الوجهِ ﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ يَعنِي: نفَرَت من هذا وكرِهته؛ لأنها لا تُريد هذا، تُريد أن تكون آلِهتها مُساوِيةً لله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾ نفَرَت وانقبَضَت] فتنفِر ولا تَقبَل الحقَّ، وتَنقَبِض ولا تَنشَرِح للحَقِّ ﴿قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ أي: لا يُقِرُّون بها، ولا يَعتَرِفون بها؛ لأنهم قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤]، وهم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ ولو أنهم آمَنوا بالآخِرة لعمِلوا لها، ولو كانوا إذا ذُكِر الله تعالى وحدَه استَبْشَروا وفرِحوا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ الأصنام] يَعنِي: إذا ذُكِر الذين

من دونه وهي الأصنام، وأُثنيَ عليها ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾: ﴿إِذَا﴾ هذه فُجائِيَّة أُجِيب بها الشرط؛ لأن الشَّرْط يُقرَن أحيانًا بالفاء، وأحيانًا بـ(إذا)، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم:٣٦]، أي: فهُمْ، فجواب الشَّرْط هنا قُرِن بـ(إذا) الفُجائية؛ لأنه جُملةٌ اسمِيَّة.

وتأمَّل قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ حيث جاءَت بالجُمْلة الاسمِيَّة إشارةً إلى دوام استِبْشارِهم وثُبوته ورُسوخه في أنفُسهم. وجواب ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾، هو قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾.

وجَواب قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ هو قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وبَيْن الجُمْلتين رابِط؛ لأن القاعِدة هي إذا كانت جُملة الجَواب اسمِيَّة لا بُدَّ فيها من رابِط، والرابِط هنا قوله: (إذا)، وهي الفُجائِيَّة.

ولهذا يُروَى عن النبيِّ ﷺ أنه قرَأَ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّٰتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم:٢٠] تِلك الغَرانيقُ العُلا، وإنَّ شَفاعَتَهُنَّ لتُرْتجى. ألْقاها الشَّيْطان في قِراءة النبيِّ ﷺ، ولم يَتلُها الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكن الشيطان أَسمَعَ قُرَيْشًا هذا القولَ، يَقولون: إنهم سجَدوا مع النبيِّ ﷺ لما أَنهَى السورة وسجَد؛ لأنهم قالوا: الآنَ رجَع إلينا، أو على الأَقَلِّ داهَنَنا؛ لأنه أَثنَى على أصنامنا فسجَدوا معه، وهذه القِصَّةُ مَشهورة(١).

(١) أخرجها الطبري في تفسيره (١٦/ ٦٠٤-٦٠٨) من عدة طرق، وقال ابن كثير في تفسيره (٥/ ٣٨٧): طرقها كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح. وقال الشنقيطي في أضواء البيان (٥/ ٢٨٦): اعلم أن مسألة الغرانيق مع استحالتها شرعًا، ودلالة القرآن على بطلانها لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج، وصرح بعدم ثبوتها خلق كثير من علماء الحديث كما هو الصواب.

واختَلَف المُفسِّـرون فيها فمِنهم مَن أنكَرها إنكارًا عظيمًا، ومِنهم مَن حسَّنها وقال: إنها لا تُنافِي العِصْمة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ يعني: إذا قرأ ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج:٥٢] أَلقَى الشَّيْطان بالقراءة، ليس هو الذي يُلقِي، بل الشيطان هو الذي يُلقِي كمـا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يَنسَخه يَعنِي: بين بُطلانه، وأنه لا حقيقةَ له، ثُمَّ قال مُعلِّلًا ذلك: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٤].

فعلى كل حال: إن صحَّتِ القِصَّة فإنها لا تُنافِي العِصْمة؛ لأن الذي أَثنَى على هـذه الأصنامِ الشَّيْطان، لكن ظنَّ هـؤلاء الذين سمِعوه أنها قِراءة النبيِّ ﷺ، وإذا لم تَصِحَّ فلا إِشكالَ.

لكن إذا قال قائِل: إذا لم تَصِحَّ فكيف سجَد المُشرِكون مع النبيِّ ﷺ حين قال: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾؟

والجَوابُ عن ذلك أن نَقول: إن آخِرَ آيات هذه السورةِ تَأخُذ باللُّبِّ والفُؤاد حتى إن الإنسان لَيَنفَعِل من غير أن يَشعُر فهؤلاءِ المُشرِكون انفَعَلوا من شِدَّة ما سمِعوا حتى لم يَشعُروا بأنفُسهم إلَّا وهُمْ ساجِدون، هذا هو الجَواب إذا لم تَصِحَّ القِصَّة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: شِدَّة كراهة هـؤلاء لذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ وتوحيـدِه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الإنسان متى وجَـد اشمِئْزازًا من شَـريعة الله تعالى فإن فيه شَبَهًا من هؤلاء، وإن كان لا يُشابِهِهم من كل وَجْه فإنه يَكون فيه شَبَهٌ منهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: شِدَّة تَعلُّق هؤلاء بأصنامهم حيـث يَكرَهون ما يُضادُّها من التَّوْحيد، وإذا ذُكِرت هذه الأَصنامُ استَبْشَروا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الإنسان قد يَستَبشِر بالسوء، وربَّما يُخالِف الفِطْرة، وذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾.

• • ۞ • •



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر:٤٦].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ هذه مُنادى، حُذِفَت منها (يا) النِّداء، وعُوِّضت عنها الميمُ؛ لأنها دالَّةٌ على الجَمْع، كأن الإنسان جمَعَ قَلْبه على ربِّه عَزَّوَجَلَّ، وأُخِّرَت تيمُّنًا بالبَداءة بِسْم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وعلى هذا فنقول: (الله) مُنادى مَبنيٌّ على الضمِّ في محَلِّ نَصْب.

يَقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [بمَعنى: يا اللهُ]، فالميمُ عِوَض عن (يا) النِّداء [﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُبدِعَهما ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما غاب وما شُوهِد].

وقوله تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فاطِرَ الشيء أي: مُبدِعَه على غير مثال سَبَق، يَعنِي: مُبدِعَه مُنشِئَه أوَّل مرَّة يُسمَّى هذا فَطرًا، ومنه: فطَر البِئْر إذا حفَره لأوَّل مرَّة.

وقوله تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والسَّموات والأرض هذه تَقدَّمت كثيرًا، وذكَرنا ما يَتعلَّق بالجمع بالنِّسبة للسمَوات والإفراد بالنِّسبة للأرض.

وقوله تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: ﴿فَاطِرَ﴾

و﴿عَٰلِمَ﴾ كلها صِفـة للمُنادى في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾، ولكنها نُصِبَـت؛ لأنها مُضافة.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الغيب: ما غاب، والشهادة: ما شُوهِد وحُضِر، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالم الغَيْب كلِّه، وعالم الشهادة كلِّها؛ فإن الله تعالى لا يَخفَى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

واعلَمْ أن الغَيبـوبة تكون كلِّيَّةً، وتَكون نِسبيَّة، فالله تعالى عالِم الغَيْـب كلِّيَّةً ونِسبيةً أيضًا، بخِلاف البشَر، فالبشَر لا يَعلَم الغيـب، أي: ما غاب عنه سواءٌ كلِّيًّا أم نِسبيًّا؛ ولذلك لا تَعلَم ما وراء الجِـدار، ولا تَعلَم ما في ضمير غيـرك، ولا تَعلَم المُستَقبَل، بل وتَنسَى ما مضى، أمَّا الربُّ عَزَّوَجَلَّ فإنه لا يَعتَريه شيء من هذا النُّقصانِ.

وقوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: ﴿تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ أي: تَفصِل بينهم في الحُكْم، وذلك يوم القِيامة حين يَتَحاجُّ الناس عند ربهم يَختَصِمون، وقد بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَتيجةَ هذه الخُصومةِ بأن الخاصِم همُ المُؤْمِنون حيث قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

إِذَنْ: فالخاصِم الغالِب همُ المُؤمِنون، إذ لم يَكُن سبيلٌ للمُشرِكيـن الكافِرين عليهم فهمُ الخاصِمون بلا شَكٍّ.

وقوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يَشمَل الحُكْم في الدنيا والحُكْم في الآخِرة، أمَّا الحُكْم في الدنيا فإن المَرجِع إلى كِتاب الله تعالى وسُنَّة رسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأمَّا في الآخِرة فالمَرجِع إلى الله عَزَّوَجَلَّ يَحكُم بينهم حُكْمًا جَزائيًّا كلٌّ بما يَستَحِقُّ.

وقوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ المُراد بالعُبودية هنا العامة، فيَشمَل العبد المُؤمِن والعَبْد الكافِر، وقد قسَّم العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ العُبودية إلى قِسْمين: عامَّة وخاصَّة.

فالعُبودية العامة هي التَّعبُّد بالقدَر أي: أنها تَتعلَّق بالأَمْر القدَريِّ، يَعنِي: التَّذلُّل لقَدَره، فكلُّ مَن في السموات والأرض عبدٌ لله بهذا المَعنَى، ولا يُمكِن أن يَتخلَّف عمَّا قَضَى الله تعالى عليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، فهذه عُبودية تَتعلَّق كما قُلْت بالقَدَر والقَضاء، فهي كونية في الحقيقة.

والعُبودية الخاصَّة هي التَّعبُّد لله تعالى بشَرْعه، وهذه خاصَّة بالمُؤمِنين الذين يَتعبَّدون لله تعالى بشَرْعه.

وهذه الخاصَّةُ أيضًا فيها عِبادةٌ أخصُّ وهي عِبادة النُّبوَّة والرِّسالة، مثل قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص:٤٥]، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، ومثل قول الرسول ﷺ: «أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا»[1]، والأمثلة كثيرة.

فمَحطُّ المَدْح من هذه الأنواع والأقسام: العُبودية الخاصَّة، أمَّا العُبودية العامة فلا يُمدَح الإنسان فيها؛ لأنها بغير اختياره، بل هو ذليل لله تعالى مُتعبِّد لله تعالى شاء أم أبى.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب قيام النبي ﷺ الليل، رقم (١١٣٠)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم (٢٨١٩)، من حديث المغيرة ابن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أي: في الذي يَختَلِفون فيه، وقد جاءت الآية هكذا: ﴿فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠]، فيَشمَل ما يَختَلِفون فيه من أمور الدِّين وأُمور الدنيا أيضًا، فكل ذلك سَوْف يَحكُم الله تعالى فيه بحُكْمه العَدْل الذي ليس فيه حَيْفٌ على أحَد.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ من أَمْر الدِّين اهدِني لما اختُلِف فيه من الحَقِّ]، ولكنَّ هذا التَّقديرَ فيه نظَر؛ لأن المُراد بالآية: تَفويض الأمر إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وشِكاية هؤلاء إليه: الذين إذا ذُكِر الله تعالى اشمَأَزَّت قلوبُهم، وإذا ذُكِر الذين من دونه إذا هُمْ يَستَبشِرون. وليس المَقام مَقامَ دُعاء، وإنما كان النبيُّ ﷺ يَقول هذا الدعاءَ في استِفْتاح صلاة الليل(١).

فائِدةٌ: المُضاف إلى الله تعالى قد يُضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ إضافةَ خَلْق وتَكوين وقد تَكون إضافة تَشريف، فهنا قال تعالى: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾ فالعِبادُ عامٌّ، فإذا كان عامًّا صار المُرادُ الخَلْقَ والتَّكوين وإذا كان خاصًّا يَعنِي: أُضيفتِ العُبودية لشخص مُعيَّن أو لجماعة مَوْصوفين بصِفة فهذا للتَّشريف.

وفي قوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ عِندي في نُسخَتي (فِي) مَفصولة عن (ما)، وتُرسَم أيضا مُتَّصِلة على القاعِدة، فالقاعِدة أخيرًا: أنها مَفصولة، لكن لعلَّ القاعِدة التي عليها المُفسِّر هي في المُصحَف الأوَّل، يَعنِي: في القاعِدة الأُولى، وقد اختَلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: هل تَجوز مُخالَفة القاعِدة العُثْمانية؟

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

على أقوالٍ ثلاثةٍ: (الجواز، والمَنْع، والتَّفصيل)، التَّفصيل بين أن يُكتَب للصَّبيِّ وأن يُكتَب للبالِغ، فالصبيُّ يُكتَب له على حسَب ما يَعرِفه من القواعِد؛ لأنه لو كُتِب له على القاعِدة العُثمانية لحرَّف، لو كُتِبَـتِ الصلاة بالواو والزكاة بالواو، وما كان ممدودًا، أي: بألِف حُذِفـت الألِف منه، مثل: الرحمن، وما أَشبَهَه لو كُتِبَ له ذلك لحرَّف، لقال: إن الصلَـوات، إن الزكوات، وما أَشبَهَـه، أمَّا إذا كان لبالِغ عارِف فيُكتَب بالرَّسْم العُثمانيِّ.

والصحيح: أنه لا يَجِب التَّقيُّد بالرَّسْم، وذلك لأن القُرآن لم يَنـزِل على هذا الرسمِ، لو نزَلَ بهذا الرسمِ كما كُتِبَت التَّوْراة ونزَلَتْ مَكتوبةً لقلنا: لا يَجوز مُخالَفته، لكنه نزَلَ قولًا وصادَفَ أن القاعِدة في ذلك الوقتِ حين كِتابته كانت على هذا الوجهِ، ولو كانَتِ الكِتابة على غير هذا الوَجهِ لكُتِب بها مُخالفًا لهذا الوَجهِ.

فالمَسأَلة اصطِلاحية، يَعنِي: أن القُرآن لم يَنزِل على هذا، صحيحٌ أننا قد نَقول: يَنبَغي تَأدُّبًا أن يُكتَـب القُرآن بالقاعِدة العثمانية احتِرامًا وتَعظيمًـا لما كتَبَه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. أمَّا أن نَقول: هذا على سبيـل الوجوب والإلزام. ونَقول: إنه لا يَجوز أن تَكتُب على السُّبورة آيةً من كِتاب الله تعالى على القاعِدة المعروفة المألوفة، فهذا فيه نظَر.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التَّوسُّل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأَفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقد تَقدَّم فيما سبَق أن التَّوسُّل الجائِز سبعة أنواع:

الأوَّل: التَّوسُّل إلى الله تعالى بأَسمائه.

والثاني: التَّوسُّل إلى الله تعالى بصِفاته.

والثالِث: التَّوسُّل إلى الله تعالى بأَفْعاله.

والرابع: التَّوسُّل إلى الله تعالى بحال الداعِي.

والخامِس: التَّوسُّل إلى الله تعالى بدُعاء مَن تُرجَى إجابته.

والسادِس: التَّوسُّل إلى الله تعالى بالعمَل الصالِح.

والسابع: التَّوسُّل إلى الله تعالى بالإيمان.

فهذه كلُّها تَوسُّلات جائِزة.

وهنا قال تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهي من باب التَّوسُّل إلى الله تعالى بأَفعاله، أمَّا التَّوسُّل المَمنوع فهو التَّوسُّل إلى الله تعالى بما لم يَجعَلْه الله تعالى وَسيلةً كالتَّوسُّل بجاهِ النبيِّ ﷺ، والتَّوسُّل بالصالِحين على وجهٍ غير مَشروع، فالضابِط للتَّوسُّل المَمنوع: أن يُتوسَّل إلى الله تعالى بما ليس بوَسيلة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن السَّمواتِ والأرضَ ليسَتا قديمة أزلية، بل هي حادِثة بعد أن لم تكُن، بخِلاف الفلاسِفة الذين قالوا بقِدَم العالَم أو الأَفلاك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل إثبات إحاطة عِلْم الله تعالى بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تحذير المرء من المُخالِفة؛ لأنه إذا آمَن بأنه عالِم الغَيْب والشَّهادة، فسوف يَحذَر؛ لأنه مهما عمِل فالله تعالى عالِمٌ به.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الحُكْم لله تعالى وحدَه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ

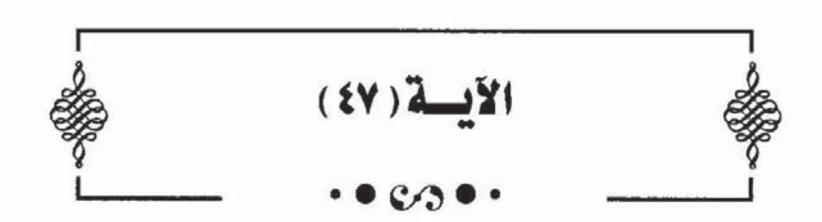
عِبَادِكَ﴾، ووجهُ الحَصْر في قوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾ أنه وَصَف الحُكْم الصادِر منه بأنه بين العِباد، والعبدُ لا يُشارِك سيِّده في الحُكْم وإلَّا فإنه ليس بين أيدينا طريقةٌ من طرُق الحَصْـر المَعروفة، ولكنه حَصْـر استَفَدْناه من المَعنى، إِذْ إن العَبْـد لا يُمكِن أن يَكون عابِدًا على سيِّده، بل السيِّد هو الحاكِم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تسلية المُؤمِنين؛ لكون الله تعالى يَحكُم بينهم فيما يَختَلِفون فيه مع الكُفَّار.

وهنا نَسأَل: مَن الذي يَكون مَحكومًا له ومَحكومًا عليه؟

أَقولُ: يُحكَم للمُؤمِنين؛ لقول الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

• • ❁ • •



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧].

(لو) هذه شَرْطية، وقد يَقول قائِل: أين فِعْل الشَّرْط؟

والجَوابُ أن نَقول: هو مُقدَّر، أي: (ولو حصَلَ أن) أو: (ولو ثبَتَ أن الذين ظلَموا)، وأمَّا الجواب فقوله تعالى: ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

و(لو) تَأْتي شَرْطية وتَأْتي مَصْدريَّة مثل قوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩]، أي: ودُّوا إِدْهانك فيُدهِنون، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾.

إذن: (أنَّ) وما دخَلَت عليه في تَأويل المَصدَر، فاعِل لِفعْل الشَّرْط المحذوف، أي: ولو ثبَتَ أن للذين ظلَموا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: ﴿ظَلَمُوا۟﴾ المُراد بالظُّلْم هنا الكُفْر، والظُّلْم في الأصل هو النَّقْص؛ لقوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣]، أي: لم تَنقُص منه شيئًا.

والظُّلْم يَنقَسِم إلى قِسْمَيْن:

١- ظُلمٌ أكبَرُ، وهو ظُلْم الكُفْر المذكور في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٤].

٢- ظُلمٌ أصغَرُ، وهو ما دون ذلك كظُلْم الإنسان لغيره في ماله وأَهْله، وما أَشبَه ذلك.

والمُراد بالظُّلْم هنا في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الظلمُ الأَكبَرُ.

مَسأَلةٌ: إن قال قائِل: إن الظُّلْم هو النَّقْص، ومَعروف أن الظُّلْم هو مُجاوَزة الحقِّ، فكيف نَجمَع بينهما؟

فالجَوابُ: مُجاوَزة الحقِّ نَقْص؛ لأنها نقصٌ في حقِّ الآخَر، إذ إن الواجِب أَلَّا أَتعدَّى عليه، فإذا تَعَدَّيْت عليه صِرْت ناقِصًا في حَقِّه.

وقوله تعالى: ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: ﴿مَا﴾ اسمُ مَوْصول، أيِ: الذي، محلُّه اسم (إن) مُؤخَّر، وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ صِلة المَوْصول، والمَعروف: أن صِلة الموصول لا تكون إلَّا جُملة، فكَيْف نَجعَل هذا صِلةً للمَوصول، وليس بجُملة؟

الجَوابُ أن نَقول: هذا شِبْه جُمْلة، وهو مُتعَلِّق بفِعْلٍ محذوف، تَقديره: ما استَقَرَّ في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ جميعًا حالٌ من ﴿مَا﴾ يَعنِي: حال كونه جميعًا مجموعًا لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ أي: مِثل ما في الأرض جميعًا من أوَّلها إلى آخِرها؛ أي: ما في الأرض ومثله معه مُضافًا إليه. ونُشير إلى أن قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لم يُفسِّرها

المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولم يُبَيِّنها، ولكن بيَّنَّا نحن في التَّفسير أنها تَحتَمِل الظُّلْم الأكبَر وهو الشِّرْك، والأَصغَر وهو ما دونَه، ولكن يَظهَر -والله تعالى أَعلَمُ- أن المُراد بها الأكبَرُ.

وقوله تعالى: ﴿لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: دفَعوه فِداءً يَفْدون به أَنفُسهم من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، ويَكون هذا يوم القِيامة، وفيه يَتمَنَّى هؤلاء أن يَكون لهم ما في الأرض جميعًا ومِثله معه؛ ليَدفَعوا عنهم العذاب، ولكن لا يَحصُل، وقد طُلِب منهم في الدنيا ما هو أَهوَنُ من ذلك، طُلِب منهم أن يَعبُدوا الله تعالى وحدَه لا شريكَ له، وأن يَقوموا بشريعته، وهو سَهْل، لكنهم -والعِياذُ بالله- استكْبَروا، فقوله تعالى: ﴿لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: من العَذاب السيِّئ الذي ليس له نَظيرٌ في الدنيا، ولا يُمكِن أن يَضبِطه الذِّهْن بتَخيُّل؛ لأنهم كما أن في الجَنَّة ما لا عَيْنٌ رأَتْ ولا أُذُنٌ سمِعَت ولا خطَر بقَلْب بشَر من النعيم، فكذلك ما في النار من العَذاب.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ هو اليوم الذي يُبعَـث فيه الناس، وسُمِّيَ: يومَ القيامة لأُمورٍ ثلاثة:

أوَّلًا: لأن الناس يَقومون فيه لربِّ العالَمين كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦].

والثاني: أنه يُقام فيه العَدْل كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْـلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء:١٤٧].

والثالِث: لأنه يَقوم فيه الأَشْهاد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: ظهَر لهم من عند الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: ما لم يَكُن في حُسبانهم ولا خطَر على بالهم أنهم يَجِدون هذا العذابَ، فظَنُّوا أن الأمر هيِّن، وظنُّوا أن الأصنام تَشفَع لهم، وظنُّوا ظُنونًا كثيرة، ولكن لم تَنفَعْهم هذه الظُّنونُ، وظهَر لهم شيء لم يَحتَسِبوه أبدًا ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

فقوله: (بدا لهم) أي: ظهَر لهم، و﴿سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي: سُوء ما كسَبوا من الأعمال، وهم لم يَكسِبوا إلَّا الشَّرَّ، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَبَدَا لَهُم﴾ ظهَر ﴿لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ يَظُنُّون]، والمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الشيءُ الواضِح لا يُفسِّره، ويُقال: بدَا. ويُقال: بدَأ، وبينهما فَرْق، فبَدَا بمَعنَى: ظهَر، وبدَأ بمَعنَى: ابتَدَأ، ويُقال في الأوَّل في المَصدَر: بُدُوًّا. وفي الثاني: بَدْءًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن الظالمِين لو بذَلوا كلَّ ما في الأرض؛ ليَفتَدوا به لم يَنفَعْهم، وهذا يُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن جميع ما في الدنيا يَرخَص عند العذاب حين يُشاهِده الظالِمُ؛ لقوله تعالى: ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التَّحذير من الظُّلْم؛ لأن ذِكْر هذا يَعنِي: التحذير منه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات القِيامة والبَعْث؛ لقوله تعالى: ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن العَذاب الذي يَقَع بهؤلاء الظالِمين لا يَخطُر لهم على بالٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾.

• ● ۞ ● •



الآيــة (٤٨)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزمر:٤٨].

•••

يَقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ﴾ نزل ﴿بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: العَذاب]، يَعني: حاق بهم العَذاب، أي نزَل بهم وبـدَتْ لهم سَيِّئاتهم وعرَفوها، وكانوا يَقولون: يا لَيْتَنا نُردُّ ولا نُكذِّب بآيات ربِّنا ونكون من المُؤمنيـن. قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨].

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ نـزَل بهم ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾] أي: ما كانوا يَستَهـزِئون به في الدُّنيا، أمَّا في الآخِـرة فإنهم يَقولون: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣]، إلَّا أنه في ذلك الوقتِ لا يَنفَعهم، فقَدْ كانوا في الدنيا يَستَهْزِئون ويَسخَرون من الرُّسُل، ويَسخَرون من الذين آمَنوا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٢].

سُبحانَ الله! هذه الآياتُ تَنطَبِق تمامًا على وَقْتنا كما انطَبَقَت على ما قبلُ، وهي قوله تعالى: ﴿كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾، وهذا هو الواقِع، فتَجِد هؤلاء الفَسَقة

والمُجرِمين إذا مرَّ بهم المُؤمِن التَّقيُّ جعَلوا يَضحَكون ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ﴾ أي: إذا مـرَّ المُؤمِنون بالمُجرِمين أو المُجرِمون بالمُؤمِنين كِلاهما ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يَغمِز بعضُهم بعضًا، فانظُرْ إلى هذا المِسكينِ، وانظُرْ إلى ثِيابهم مثلًا! ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ يَعنِي: يَرجِعون إلى أهلهم فكهين، أي: مَرِحين مُتفكِّهين بما قالوا في هؤلاء المُؤمِنين.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ والفاعِل في الفِعْل ﴿رَأَوْهُمْ﴾ المُجرِمـون، والمَعنَى: إذا رأَى الذين أجرَمـوا هؤلاء المُؤمِنيـن ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ تائِهون، وهذا هو الواقِعُ حتى في الوقت الحاضِـر إذا رأَوُا المُتديِّن قال: هذا مُتخلِّف، هذا رَجْعيٌّ، أو هذا أُصوليٌّ، يَعنِي: مُتشدِّدًا، وما أَشبَه ذلك.

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٣٤] في يوم القِيامة تَحصُل الضِّحْكة من المُؤمِنين على الكافِرين، وهذه الضِّحكةُ ليس بعدَها بكاءٌ، أمَّا ضِحكة أُولئِك فبعدَها البُكاء والألَمُ والحَسْرة.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٣٥] يَنظُرون ما أَنعَم الله تعالى به عليهم، ويَنظُرون ما عذَّب الله تعالى به هؤلاء.

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٦]، فهؤلاءِ المُجرِمون يَبدو لهم يوم القِيامة ما كانوا يَستَهزِئون به من شريعة الله تعالى، وجزاء الله تعالى، وما أَشبَه ذلك، وقد كانوا يَسخَرون بالرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وبما وَعَد به من النعيم، وبما وعَدَ به من العذاب، ويَقولون: يا مُحمَّدُ، إن كُنتَ صادِقًا أننا سنلقَى هذا فلْيَكُن لك أنتَ، ففجِّرِ الأرض يَنابيعَ، واجعَلِ الرِّياض مَزارِعَ نَخيلٍ، وما أَشبَه ذلك.

وهل يَرَى المُؤمِنون هؤلاءِ يَوْم القِيامة يُعذَّبون؟

الجَوابُ: نعَمْ، يَرَوْنهم ويَتَخاصَمون معَهم ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ

﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ اذهَبوا فانظُروا: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ﴾ أي: قَرينُه ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ في عُقْرِها في وسَطِها، فقال له: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات:٥١-٥٦] إلخ.

فهم يَرَوْنهم ويَتَحدَّثون معهم؛ لأن في هذا أَكبَرَ إغاظةٍ لهم، وهذا أَلَمٌ قَلْبيٌّ أَشَدُّ من الأَلَمَ البدَني، نَسأَل الله تعالى العافيةَ.

وهل يَشفَعون لهم؟

أَقول: لا؛ لأن الكُفَّار لا يُشفَع لهم؛ لأنه لا شَفاعةَ إلَّا بإِذْن الله تعالى ولا أَذِنَ الله تعالى ولا يَرضَى، أمَّا غير الكُفَّار فيَشفَعون لهم بإِذْن الله تعالى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الجَزاء من جِنْس العمَل؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات الكَسْب للعَبْد، فيَكون فيه رَدٌّ على الجَبْرية الذين يَقولون: إن الإنسان مُجبَرٌ على عمَله، فنَقول لهم: بل الإنسان غير مُجبَر، وعمَلُه مِن كَسْبه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَوبيخ هـؤلاء المُعذَّبين حيـث نزَل بهم ما كانوا به يَستَهزِئون، وقد قال الله تعالى: إنه يُقال لهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور:١٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: لأنهم كانوا في الدنيا يَسخَرون بمَن جاء بهذا النَّبأ، ويَقولون: إنه سِحْر. فيُوبَّخون يوم القيامة، ويُقال لهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الاستِهْزاء بالله تعالى وآياتِه سببٌ للعَذاب، وهو كُفْر مُخرِجٌ

عن المِلَّة؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥].

وعلى هذا يَنبَغي أن يَلحَق هذا بالنِّكاح والطلاق والرجعة والعِتق؛ لأن هَزْله جِدٌّ، وهو أَمْرٌ لا خِلافَ فيه بين العُلماءِ أن مَن قال قولًا يَستَهزِئ به في دِين الله تعالى فإنه يَكفُر.

• ● ۞ ● •



الآية (٤٩)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٤٩].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أي: أَصابه، والمُراد بالإنسان هنا: الجِنْس، وقيل: المُراد به: الكافِر، فأمَّا مَن قال: المُراد به: الجِنْس، وإنه شامِل للمُؤمِن والكافِر قال: إن هذه هي طَبيعة الإنسان، وإن المُؤمِن الذي يَعترِف لله تعالى بالنِّعَم ويَشكُرها، وهذا خارِجٌ عن طبيعة الإنسان، يَعنِي: أن الله تعالى مَنَّ عليه، فخرَج عن مُقتَضى طبيعة البَشَر.

وأمَّا مَن قال: إن المُراد به أيِ: الإنسان الكافِر، فيَكون من باب العامِّ الذي أُريد به الخاص، قال: لأن هذا الوَصفَ المَذكور لا يَكون إلَّا من الكافِر، هو الذي إذا مسَّه الضُّرُّ ابتَغى، يَعنِي: رجَع إلى الله تعالى، وإذا أَعطاه النِّعْمة بطِر بها وقال: ليس لأحَد عليَّ فيها فَضْل، وإنما ذلك على عِلْم، وهذا الأخيرُ أقرَبُ؛ لأن المُؤمِن إذا خوَّله الله تعالى نِعْمة شكَر ولم يَقُل: أُوتيتُه على عِلْم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ الجِنْس] يَعنِي: المُراد بالإنسان الجِنْس، فيَشمَل المُؤمِن والكافِر، ولكن تَبيَّن مِمَّا تَكلَّمنا فيه أن الظاهِر أن المُراد به: الكافِر فيَكون عامًّا أُريد به الخاصُّ، والعامُّ الذي يُراد به الخاصُّ مَوْجود في اللغة العربية

بكَثْـرة، مثـل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣]، فنَحْن نَعلَم أنه ليـس كل الناس جاؤُوا يَقولون بل القائِل واحِـد، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ أيضًا نَعلَم أنه ليس جميع الناس جمَعوا، وإنما المُراد واحِد أو أُناس مُعيَّنون، أمَّا كل بنو آدَمَ فلا، فالمُراد بالإنسان هنا: [الجِنْس] على قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعلى القول الذي اختَرْناه (الكافِر).

فإذا قال قائِل: يَقول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كيـف يَكون المُراد بالإنسان الجِنْس والكُفَّار كلهم لا يَعلَمون؟

فالجَوابُ: هناك بعض الكُفَّار يَعلَم حَقَّ ما هو عليه، لكنه مُعانِد.

وإذا قِيل: في الآية: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَقول في الحاشِية: فيه دَلالة على أن المُراد بالإنسان الجِنْس، فكيف استَدَلَّ بهذا؟

الجَوابُ: لَمَّا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإن هناك مَن يَعلَم وهُمُ المُؤمِنون، فيَكون المرادُ بـ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ الجِنْس؛ لأن غيـر المُؤمِن كلهم لا يَعلَمون، والراجِح أنه الكافِر.

والجوابُ عن هذا: أن نَقول: مِن الكُفَّار مَن يَعلَم، لكنه مُستكبِر.

فإذا قال قائِل: هناك بعض المُؤمِنين ناقِصو الإيمان إذا أُوتي النِّعْمةَ قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ ألَا يُؤيِّد أن الإنسان المَقصود به الجِنْس؟

فالجَوابُ: نعَمْ، لكن هو كافِر بهذه المَقالةِ، ليس كافِرًا كُفرًا مُخرِجًا عن المِلَّة، إنما هو بهذه المَقالةِ كافِر.

وقد يَكون كافِرًا كُفْرًا مُخرِجًا عن المِلَّة، إذا اعتَقَد أن الله تعالى ليس له سبَب في

حُصول هذه النِّعمةِ، وأنه هو الذي حصَلت به، لا أنه سبَب فهو كُفْر؛ لأن إضافة النِّعَم إلى أسبابها بالإعراض عن المُسبِّب وهو الله تعالى، واعتِقادُ أن هذه النِّعمةَ ليس لله تعالى فيها عَلاقة فهذا كُفْر بالرُّبوبية.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ﴾ أَعطَيْناه ﴿نِعْمَةً﴾ إِنعامًا ﴿مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً﴾ أي: إنعامًا] في هذا نظَر؛ لأن الإنعام فِعْل المُنعِم، والنِّعمة عَطاء المُنعِم، يَعنِي: الشيء المُعطَى، فهل الأَليقُ أن نُفسِّر النِّعْمة بالإنعام، أو أن نُفسِّر النِّعمة بما أُعطيَه الإنسان؟

الجَوابُ: الثاني هو الظاهِر وهو والواقِع أيضًا؛ لأن التَّخويل، يَعنِي: أن هناك شيئًا مُخوَّلًا وهو النِّعْمة من أولاد ورِزق وزَوْجات ومَساكِنَ وغير هذا.

فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي: سألنا أن نكشِف ضُرَّه ثُمَّ إذا كشَفْنا الضُّرَّ وخوَّلناه نِعمةً منَّا بزَوال الضَّرَر الذي حصَل له قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يَعنِي: أُوتِيت هذا الشيءَ على عِلْم، وما المُراد بالعِلْم هنا: هلِ المَعنَى أُوتِيته على عِلْم من الله تعالى أني له أَهْل فأنا جَديرٌ به ومُستَحِقٌّ له أو المَعنى: على عِلْم مِنِّي بوجود المَكاسِب.

فهو يَشمَل الأَمْرين فهو يَقول: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ بأني أَهْل له وأُوتيته أيضًا من كَسْبي، فيَكون بذلك مانًّا على الله عَزَّوَجَلَّ، ويَكون مُستَبِدًّا بنَفْسه يَجمَع بين الأمرين:

الأوَّل: المِنَّة ويَقول: ليس لله تعالى فَضْل عليَّ، بل هو أَعطاني ذلك لأنه يَعلَم أنني أهلٌ لذلك.

والثاني: الاعتِداد بالنَّفْس وعدَم إرجاع الحَقِّ لله عَزَّوَجَلَّ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۭ﴾ مِن الله بأَنِّي له أَهْل] وهذا أَحَدُ القَوْلين في الآية، والقول الثاني: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ أي: على حِذق ومَهارة فيما فعَلت، والضمير يَرجِع إلى ما خُوِّل، أي: أُوتيت الذي خوَّلته، فالهاء في ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ يَعود على المُخوَّل.

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾: ﴿بَلۡ هِيَ﴾ هل يَقصِد المَقالة أو الحال؟

الجَوابُ: يُحتَمل هذا وهذا، ويُحتَمَل أن الله عَزَّوَجَلَّ إذا أَعطاهم هذه النِّعَم أَعطاه إيَّاها فِتنةً له، ويُحتَمَل أن هذه المَقالةَ فِتنةٌ له؛ ولكن المَعنَى الأوَّل أَقرَبُ: أن الله تعالى يَفتِن العبد بإزالة الضَّرَر عنه وحصول الخير والنِّعْمة، وكم من إنسان افتُتِن بنِعَم الله عَزَّوَجَلَّ، فكان مُستَقيمًا وبالنِّعْمة يَنحَرِف، وفي الحديث أن الله تعالى قال: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْفَقْرُ»(١)، فالله عَزَّوَجَلَّ على كل شيء قَدير، وقد يَختار لعَبْده ما هو أَنفَعُ من حيث لا يَشعُر.

فالظاهِر أن المُراد: بقوله تعالى: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: بل هذه الحالُ فِتْنة، وهي تَحويل النِّعَم، وقد قال سُلَيمانُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَلۡ هِيَ﴾ أيِ: القَولة ﴿فِتۡنَةٞ﴾ بليَّة يُبتَلى بها العَبْد] هذا ما جرَى عليه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المُراد بالفِتْنة: القولةُ التي قالها.

ولكن الصحيح: أن الفِتنة هي النِّعْمة التي أَعطاها الله تعالى إيَّاه، أو الحال التي كان عليها حينما كان قد مَسَّه الضُّرُّ، ثُمَّ رفَع الضُّرُّ عنه وأُبدِل بنِعْمة فهذه فِتنة يَفتِن

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨ - ٣١٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٢٣١)، من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الله تعالى بها العِباد، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستِدْراك هنا يَعنِي أن هؤلاء الذين غُمِروا بنِعْمة الله تعالى غفَلوا عن المُنعِم بها وعن مُسْديها ومُوليها، فكانوا لا يَعلَمون شُكْر هذا المُنعِم، وكانوا لا يَعلَمون أيضًا أنها فِتْنة، بل يَأخُذ الإنسان النِّعَم على أنها أمرٌ طَبيعيٌّ ويَغفُل عن أن الله تعالى يَمتَحِنه بها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن التَّخويل استِدْراجٌ وامتِحان] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: أكثَر الناس، وإنما عاد الضمير وهو غائِب على مَرجِعٍ غير مَذكور للقَرينة والسِّياق، ويُحتَمَل أن المُراد ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: أكثَر بني الإنسان فيَكون الضمير هنا عاد على الإنسان باعتِبار المَعنَى لا باعتِبار اللَّفْظ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أن التَّخويل استِدْراجٌ وامتِحان] إذا قال قائِل: بماذا نَعلَم أن التَّخويل استِدراجٌ وامتِحان؟

فالجَوابُ: نَعلَم ذلك لكون الإنسان مُصِرًّا على المَعصية ونِعَم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَتْرَى عليه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]، فهذه هي العَلامة.

فإذا رأَيْت الله تعالى يُنعِم عليك وأنت مُقيمٌ على مَعصيته فاعلَمْ أن ذلك استِدراج، أمَّا إذا رأَيْت الله تعالى يُنعِم عليك وأنت قائِمٌ بطاعته فاعلَمْ أن هذا من زيادة فَضْله ونِعَمه، قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن الإنسان يَلجَأ إلى الله تعالى عند الشدائِد، وهذه طبيعة فِطْرية لا يَتخَلَّف عنها إلَّا مَن نُكِس قَلبُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الُمشرِكيـن في زمانِنا الذين يَدْعون مع الله تعالى غَيْـره أشَدُّ شِرْكًا من السابِقين؛ لأن السابِقين إنما يُشرِكون في الرَّخاء، وإذا مسَّهمُ الضُّرُّ لجَؤُوا إلى الله تعالى، أمَّا اللاحِقين فإنهم يُشرِكون في حال الشِّدة كما يُشرِكون في حال الرَّخاء إذا أَصابهم الضُّرُّ نادوا يا فُلانُ! يا فُلانُ! يا فُلانُ! فهذا أشَدُّ شِرْكًا من الأوَّلين، وهذا أيضًا مُخالِف للفِطْرة التي فِطْر الناس عليها، لأن الإنسان لا يَلجَأ عند الشدائد إلَّا بمَن يُؤمِن أنه يَكشِف هذه الشدائِدَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الإنسان إذا أُصيـب بالنِّعْمة نَسِيَ نِعْمة الله تعالى وأَضافها إلى غيره.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ضرَر الإعجاب بالنَّفْس حيـث يَقول تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله تعالى يَبتَلي بالنِّعَم كما يَبتَلي بالنِّقَم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾، وقد قال سُلَيمـانُ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن أكثَرَ الناس غافِلـون عن هذه المَسألةِ، أي: عن كون الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يَبتَليهم بالنِّعَم فيَظُنُّون أن النِّعَم دليلٌ على الرِّضا فيَستَمِرُّون في مَعاصيهم ويَقولون: لو كان الله تعالى غاضِبًا علينا ما أَعطانا، ولكن من العامة مَن يَقول العِبارةَ

المَشهورة: (عَطاه لا يَدُلُّ على رِضاه) فعَطاء الله تعالى لا يَدُلُّ على رِضاه، قد يَكون هذا من باب الاستِدْراج بالنِّعَم حتى يَهلِك الإنسان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران:١٧٨]، وصحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»[١].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ مِن الناس مَنْ منَّ الله عليهم بالعِلْم والفِراسة والتَّدبُّر والتَّأمُّل فعرَفوا الأمور على حَقائقها، يُؤخَذ هذا من قوله تعالى: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ فإن الأكثَر ضِدُّ الأقلِّ.

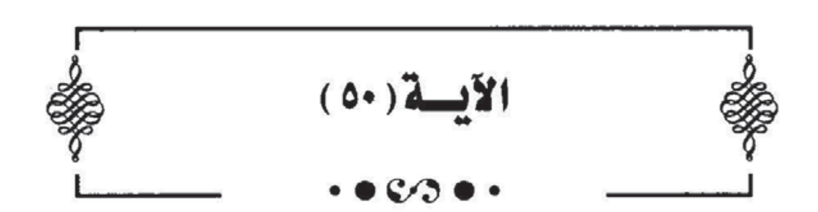
الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: فَضيلة العِلْم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لأن الذين يَعلَمون يَعرِفون هذه الأمورَ، وأنها ابتِلاء وامتِحان فيَتَّعِظون بها.

فإذا قال قائِل: إذا امتَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على العَبْد بنِعْمة متى يَعرِف العبد أن هذا امتِنان أو امتِحان؟

فالجَوابُ: إذا كان مُستَقيمًا مُقيمًا على طاعته فهو امتِنان، وإذا كان على العكس فهو امتِحان.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾، رقم (٤٦٨٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣)، من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر:٥٠].

قوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ الضمير يَعود على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ لكن قد قالها الذين من قَبْلهم مثل قارونَ كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ ثُمَّ قال الله تعالى بعدها: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾: (ما) هذه نافِية و﴿أَغْنَىٰ﴾ بمَعنَى: دفَع، أي: ما دفَع عنهم ما كانوا يَكسِبون، أي: لم يُغنِ عنهم ما كَسَبوا شيئًا من عَذاب الله، وهكذا النِّعَم لا تُغنِي مَن افتَخَر بها وغفَل بها عن طاعة الله شيئًا، ألم تَرَوا إلى عاد استكْبَروا في الأرض ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]؛ لأن الله تعالى أَعطاهم قوَّة عظيمة، فقال الله تعالى ردًّا على طُغيانهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ وتَأمَّلوا كيف عُذِّب هؤلاء! بالرِّيح وهي أَلطَف شيء فعُذِّبوا بها انتِقامًا منهم حين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ يَعني: لم يَهلِكوا بالصواعِق ولا بالحاصِب من السماء، وإنما أُهلِكوا بهذه الريحِ اللَّطيفة حتى إنهم لمَّا رأَوْا ما جاءت

به هذه الريحُ من الرِّمال ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَا﴾ فقال الله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف:٢٤].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من الأُمَم كقارونَ وقومه الراضِين بها] أي: بهذه المَقالةِ، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: قالوا بعد أن أَعطاهم الله تعالى النِّعَم: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾.

وهذا قد صرَّح الله تعالى به عن قارونَ في سورة القَصص حين خرَج على قومه في زينته فنَصَحوه، وقالوا له: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨]، فالمَقالة هي المَقالة، وقد سبَق أن الإنسان يُعجَب بعمَله فيَظُنُّ أن ما حصَل له من النِّعَم بسبَب عمَله مع أنه من فَضْل الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾: (ما) هـذه نافية وقد سبَق شَرْحها.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أي: جَـزاؤها] أيِ: السَّيِّئات، ولكنه عبَّر بالسيِّئات نفسِها؛ لأن الجزاء من جِنْس العمَل وهو مُقابِلٌ لها لا يَزيد.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن الشَّرَّ يَتْبَع بعضُه بعضًا؛ لقوله: ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَسلية الرسول ﷺ فإن هؤلاء الذين قالوا هذا في عَصْره قد قاله مَن سبَقَهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن لأهل الشَّرِّ قُدوةً يَقتَدون بها كما أن لأهل الخَير قُدوةً يَقتَدون

بها؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبيِّ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١).

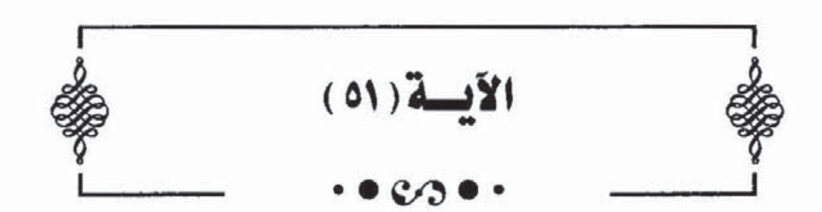
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن كل ما كسَبه الإنسان من مال أو جاهٍ فإنه لا يُغنيه من الله تعالى شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ حتى لو كسَب أقوى صَنْعة في الأرض فإنها لا تُغنِي عنه من الله تعالى شيئًا، وإذا أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُتلِف هذه القُوَّةَ أتلَفَها بكلِمةٍ واحِدةٍ منه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه يَجِب على الإنسان اللُّجوء إلى الله تعالى، حيث إن جميع ما كسَبه من مال، أو جاهٍ، أو ولد، أو زوجة، أو غيره لا تُغنِي عنه من الله تعالى شيئًا، فلا يَرجِع إلَّا إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الردُّ على الجَبْرية؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فإن عمَلَ الإنسان كَسْبٌ له، أمَّا الجَبْرية فيقولون: إن عمَل الإنسان ليس كَسْبًا له؛ لأنه مُرغَمٌ عليه ومُجبَرٌ عليه فلا يَكون كَسْبًا له، ولا يُضاف إليه.

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآية (٥١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر:٥١].

• • ❁ • •

قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ يَعنِي: أَصابهم جزاءُ السيِّئات، لكنه سمَّى الجزاء سَيِّئاتٍ؛ لأن السَّيِّئاتِ سببُه، وليَتبيَّن بذلك أن الجزاء على قَدْر العمَل لا يَختلِف، فكأنه هو نَفْس العمَل.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ الواو في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ استِئْنافية، و(الذين) مُبتَدأ، وجُملة: ﴿سَيُصِيبُهُمْ﴾ خبَر ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ كما أَصاب مَن قَبْلهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾: (ما) نافِية، وهل هي حِجازيةٌ أو تَميميةٌ؟

الواقِع أنه ليس في اللَّفْظ ما يَدُلُّ على هذا ولا على هذا، ولكن القرآن بلُغة قُرَيْشٍ بدليل قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١]، وعلى هذا فتُحمَل (ما) كُلَّما جاءَت على أنها حِجازية، ولكن كيف نُعرِبها في مثل هذا التَّركيبِ: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾؟

نَقول: (هُمْ) اسمُها، والباء حرف جَرٍّ زائِدٌ، و(مُعجِزين) خبَرُها منصوبٌ بياء مُقدَّرة محَلَّ الياء المَوجودة؛ لأن الياء الموجودة علامة الجَرِّ وليسَتْ علامة النَّصْب،

بل هي علامـة الجَرِّ بحرف الجَرِّ الزائِد الباء، فجعَلنا العمَل للظاهِر وهو الباء، أمَّا المَحلُّ فقدَّرْناه تقديرًا، وعلى هذا فيَكون مَنصوبًا بياء مُقدَّرة بدَل الياء التي عمِل فيها حرفُ الجَرِّ الزائِد.

وقوله تعالى: ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ اسمُ فاعِل من الفِعْل (أَعجَز)، يَعنِي: لن يُعجِز الله عَزَّوَجَلَّ فلا يَستَطيع أن يُعاقِبهم، بل عُقوبتهم أَمْرٌ هيِّن على الله عَزَّوَجَلَّ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: قُرَيْش ﴿سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ بفائِتِين عذابَنا، فقُحِطوا سبع سِنينَ، ثم وُسِّع عليهم]؛ فقُحِطوا سبع سِنينَ بدَعْوة النبيِّ ﷺ حين قال: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ**»[1]، فقُحِطوا سبع سِنِينَ قَحْطًا شديدًا حتى إن الإنسان منهم يَتراءَى السماء فيَحول بينه وبينها غبَشٌ كأنه دُخَان من شِدَّة الجوع والتَّعَب.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن العُقـوبة تَكون على قدر العمَل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ﴾ مع أنه الذي أَصابهم ليست سَيِّئاتٍ ولكِنْ جزاؤُها، إلَّا أنه لمَّا كان الجزاء من جِنْس العمَل صحَّ أن يُعبَّر بالعمَل عنه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تهديد هؤلاء الذين كانوا في عهد النبيِّ ﷺ أن يُصيبهم ما أَصاب الأوَّلين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: شُؤْم الظُّلْم؛ لأنه يُوقِع صاحِبه بالهَلاك.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب دعاء النبي ﷺ: «اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»، رقم (١٠٠٧)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب الدخان، رقم (٢٧٩٨)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن مَن عصَى الله تعالى فهو ظالِمٌ لنفسه، وكذلك لغيره إن تَعدَّت معصيته إلى الغير، فلو جنَى على أحَدٍ مُحتَرَم من مُسلِم أو يَهودِيٍّ ذِمِّيٍّ أو نَصرانيٍّ ذِمِّيٍّ أو غيرهم من أهل ا الكُفْر الذِّمِّيِّين فإنه يَكون ظالِمًا لنفسه وظالِمًا لغيره.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه لا أحَدَ يَفوت الله تعالى ويُعجِزه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، وقد قال الشاعِر الجاهِليُّ:

أَيْـنَ المَفَـرُّ وَالْإِلَـهُ الطَّالِـبُ ... وَالْأَشْرَمُ المَغْلُـوبُ لَـيْسَ الْغَالِـبُ[1]

فلا أحَدَ يُعجِز الله عَزَّوَجَلَّ، أو يَفوت الله تعالى لا في السماءِ ولا في الأرض.

• • ۞ • •

(١) نسبه ابن هشام في السيرة (١/ ٥٣) لنفيل بن حبيب.



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر:٥٢].

•●ෆ●•

ارتباط هذه الآيةِ بما قبلها ظاهِر؛ لأنه تَكلَّم عن الإنسان إذا أَصابه الضُّرُّ، وإذا أَصابته النِّعْمة، ثُم عقَّب ذلك بأن هذا الأمرَ كلَّه بيَدِ الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ﴾ الهمزة هنا للاستِفْهام، والواو حرف عَطْف، والمعطوف عليه إمَّا أن يَكون مَحذوفًا ويُقدَّر بما يُناسِب المَقام، وإمَّا أن يَكون على ما سبَق، فإذا قُلْنا: إنه ما سبَق كانت الهَمزةُ في تَقدير التأخير عن حَرْف العَطْف، والتَّقدير: وألَمْ يَعلَموا، وإذا قُلنا بالأوَّل صارَتِ الهَمزةُ داخِلةً على محذوف تَقديرُه: أجِهلوا ولم يَعلَموا.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾: ﴿يَبْسُطُ﴾ يَعنِي: يُوسِّع و﴿ٱلرِّزْقَ﴾ العِطاء.

وقوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ لَمِن يَشاء أن يُوسِّعه له امتِحانًا لهذا الشخصِ الذي بَسَط له.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يَعنِي: يُضيِّق امتِحانًا أيضًا؛ لأن الضِّيق فيه امتِحان، والسَّعة فيها امتِحان، لكن الغالِب عند الناس في العُرْف: أن الضِّيق يُسمَّى ابتِلاءً،

أي: بلاء، وأمَّا التَّوْسِعة فهي امتِحان مع أن الابتِلاء بمَعنَى الامتِحان، فإن الإنسان يُبتَلى فيما يُبتَلى به ليَمتَحِنه الله عَزَّوَجَلَّ هل يَصبِر أو يَتضَجَّر، وأمَّا ما ابتَلَى الله تعالى به من النِّعَم فهو هل يَشكُر أو يَكفُر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المُشار إليه البَسْط والتَّضييق، و﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: علامات على أن الله تعالى وحدَه هو المُتصَرِّف؛ ولهذا نَجِد بعض الناس يَكون عنده حِذقٌ في البَيع والشِّراء وتَحصيل المال، وعنده قُدرة، وعنده قُوَّة، ولكن يُضيَّق عليه، ونَجِد بعض الناس دون هذا، يَعنِي: أنه لا يَهتَمُّ بالأمور، وليس عنده ذاك الحِذقُ فيُوسِّع الله تعالى عليه، وهذا يَدُلُّ على أن الله عَزَّوَجَلَّ هو المُتصرِّف في عِباده يُوسِّع على هذا ويَقدِر على هذا، ولكن لا يَعنِي هذا أننا لا نَفعَل الأسباب، كما سنَذكُر -إن شاء الله تعالى- في الفوائِد.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يُوسِّعه ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ امتِحانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضيِّقه لمَن يَشاء ابتِلاءً].

والحَقيقة أن التَّوسيع والتَّضييق كِلاهما امتِحان، وكِلاهما ابتِلاء، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥]، لكن مشَى المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذا من باب اختِلاف التَّعبير والمَعنَى واحِد.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به] أي: بهذا البَسطِ والتَّضييق، فمَن آمَن بذلك -أي: بالله عَزَّوَجَلَّ وببَسْطه وتَضييقه- عرَف بذلك حِكْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَقرير هؤلاء بأن كل شيء من عِند الله تعالى؛ بَسْط الرِّزْق، وتَضييقُه من عند الله تعالى، وهم يَعلَمون ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ فإن مثل هذا التَّركيبَ يُفيد التَّقرير.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات المَشيئة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ وليُعلَم أن كل شيء علَّقه الله تعالى بالمَشيئة فإنه مَقرونٌ بالحِكْمة. أي أنه ليسَتْ مَشيئة الله تعالى مَشيئةً مُجرَّدة هكذا، تَأتي عفوًا، بل هي مَشيئة مَقرونة بالحِكْمة، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، فلمَّا بيَّن أن مَشيئتهم بمَشيئة الله تعالى بيَّن أن ذلك مَبنيٌّ على عِلْمٍ وحِكْمة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الرِّزْق لا يَحصُل بالحِذْق، وإنما هو من عند الله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، فإذا قُلْنا بهذه الفائدةِ أَشكَل علينا: هل مَعنَى ذلك أن نُبطِل الأسباب؟

والجوابُ: لا، بل نَفعَل أسباب بَسْط الرِّزْق لنَتَحاشَى تَضييقه، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك:١٥]، فأَمَر أن نَمشِيَ في مَناكِبها وأن نَأكُل من رِزْقه؛ لأننا إذا مَشَيْنا في المَناكِب وسَعَيْنا في أسباب الرِّزق حصَلَ فأَكَلْنا من الرِّزْق.

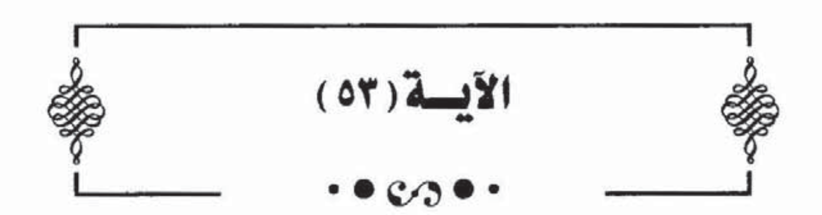
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَمام مُلْك الله تعالى وسُلطانه؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ﴾ ﴿وَيَقْدِرُ﴾ وهذا يَدُلُّ على تَمام المُلْك والسُّلْطان، وأنه لا مُعارِض له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الإيمان وَسِيلة للاهتِداء ومَعرِفة الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وإذا كان هذا الحُكمُ مُعلَّقًا على هذا الوصفِ، فإن القاعِدة: أن ما عُلِّق على وَصْفٍ فإنه يَقوَى بقُوَّته ويَضعُف بضَعْفه.

إذن: كلَّما قوِيَ الإيمان ظهَر للإنسان من آيات الله تعالى ما لم يَظهَر له مع ضَعْف الإيمان، وكلَّما ضَعُف الإيمان ضَعُفت مَعرِفة الإنسان وإدراكُه للآيات التي يُنزِلها الله عَزَّوَجَلَّ من الوَحْيِ والتي يُقدِّرها من القضاء.

• ● ۞ ● •



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

• ● ○ ● •

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ الخِطاب للنبيِّ ﷺ؛ لأنه هو الذي أُوحِيَ إليه هذا القرآنُ، واعلَمْ أن القُرآن كلَّه قد قيل للنَّبيِّ ﷺ فيه: ﴿قُلْ﴾، لكن بعضه يُصرَّح فيه بـ﴿قُلْ﴾، وبعضه لا يُصرَّح؛ لأن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، يَعُمُّ القُرآن كلَّه، فيَجِب عليه أن يَقول للناس القُرآن كلَّه، لكن بعض الآيات أو بعض الأحكام تُصدَّر بـ﴿قُلْ﴾ للعِناية بذلك، أي: بذلك الحُكمِ المُصدَّر بـ﴿قُلْ﴾، فهنا يَقول الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: قُلْ يا مُحَمَّدُ ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: قُلْ لهم مُبلِّغًا عن الله تعالى أن الله تعالى قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يَعنِي: أَبلِغ عِبادي بذلك، أَبلِغْهم بأني أَقول: يا عِبادي، ولا يَصِحُّ أن نَقول: قل أنت يا مُحَمَّدُ: يا عِبادي. فتُضيف المَعنَى إلى نَفْسك، بل المَعنَى: أَبلِغْ عِبادي أني أَقول: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وقُلْنا بهذا التَّفسيرِ؛ لأن

النبيَّ ﷺ لو قال للناس: (يا عِبادي الذين أسرَفوا على أنفُسِهم) فإنه لا يَستَقيم الكلام، ولكن المَعنَى: قل للناس. أي: أَبلِغْهم بأني أَقول: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾، وفي قِراءة أُخرى: (لَا تُقْنِطوا).

فإن قال قائِل: كيف يُبلِغ النبيُّ ﷺ قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؟

فالجَوابُ: المَعنَى هنا: قل مُبلِغًا عَنِّي: يا عبادي. فيَقول الرسول ﷺ مثَلًا: قال ربُّكم: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ﴾، فهذا كيفية إبلاغ هذه الآيةِ.

وقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ يَشمَل العِباد بالمَعنَى الخاصِّ، والعِباد بالمَعنَى العامِّ، يَعنِي: حتى الكُفَّار، يُقال لهم مثلُ هذا القولِ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: جاوَزوا الحَدَّ في الرِّعاية على الأنفُس، والواجِب على الإنسان في رِعاية نَفْسه أن يَرعاها حَقَّ رِعايتها بحيث يَقوم بما يُصلِحها ويَتجَنَّب ما يُفسِدها، فإذا لم يَفعَل فقد أَسرَف على نَفْسه.

فالمُراد بالإِسْراف أنهم جاوَزوا الحَدَّ في رِعايتها، وذلك بأن أَوْقَعوها في المَعاصِي أو جنَّبوها الطاعاتِ؛ مثال ذلك: رجُل سرَق، والسرِقة إسراف على النَّفْس؛ لأن الواجِب: حِماية النَّفْس من السرِقة، وكذلك رجُل شرِب الخَمْر، هذا إسراف على النَّفْس، وأيضا رجُل سجَد لصَنَم، فهذا إسراف على النَّفْس؛ لأنه مُجاوَزة للحَدِّ.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ القُنوط واليَأس مَعناهُما مُتَقارِب، لكنهم فرَّقوا بينهما بأن القُنوط أَشَدُّ اليأسِ، وأمَّا اليَأْس فمَعروف أنه عدَم الرجاء وعدَم الأمَل في حُصول الشيء؛ فقوله تعالى: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: من رحمة الله لكم؛ فـ(رَحْمة) هنا مُضافة إلى الفاعِل، أي: من رحمة الله تعالى إيَّاكم.

وتكون الرحمة بأن يَهدِيَ الله عَزَّوَجَلَّ الرجُل إلى التَّوْبة والاستِغْفار ويَتوب عليه، فأنت لا تَقنَط من رحمة الله تعالى لا بنَفْسك ولا بغَيْرك، ولكنِ افعَلِ السبَب؛ فلو قال قائِلٌ مُسرِفٌ على نَفْسه: أنا لا أَقنَطُ من رحمة الله. ولكنه يَفعَل المَعصية مُستَمِرٌّ عليها، نَقول: هذا غلَط؛ لأنك إذا استَمْرَرْت على المَعصية فأنت آمِنٌ من مَكْر الله تعالى.

وكلا الطَّرَفين ذَميم: القُنوط من رحمة الله تعالى، والأَمْن من مَكْر الله تعالى، لكن نَقول: افعَلِ السبَب ولا تَقنَط من رحمة الله تعالى.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [(لَا تقْنِطُوا) بكَسْر النون وفتحها، وقُرِئَ بضَمِّها] ففيها ثلاث قِراءات: قِراءتان سَبْعيَّتان وقِراءة شاذَّة ليست سَبْعية؛ لأن مُصطَلَح مُؤلِّف الجلالَيْن رَحِمَهُ اللَّهُ إذا قال: (فِي قِراءة) فهي سَبْعية، وإذا قال: (قُرِئ) فهي شاذَّة، وإذا قال: بفَتْح وضَمٍّ فهما سَبْعيتان، فهنا الآنَ قوله تعالى: ﴿تَقْنَطُوا﴾ في النون ثلاث حرَكات: (تقنِطوا) ﴿تَقْنَطُوا﴾ وهاتان سَبعيتان، و(تقنُطوا) وهذه شاذَّة، والقِراءة الشاذَّة لا يُقرَأ بها في الصلاة، لكن يُستَدَلُّ بها في الأحكام إذا صحَّتْ؛ وقال شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: بل إذا صحَّتْ، فإنه يُقرَأ بها في الصلاة كما يُستَدَلُّ بها في الأحكام.

والفَرْق بين الشاذَّة والسَّبْعية أن العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ اصطَلَحوا أن ما جاء عن طريق القُرَّاء السَّبْعة المَشهورين فهي سَبْعية، وما جاء عن طريقٍ آخَرَ، ولو صحَّ فهو عندهم شاذٌّ.

فالشاذُّ إِذَنْ: ما خرَج عن القِراءات السَّبْع، ولكنه يُحتَجُّ به في الأحكام، ولا يُقرَأ به في الصلاة إلَّا في رأْيِ شيخ الإسلام ابنِ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه يَقول: متى صحَّتِ

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٩٢-٣٩٣).

القِراءة عن النبيِّ ﷺ فإنها تُقرَأ في الصلاة وإن لم تكُن من القِراءات السَّبْع.

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير (تَقْنِطُوا): [تَيْأَسوا] والصحيح: أن هذا التَّفسيرَ تقريب؛ لأن القُنوط أشَدُّ اليَأْس، فهو أعلى درَجات اليَأْس فمَعنَى (تَقْنِطُوا) أي: يَبلُغ بكم اليَأْس أَشدَّه.

وقوله تعالى: ﴿مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ يَعنِي: من أن يَرحمكم الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الإنسان إذا قنَط من رحمة الله تعالى وأَيِس لم يَتعرَّض للرحمة؛ لأنه آيِسٌ؛ ولهذا يُقال: اليَأْس مِفتاح التَّرْك. وأَضرِب لكم مثَلًا: حاوِلْ أن تَحُلَّ عُقدةً من خَيْط، فإذا أَعْيَتْك فإنك تَترُكها، وإذا أَيِسْت منها ترَكْتها، لكن بالنسبة لرحمة الله تعالى لا تَيْأَس مهما عمِلت من الذُّنوب والمَعاصِي فلا تَيْأَس.

وهنا نهيٌ وتَعليل: النهيُ في قوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، والتَّعليل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لَمِن تابَ من الشِّرْك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾]، قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ﴾ مَأخوذٌ من المَغفِرة، وهي: سَتْر الذَّنْب والتَّجاوُز عنه، وليسَتْ مُجرَّد السَّتْر؛ لأنها مَأخوذة من المِغفَر، وهو ما يُوضَع على الرأس عند الجِهاد للوِقاية، فهو جامِعٌ لأَمْرين: السَّتْر والوِقاية؛ فمثَلًا: الغُتْرة هذه لا نُسمِّيها مِغْفَرًا، وأيضًا الطاقية؛ لأنها مع أنها ساتِرة، لكنها ليسَتْ واقِيةً، لكن بَيْضة الحديد التي تُوضَع على الرأس عند القِتال نُسمِّيها: مِغفَرًا؛ لأنها ساتِرةٌ واقِية، فمَغفِرة الذُّنوب سَتْرها والتَّجاوُز عنها، فأنت إذا قلتَ: (اللهُمَّ اغفِرْ لي) تَسأَل الله تعالى شَيْئين: أن يَستُر ذُنوبك عن غيرك، والثانية أن يَتجاوَز الله تعالى عنها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلذُّنُوبَ﴾ هذه صيغة عُموم، وأكَّد هذا العُمومَ بقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾.

وهذه المَغفِرةُ التي أَثبَتَها الله عَزَّوَجَلَّ شامِلةٌ لكل ذَنْب فيمَن تاب، فكُلُّ مَن تاب تابَ الله تعالى عليه، أَلَا تَـرَى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠]، فهؤلاء جمعوا بين الشِّرْك وقَتْل النَّفس، وهو اعتِداءٌ على النُّفوس، والزِّنا وهو اعتِداءٌ على الأعراض والأَخْلاق، ومع ذلك إذا تابوا تابَ الله تعالى عليهم.

وهذه الآيةُ أَجمَعَ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ على أنها في التائِبين؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولم يُقيِّد فهي في التائِبين؛ أمَّا غير التائِبين فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، فغَيْر التائبين نَجزِم بأن الله تعالى لا يَغفِر الشِّرْك في حَقِّهم، وما دون الشِّرْك تحت المَشيئة إن شاء عَذَّب وإن شاء غفَرَ.

فلِلإِنْسان حالان:

الحالُ الأُولى: التَّوْبة، فحُكْم ذَنْبه حينئذٍ الغُفران مهما عظُم الذَّنْب.

الحالُ الثانية: عدَم التَّوْبة، يَعنِي: بدون التَّوْبة نَقول: الشِّرْك لا يُغفَر قَطْعًا، وما دون الشِّرْك تحت المَشيئة.

ويُستَدَلُّ بالآية التي ذكَرْناها استِشْهادًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ

مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ يَستَدِلُّ بها المُسرِفون على أنفسهم بالمَعاصِي، فإذا نَهَيْتهم عن مَعصية قالوا لك: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

ونقول له -بكُلِّ بَساطة-: وهل تَجزِم أنت أنك ممَّن شاء الله تعالى أن يُغفَر له؟

الجَوابُ: لا، إذَنْ أنت على خطَر، وأنت الآنَ فَعَلْت سبب العُقوبة، وكونُكَ يُغفَر لكَ فهذا أَمْرٌ راجِع إلى مَشيئة الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الجُملة تَعليلٌ للحُكْم الذي قبلها وهو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ والجُملة هنا مُؤكَّدة بمُؤكِّدين، هما: (إن) و(هو) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أمَّا كون (إنَّ) مُؤكِّدة فظاهِر؛ لأن (إنَّ) من أَدوات التَّوْكيد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كلِمة ﴿هُوَ﴾ لو حُذِفت لاستَقام الكلام بدونها، ويُسمِّيها النَّحويُّون: ضميرَ فَصْل، وبعضُهم يُسمِّيها: عِمادًا، وليس ضَميرَ الشَّأْن، وضمير الشأن هو الضمير الذي يَدُلُّ على القِصَّة، وليس مَوْجودًا، وإنما يَكون في الغالِب مَحذوفًا.

يَقولون: إن في ضمير الفِصْل ثلاثَ فوائِدَ:

الفائِدةُ الأُولى: التَّوْكيد.

الفائِدةُ الثانيةُ: الحَصْر.

الفائِدةُ الثالِثةُ: التَّمييز بين الخَبَر والصِّفة.

مثالُه: إذا قُلتَ: زيدٌ هو الفاضِل؛ فالضَّمير في (هو) ضمير فَصْل، ولو قُلتَ: زيدٌ الفاضِلُ. وحذَفْت الضميرَ لاستَقام الكلامُ، ولكن يُحتَمَل أن يَكون (الفاضِلُ) صِفةً، والخَبَر مُنتَظَرًا، ويُحتَمَل أن يَكون (الفاضِلُ) هو الخبَر، فإذا قلتَ: زيدٌ هو

الفاضِل. ارتَفَع الاحتِمال الأوَّل، وهو أن يَكون الفاضِل صِفَةً، وتَعيَّن الاحتِمالُ الثاني وهي: أن تَكون خبَرًا.

فاستَفَدْنا إذَنْ من هذا التَّركيبِ: (زَيْدٌ هو الفاضِل) فوائِدَ منها:

أوَّلًا: تَوْكيد الفَضْل في زَيْد.

ثانِيًا: حَصْر الفَضْل في زَيْد.

ثالِثًا: التَّمييز بين الصِّفة والخبَر.

فالآنَ ليس عندنا احتِمال أن تَكون صِفة، هذا من حيثُ المَعنَى في ضمير الفَصْل.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فيها فائِدتان:

الفائِدةُ الأُولى: التَّوْكيد.

الفائِدة الثانِية: الحَصْر.

أمَّا التَّمييز بين المُبتَدَأ والخبَر فهنا لا حاجةَ له؛ لأن الضميرَ يَقولون: إنه لا يُنعَت ولا يُنعَت به؛ وعليه: فتكون الفائِدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الحَصْرَ والتَّوْكيد.

أمَّا من حيثُ الإِعْراب فالصحيح: أنه حَرْفٌ لا مَحَلَّ له من الإعراب، حرفٌ جاء في صورة الاسم، وليس له مَحَلٌّ من الإعراب.

والدليل على أنه لا مَحَلَّ له من الإعراب: كثير في القُرآن وغير القُرآن، قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء:٤٠]؛ لأنه إذا كان له مَحَلٌّ من

الإعراب صار مَحلُّه الرفعَ وما بعده خبَر، ولكنه ليس له مَحَلٌّ من الإعراب، بل جاء عِمادًا أو جاء فَصْلًا.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ سبَقَ أن مَعنَى (المَغفِرة) سَتْـر الذَّنْب والتَّجاوُز عنه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: ذو الرحمة التي يَحصُل بها المَطلوب، فالرَّحْمة يَحصُل بها المَطلوب، والمَغفِرة يَزول بها المَرهوب، فالجَمْع بين الاسمَيْن الكريمين يُفيد السَّعادة الكامِلة، فالنَّجاة من المَرهـوب في قوله تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾؛ لأن هذا مَغفِرة للذَّنْب، وحُصول المَطلوب في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأن الرحمة يَحصُل بها المَطلوب والخَيْرات والنِّعَم، وبزَوال المَرهوب وحُصـول المَطلوب يَتِمُّ الفَوْز، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥] فقوله تعالى: ﴿زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ فيه النَّجاة من المَرهوب؛ وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ فيه حُصول المَطلوب ﴿فَقَدْ فَازَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ مَعناه: الذي يَستُـر الذَّنْـب ويَتَجاوَز عنه، وهو مُشتَقٌّ من المِغفَر وهو الذي يَستُر الرَّأْس ويَقيه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لَمِن تاب مِن الشِّرْك]، وكذلك مَن تاب مِن غيره ممَّا دونَه، لكن ذَكَر المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الشِّرْك؛ لأنه أَعظَمُ الذُّنوب؛ ولأنه لا يُغفَر إلَّا بتَوْبة، وإذا تاب الإنسان من الشِّرْك وبَقِيَ على شيء من المَعاصي كان يَقوم بها في حال كُفْره، فهل تُغفَر هذه المَعاصِي أو لا بُدَّ لها من تَوْبة؟

الصحيحُ: أنه لا بُدَّ لها من تَوْبة كما لو كان يَشرَب الخَمْر وهو كافِر، ثُم أَسلَم وبَقِي على شُرْب الخَمْر، فإن إسلامه لا يُوجِب أن يَسقُط عنه إِثْم شُرْب الخَمْر؛ لأنه

لم يَتُبْ منها، لكن إذا تاب من الشِّرْك ولم يُصِرَّ على المَعاصي الأُخرى، ولم تَطرَأ له على بالٍ فإن جميعَ ذُنوبه تُغفَر.

فالتائِبُ من الشِّرْك في الحقيقة له ثلاث حالات:

١ - إمَّا أن يَستَحضِر أنه تاب من الشِّرْك ومن جميع المَعاصي التي كان يَعلَمها، فهذا لا شكَّ في أن تَوبَتَه تَعُمُّ كلَّ ذَنْب.

٢ - وإمَّا أن يَتوب من الشِّرْك مع الإصرار على بعض المَعاصي التي كان يَفعَلها في حال الشِّرْك، فهنا لا تُغفَر له هذه المَعاصي التي أَصَرَّ عليها؛ لأنه استَمَرَّ فيها مثل أن يَكون مُعتادًا لشُرْب الخَمْر في حال كُفْره فيُسلِم وهو مُصِرٌّ على شرب الخَمْر، فإنه لا يُغفَر له ما قد سلَفَ من الذُّنوب؛ قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨].

٣ - وإمَّا أن يَتوب من الشِّرْك ولم يَطرَأ على باله بَقية المَعاصي، لكنه لم يَفعَلها بعد إسلامه، يُغفَر له جميع الذُّنوب؛ لأنها تَندَمِج الصِّغار بالكِبار فيُغفَر له جميع الذُّنوب.

فإن قال قائِل: هل يَجزِم الإنسان إذا تاب من الذَّنْب أن الله عَزَّوَجَلَّ تاب عليه؟

فالجَوابُ: نعَمْ، إذا تُبتَ توبةً نَصوحًا، فإن الله تعالى يَقبَلها، لكن مَن الذي يَقول: إن تَوبته نَصوحًا، فالمُشكِل الذي يَكون من فِعْل العَبْد لا من فِعْل الربِّ، فالربُّ إذا وقَع فِعْل العَبْد على ما يَرْضاه حصَل مَوعودُه؛ لأن الله تعالى لا يُخلِف المِيعاد، لكن الذي يَكون مَحَلَّ إشكال هو فِعْل العَبْد، هل هذه التَّوْبةُ توبة نَصوح على حسَب ما رُسِم في الشَّرْع؟ فنحن نَجزِم، لكن قد يَكون في قلب الإنسان بِلاء، فقد يَكون عنده شيءٌ من الرِّياء، أو يَكون عنده شيءٌ من المَنِّ على الله عَزَّوَجَلَّ، وغير ذلك من الأسباب، فحينئذ تَكون التَّوْبة غيرَ نَصوح.

مثل أن يَتوب الإنسان مثلًا من نظَر المَرأة الأجنبية، لكنه لا يَتوب من غَمْز المَرأة الأجنبية، فالتَّوْبة الأُولى لا تُقبَل؛ لأنه لم يَتُبْ من الذَّنْب الذي هو من جِنْس ذَنْبه، وكذلك إذا تاب الإنسان مثلًا من رِبا النَّسيئة، ولكنه رابَى رِبَا الفَضْل، فهذه توبة غيرُ نَصوحٍ.

ولهذا نَقول: مَن تاب إلى الله تَوْبةً نَصوحًا فإنه مَقبول التوبة، ومَنِ اختَلَّ فيه النُّصْح فليس مَقبولَ التوبة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ هذه الجُملةُ مَوْقعها ممَّا قَبْلَها أنها تعليلٌ للنَّهي عن القُنوط، يَعنِي: لا تَقنَطوا فإن الله تعالى يَغفِر الذنوب جميعًا إذا استَغفَرْتُموه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليلٌ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ تعليل لقوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ فهو تَعليلٌ لتَعليلٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجوب إبلاغ الرسول ﷺ عن الله تعالى هذا القولَ، ويُؤخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾؛ لأن الأصل في الأَمْر: الوجوب، لا سيَّما وأن هذا إبلاغٌ للرِّسالة، وإبلاغ الرسالة واجِبٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عِناية الله عَزَّوَجَلَّ بهذا الأَمرِ، أي: بإبلاغ عِباده أنه يَغفِر الذُّنوب جميعًا، حيث أَمَرَ نَبيَّه أمرًا خاصًّا بأن يُبلِغ الناس بالإسلام، بأن يُبلِغ الناس هذه القَضيةَ، فالقُرآن كلُّه أُمِرَ النبيُّ ﷺ أن يُبلِغه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، لكن هناك أشياءُ خاصَّة يَنُصُّ الله تعالى عليها أن يُبلِغها،

وهـذا يَقتَضِي العِناية بها، مثل قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ [النور:٣٠-٣١]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟﴾ [الزمر:٥٣]، فهـذه تَوْصية خاصَّـة بأن يُبلِغها الرسول ﷺ إلى الأُمَّة، فيَقتَضِي ذلك العِناية بهم.

ولْيُنتَبَهْ لهذه النُّقْطةِ: فإذا صدَّر الله تعالى الحُكْم بـ﴿قُلْ﴾ فهو دليل على العِناية به؛ لأن هذا أَمْر بإبلاغه على وجه الخُصـوص، أمَّا القرآن فأُمِر أن يُبلِغه على سبيل العُموم؛ لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الخَلْق كلَّهم عِباد الله تعالى ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾؛ لأن العِباد هنا المُراد بها: العِبادة العامة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن مَن تاب إلى الله تعالى تاب الله تعالى عليه من الشِّرْك فما دونَه، وهذا أمرٌ مُجمَعٌ عليه، لكن اختَلَف العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فيمَن قتَل نَفْسًا عمدًا هل له من تَوْبة؟

فرُوِيَ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه لا تَوبةَ لقاتِل(١)، فأَخذ بها بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ وقالوا: إن القاتِل لا تَوبةَ له ولو تاب، ولكن هذا ليس بصحيح؛ لأنه مُخالِف للآيات والأَحاديث الدالَّة على قَبول توبة التائِب من الشِّرْك فما دونَه.

ويَدُلُّ على بُطلان هذا القولِ قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾، رقم (٤٧٦٤)، ومسلم: كتاب التفسير، باب، رقم (٣٠٢٣).

عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

فهُنا ذكَر الله تعالى القَتْل، وذكَر الشِّرْك، وذكَر الزِّنا، وأَخبَر أن مَن تاب وآمَن وعمِل عمَلًا صالِحًا فيُعطَى زِيادةً على تَوْبته بأن يُبدِّل الله تعالى سيِّئاتِه حَسَناتٍ.

ومن السُّنَّة: ما قصَّه علينا رسول الله ﷺ عن رجُلٍ أَسرَف على نَفْسه فقَتَل تِسعًا وتِسْعين نَفْسًا، ثُم سأَل عابِدًا من العُبَّاد: هل له من تَوْبة وقد قتَل تِسْعًا وتِسْعين نفسًا؟ فاستَعظَم العابِد هذا الذَّنبَ، وقال: ليس لك تَوْبة، تَقْتُل تِسعًا وتِسْعين نَفْسًا، ثُمَّ تَأْتِي لتَقول: لي تَوْبة؟! ليس لك تَوْبة! فأكمَل به المئة فقتَلَه، فأَتَمَّ به المئة؛ ثُمَّ دُلَّ على عالِمٍ، فسَأَله قال: إنه قتَل مئة نَفْس فهل له من تَوْبة؟ قال: نعَمْ، ومَن يَحول بينَك وبين التَّوْبة؟!

وهذا يَدُلُّكم على فَضْل العِلْم، وعلى قُبْح الجَهْل، فالجاهِل جنَى على نَفْسه، وأَيَّس هذا الآخَرَ من رحمة الله تعالى، فكان جَزاؤُه أن قُتِل.

فقال له العالِم: نعَمْ، ومَن يَحول بينك وبين التَّوْبة، ولكن أنت في قَرْيةٍ أهلُها ظالِمون اذهَبْ إلى القَرية الفُلانية -يَعنِي: فإنها مَرتَعٌ خَصْب لك- فذهَب، وفي أثناء الطريق جاءَه المَوْت، فأَرسَل الله تعالى إليه مَلائِكة الرحمة ومَلائِكة العَذاب فتنازَعوا، فمَلائِكة الرحمة تَقول: أنا أَقبِض رُوحه؛ لأن الرجُل جاء تائِبًا مُهاجِرًا، ومَلائِكة العَذاب قالت: أنا أَقبِض رُوحه؛ لأن الرجُل مُسرِف ولم يَصِل إلى بلده الذي هاجَر إليها.

فأَرسَل الله تعالى إليهم حَكَمًا يَحكُم بينهم، وقال: قيسوا ما بين القَرْيتين فإلى أَيَّتِهما كان أقرَبَ فهو من أهلها، فقاسوا فوجَدوه أقربَ إلى القَرية الصالِحة بقليل

-بنحو شِبْر-، وقد قيل: إنه كان إلى غير الصالِحة أقرَبَ، لكنه في سِياق الموت من شِدَّة رَغْبته في الأرض الصالِحِ أهلُها كان يُزَحزِح نَفْسه، فقَبَضَتْه مَلائِكة الرحمة(١).

قالوا: فإذا كان هذا في الأُمَم السابِقة فهذه الأمةُ أَكرَمها الله تعالى من الأُمَم السابِقة، فكيف لا يَكون لها تَوْبة للقاتِل تَوْبة؟!

إذَنِ القول الراجِحُ: أن الآية هذه عامَّة حتى للقاتِل له تَوْبة، وقد حمَل ابنُ القيِّم(٢) رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما رُوِيَ عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا محمَلًا حسَنًا، فقال: إن قَتْل العَمْد تَتَعلَّق به ثلاثة حُقوق: حقُّ الله تعالى، وحقُّ الميت، وحقُّ أَوْليائه: أمَّا حقُّ الله تعالى فإنه يَسقُط بالتَّوْبة بلا إشكالٍ، ولا يَخفَى مثل هذا عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ وأمَّا حقُّ الميت فلا يُمكِن إسقاطه الآنَ في الدنيا؛ لأنه انتقَل عن الدُّنيا وسيُطالِب بحقِّه يومَ القيامة؛ وأمَّا حقُّ أَوْلياء المَقتول بأن يُسلِّم نَفْسه لهم، فإذا سلَّم نَفْسه لهم، فهذا دليل على صِدْق تَوْبته وتَبرأ ذِمَّته؛ هذا ما وجَّه ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامَ ابنِ عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا إليه.

وعِندي أنه إذا تاب: تاب الله عليه حتى عن حقِّ الميت المَقتـول، والله عَزَّ وَجَلَّ يَتحمَّل حقَّ المَقتول يوم القِيامة ويُرضِيه.

وذلك لعُموم الأدِلَّة الدالَّة على أن مَن تاب من الذَّنْب وإن عظُم فإن الله تعالى يَتوب عليه، فإذا جاء هذا الرجُل تائِبًا وسلَّم نَفْسه لأَوْلياء المَقتول وقال: أنا الآنَ بين أيديكم إن شِئْتم القِصاص أو الدِّيَة أو العَفْو، فهذا أعلى ما يَقدِر عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٧٠)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٦)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الجواب الكافي (ص١٤٦-١٤٧).

فالقولُ الصحيحُ عندي: أنه يُعفَى عنه حتى حق المَقتول، وذلك بأن يَتحمَّله الله تعالى يومَ القِيامة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن المُذنِب مُسرِفٌ على نَفْسه ظالمٌ لها؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، ويَدُلُّ لهذا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١].

والعَجيب: أن الظالِم لنَفْسه بالمَعصية إذا قِيل له: لماذا؟ قال: هذا القَضاءُ والقدَر! عسَى الله تعالى أن يَهدِيَني! وإذا ظلَمه أحَد بالضَّرْب فقال: لِمَ تَضرِبُني؟ قال: والله يا أخي، هذا قَضاء وقدَر؛ فلا يَرضَى بهذه الحُجَّة، وهو بظُلْمه لنَفْسه يَرضَى، وهذا تَناقُض عَجيب؛ يَعنِي: إذا ظلَمْت نَفْسك أَبحْت أن تَحتَجَّ بالقَدَر، وإذا ظلَمك غيرُك لم تُبحْ له أن يَحتَجَّ بالقدَر، وهذا جَوْر في الحُكْم وتَناقُض، فكيف تَرضَى أن تَظلِم نَفْسك ولا تَرضَى أن يَظلِمك غيرُك ويَحتجَّ بالقدَر؟!.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَحريم القُنوط من رحمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، وجهُ الدَّلالة: أن الأصل في النَّهيِ التحريمُ، وقد دلَّتِ السُّنَّة على أن القُنوط من رحمة الله من كبائر الذُّنوب؛ لأنه ظنٌّ ما لا يَليق بالله جَلَّ وَعَلَا، فإن اللائِق بالله عَزَّ وَجَلَّ أن مَن لجَأ إليه فإنه أَكرَم الأَكْرَمين لا يُخيِبه، فإذا قنَطْتَ من رحمته فقد استَهَنْتَ بحَقِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولهذا كان القُنوط من رحمة الله من كبائِر الذُّنوب.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات الرحمة لله تعالى؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، والرحمة نوعان: مَخلوقة، وغيرُ مَخلوقة، فما كان من الإنعام والإحسان فهو مَخلوق، وما كان صِفةً للربِّ فهو غير مَخلوق؛ ولهذا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الجَنَّة:

«أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءَ»[1]، مع أن الجَنَّة مَخلوقة، لكنها من آثار الرحمة.

وإذا وُلِد لشَخْص ولَدٌ، أو عاد إليه ضالٌّ من ماله، أو ضائِع من ماله، قال: والله هذا رحمة الله. فهذه الرحمةُ مَخلوقة؛ لأنها إحسان وإنعام، فإذا أُطلِقَتِ الرحمة على الإحسان والإنعام فهي مَخلوقة، وإذا أُطلِقَت على صِفة الله تعالى فهي غير مَخلوقة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن رَحمة الله تعالى سبقَتْ غَضَبه، وذلك بكونه يَغفِر الذُّنوب جميعًا بالتوبة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الذُّنوب مهما عظُمت فإن الله يَغفِرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ كلَّ الذُّنوب؛ لأن الله تعالى ذكَرها بـ﴿ٱلذُّنُوبَ﴾، وأكَّد هذا العُمومَ بقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾، لكن هذا في حقِّ التائِبين.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن ظاهِرها مَغفِرة الذُّنوب للتائِبين وإن كان الذَّنْب للمَخلوق، يَعنِي: لو اعتَدَيْت على شخص ثُم تُبتَ إلى الله تعالى فإن الله تعالى يَتوب عليك، ولو كان الذَّنْب للمَخلوق، لكننا اشترَطْنا أن تَتوب، ومن تَمام التَّوْبة: أن تُوفِّيَ للمَخلوق حقَّه إن قدَرْت عليه، فإن لم تَقدِر عليه فأَوْفِه ولو بظَهْر الغَيْب.

ونحن نَضرِب لهذا مثَلًا: فإذا أَخَذت من شخصٍ مالًا بغير حَقٍّ فهذا ذَنْبٌ فإذا تُبْت إلى الله تعالى يَغفِر الله تعالى لك الذَّنْب لا شَكَّ، لكن من تَمام التوبة أن تُوصِّل المال إلى صاحِبه، فإن مات فإلى ورَثَته، وإذا أَدَّيْت إلى ورَثَته بَرِئَت ذِمَّتك منه.

لكن بَقِي ظُلْمك للمَيِّت الذي حُلْت بينه وبين ماله، هل تُحاسَب عليه أو لا تُحاسَب؟ إن قُلْت: لا تُحاسَب فسيَقول لك قائِل: كيف يَتخلَّص الإنسان من ظُلْم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الميت الذي حال بينه وبين ماله؟ وهذا صحيح؛ فأنت وإن بَرِئَت ذِمَّتك بأداء المال إلى مُستَحِقِّه بعد موت صاحِبه، لكن المُشكِل أن صاحبه حِيل بينه وبينه في حال حَياته، لو كان عنده لاشتَرى بيتًا، أوِ اشتَرى سَيَّارة، أو تَزوَّج، فحُلْت بينه وبينه، فهل يَسقُط عنك حقُّه بتَوْبتك أم لا؟

نَقول: ظاهِر الآيات الكريمة: أنه يَسقُط حقُّه عنك أنت، لكن الله تعالى يُوفِّيه من عنده؛ لأنك الآنَ لا تَستَطيع أن تَتَوصَّل إلى هذا الميتِ لتُعطِيَه حقَّه، والذي تَستَطيعه أن تُؤدِّيَه إلى ورَثته وقد فعَلْت.

مثالٌ آخَرُ: أخَذْت مالًا من شَخْص، ثُمَّ نَسِيت الشخص، ثُم تُبْت، فما هو الطريق إلى التوبة، أو الخُروج من حَقِّ الرجُل؟

الجَواب: أَتصدَّق به عنه، وإذا تَصدَّقت به عنه استَفاد من هذا المالِ في الآخِرة.

لكن قد يَقول قائِل: لكنك حُلْت بينه وبينه في الدنيا، وقد يَكون له غرَضٌ في المال في الدنيا.

فأَقول: نعَمْ، أنا حُلْت بينه وبينه في الدنيا، لكِنْ عَجْزًا مِنِّي أن أَصِل إليه، والذي قَدَرْته من التَّوْبة فعَلْته، وهو الصَّدَقة به عنه؛ فهل يَبرَأ بَراءةً تامَّة بحيث لا يُطالِبه صاحِب المال في الآخِرة؟ الجَوابُ: نَقول ظاهِر النُّصوص: نعَمْ، يَبرَأ.

مثالٌ آخَرُ: قتَلْت نَفْسًا، ثُم تُبْتَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ من قَتْل النفس، فمِن تَمام توبتك أن تُسلِّم نَفْسك لوَرَثة المَقتول، تَقول: أنا الذي قتَلْت صاحِبَكم، وأنا الآنَ بين أيديكم. فإذا سلَّمْت نَفْسَك له بَرِئَت ذِمَّتك، لكن يَبقَى عندنا حقُّ المَقتول الذي حُلْت بينه وبين بَقائه في الدُّنيا، فهل تَبرَأ منه بالتَّوْبة؟

الجَوابُ: نعَمْ تَبرَأ منه بالتَّوْبة؛ لعُمـوم الآية، لكن لا يَضيع حقُّ المَقتـول، بل يَتحمَّله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنك له، وهذا من فَضْل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَعفوَ عن حقِّه ويَتحمَّل عنك حقَّ الآخرين.

فإذا قال قائِل: ما هو الدليل على ما قُلْتم، وكيف يَسقُط عنه حقُّ الآدميِّ؟

قُلنا: الدليل على هـذا قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨] هنا فيها حقٌّ لله تعالى، وحقٌّ للمَخلوق بالدَّم، وحقٌّ للمَخلوق بالعِرْض إن كان قد زنَى مُكرَهًا بالمَزنيِّ بها، وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠]، حتى في القاتِل يُبدِّل الله تعالى سيِّئاتِه حسَناتٍ.

فإذا قيل: كيف يَضيع حَقُّ المَقتول؟

فالجَوابُ: لا يَضيع؛ لأن الله تعالى يَتحمَّله عنه، وهذا من فَضْله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

إذن نَقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ظاهِر الآية: العُموم، يَغفِر الذُّنوب جميعًا سواءٌ ممَّا يَتعلَّق بحقِّ الله تعالى، أو بحَقِّ العِباد، لكن ما يَتعلَّق بحقِّ العِباد إذا تَعذَّر إيصاله إليهم في الدُّنيا فإن الله تعالى يَتحمَّله في الآخِرة.

مَسألةٌ: إذا اغتَبْت شَخْصًا فهل لا بُدَّ أن تَذهَب إليه؟

الجَوابُ: يَعنِي مع القُـدْرة، وهذا الصحيحُ، لكن قال بعضهم: إذا اغتَبْـت شخصًا لا بُدَّ أن تَذهَب إليه وتَستَحِلَّه مُطلَقًا. وبعضُهم فصَّل فقال: إن كان قد عَلِم

فلا بُدَّ أن تَستَحِلَّه لأنه حمَل عليك في نَفْسه، وإن لم يَكُن علِم فأَثْنِ عليه في المَواطِن التي كنت تَغتابه فيها ويَكفِي. وهذا التَّفصيلُ جيِّد؛ لأنك لو ذهَبْت إليه وقلت: إني اغتَبْتُك. وهو لم يَعلَم أَنشَأْت في نفسه عليك ما تُنشِئُه، لكن إذا استَغْفَرت له وأَثنَيْت عليه في المكان الذي أنت اغتَبْتَه فيه حصَل المَطلوب.

مَسأَلَةٌ: إذا سرَق مُسلِم من كافِر ولم يَعلَم به فماذا يَفعَل؟

الجَوابُ: إن كان الكافِر حَرْبيًّا فالمال له، وإن كان له عَهْد فإنه يُسلِّمه إلى بيت المال؛ لأن بيت المال يَتقبَّل الأموال التي لا يُعرَف مالِكُها، فإن لم يَكُن هناك بيت مال فلْيَتخَلَّص منه بالصدَقة، لكن الكافِر لا يُثاب على هذه الصَّدَقةِ إلَّا إن أَسلَمَ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات اسمَيْن من أسماء الله تعالى عَظيمين يَقتَرِنان كثيرًا في القُرآن، هما: (الغَفور) و(الرَّحيم).

ووجهُ اقتِرانهما: أن بالأوَّل زوال المَكروه، وبالثاني: حُصول المَطلوب، فيَتكوَّن من اجتِماعهما وَصْفٌ زائِد على الوَصْف عند انفِرادهما؛ لأنه إذا انفرَد (الغَفور) استَفَدْنا المَغفِرة منه وإن انفرَد (الرحيم) استَفَدْنا الرحمة، لكن إذا اجتَمَعا استَفَدْنا فائِدة جديدة، وهي: أن مَغفِرة الله عَزَّوَجَلَّ مَقرونة برَحْمته، فهو جامِع بين المَغفِرة والرحمة.

وهذان الاسمان من الأسماء المُتعَدِّية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ وأيضًا ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١]، والأسماءُ المُتعَدِّية قال العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: لا يَتِمُّ الإيمان بها إلَّا بثلاثة أمور: الإيمان بالاسْمِ، والإيمان بما تَضمَّنه من صِفة، والإيمان بالحُكْم المُتَرتِّب على تِلكَ الصِّفةِ، الذي يُطلَق عليه بعضهم: الأثَر.

فالإيمان بالاسم هنا (الغَفور) فنُؤمِن بأن الغَفور من أسماء الله تعالى؛ ونُؤمِن بأن لله تعالى مَغفِرة دَلَّ عليها اسمُ الغَفور، ونُؤمِن أيضًا بما تَضمَّنه ذلك؛ فإنه يَدُلُّ

على المَغفِرة ويَدُلُّ على العِلْم؛ لأنه لا يَغفِر ما لا يَعلَمه، ودَلالته على العِلْم من باب دَلالة الالتِزام؛ لأن المادَّة (غ.ف.ر) ليس فيها (ع.ل.م)، فيَكون هذا من باب الالتِزام.

إذَنِ: (الغَفور) اسمًا، و(المَغفِرة) وَصْفًا، و(يَغفِر الذُّنوب) حُكْمًا، وكذلك نُؤمِن بـ(الرحيم) اسمًا، وبـ(الرحمة) صِفة، وبأنه (يَرْحَم) حُكْمًا. غفَرَ الله تعالى لنا ولكُمْ ورَحِمنا وإيَّاكم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن أحكام الله تعالى من مُقتَضى أسمائه وصِفاته أحكامٌ جَزائية؛ فلِكَوْنه غفورًا رحيمًا كان ذا مَغفِرة فغفَر لمَنْ تاب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: الإشارة إلى أن الإنسان بعد التَّوْبة قد يَكون خَيْرًا منه قبلَها وقبل فِعْل الذَّنْب؛ لقوله تعالى: ﴿الرَّحِيمُ﴾؛ لأن الرحمة تَقتَضي عَطاءً جديدًا، وهذا هو المُشاهَد، فإن الله عَزَّوَجَلَّ ذكَر عن آدمَ أنه لمَّا عصَى ربَّه وغوَى وتاب قال: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢]، وهذه المَنقَبة -وهي الاجتِباء والهِداية- لم تُذكَر له قبلُ.

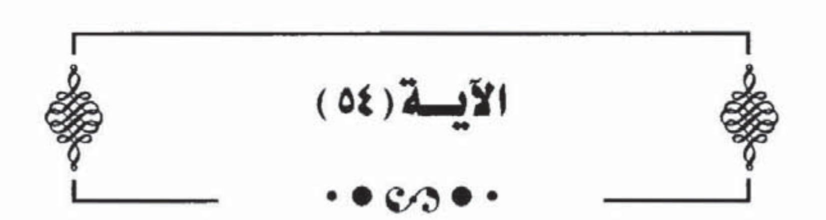
والإنسان إذا أَذنَب ونَدِم يُحِسُّ من نَفْسه رجوعًا إلى الله تعالى وشِدَّة افتِقاره إليه، بخِلاف ما إذا كان مُستَقيمًا على طاعة الله تعالى فإنه لا يُحِسُّ بالرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ والإنابة إليه، وربما يُصاب بالغُرور بأنه لم يُذنِب؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مُسلِم: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ ثُمَّ جَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»(١).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، رقم (٢٧٤٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

إذن نَقول: إن الإنسان إذا تاب إلى الله تعالى فقَدْ يَكون بعد التَّوْبة خَيرًا منه قَبْلها، وقد يَكون بالعَكْس، لكن هذا أمرٌ حصَل قَدَرًا في آدَمَ، وكذلك شَرْعًا، كما تَدُلُّ عليه هذه الآيةُ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

• ● ۞ ● •



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر:٥٤].

•●ᘓ●•

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ الإنابة بمَعنَى: الرجوع التامِّ إلى الله تعالى، وتكون بالإقلاع عن المَعصية والانضِمام في سِلْك الطائِعين. يَعنِي: أن الإنابة لا يَصْدُق الاتِّصاف بها إلَّا بالرُّجوع إلى الله تعالى من المَعصية إلى الطاعة ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ هنا الرُّبوبية يُحتَمَل أن تَكون عامَّة، ويُحتَمَل أن تَكون خاصَّةً، فهي بعد الإنابة من الرُّبوبية الخاصَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ أي: انقادُوا له، فالإنابة تَكون بالقَلْب بالرجوع إلى الله تعالى، يُنيب الإنسان أي: يَرجِع إلى الله تعالى، ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ أيِ: انقادُوا له؛ لأن الإسلام والاستِسْلام، وهذه المادَّةُ كلُّها تَدُلُّ على الانقياد.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ اللَّام في: ﴿لَهُۥ﴾ للاختِصاص، وسيَأتي أنها تُفيد وُجوب الإخلاص.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ارجِعوا ﴿وَأَسْلِمُواْ﴾ أَخلِصوا العمَل ﴿لَهُۥ﴾] يَعنِي: ارجِعوا إلى ربِّكم من مَعاصيه إلى طاعته، ومن البُعْد عنه إلى القُرْب،

وهذه الإنابةُ هي عمَل القَلْب، وهو رُجوع القَلْب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي تَفسيره الإسلام بالإخلاص نظَر، فالإسلام هو الانقِياد وهو الاستِسْلام لله تعالى ظاهِرًا وباطِنًا؛ فقوله تعالى: ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ أي: استَسْلِموا له واخضَعوا لشَرْعه، وهذا عمَل الظاهِر، وهو عمَل الجَوارِح، فالإنابة بالقَلْب والإسلام بالجَوارِح؛ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَسْلِمُواْ﴾ أخلِصوا العمَل ﴿لَهُۥ﴾]، وأَخَذ المُفَسِّر الإخلاص من قوله تعالى: ﴿لَهُۥ﴾ أي: لله تعالى كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران:٢٠]، فهذه الآيةُ فيها الأَمْر بالإنابة وهي في بالقَلْب، والأَمْر بالاستِسْلام له، وهي بالجَوارِح، والإخلاص مُستَفاد من اللَّام المَذكورة في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ مُتعلِّقة بـ﴿وَأَنِيبُوٓاْ﴾ و﴿وَأَسْلِمُواْ﴾ فقد تَنازَعها العامِلان.

وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يَعنِي: من الله تعالى ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ يَعنِي: لا تُمنَعون من عَذاب الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في الدُّنيا، قبل أن تَتوقَّعوا ذلك، ثُمَّ إذا أَتاكم ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: لا تُمنَعون من هذا العَذابِ؛ لأنَّ الله تعالى إذا أَراد بقومٍ سُوءًا ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١] أي: من مُتولٍّ يَنصُرهم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ بمَنْعه إن لم تَتوبوا] قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [إن لم تَتوبوا] راجعٌ إلى قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ لأننا إذا تُبْنا رفَعَ الله عَزَّوَجَلَّ العذاب عنَّا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إن لم تَتوبوا] لا حاجةَ إليها؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ﴾ ﴿وَأَسْلِمُواْ﴾ مِن قَبْل هذا الشيءِ، وإذا أَناب وأَسلَم قبل هذا الشيءِ فقد تاب وحينئذٍ لا يَنزِل به العذاب.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجوب الإنابة إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ والأصل في الأَمْر الوجوبُ إلَّا بدليل.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وجوبُ الإِخْلاص له؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾، وكذلك ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه لا بُدَّ من الإسلام لله تعالى ظاهِرًا وباطِنًا، فمَن أَسلَم قَلْبه لله تعالى لزِم أن يُسلِم جَوارِحه لله تعالى؛ لقول النبيِّ ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»[1]. ومَن أَسلَم ظاهِرًا لا باطِنًا فإن إسلامه لا يَنفَعه كإسلام المُنافِقين، فالإسلام يَكون في الباطِن ويَتبَعه الإسلام في الظاهِر، ويَكون في الظاهِر دون الباطِن، ولا يَكون في الباطِن دون الظاهِر؛ لأنه إذا أَسلَم قَلبُه لله تعالى أَسلَمَتْ جوارِحُه: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»، وأَمَّا المُكرَه فإنه لا حُكمَ لفِعْله؛ لأنه سقَط عنه التَّكليف.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الحذَر من نُزول العَذاب عند المُخالَفة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ فلا أَحدَ يَأمَن عَذاب الله تعالى، فأَنت إذا لم تَتُبْ إلى الله

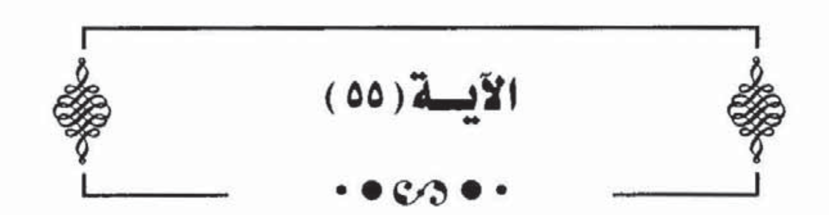
---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

تعالى مُبادَرةً فإن العَذاب ربما يَنزِل بكَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه إذا نزَل العذاب من عند الله تعالى فلا أحَدَ يَمنَعُه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، وتَأَمَّلْ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أتى بـ﴿ثُمَّ﴾ الدالَّةِ على المُهْلة، يَعنِي: مهما طلَبْتم من ناصِر وطالَتْ مُدَّة طلَبكم للناصِر فإنكم لن تَجِدوا مَن يَنصُرُكم من عذاب الله تعالى.

• • ۞ • •



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الزمر:٥٥].

•• ◦ ••

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ﴾ أي: الزَمُوا العمَل بأَحسَن ما أُنزِل إليكم من ربِّكم، والعملُ يقتَضِي العمَلَ القَلْبيَّ والعمَل اللِّسانيَّ والعمَل الجَوارِحيَّ؛ يَعنِي: اتَّبِعوهُ عَقيدةً وقولًا وعمَلًا.

وقوله تعالى: ﴿أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ الأحسن هنا الظاهِر أنه وَصْفٌ للنازِل: ﴿أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾، ونحن إذا تَأمَّلْنا لم نَجِد أحسَنَ من القُرآن، كما هو ظاهر في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ [المائدة:٤٨]، أي: مُسيطِرًا، وذا سُلْطان، فعلى هذا تكون الأَحسنِيَّةُ هنا راجِعةً إلى الكتاب المَتبوع، وحينئذٍ لا إشكالَ فيها.

وإذا قُلْنا: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ أي: (افعَلوا أحسَنَ ما شُرِع لكم) يَبقَى فيه إشكال، وهو أننا مَأمورون بأَحسَن ما شُرِع لنا، فهل يَعنِي ذلك أننا لو فعَلْنا الحسَنَ دون الأحسَنِ نَكون مُقصِّرين؟

نَقول: هذا ظاهِر الآية إذا فسَّرْناها بما ذكَرْنا، ولكن دلَّتِ النُّصوص على أن مَن اقتصَر على الواجِب فقد قام بالواجِب، وإن لم يَأتِ بالأحسَنِ، بل إن الرسول

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال للرجُل الأَعْرابيِّ الذي ذكَر له شَرائِعَ الإسلام قال ﷺ: «إِنْ صَدَقَ هَذَا دَخَلَ الجَنَّةَ»[1].

وعليه -أي: على هذا الاحتِمالِ في الآية الكريمةِ- نَقول: إن النُّصوص دلَّتْ على أن اتِّباع الحسَن مُبرِئ للذِّمَّة، لكن الأكمَل اتِّباع الأحسَن.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ﴾ أي: كونوا تبَعًا، وقوله تعالى: ﴿أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾: ﴿أَحۡسَنَ﴾ اسمُ تَفْضيل من الحُسْن، ويَشمَل الأَحسَن في ذاته، والأحسَنَ في العمَل.

فالإنسان مَأمور أن يَتَّبع أحسَنَ ما أُنزِل إلينا في ذاتِه، ولو فَتَّشْت الكتُبَ السَّماوِيَّة التي نزَلَتْ لوَجَدْتَ أحسَن ما نَزَل هو القُرآن؛ ولهذا فسَّرَه المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: [وهو القُرآن]، وكذلك أَحسَنُ ما أُنزِل إلينا إذا كانت عِبادة قام بها الإنسان على وجهٍ ناقِصٍ وعبادة قام بها على وجهٍ كامِلٍ، فالتي على وجهٍ كامِلٍ هي الأحسَنُ، فإذا وُجِد أعمالٌ تَتَفاضَل فالإنسان مَأمورٌ بأن يَتَّبع الأحسَن منها: ﴿أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾.

فقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُم﴾ فيها إشارة إلى وُجوب اتِّباع الأحسَن؛ لأن هذا الأحسَنَ نازِل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومن الربِّ، والربُّ هو الذي له التَّصرُّف في العِباد تَدبيرًا وتَشريعًا وحُكمًا.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ وهو القُرآن]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام، رقم (٤٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات، رقم (١١)، من حديث طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «أفلح إن صدق».

ولم يَذكُر الاحتِمال الذي ذكَرْنا، بل جعَل المُراد بالأحسَن هنا أَحسَنَ ما نزَل لا أحسَنَ ما شُرِع.

وقوله تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً﴾. قوله: ﴿بَغْتَةً﴾ هنا بمَعنَى: مُفاجِئًا، ويُحتَمَل أن تكون مَصدَرًا مُبيِّنًا للنوع، أي: أن يَأتِيَكم الإتيان بَغْتةً، ويُحتَمَل أن تكون مَصدَرًا بمَعنَى: في مَوضِع الحال. أي: مُباغِتًا، والمُراد: المُفاجأة، يَأتيكم العَذاب مُفاجَأةً.

في الآية الأولى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أمَّا هنا فقال تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً﴾ أي: مُفاجأة، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أنه يَأتيكم العَذاب، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٨]، فالنائِم لا يَشعُر بالعَذاب إلَّا بَغْتة، والذي يَلعَب كذلك لا يَشعُر بالعَذاب إلى بَغْتة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: لا تَحتَسِبون أن يَقَع بكمُ العذاب؛ لأنكم غافِلون، وليس عِندكم شُعور، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩]، والغالِب أن مَنِ انهَمَك بالمَعاصي نَسِيَ الخالِق ونَسِيَ العَذاب، فيَأتيه العذابُ وهو في أشَدِّ ما يَكون انغِماسًا في المَعاصي والتَّرَف.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وجوب اتِّباع القُرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَحريم اتِّباع غير القُرآن؛ لأنه إذا وجَب اتِّباع القُرآن فضِدُّه حرام.

ولكن إذا قال قائِل: هل تَقولون: إن شَرْع مَن قَبْلَنا شَرْعٌ لنا؟

فالجَوابُ: أن في ذلك خِلافًا بين أهل العِلْم من أهل الأصول، والصحيح: أنه شَرْعٌ لنا ما لم يَأتِ شَرْعُنا بخِلافه، ونحن نَتَّبع شَرْعَ مَن قَبْلَنا، لا لأنه شَرْعُ مَن قَبْلنا، ولكن لأن شَرْعَنا دلَّنا على العمَل به.

وأدِلَّة ذلك مَعروفة في أصول الفِقْه: منها قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، ومنها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]، ومنها قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الممتحنة:٤].

المُهِمُّ: أن القول الراجِح: أن شَريعة مَن قَبْلَنا شَرعٌ لنا بشَرْعنا ما لم يَرِد شَرْعُنا بخِلافه، فإن ورَدَ شَرْعُنا بخِلافه فهو مُطَّرَح.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الثَّناء على القرآن الكريم؛ لأنه أحسَنُ ما أُنزِل إلى العِباد، وعرَفنا أنه أحسَنُ في ذاتِه، وفي أَخْباره، وفي أَحْكامه، وفي آثاره؛ فلم تَنَلْ أُمَّةٌ العِزة والكَرامة كما نالَتْه هذه الأُمَّةُ بما آتاها الله تعالى من القُرآن.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن القرآن كلام الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾.

فإن قال قائِل: هذا لا نُسلِّمه لكم؛ لأن ممَّا أَنزَل الله تعالى ما لا يَكون كلامًا له كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ﴾

[الزمر:٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥]، وأمثالها؛ فلا نُسلِّم لكم أن القُرآن كلام الله تعالى، بل نَقول: هو كغيرِه من المَخلوقات التي أَنزَلها الله تعالى، فإن الحديد مَخلوق، والمَطَر مَخلوق، والأنعام مَخلوقة؟

فالجَوابُ عن هذا أن نَقول: ما أَنزَله الله تعالى يَنقَسِم إلى قِسْمين:

الأَوَّلُ: أن يَكون عَيْنًا قائِمةً بنَفْسه فهذا مَخلوق.

الثاني: أن يَكون وَصْفًا لا يَقوم إلَّا بغيره فهذا غيرُ مَخلوق.

فلْنَنظُرْ للقرآن: هل هو عينٌ قائِمةٌ بنَفْسها أو وَصْفٌ لا يَقوم إلَّا بغيره؟

الجواب: هو وَصْف لا يَقوم إلَّا بغيره، إِذَنْ هو غير مَخلوق كلام الله تعالى غير مَخلوق.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات عُلوِّ الله تعالى؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وجهُ ذلك: أن النُّزول لا يَكون إلَّا مِن أَعْلى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فضيلة هذه الأُمَّةِ حيث كانت الغاية في إنزال القرآن، ويُؤخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿إِلَيْكُم﴾، فإن الإنزال غايته إلينا، إِذَنْ فهذا شرَفٌ لنا أن نكونَ غايةَ إنزالِ القُرآن.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ الرُّبوبية لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن إنزال القُرآن إلينا من كَمال رُبوبيته، حيث أَضاف إنزاله إلى نَفْسه بوَصْف الرُّبوبية، فمِن كَمال رُبوبيته لخَلْقه وتَربيته لهم أن نزَّل عليهم هذا القُرآنَ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: وجوبُ العمَل بمـا في القُرآن؛ لأنه نزَل من الرَّبِّ، والرَّبُّ له السُّلْطان الكامِل على خَلْقه، أرَأَيْتم لو أن ملِكًا من الملوك أَصدَر مَرسومًا مَلَكيًّا أفلا يَكون مُقتَضى سُلطانه أن نَعمَل بهذا المَرسومِ؟

الجَوابُ: بلى، إذن مُقتَضى رُبوبية الله تعالى لنا: أن نَعمَل بما أَنزَل إلينا؛ لأن هذا القُرآن بمَنزِلة المَراسيم المَلَكية التي لا بُدَّ من تَنفيذها، بل هو أَعظَمُ كما هو معروف، ولا إشكالَ فيه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الحذَر من أن يَأتِيَ عَذاب الله تعالى بَغتةً؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً﴾، والعذاب المُباغِت أَشَدُّ من العذاب الذي لم يُباغِت؛ لأن العذاب الذي لم يُباغِت يَكون الإنسان قد تَهيَّأَ له، لكن الذي يَأتِي بَغتةً يَأتي الإنسانَ وهو في غاية ما يَكون من الغَفْلة وغاية ما يَكون من السُّرور، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٨].

فتَأمَّلِ الآنَ: غَفلةٌ وهُدوءٌ واطمِئْنانٌ، فأَتاهم العذاب في هذا الوقتِ، فيَكون أَشَدَّ وَقْعًا -والعِياذُ بالله- ممَّا لو أَتَى والإنسانُ مُتهَيِّئ.

واضْرِبْ مثَلًا حِسِّيًّا واضِحًا: لو كنـت تَنزِل على الدرَج فغَفَلت، ثُمَّ زلَّـتْ رِجلُك على إحدى الدرَجات، هل يَكون مِثلَما لو كنتَ تَنزِل وأنت تَرى كلَّ درَجة وتَضع قدَمك عليها؟

الجَوابُ: لا، إذَنِ المُباغِت أَشَدُّ ممَّا يَأتي والإنسان مُتهيِّئ له.

إِذَنْ مَن خالَف ذلك ولم يَتَّبعِ القرآن فإنه ربما يَأتيه العَذاب بَغتةً وهو لا يَشعُر،

وهنا نَسأَل: هل العَذاب هو العَذاب الحِسِّيُّ الذي به فَساد البَلاد، أو يَشمَل العَذاب الحِسِّيَّ والعذاب المَعنويَّ؟

الجَوابُ: العَذاب هنا يَشمَل الأمرين لا شَكَّ، والإنسان قد يُعذَّب عذابًا مَعنويًّا بحيث تُفسَد عليه أمورُه؛ أمور الدِّين وأمور الدنيا، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣]، وهذه عُقوبة، فمِن العُقـوبات التي هي من أشدِّ عُقوبات الدنيا أن يُصَدَّ الإنسان عن ذِكْر الله تعالى، وعن الصلاة، فإن هذا أشَدُّ مَن أن يَفقِد الإنسان مالَه وولدَه، وقد كان بعض السلَف إذا نام عن صلاة الليل قال: إنني ما حُرِمت صلاة الليل إلَّا بذَنْب؛ فجعَل عدَم القِيام في الليل عُقوبة على ذَنْبٍ عمِلَه، وكلَّما كثُرَتِ المَعاصِي -والعِياذُ بالله- كثُر الإعراضُ عن ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن المُباغِت يَأتي بغير شُعورٍ من العَبْد؛ لأنه غافِل وليس يُفكِّر في أن يَأتِيَه العَذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، والجُملة هذه يُسمِّيها علماءُ النَّحوِ رَحِمَهُمُاللَّهُ: جُملةً حاليَّةً، يَعنِي: والحال أنكم لا تَشعُرون.

• • ۞ • •



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر:٥٦].

•• ༄ ••

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ قبل إِتْيانه بوَقْته]، يَعنِي: لا تَشعُرون بوقته قبل إتيانه، بل قد ضرَبْتمُ الأمَل الطويل والتَّفاؤُل الذي ليس في محَلِّه حتى أَتاكُمُ العَذاب؛ [فبادِروا قبلَ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾] قدَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الذي ذكَر لدَلالة السِّياق عليه.

وهذا الذي قام به المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يُسمَّى عند البَلاغيين: إيجازَ الحَذْف؛ لأن الإيجاز عِندهم نوعان: إيجازُ قَصْر، وإيجازُ حَذْف؛ فإيجازُ القَصْر أن تكون العِبارة القَصيرة تَتَضمَّن مَعانيَ كثيرةً، وإيجاز الحَذْف أن تكون العِبارة المَوْجودة قد حُذِف منها ما هو مَعلوم.

مثل قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص:٢٤-٢٥]، وهذه الآيةُ حُذِف منها شيءٌ كثير؛ لأن تَقديرها أن المَرْأتَيْن ذهَبتا إلى أبيهما وأَخبرَتاه بالخبَر، ثُمَّ أَرسَل إحداهما إلى مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فجاءَتْ إحداهما تَمشِي على استِحْياء.

فصار عِندنا الإيجازُ نوعين: إيجاز قَصْر بأن تكون العِبارة قَصيرة تَتضمَّن

مَعانيَ كثيرةً، وإيجاز حَذْف بأن يُحـذَف من الكلام ما يَدُلُّ عليه السِّياقُ، وكلاهما فصيحٌ عرَبيٌّ.

فقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة:١٧٩] هذا إيجازُ قَصْـر، وقوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣] هذا إيجازُ قَصْر؛ لأنك لو أَرَدْت أن تَبسُط هذه الجُملةَ ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ وتَذكُر أنواع السُّوء وتَذكُر أنواع المُجازاة؛ لكان الكلام طويلًا، لكنه اقتَصَر على هاتين الكلِمَتَيْن: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، وهُما تَشمَلان كلَّ ما يُمكِن أن يَدخُل في هذه الجُملةِ من التَّفاصيل.

إِذَنْ: على كلام المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فبادِروا قَبْلَ ﴿أَن تَقُولَ﴾]، نَقول: هذا من باب إيجاز الحَذْف؛ لأنه حُذِف من الكلام ما يَدُلُّ عليه السِّياق، ويُمكِن أن نُقدِّر ما هو دون ذلك بأن نَقول: خَشية أن تَقول نَفْسٌ، يَعنِي: اتَّبِعوا ما أُنزِل إليكم من ربِّكم خَشيةَ أن تَقول نَفْسٌ يا حَسْـرتا على ما فرَّطْـتُ في جَنْب الله؛ أو: (قَبْلَ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾)؛ لأنه أقلُّ تقديرًا، وكلَّما كان أقلَّ تَقديرًا فهو أَوْلى.

وهذا الذي ذكَرْناه أقصَرُ من كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾: ﴿نَفْسٌ﴾ هنا نَكِرة في سِياق الإثبات، والنكِرة في سِياق الإثبات لا تَدُلُّ على العُموم، وإنما تَدُلُّ على العُموم إذا كانت في سِياق النفيِ أو الشَّـرْط أو الاستِفْهام الإنكارِيِّ أو ما أَشبَه ذلك ممَّا ذكَرَه العُلَمـاءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، لكنهم قالوا: إن ﴿نَفْسٌ﴾ هنا نَكِرة يُراد بها العُمـوم، يَعنِي: أن تَقـول كلُّ نَفْس فرَّطَتْ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ أَصلُه: يا حَسـرَتِي، أي: نَدامَتـي، فالحَسْـرة هي النَّدامة]، قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ الألِف هذه مُنقَلِبة عن ياء؛ لأنها للنُّدْبة، وأصلُها

ياءُ المُتكلِّم: يا حَسْرتي، لكن في اللغة العربية يَجوز أن تُقلَب الياء ألِفًا، فيُقال: (يا حَسْرَتا) بدَل (يا حَسْرَتي).

ومنه قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود:٧٢]، والتَّقدير: (يا وَيْلَتِي).

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ التَّفريط مَعناه: الإهمال والإضاعة، وعكسُه: الإفراط، وهو التَّجاوُز، والتَّفريط القُصور عن الشيء، فالمُفَرِّط هو المُهمِل المُقصِّر، والمُفْرِط هو المُتجاوِز للحَدِّ، وكِلاهما مَذموم، والخِيار هو الوسَط.

وقال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: طاعَته] ففَسَّر الجَنْب هنا بالطاعة، وذلك لأنه لا يُمكِن أن يُراد به جَنْب الله تعالى الذي هو جَنْب ذاته؛ لأن الإنسان يَشعُر بأنه لن يُفرِّط في نَفْس الجَنْب الذي هو جَنْب ذاته.

لكن بعض العُلماءِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يقول: الجَنْب بمَعنَى: الجانب لُغَةً، وإذا كان بمَعنَى: الجانِب لُغَةً فلا حاجةَ إلى التأويل، ويَكون المَعنَى ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في جانِب الله تعالى؛ وجانب الله تعالى يَعنِي: حَقَّه.

وهذا التَّفسيرُ الذي ذكَرْناه هو مُؤدَّاه، كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ -يَعنِي: طاعته- لكن إذا فسَّرْنا الجَنْب بالطاعة خرَجْنا به عن المعنى المُطابِق للَّفْظ، أمَّا إذا قُلْنا: الجَنْب لُغَةً بمَعنَى الجانِب. فإننا فسَّرْناه بما دلَّتْ عليه الكلِمة لُغَةً، والجانِب من المعلوم أن جانِب الله عَزَّوَجَلَّ هو حَقُّه وشَرْعه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ﴾: (إنْ) مُخَفَّفة من الثَّقيلة أي: وإنِّي] (إن) في اللغة العربية تَأتِي لمَعانٍ: الأوَّل: شَـرْطية. والثاني: نافِية. والثالِث: مُؤكِّدة.

والرابع: زائِدة. فهـذه أربعة مَعانٍ، وبعضهم زاد مَعنًى خامِسًا: أن تكون بمَعنَى: نعَمْ، لكنه قليل.

مثال (إنِ) الشَّرْطية: قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦]. هذه (إِنْ) شَرْطية.

ومثال النافِية: قول الكافِرين: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة:١١٠]، و(إن) النافية هي التي يَعقُبها دائِمًا (إلَّا).

ومِثال المُؤكِّدة -وهي المُخفَّفة من الثَّقيلة كما هنا-، وعلامتها أن يَحِلَّ محَلَّها (إنَّ) مثل: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر:٥٦]، فهذه مُخفَّفة من الثَّقيلة، وتُفيد التَّوكيد؛ لأن الثَّقيلة: (إنَّ) مَعروفة أنها للتَّوْكيد فإذا كانت هذه مُخفَّفة منها فهي للتَّوْكيد.

مثال الزائدة قول الشاعِر:

بَنُـو غُدَانَـةَ مَـا إِنْ أَنْـتُمْ ذَهَـبٌ   وَلَا صَرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَزَفُ[1]

الشاهِد قوله: (مَا إِنْ أَنْتُمْ ذَهَبٌ)؛ لأن مَعنَى الكلام: ما أَنتُم ذهَب. فهي إِذَنْ زائِدة، والذهَب مَعروف، والصـريف: الفِضَّة، وسُمِّيَت: صَـريفًا؛ لأنها يُسمَع لها صَريفٌ عند العدَد أو الوَزْن.

(وَلَكِنْ أَنْتُمُ الْخَزَفُ) والخزَفُ هو الطِّين المَشوِيُّ. يَعنِي: أنكم أَصلُكم رَديء، وعلامة (إِنِ) الزائِدة أن يَصِحَّ الكلام مع حَذْفها، فإذا صحَّ الكلام مع حَذْفها فهي زائِدة.

---

(١) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٦٦)، وشرح الأشموني (١/ ٢٥٤)، وهمع الهوامع (١/ ٤٤٩).

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه: [وإني كُنْتُ لِمَنَ الساخِرينَ]، فقدَّرَ اسمَ (إنَّ) ضَميـرًا مُطابِقًا للسِّياق، فقال: [إِنِّي كُنـتُ] وهذا الذي ذهَب إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الصحيح، أمَّا عند جُمهور النَّحويِّين فإنهم يَقولون: إن اسم (إِنَّ) مَحذوف ضميـرُ الشَّأْن، فيُقدِّرون: إن كُنـتُ وإنَّه. أيِ: الشأن، لكن الصحيح: أننا نُقدِّر ضميرًا مُطابِقًا للسِّياق، ولا حرَجَ أن نَقول: إنه مَحذوف ولو لم يَكُن ضميرَ الشَّأْن، فعليه نَقول: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ التَّقدير يَكون: وإني كنـتُ لِمَنَ الساخِرين.

واللام في قوله: ﴿لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ هذه للتَّوْكيد، وهي أيضًا دليلٌ على أنَّ (إِنْ) مُخفَّفة من الثَّقيلة، ولا تَلزَم لامُ التوكيد مع (إِنِ) المُخفَّفة من الثَّقيلة، إلَّا إذا كان يُخشَى من الالتِباس بالنافِية، فإن كان يُخشَى الالتِباس بالنافية فإنه يَجِب أن تُذكَر اللَّامُ.

والحاصِلُ: أن اللَّام تَأتي كثيـرًا في خبَر (إِنِ) المُخفَّفة من الثَّقيلة وقد تُحـذَف؛ إلَّا إذا خيف الالتِباس، فإنه يَجِب أن تُذكَر اللَّام إذا خِيف الالتِباس بـ(إِنِ) النافِية؛ لأنه إذا أتَتِ اللَّامُ تَعيَّن أن تكون (إِنْ) مُخفَّفة من الثَّقيلة، ومَحلُّ هذا البحثِ في النَّحْو.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ الساخِر بمَعنَى: المُستَهزِئ، أي: ساخِرين بمَن يَدعـو إلى الله تعالى، كمـا قال تعالى: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [ص:٦٣]، ساخِرين بدِين الله تعالى، ساخِرين بكُتُب الله تعالى، ساخِرين برُسُل الله تعالى، ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة:٦٥].

ولهذا حُذِف المَفعول في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلسَّٰخِرِينَ﴾؛ لإفادة العُموم؛ أيِ: الساخِرين بالله تعالى وآياته ورسُلِه وأَوْليائِه، فهو عامٌّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ مَآل المُفرِّط وهو التَّحسُّر وهو التَّندُّم مع الغَمِّ، التَّحسُّر: التَّندُّم مع الغَمِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن المُفرِّط سيَتحسَّر على تَفريطه.

ويَنبَني على هذه الفائِدةِ: أنه يَنبَغي أن يَكون الإنسان حازِمًا ذا نَشاط وقوَّة حتى لا تَفوته الأُمور، ثُم بعد ذلك يَندَم.

ويَتفرَّع على ذلك الفائِدةُ الثالِثةُ: أنه يَنبَغي انتِهاز الفُرَص فمتى واتَتْك الفُرْصة فلا تُضيِّعْهَا.

ويَترتَّب على هذا أيضًا فائدةٌ رابعةٌ: أنه إذا صار أمامَك حاجَتانِ فابدَأْ بها أنت تُريده أوَّلًا وبادِرْ إليها، واجعَلِ الثانية ماثِلةً.

وهذا يَظهَر في سُنَّة الرسول ﷺ في أمثِلةٍ مُتعَدِّدة منها: أن عِتبانَ بنَ مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا ضعُف بَصرُه وصار لا يَتمكَّن من الوُصول إلى مَسجِد قومه دعا النبيَّ ﷺ إلى بيته ليَتَّخِذ له مَكانًا يَتَّخِذه مُصلًّى، فخَرَج النبيُّ ﷺ إليه ومعه جماعة من أصحابه، فلَمَّا وصَل البيت، وإذا الرجُل قد هيَّأ لهم طعامًا، ولكن الرسول ﷺ لم يَشَأْ أن يَبدَأ بالطعام، بل بدَأَ بما أَتى إليه، أي: بالقَصْد الأوَّل، فقال له: «**أَيْنَ تُرِيدُ أَنْ أُصَلِّيَ؟**» فأَراه المَكان، فصلَّى بهم[1].

وبِناءً على ذلك: يَنبَغي لكم أنتُم -طلَبة العِلْم- إذا أَرَدْتُم أن تُراجِعوا فتاوى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، رقم (٤٢٥)، ومسلم: كتاب المساجد، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر، رقم (٣٣).

شيخِ الإسلام ابنِ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مَسأَلة مُعيَّنة فستَستعرِض الفهرس، ثُمَّ يَمُرُّ بك مَسألة تَشوقك إلى أن تُراجِعها، فتَذهَب وتُراجِعها، ثُم تَترُك الذي كنت تُراجِع من أَجْله، وهذا لا شكَّ أنه يَضُرُّ طالِبَ العِلْم، يُشتِّتُ عليه الفِكْر، ويُشتِّتُ عليه الوقتَ؛ لأن فِكْره أوَّلَ ما طالَع الكِتاب مُنصَبٌّ على المَسألة التي يَطلُبها، فإذا عرَضَت له هذه العارِضةُ واتَّجه إليها وانشَغَل بها وهي ليسَت مَقصودةً له بالذاتِ تَشتَّتَ فِكْره، ثُمَّ يَتشتَّت وقتُه أيضًا، فربما يَكون وقت مُراجَعته في خِلال ربُع ساعة، فتَذهَب ربُع الساعة هذه وهو لم يُراجِع المسألة التي كان من أَجْلها يُفتِّش، وهذا جرَّبْناه، فنُراجِعُ لَمسألةٍ مَا، ثُمَّ يَمُرُّ بنا عُنوان شَيِّق ونَأخُذ به فيَضيع علينا الوقتُ، فالإنسان يَنبَغي أن يَكون حازِمًا، وأن يَبدَأ بالأَهَمِّ قبل الُمهِمِّ.

ومن ذلك: أن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يُبادِر بإزالة المُؤذِياتِ ولا يَتأخَّر؛ لأن التأخير له آفَةٌ، بل آفاتٌ، فلمَّا بال الأعرابيُّ في المسجد أمَرَ في الحال أن يُصَبَّ عليه ماءٌ ليُطهِّره[1]، ولَمَّا بال الصبيُّ في حَجْره دعا في الحال بماءٍ فأَتبَعَه إيَّاه[2]، وكان من الُممكِن أن يَترُك المكان في المَسجِد حتى يَأتِيَ وقت الصلاة ويَحتاج الناس إلى الصلاة في هذا المكانِ، لكنه بادَر، وكذلك من الُممكِن أن يَدَع ثَوْبه حتى يَحضُر وقت الصلاة، ثُم يُطهِّره، لكنه بادَرَ.

فالُمهِمُّ: أن مثل هذه الوَقائِع يَنبَغي على الإنسان أن يَتَّخِذ منها تربية لنَفْسه، لا تَمُرُّ به على أنها مَسأَلة فِقْهية عَرَفها فقطْ، بل لا بُدَّ أن يَظهَر عِلمه في عَمَله.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب يهريق الماء على البول، رقم (٢٢١)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول، رقم (٢٨٥)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب بول الصبيان، رقم (٢٢٢)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله، رقم (٢٨٦)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الجِهة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فِي جَنْبِ ٱللَّهِ﴾، وقُلنا: إن (جَنْب) بمَعنَى: جانِب، لكن الذين لا يُثبِتون الجِهة يَفِرُّون من هذا، ويُفسِّرونه بأَمرٍ آخَرَ كما فسَّره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [في طاعة الله] مع أن هذا التَّفسيرَ قد يُقال: إنه تفسيرٌ صحيح، وإن جانِب الله تعالى هو طاعته وحَقُّه وما أَشبَه ذلك، لكن نحن نَعلَم أن كثيرًا من الناس يُنكِرون أن يَكون الله تعالى في جِهة، ويَقولون: لا يَجوز أن تَقول: إن الله تعالى في جِهة، لا فوقُ ولا تَحتُ.

وعَكسُهم قومٌ آخَرون فقالوا: إن الله تعالى في كل جِهة بذاته. وبين الطائِفَتَيْن كما بين السماء والأرض!.

وتَوسَّطَ آخَرون فقالوا: إن الله تعالى في كل جِهةٍ، لكنه فوقَ كل شيء، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥]، فإنِ اتَّجَهْتم شرقًا أو غربًا أو شَمالًا أو جَنوبًا فثَمَّ وجهُ الله تعالى، لكن ليس الله تعالى نفسُه في تِلك الجِهةِ، ولكنه فوقُ، وفَوقِيَّتُه لا تُناقِض أن يَكون في كل جِهةٍ استَقْبَلْتَها.

فلو قال قائِل: كيف يَجتَمِع أن يَكون في جِهة المَشرِق مثلًا، أو المَغرِب، أو الشَّمال، أو الجَنوب وهو فوقَ كل شيء؟

الجَوابُ: نَقول: (كيف) اجعَلْها فيما يُمكِن تكييفه، فصِفات الله تعالى لا يُمكِن تَكييفها، وعليك أن تُسلِّم، ثُم نَقول: إن هذا مُمكِن لو كانت الشمسُ عند الشُّروق أو عند الغُروب واستَقْبَلتها كانت في جِهة المَشرِق أو في جِهة المَغرِب، وهي في السَّماء، هذا في المَخلوق؛ فما بالُك في الخالِق المُحيط بكل شيء؟!

فالصَّوابُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في جِهة وهي جِهة العُلوِّ، لكنه عَزَّوَجَلَّ مَنِ اتَّجه

إليه في أيِّ مَكان فالله تعالى قِبلَ وَجْهه، قال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، أمَّا ذاته عَزَّوَجَلَّ فإنه فوقَ كل شيء.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إقرار المُكذِّبين على أنفسهم بما هم عليه من التَّكذيب، لكن في وقتٍ لا يَنفَعهم؛ ويُؤخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ﴾، فهو تأكيد وإثبات أنه كان في الدنيا من الساخِرين بشَرْع الله تعالى المُستَهْزِئين به.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: تَحريم السُّخْرية بالله عَزَّوَجَلَّ، ويُؤخَذ ذلك من كون هذا الساخِرِ ندِمَ وتَحسَّر على ذلك، ولولا أنه أُصيب بعَذابٍ عليه لم يَندَم.

فإن قال قائِل: ما حُكْم السُّخْرية بالله تعالى؟

قُلنا: حُكْمها الكُفْرُ، فمَن سخِر بالله تعالى، أو آياته، أو رَسوله ﷺ؛ فإنه كافِر.

فإن قيل: هل تُكفِّرونه ولو كان يَمزَح؟

فالجوابُ: نعَمْ، نُكفِّره ولو كان يَمزَح؛ لقول الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ يَعنِي: ما قصَدْنا ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

وهنا مَسأَلة مُهِمَّة جِدًّا، وهي الاستِهْزاء بالشخص الذي يَفعَل طاعةً، أو يَتَجنَّب مَعصية، فتارةً يَغلِب عليه الجانب الشَّخصيُّ فهذا لا يَكفُر، وتارةً يَغلِب عليه الجانِبُ الحُكميُّ، بمَعنَى أنه يَسخَر بالحُكْم من أيِّ مَصدَر جاء، فهذا كُفْر؛ ونُوضِّح هذا بمِثال:

الأَوَّلُ: مثل بعض الناس لو رأَى مثَلًا عالِمًا من العُلَماء المُعتَبَرين المَحبوبين عند الناس المَوْثوقين رأَى ثوبَه إلى نِصْف الساق لا يَسخَر به أبَدًا، ولا يُمكِن أن يَسخَر،

لكن لو رأى شابًّا فربما يَسخَر به، إذَنْ هنا السُّخْرية مُنصَبَّة على الشخص، مُغلَّبٌ فيها جانِبُ الشَّخصية فهذا لا يَكفُر؛ لأنه لم يَكرَه الحُكْم، لكن كرِهَ هذا الذي قام بالحُكْم.

والثاني: أن يَكرَه الحُكْم الشرعيَّ، ويَسخَر بالحُكْم الشرعيِّ فهذا كافِر؛ ولهذا قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة:٦٥]، ولم يَقُل: والمُؤمِنين. فالرسولُ ﷺ مَعلومٌ، أيُّ إنسانٍ يَسخَر به فهو كافِر، حتى وإن كان قد غلَّب الجانِبَ الشخصيَّ؛ لأن الرسول مُشرِّع عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فكلُّ شيء صدَر منه فهو تَشريع، لكن الذي يَصدُر من غير الرسول ﷺ، إن كان محَلَّ ثِقةٍ عند الناس اعتبَروه حُكْمًا شَرْعيًّا ولم يَسخَروا به، وإن كان غيرَ ثِقَة سخِروا به مُغلِّبين جانب الشخصية؛ لأنهم مثلًا لا يَثِقون به الثِّقة التامَّة، أو يَرَوْن أنه مُتزمِّت، أو مُتنطِّع، أو ما أَشبَه ذلك.

وهذه المَسأَلةُ يجِب على الإنسان أن يُدرِك الفَرْق بين الأمرين؛ لأن هذه المَسائِل دقيقة جِدًّا.

ولهذا ذكَر شيخ الإسلام(١) رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُكفِّر الجَهْمية، لكن لا يُكفِّر أعيانهم؛ لأنَّ هناك فرقًا بين التَّكفير باعتبار الحُكْم والتَّكفير باعتِبار الشخص.

ومِن ثَمَّ نُحذِّر طلَبة العِلْم من التَّسرُّع في التكفير الشخصيِّ العَيْنيِّ؛ لأنَّ المسألة ليست هَيِّنةً، فلو كفَّرْت شخصًا والله عَزَّوَجَلَّ لم يَحكُم بكُفْره عاد التَّكفير إليك، وصار يُخشَى عليك من الضلال، ولو في المُستَقبَل إذا لم تَتُبْ.

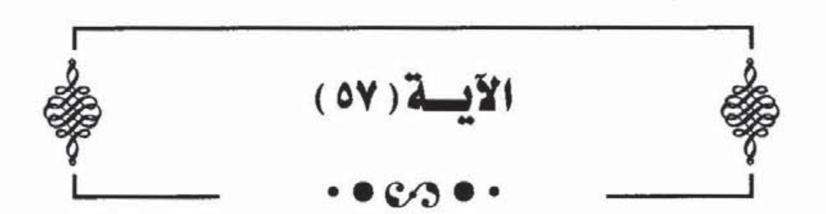
---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٨).

فإن قيل: ما الدواء لَمِنِ ابتُلِيَ بهذا؟ أي: سخِرَ بالله تعالى، أو آياته، أو رسوله ﷺ؟

قُلنا: الدواء في هذه السُّورةِ، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، والدواء هو أن يَتوب إلى الله تعالى، فإذا تاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وقلَع من قَلْبه هذه السُّخريةَ والاستِهزاءَ، وأَثبَت مكانها التَّعظيمَ والمَحبَّةَ فحينئذٍ يرتَفِع عنه حُكْم الكُفْر.

• • ۞ • •



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر:٥٧].

يَعنِي: أو تَقول نَفْس، وهذه مَعطوفة على قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ أيِ: النفسُ [﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ بالطاعة فاهتَدَيْت ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾] ﴿لَوْ﴾ هذه شَرْطية، فِعْل الشرط فيها محَذوف، وجوابُ الشَّرْط فيها قوله تعالى: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وتَقديره -أي: تَقدير المَحذوف وهو فِعْل الشَّرْط- لو ثبَت أن الله هَداني لكُنتُ من المُتَّقين.

وهذا احتِجاجٌ بالقدَر، يَعنِي: لو أن الله تعالى هَداني ووفَّقني فاهتَدَيْت لكُنتُ من المُتَّقين، فهي تَنْدَم وتَحْتَجُّ، يَعنِي: جمَعت بين الندَم على عدَم التَّقوى والهِداية، وبين الاحتِجاج كقول القائِل: لو أَعطَيْتَني أُجرةً لعمِلْـت لكَ، ولو أَطْعَمْتَني لشَبِعـت. يَعنِي: فلم تُطعِمْني ولم تُعطِني أُجرة. فهُمْ يَقولون: لو أن الله تعالى هَداني لاهتَدَيْت وكُنتُ من المُتَّقين.

وعلى هذا فالمُرادُ بالهِداية هنا هِدايةُ التَّوْفيق، ويَكون هذا احتِجاجًا من النَّفْس بقَدَر الله تعالى على الضلال -والعِياذُ بالله-.

وقوله تعالى: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَذابَه] وهذا

مَفعول ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ولكن الصواب: أن نُقدِّر: (لكُنتُ من المُتَّقين الله)؛ لأن الأصل هو تَقوَى الله عَزَّوَجَلَّ، وتَقوى عذاب الله من تَقوَى الله تعالى، فيَنبَغي أن نُقدِّر الأَصْل، أي: لكُنتُ من المُتَّقين اللهَ تعالى.

وأَصْل التَّقوى مَأخوذة من الوِقاية، فأَصلُها (وَقْوَى) بالواو، لكن قُلِبت الواو تاءً لعِلَّةٍ تَصريفية، فإذا كانت من الوِقاية فسَّرْناها بأنها اتِّخاذُ ما يَقِي من عَذاب الله تعالى، ولا يَقِي من عَذاب الله تعالى إلَّا فِعْل أوامِره واجتِناب نواهِيه.

ولهذا نَقول: إنَّ أَجمَعَ ما قيل في التَّقوى أنها فِعْل الأوامِر واجتِناب النواهِي.

وقيل: إن التَّقوى أن تَعمَل بطاعة الله تعالى على نورٍ من الله تعالى تَرجو ثوابَ الله تعالى، وأن تَترُك ما نهى الله تعالى على نورٍ من الله تعالى تَخشَى عِقاب الله تعالى؛ وهذا المَعنَى أَطوَلُ ممَّا قُلْنا، لكن ما قُلْنا مُشتَمِلٌ عليه.

وقيل في التَّقوى:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاعْمَلْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى[1]

وهذا أيضًا تَعريفٌ شيِّق؛ لأنه مَنظوم، فقوله:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى

والذُّنوب إمَّا فِعْل مُحرَّم، أو تَرْك واجِب.

---

(١) الأبيات لابن المعتز، انظر: ديوانه (ص:٢٩).

وقوله:

وَاعْمَــــلْ كَــمَاشٍ فَــوْقَ أَرْ ضِ الشَّــوْكِ يَحْـذَرُ مَـا يَــرَى

فالذي يَمشِي على أرض الشَّوْك يَمشِي ببُطْءٍ.

وقوله:

لَا تَحْقِـــرَنَّ صَـــغِيرَةً إِنَّ الْجِبَـــالَ مِـــنَ الحَصَـــى

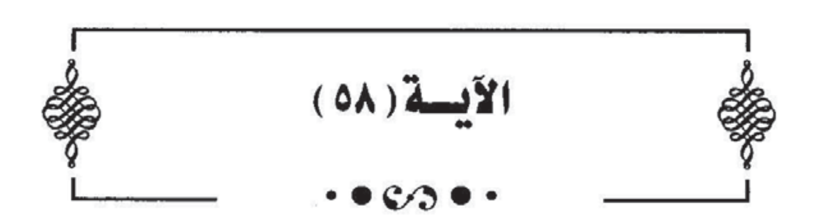
الجِبال العَظيمة الضَّخمة حَصًى مُتجَمِّع، إمَّا كُتَل أو صِغار أو كِبار.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: احتِجاج هذه النَّفْسِ التي فرَّطَت في جَنْب الله تعالى بقضاء الله تعالى وقدَره؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وهذا الاحتِجاجُ باطِل، أَبطَله الله تعالى بقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى ...﴾ إلخ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات أن هؤلاءِ المُكذِّبين يُقِرُّون بالله عَزَّوَجَلَّ، وبأن الأَمْر بيَدِه؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن التَّقوَى سببٌ للنَّجاة من العَذاب.



الآية (٥٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر:٥٨].

•●ഗ●•

قوله: ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ هذه مَعطوفة على ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ يَعنِي: أو تَقول النَّفْس حين تَرى العَذاب بعَيْنه فيَكون المَوعود مَشهودًا تَراه بالعَيْن.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ والرُّؤية بالعين تُعتبَر عينَ اليَقين، والوعد بالعَذاب عِلْم اليَقين، ومسُّ العذاب حَقُّ اليَقين؛ ولهذا قالوا: اليَقين ثلاثة: عِلْم، وعَيْن، وحَقٌّ؛ وكلُّها في القرآن:

قال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٥-٧]، أي: مُشاهَدًا.

وقال تعالى في آخِر سورة الواقِعة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة:٩٥]، فالذي يَكون عند الاحتِضار (حقُّ اليَقين).

وأَعلاها حقُّ اليَقين؛ لأن عين اليَقين قد تُشاهِد الشيء على خِلاف ما هو عليه كما تَرى، ولا سيَّما إن كان نظَرُك ضعيفًا تَرى الشيء الساكِن مُتحرِّكًا، أو المُتحَرِّك ساكِنًا، فعلى كل حال حَقُّ اليَقين أعلاها.

وهنا قال تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾ والمُراد عَينُ اليقين.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: ﴿لَوْ﴾ هنا ليست شَرْطيةً، ولكنها للتَّمنِّي، يَعنِي: ليت لي كَرَّةً.

ونَستَطرِد فنَقول: (لَوْ) تَأتِي شَرْطية، وتَأتِي للتَّمنِّي، وتَأتِي مَصدريةً؛ ثلاثة مَعانٍ:

فتَأتِي شَرْطية فيما إذا قُلت: لو زُرْتَني لأَكرَمْتكَ. وعلامتها: أن يَحِلَّ محلَّها (إِنِ) الشَّرْطية: لو زُرْتَني لأَكرَمْتك. اجعَلْ بدَلَها (إِنْ): إن زُرْتَني أَكرَمْتك.

والثانية المَصدَرية وهي التي تَأتي غالِبًا بعد (وَدَّ) كقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩]، وعلامـتها: أن يَحِلَّ محلَّها (أَنِ) المَصـدَرية ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ﴾، ولو وضِعَت بدلها (أَنْ): ودُّوا أَنْ تُدهِن؛ لا يَصِحُّ الكلام، ولا يَصِحُّ أن تَضَع بدَلَها (أَنْ) في القُرآن، ويَصِحُّ تَقديرًا ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾، فلو جُعِلَـتْ بدَلَها (أَنِ) استَقام الكلام، لكن لا يَجوز في القرآن أن تُجعَل بدلَها (أَنْ).

ولو قُلـت: وَدِدْتُ لو زُرْتَنـي. لكان صحيحًا، لكن هنا إذا حوَّلتها إلى (أَنْ) فحَوِّلِ الفِعْل إلى مُضارِع: وَدِدْت أن تَزورَني.

بقِيَ عندنا التَّمَنِّيَة التي للتَّمنِّي، وتَكـون بمعنى: أَتمنَّى، يَعنِي: يُعيِّـن مَعناها السِّياق، فهنا ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ﴾ لو وُضِعَتْ بدلَها: أَتمنَّى؛ كان المَعنَى: أَتمنَّى أن يَكون لي كرَّةٌ فأكون من المُؤمِنين؛ ويَدُلُّك لهذا قولُه تعالى في سورة الأنعام: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام:٢٧].

فصار مَعانِي (لو) ثلاثةً: شَرْطية، ومَصدَرية، وللتَّمنِّي.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [رَجعةً إلى الدُّنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾]، يَعنِي: يَتمنَّى أن يَكون له رَجعة ليَكون من المُحسِنين.

وقوله تعالى: ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، ولم يَقُل: من المُتَّقين؛ لأن الإحسان درَجةٌ فوقَ التَّقوى، فكُلُّ مُحسِنٍ مُتَّقٍ، وليس كُل مُتَّقٍ مُحسِنًا، فالإحسان درجةٌ عاليةٌ قال فيه النبيُّ ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1]. ولكن ليسَتْ هذه النَّفسُ صادِقةً في أنها تَتَمنَّى لتكون من المُحسِنين، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]، لكن عند العَذاب ليس لها إلَّا أن تَقول هكذا: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

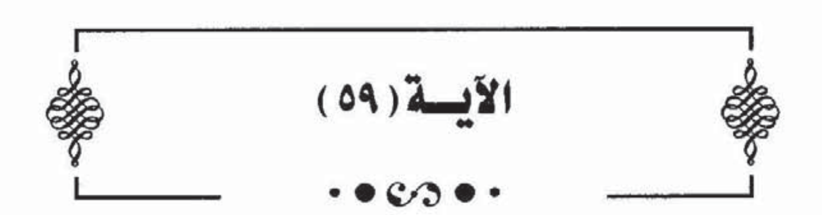
من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هؤلاءِ يَتمَنَّون الرجوع إلى الدُّنيا إذا رأَوُا العذاب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنهم يَتمنَّوْن الرجوع؛ ليَكونوا من المُحسِنين، لا للتَّلذُّذ بالدنيا والتَّمتُّع بها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وهذا يُشبِه قوله تعالى: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠].

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر:٥٩].

•●○●•

قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ ﴾ هذه حَرْف جَواب، يُجاب بها النفيُ لإِثْباته.

فإذا قال قائِل: أينَ النفيُ في هذه الآيةِ؟

قُلْنا: قول هذه المُكذِّبة: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ يَتَضمَّن أن الله تعالى لم يَهدِها، فقال الله تعالى: ﴿ بَلَىٰ ﴾ يَعنِي: بلى قد جاءَك ما فيه الهِداية، وهو بَعْث الرُّسُل؛ لأن فيها ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ يَتَضمَّن الهِداية العِلْمية؛ هِداية الرُّشْد الذي هو التَّوفيق.

والخُلاصةُ: أن قولها: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ يَتضمَّن نفيَ هِداية الله تعالى لها، لو أن الله تعالى هَداني لكُنْت، ولكنه لم يَهدِنِي، فلم أَكُن من المُتَّقين.

إِذَنْ: هذا الكلامُ يَتَضمَّن نفيَ الهِداية، فقال الله تعالى مُبطِلًا هذا النفيَ: ﴿ بَلَىٰ ﴾ يَعنِي: بلى قد هَداكِ الله تعالى، هَداها بما جاءَت به، وهذه هِدايةُ الدَّلالة ﴿ بَلَىٰ ﴾ أي: بلى قد هَداكِ الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القُرآن وهو سبَب الهِداية] ما سبَق ليس خاصًّا بأُمَّة مُحمَّد ﷺ حتى يُقال: إن الآياتِ هي القُرآنُ، ولكنه

عامٌّ لجميع الأُمَم الذين يَرَوْن العَذاب يوم القِيامة، فإذا كان من هذه الأُمَّةِ فالآياتُ التي جاءَت هي القُرآن، وإذا كان من قوم مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فالآياتُ هي التَّوراةُ، وإذا كان من قوم عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فالآياتُ الإنجيلُ، وهلُمَّ جَرًّا.

والآياتُ جَمْع: آيةٍ، وهي في اللغة: العَلامة المُبيِّنة لمَدلولها، وقد سمَّى الله عَزَّ وَجَلَّ ما جاءَت به الرُّسُل آياتٍ؛ لأنه علامة على الربِّ عَزَّ وَجَلَّ، ممَّا يَتضمَّنه من الصِّدْق في الأَخْبار، والعَـدْل في الأَحْكام، وأنه لو اجتَمَع الخَلْق على أن يَأْتوا بمِثْل ما جاء به الرُّسُل من الشرائِع ما استَطاعوا ذلك، وهذا آيةٌ؛ لأن ما يُقْدَر عليه لا يُعتَبَر آيةً.

وقدِ استَمَـرَّ المُتأخِّرون على تَسمية الآيات: مُعجِـزاتٍ؛ وهذا فيه نظَـر، فإن المُعجِزاتِ أعمُّ من الآيات، إذ إن المُعجِـزة قد تَكون من الساحِـر، وقد تَكون من الكاهِن، وقد تَكون من المُشعوِذ، لكن الآية التي تُبيِّن الشيء وتُوضِّحه لا تَكون من هؤلاء؛ ولهذا يَنبَغي أن نَقول: (آياتُ الأنبياء) بدَلَ (مُعجِزاتُ الأنبياء)؛ لأن هذه:

أوَّلًا: هي المُوافَقة لما جاء في القرآن، فإن الله لم يُسمِّ آياتِ الأنبياءِ مُعجِزاتٍ.

ثانيًا: لِئَلَّا يَدخُل ما جاء مُعجِزًا من غير الأنبياءِ.

فقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى ﴾ أي: العَلامـاتُ التي تَدُلُّ على أن الله تعالى حقٌّ، أي: القُرآن، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهو سبَب الهِداية].

قوله: [هو] أي: ما جاءت به الرُّسُل من الآيات [سبَب الهِداية]، ولكن لمَن: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

أمَّا مَن حقَّتْ عليه كلِمة العَذاب وعلِمَ الله تعالى أنه ليس أهلًا لها، فيَقول الله تعالى فيـه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ باعتِبار الأخبار، ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ باعتِبار الأحكام الأوامِر والنَّواهِي، ففي جانب الخبَر مُكذِّب، وفي جانب الأمر والنَّهيِ مُستكبِر.

ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ تكبَّرت عن الإيمان بها] ولو قيل: عن العمَل بها؛ ليَكون التَّكذيب للأخبار، والاستِكبار عن الأَحْكام، ولكن ما ذكَره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا بأسَ به عن الإيمان بها.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾: ﴿وَكُنتَ﴾ أي: بسَبَب التَّكذيب والاستِكبار ﴿مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ الذين يَستَحِقُّون دُخول النار؛ لِقيام الحُجَّة عليهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تكذيب هؤلاء الذين قالوا: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إبطال الاحتِجاج بالقدَر على معصية الله عَزَّوَجَلَّ، ووجهُه: أن الله تعالى جعَل إرسال الرُّسُل حُجَّة، ولو كان القـدَر حُجَّةً لصاحِبه لم يَبطُل بإرسال الرُّسُل.

وعلى هذا فنَقول: الاحتِجاج بالقدَر باطِلٌ من جهة الشَّرْع، ومن جهة النَّظَر؛ أي: من جِهة العَقْل.

أمَّا من جهة الشَّرْع فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَبطَله في عِدَّة آياتٍ منها هذه الآيةُ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى﴾ لمَّا قالت: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾

[الأنعام:١٤٨]، ولو كان الاحتِجاج بالقدَر نافِعًا لهم ما ذاقوا بأسَ الله تعالى إذ لا يَذوق بأسَ اللهِ تعالى إلَّا مَن لا حُجَّةَ له.

أمَّا من حيثُ النظَر: فإننا نَقول لهـذا المُحتَجِّ بالقدَر: ما الذي أَعلَمك أن الله تعالى كتَبَ عليك أن تَعصيَه؟ فلا يُمكِن أن يَعلَم بذلك قبل أن تَقَعَ المعصية، إذْ إن القَدَر سِرٌّ مَكتوم لا يُعلَم به إلَّا بعد وُقوع المَقدور كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان:٣٤]، فإذا كنتَ لا تَعلَم به إلَّا بعد وُقوع المَقدور، فتَجعَل لِفعْلكَ حُجَّةً لم تَعلَم بها إلَّا بعد وقوع الفِعْل؛ لأنَّ الحُجَّة للفِعْل لا بُدَّ أن تكون سابِقةً عليه، أمَّا بعد أن يَقَع فإنه لا حُجَّةَ لك في القدَر.

ونَقول: إنك ظلَمْت نَفْسك باختيار المَعصِية، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١]، فأنت الآنَ ظلَمْت نَفْسَك واحتَجَجْت على ذلك بالقَدَر، فما ظَنُّك لو أن أحَدًا من الناس ظلَمَك في مالِك أو عِرْضك، وقال: إن هذا قدَرُ الله تعالى. هل تَقبَل حُجَّته؟!

الجَوابُ: لا، فمَعلوم أنه لو أن أحَدًا ضرَبه أو أخَذَ ماله أو أَساء إلى أهله، وقال: هذا قدَرُ الله تعالى، لا أَستَطيع. فإنه لن يَقبَل منه هذه الحُجَّةَ، فإذا كان لا يَقبَل حُجَّة مَن ظلَمه فلماذا يَقبَل حُجَّته على نَفْسه في ظُلْمه إيَّاها؟! فهذا مُنافٍ للعَقْل.

ويُذكَر أن أميـر المُؤمِنين عمرَ بنَ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رُفِـع إليه سارِق، فأمَـر بقَطْع يَدِه، فقال: يا أميرَ المُؤمِنين، والله ما سرَقْـتُ إلَّا بقدَر الله. يُريد أن يَرفَع عنه حَدَّ السرِقة، فقال أميرُ المُؤمِنين عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ونحن لا نَقطَعُك إلَّا بقدَر الله. لأنه إذا كان هو سرَق بقدَر الله تعالى فنحن أيضًا نَقطَعه بقدَر الله تعالى، بل نحن نَقطَعه بقدَر الله تعالى وشَرْع الله تعالى، فهو سرَقَ بقدَر الله تعالى دون شَرْع الله تعالى، فكُنَّا أَقوى

منه حُجَّةً، ولكن أمير المُؤمِنين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عدَل عن ذِكْر الشَّرْع اقتِصارًا على ما احتَجَّ به هذا السارِقُ.

ونَقول لهذا الرجُلِ: لو خُيِّرت بين بلَدين أحدُهما بلَدٌ آمِن مُطمَئِنٌّ يَأتيه رِزْقه رغَدًا من كل مَكان، والثاني بلَدٌ خائِف وجوع ومرَض فهل تَذهَب إلى الثاني، وتَحتَجُّ بقدَر الله تعالى؟ أو إلى الأوَّل، وتَقول: إن الله تعالى أعطاني عَقْلًا ففضَّلْتَ الأوَّل؟ سيَقول: إن الله تعالى أَعطاني عَقْلًا ففَضَّلْتُ البلَد الآمِن، ولا يُمكِن أن يَذهَب إلى البلَد الخائِف ويَقول: هذا بقَضاء الله تعالى وقدَره. لو ذهَب إلى البلَد الخائِف باختياره وقال: هذا بقضاء الله تعالى وقدَره. لقال الناس: إن هذا الرجُلَ مجنون، إذ إنه لا يُمكِن أن يَختار مثل هذا البلَدِ على البلد الأوَّلِ.

وبهذا تَبيَّن بُطلان مَن احتجَّ بالقضاء على مَعاصِي الله تعالى، حتى مَن احتَجَّ بالقضاء على تَرْك الأفضل هو أيضًا مُخطِئ، ويُؤيِّد ذلك الوجهُ الأخيرُ؛ حيث اختار البلَد الآمِن الذي يَأتيه رِزْقه رغَدًا من كل مَكان.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هؤلاء الذين أُصيبوا بالعَذاب أُصيبوا بالجزاء العَدْل؛ وذلك لأنهم كذَّبوا بالآيات واستكبَروا عنها، وهذا جزاؤُهم؛ لأن هذا الجزاءَ الذي أُصيبوا به ليس خافِيًا عليهم ولا مَكتومًا عنهم، فإن الرُّسُل جاءَتْهم بالأحكام والأخبار، والترغيب والترهيب، وقد دخَلوا على بصيرة، فيَكون جَزاؤُهم عَدْلًا لا جَوْرًا؛ لأنهم علِموا ماذا يُلاقون إذا كذَّبوا واستكبَروا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن التَّكذيب بآيات الله تعالى كُفْر، والاستِكْبار عن أحكام الله تعالى كُفْر؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

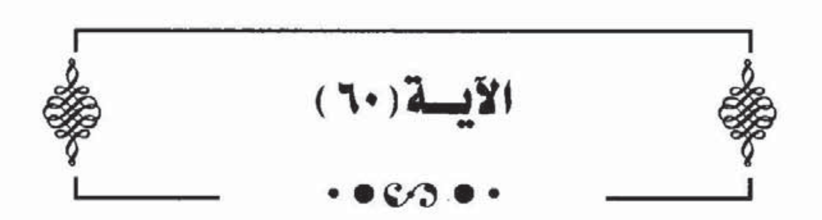
ولا شَكَّ أن المُكذِّب للخبَر كافِر سواءٌ كذَّب الخبَرَ المُتواتِرِ المَقطوع به، أو كذَّب خبَرَ الآحاد، فإنه يَكون كافِرًا، لكن تكذيب خبَرَ الآحاد يُشترَط لتكفيره أن يَقول: نعَمْ، قال الرسولُ كذا، ولكنه غيرُ صحيح، أمَّا لو قال: لم يَقُلِ الرسول كذا، وهو خبَرُ آحاد. فهذا لا نَحكُم بكُفْره؛ لأنه يُمكِن أن يَكون أنكَره؛ لعدَم ثُبوته عِنده، لكن لو قال: أنا أَقول: إن النبيَّ ﷺ قال: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا وُضُوءَ لَهُ»[1]، ولكني أَقول: هذا ليس بصحيح، فحُكْم هذا الكُفرُ ولا شَكَّ؛ لأن هذا تكذيبٌ صريح للنبيِّ ﷺ بعد أن عَلِم أن الرسولَ ﷺ قاله، بل بعد أن أَقرَّ هو بنَفْسه أن الرسول ﷺ قاله.

وعلى هذا فإذا قال لك قائِل: هل يَكفُر من كذَّب أخبار الآحاد؟ فيَجِب أن تُفصِّل، وتَقول: إن قال: نعَمْ قال النبيُّ ﷺ كذا، ولكن لا قَبولَ وليس بصِدْق. فهذا كافِر بلا شَكٍّ.

أمَّا إذا كذَّب دون أن يَقول مثل ذلك فإننا لا نُكذِّبه؛ لاحتِمال أن يَكون تكذيبه لعدَم ثُبوت الخبَر عنده وهي شُبهةٌ تَرفَع عنه الحُكْم بالكُفْر؛ لأن الحُكْم بالكُفْر ليس بالأمر الهَيِّن وهو إخراج الإنسان من نِطاق الإسلام إلى نِطاق الكُفْر.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٤١٨)، وأبو داود: كتاب الطهارة، باب في التسمية على الوضوء، رقم (١٠١)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب ما جاء في التسمية في الوضوء، رقم (٣٩٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٦٠].

• • • •

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: (يوم) هـذه ظَرْف تحتاج إلى مُتعلِّق؛ لأن كل ظَرْف أو جارٍّ ومجرور فلا بُدَّ له من شيء يَتعلَّـق به؛ لأن الظرف والجارَّ والمَجرور لا يُمكِن أن يَكون عامِله مَعنويًا، لا بُدَّ أن يَكون عامِله لفظيًّا، بخِلاف غيرهما، فإنه قد يَكون عامِله مَعنوِيًّا فيَكون مُبتَدَأً، لكن الظرف لا يَكون مُبتَدَأً، والجارُّ والمجرور لا يَكون مُبتَدَأً، فلا بُدَّ له من عامِل لَفْظيٍّ، والعامِل اللفظيُّ إمَّا فِعْل، وإمَّا ما كان بمَعنَى الفِعْل كاسْمِ الفاعِل واسم المَفعول، وعلى هذا يَقول ناظِمُ الجُمَل:

لَا بُـدَّ لِلْجَـارِّ مِـنَ التَّعَلُّـقِ ... بِفِعْـلٍ اوْ مَعْنَـاهُ نَحْـوُ مُرْتَـقِ

وَاسْـتَثْنِ كُـلَّ زائِـدٍ لَـهُ عَمَـلْ ... كَالْبَاءِ وَمِنْ وَالْكَافِ أَيْضًا وَلَعَلّ

إذن: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ﴾: ﴿وَيَوْمَ﴾ هذه ظَرْف تحتاج إلى مُتعلَّق، ومُتعَلَّقها الفِعْل الذي بعدَه ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟﴾ يَعنِي: وترَى الذين كذَبوا على الله يـوم القيامة ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾، ولكن قدَّم المَعمـول للأَهمِّيَّة؛ لأن المُهِمَّ التَّحدُّث عن هذا اليوم.

وقوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ﴾ الخِطاب لكل مَن يَصِحُّ خِطابه، فيَعُمُّ الرسول ﷺ، وغيره ممَّن يَصِحُّ توجيه الخِطاب إليهم.

والرُّؤية هنا رُؤيةٌ بصَرية؛ لأن السَّواد لون، والرُّؤية باللَّون هي رُؤيةٌ بصَرية؛ لأن الألوان تُرى ولا تُعقَل؛ يَعنِي: تُدرَك بالرؤية لا بالعَقْل.

قوله تعالى: ﴿كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بكل أنواع الكذِب، فكلُّ مَن كذَب على الله تعالى فإن وجهَه سيَكون مُسوَدًّا يوم القيامة، وذلك [بنِسبة الشَّريك له]، كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [بنِسْبة الولَد له]، كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا، وبنِسبة الجَوْر له، وبنِسْبة الظُّلْم، وبأي شيء يَكذِب على الله تعالى، فإن الذين يَكذِبون على الله تعالى ستكون وجوهُهم يوم القِيامة مُسوَدَّة، حتى لو كانوا في الدُّنيا بِيضًا فإنهم يَأتون يوم القيامة وجوهُهم مُسوَدَّة -والعِياذُ بالله-.

قال تعالى: ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌ﴾ ولم يَقُل: تَرَى وجوهَ الذين كذَبوا على الله مُسوَدَّة؛ لأن التَّركيب المَذكور في القُرآن أَبلَغُ في الإثبات؛ حيث جعَل هذا الوَصْفَ -أَعنِي: سَواد وجوهِهم- مُكوَّنًا من جُملة واحِدة؛ لأن الجُملة الاسْمِيَّة تُفيد الثُّبوت والاستِمْرار، بخِلاف الجُمْلة الفِعْلية فإنها تُفيد التَّجدُّد والحُدوث.

فـ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ تَرَى نفس الإنسان وجهُه مُسوَدٌّ، لكن لو قال: تَرَى وجوه الذين كذَبوا على الله تعالى مُسوَدَّة لم تَحصُل هذه الفائِدة.

إذن: هذا التركيبُ الذي في الآية الكريمة يُفيد مَعنًى أكثَرَ ممَّا لو كان على التَّركيب الذي ذكَرْته؛ لأن هذا التَّركيبَ القرآنيَّ يَدُلُّ على أن هذا الاسوِدادَ في

وجوههم ثابتٌ مُستَقِرٌّ، حيث جاء بالجُملة الاسمِيَّة، والجُملة الاسْمِيَّة تُفيد الثُّبوت والاستِمْرار.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾: ﴿أَلَيْسَ﴾ الاستِفهام هنا للتَّقرير، ويَقول العُلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: كلَّما جاءَت أداة النفيِ بعد الاستِفْهام فإنه للتَّقرير، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨].

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٤٠]، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٦٠]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، والآيات في هذا كثيرة.

فالاستِفهام إذَنْ في هـذه الآيـةِ: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ -والجَوابُ: بلى- استِفهام تَقرير.

وقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ﴾ اسمٌ من أسماء النار -أَعاذَني الله تعالى وإيَّاكم منها- وهل هو اسمٌ مُعرَّب، أو هو اسمٌ عرَبيٌّ على وَزْن فَعلَل؟

في ذلك قولان:

منهم مَن قال: إنه اسمٌ مُعرَب وأصلُه في الفارسية: (كهَنّام) فعُرِّب فآلَ إلى جَهنَّمَ. وقيل: بل هو اسمٌ عرَبيٌّ على وَزْن فَعلَّل، مَأْخُوذٌ مِنَ الجُهمة وهي الظُّلْمة؛ لأن النار -والعِياذُ بالله- سَوداءُ مُظلِمة.

وإذا دار الأمرُ بين أن تَكون الكلِمة أصيلة أو دَخيلة فالأصل أنها أَصيلة؛ لأن القُرآن عرَبيٌّ، فإذا حكَمْنا بأن الأصل عرَبيٌّ جعَلنا اللغة العربية غَنيَّةً عن غيرها، وإذا جعَلْنا أصلَه فارِسيًّا، أو حبَشِيًّا، أو ما أَشبَه ذلك، ولكنه عُرِّب، فهذا يَعنِي أن

اللغة العربية افتَقَرت إلى هذه الكلِمةِ فعرَّبتها وأَدخَلَتْها في لسان العرَب.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَثْوَى﴾ مَأْوًى] فالمَثْوَى والمَأْوَى بمَعنًى واحِد، والمُراد بالمَثْوى والمَأْوَى: المَقَرُّ والمَسكَن.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان] وعن الأعمال أيضًا، فكُلُّ مُتكبِّر -والعِياذُ بالله- فهو من أصحاب النار.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بلى] هذا جَوابُ: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، وإذا جاءت مثل هذه الصِّيغةِ في القُرآن فجَوابها: (بلى)؛ فإذا قَرأْت قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ أو قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزمر:٣٧]، أو قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أو قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فالجَوابُ: بلى. وهكذا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ويوم القيامة هو يوم قِيام الساعة، وسُمِّيَ بذلك لأن الناس يَقومون من قُبورهم لربِّ العالَمين؛ ولأنه يُقام فيه العَدلُ؛ ولأن الأَشهاد تَقوم فيه؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦]؛ ولقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء:١٤٧]؛ ولقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

فهذا هو سبَب تَسمية يوم القيامة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: سُـوء عاقِبة الكاذِبين على الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَحريم الكذِب على الله تعالى، ويُؤخَذ ذلك من العُقوبة، فالتَّحريم لا يُستَفاد من صيغة فقَطْ، بل يُستَفاد التحريم من صيغة النَّهيِ، والقَتْل لفاعِله، وبيان عُقوبة فاعِله، وما أَشبَه ذلك، المُهِمُّ أن وسائل العِلْم بالتَّحريم مُتعدِّدة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: التحذير من الفُتيا بلا عِلْم؛ لأن مَن يُفتِي بلا عِلْم فقد قال على الله تعالى ما لا يَعلَم، وقد بيَّن تَحريم ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

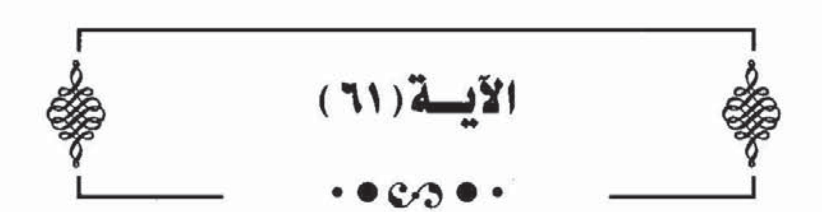
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الكاذِبين على الله تعالى مَقرُّهم النار؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تحريم التَّكبُّر؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ تكبُّرٌ عن الحقِّ، تكبُّرٌ على الخَلْق، ويَدُلُّ لهذا التنويعِ أن النبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»[1]. فقوله: «**بَطَرُ الحَقِّ**» تَكبُّـر عن الحقِّ، و«**غَمْطُ النَّاسِ**» تكبُّـر على الخَلْق، وأَعظَمُهما الأوَّل، وهو التَّكبُّر عن الحقِّ؛ لأن الثانيَ داخِلٌ فيه، فإن التَّكبُّر على الخَلْق تكبُّر عن الحقِّ، إذ إن الحقَّ يَأمُرك أن تكون مُتواضِعًا للحقِّ وللخَلْق.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: التَّحذير من التَّكبُّر، وأن عُقوبة المُتكبِّرين دُخول ا النار، بل إذا كان التَّكبُّر تَكبُّرًا مُطلَقًا فإن عُقوبته السُّكنَى في النار والخلود في النار، أمَّا مَن تكبَّر مُطلَق تَكبُّر فهذا لا يُحكَم له بالخُلود في النار؛ لأنه قد يَتكبَّر عن بعض الحَقِّ، أو يَتكبَّر على الخَلْق فلا يَستَحِقُّ الخُلود.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.



الآية (٦١)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر:٦١].

•••

لَمَّا ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِقاب الذين كذَبوا على الله تعالى بيَّن ثواب الذين اتَّقَوُا الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا دأَبُ القرآن الكريم أنه إذا ذكَر الشيء ذكَر مُقابِله، وهو من مَعنَى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر:٢٣].

قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: ﴿مَّثَانِىَ﴾ أي: تُثنَّى فيه المَعاني، فإذا جاء وَصْف المُؤمِنين جاء وَصْف الكافِرين، وإذا جاء ثَواب المُؤمِنين جاء ثَواب الكافِرين، وكذلك بالعكس، وذلك من أَجْل أن لا يَستَغرِق الإنسان في جانب الرجاء إذا ذكَر وَصْف المُؤمِنين وثوابهم، وكذلك لا ييْأَس إذا ذكَر وَصْف الكافِرين وعِقابهم.

وهنا يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ من عِقاب الكافِرين، فلا تَكون وجوهُهم مُسوَدَّةً، ولا تكون مَثواهم جَهنَّمَ، وقد بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ في آيات أخرى أن يوم القِيامة ﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]، فتَسوَدُّ وجوهُ الكافِرين، وتَبيَضُّ وجوه المُؤمِنين، فيُنجِّي الله تعالى الذين اتَّقَوْا من عِقاب الكافِرين في هذا وفي هذا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ﴾ من جَهنَّمَ] صحيح، لكن لو قال: من

عِقاب الكافِرين. لكان أعمَّ؛ لتَشمَـل النَّجاة نجاتَهم من جَهنَّمَ، ومن أن تكـون وجوهُهم مُسوَدَّةً، ومن غير ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ الشِّرْكَ]، والصواب أن يُقال في هذا: اتَّقوا الله؛ لأن التَّقوى عند الإطلاق إنما يُراد بها تَقوى الله عَزَّوَجَلَّ، وقد تُذكَر في غير الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]، وما أَشبَه ذلك، لكن عند الإطلاق لا يُراد بها إلَّا تَقوَى الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: بمَكان فَوْزهم من الجَنَّة بأن يَجعَلوا فيه].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بمَكان فَوْزهم من الجَنَّة بأن يَجعَلوا فيه]، فأَفادَنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا التَّفسيرِ: أن الباء بمَعنَى (في) أي: يُنجِّي الله الذين اتَّقَوْا من العذاب في مكان فَوْزهم، وهو الجَنَّة.

والباء تَأتي بمَعنَى (في) في اللغة العربية، ومنه قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨]، ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ يَعنِـي في الليل.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا من نَجاتهم أنهم لا يَمَسُّهم السـوء، أي: لا يَمسُّهم شيء يَسـوؤُهم، لا من عِقاب، ولا من تَوبيخ، ولا غير ذلك؛ ولهذا إذا دخَل أهل الجَنَّةِ الجَنَّةَ يُقال: يا أهلَ الجَنَّة، خُلودٌ فلا موت. ويقال: إن لكم أن تَنعَموا، وإن لكم أن تَصِحُّوا، وإن لكم أن تَحيَوْا. يَعنِي: فلا تَموتوا، ولا تَسقَموا، ولا تَبأَسوا. دائِمًا هم في نعيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا يَحزَنون على ما سبَقَ؛ لأنَّ الحُزْن يَكون على ما مضَى، والغَمَّ

يَكون للمُستقبَل، أمَّا المُستقبَل فقال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾، وأمَّا الماضي فقال تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي: لا يَحزَنون على ما مضَى؛ لأنهم لم يُفرِّطوا فيه، بل عرَفوا قَدْر الزمَن، وعمِلوا فيه ما نجَوْا به من عَذاب الله عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فضل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ على المُتَّقين، حيث يُنجِّيهم إلى مكان الفَوْز.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فضيلة التَّقوى وآثارها وثمَراتها، وقد ذكَر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في القرآن الكريم من ثمَراتها شيئًا كثيرًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هؤلاءِ الناجِين لا يَمَسُّهم سوء في المُستَقبَل، ولا يَحزنون على شيء مضَى، وبذلك يَتِمُّ نعيمهم؛ لأن النعيم يَنقُص إذا أصاب الإنسانَ همٌّ أو غمٌّ للمُستَقبَل، ويَنقُص أيضًا إذا أَصابَه حُزْنٌ على الماضي، أمَّا إذا عرَف أنه كَسَب الماضيَ وأنه لن يَنالَه سوءٌ في المُستقبَل فسوف يَتِمُّ له النعيم.

• • ۞ • •



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر:٦٢].

•●○●•

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ جُملة اسْمِية تُفيد الثُّبوت والاستِمرار، وأن الله تعالى دائِمًا وأبدًا هو الخالِق.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مَعناها: مُوجِده على الصورة التي أَرادَها الله عَزَّوَجَلَّ.

والخَلْق في الأصل بمَعنَى: التقدير، ولكنه يُطلَق على الإيجاد المَقرون بالتَّقدير والتَّسوِية والإحكام والنِّظام، فهُنا الخَلْـق يُراد به الإيجاد على وجهٍ كامِـل بتَقديره وتَسوِيته وتَنظيمه.

وقوله تعالى: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال بعض الناس: يُستَثنَى من ذلك نفسُه، ولكن هذا ليس بصواب؛ لأنه من المَعلوم أن الفاعِل ليس المَفعولَ، وحينئذٍ لا يُحتاج إلى استِثناء، والاستِثناء يُحتاج في جُملةٍ يَكون فيها المُستَثْنى داخِلًا فيها لولا الاستِثناء، أمَّا هنا فلا يُمكِن أن يَكون داخِلًا فيها؛ لأن الفاعِل غير المَفعول، فالخالِق غير المَخلوق، ولا يُمكِن أن يُوجَد مَخلوقٌ ويُوجَد بعده خالِقه مثَلًا حتى نَقول: إن الجُملة تَحتاج إلى استِثناء.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾: ﴿وَهُوَ﴾ يَعنِـي: الله عَزَّوَجَلَّ ﴿عَلَىٰ كُلِّ

شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُتصـرِّفٌ فيه كيـف يَشاء]، ولو قال: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حفيظًا عليه مُدبِّرٌ له، لكان أعَمَّ؛ لأن الوكيل في اللغة هو الذي وُكِل إليه الشيء حِفْظًا وتَدبيرًا، والله عَزَّوَجَلَّ على كل شيء وكيل حِفْظًا وتدبيرًا، وهنا لا يُقال: كيف كان وَكيلًا؟ ومَن الذي وكَّله؟ ونَقول: إذا كان الوكيل بمَعنَى: الحفيظ المُدبِّر فلا حاجةَ إلى استِحْفاظ، بل هو الذي تَولَّى ذلك بنَفْسه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عُمـوم خَلْق الله عَزَّوَجَلَّ لكل شيء؛ لقـوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الرَّدُّ على القدَرية الذين قالوا: إن الإنسان خالِقُ أَفعالَه؛ ووجه ذلك: أن أَفعَال العِباد داخِلة في العُمـوم، فهي شيء من الأشياء، فتكون داخِلةً في العُموم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله تعالى خالِـقٌ للأعيان والأَوْصـاف؛ لأن الأعيان شيء يَعنِي: تُسمَّى شيئًا، والأوصاف تُسمَّى أيضًا شيئًا.

فإن قال قائِل: إن القُـرآن مَخلـوق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، والقـرآن شيء؛ وأن الله تعالى مَخلـوق؛ لأنه شيء، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً﴾ [الأنعام:١٩]، فما تَقولون في ذلك؟

الجَوابُ: نَقول: هذا ليس بصحيح، أَمَّا كون الله تعالى مَخلوقًا فقد تَقدَّم قبل قليل، وهو: ضرورةُ أن الفاعِل ليس هو المَفعولَ؛ هذا واحِد.

وأَمَّا أَنَّ القرآن غير مَخلوق؛ فلأَنَّ القُرآن وصـفُ الله عَزَّوَجَلَّ، والربُّ بصِفاته

ليس مَخلوقًا، بل هو لم يَزَل ولا يَزال بصِفاته، فكلامه غير مَخلوق ومنه القُرآن.

وعلى كل حال: فيَكون الربُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصِفاته ليس داخِلًا في هذا العُمومِ بالضرورة؛ لأنَّ الخالِق غير المَخلوق.

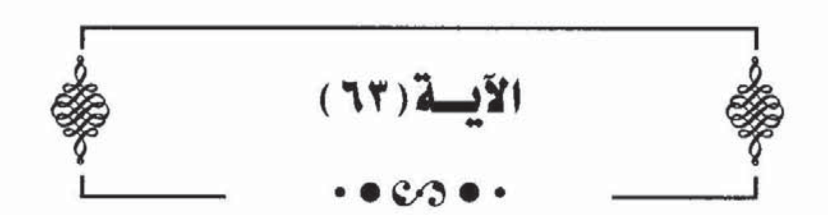
وأمَّا قول الذين استدَلُّوا بهذه الآيةِ على خَلْق القُرآن: أنَّ هذا عامٌّ؛ فنَقول: إن العامَّ قد يُراد به الخُصوص، هذا إذا صحَّ أن الذِّهْن يَنتَقِل من هذا العُمومِ إلى كل شيء، ونَقول: إن كلِمة (كل شيء) تَأتي ولا يُراد بها العُموم، مثل قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف:٢٥]، ومَعلومٌ أنها لم تُدمِّر السمَواتِ ولا الأرضَ، بل ولا مَساكِنَ القوم، كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: عِناية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما خلَقَ؛ لأنه لمَّا ذكَرَ أنه خلَق كل شيء بيَّن أنه على كل شيء وَكيل، وهذا يَدُلُّ على عِناية الله بخَلْقه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن ما يُصيب الناس من البلاء والفِتَن فإنه مِن الله تعالى ومن مُقتَضى وَكالته؛ لعُموم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

ومَعلومٌ أن الإنسان إذا آمَن هذا الإيمانَ فإنه سيَسهُل عليه كلُّ ما صعُب، وإذا آمَن أيضًا أنه بالصبر والاحتِساب تَنقَلِب هذه المَصائِبُ نِعَمًا هانَت عليه أيضًا؛ ولهذا لا نَجِد أحدًا أَعظَمَ راحةً ممَّن آمَن بالقدَر خيرِه وشَرِّه، فإنك تَجِد الإنسان وإن تَقلَّبَت به الأحوال تَجِده راضيًا مُطمَئِنًّا؛ إن أَصابَتْه الضَّرَّاءُ صبَرَ فكان خيرًا له، وإن أَصابَتْه السرَّاءُ شكَرَ فكان خيرًا له.

• • ۞ • •



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الزمر:٦٣].

•••

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: مَفاتيحُ خزائِنها من المطَر والنبات وغيرهما]، قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ﴾ المَقاليد جَمْع: مِقلاد، وهو ما يُقلَّد به الشيء، هذا هو هذا الأصل، والمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعَل المَقاليد هنا بمَعنَى: المَفاتيح، ولو أنه قال: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: تَدبير السمَواتِ والأرض. لكان أَوْلى؛ لأن كلِمة: المَفاتيح قد يَظُنُّ الظانُّ أنه يَملِك المفاتيح دون التَّدبير، ولكن الأمر ليس كذلك، فهو بيَدِه مَقاليد السمَواتِ والأرض. أي: تَدابيرُهما كما يَشاء.

ثُمَّ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مُبتَدَأ، وجملة: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ خبَره، وعلى هذا فتكون هذه الجُملةُ تَتَضمَّن جُمْلَتين: كُبرى، وصُغرى.

الكبرى: هي المُكوَّنة من المُبتَدَأ والخَبَر، والصُّغرى: هي التي وقَعَت خبَرًا، فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مُبتدَأ، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مُبتَدَأ آخَرُ ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ خبَر المُبتَدَأ الآخَر، والجُملة من المُبتَدَأ الثاني وخبَرِه خبَرُ المُبتدَأ الأوَّل.

وفائِدة الإتيان بهذا التَّركيبِ: أنه أُسنِدَت الجُمْلة الثانية إلى الأُولى حتى صارت

الجُمْلة جُمْلتين في المَعنَى.

أمَّا قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ فـ﴿هُمُ﴾ ضَمير فَصْل لا محَلَّ له من الإعراب.

وفائِدتُه:

أوَّلًا: التَّوكيد.

ثانيًا: الحَصْر.

ثالثًا: التَّمييز، أو إن شِئْت فقُلِ: الفصل بين كون ما بعدَه خبَرًا أو وَصْفًا، فإنك إذا قلت: زيدٌ هو الفاضِلُ. فإن كلمة (الفاضِل) تحتَمِل أن تكون خبَرًا، أو أن تَكون صِفة إذا حَذَفت (هو)، وإذا قلت: زيدٌ الفاضل. فربما يَترَقَّب الإنسان كلِمة أُخرى تَتِمُّ بها الجُملة، ويَعتِقد أن (الفاضِل) صِفة، فإذا قلتَ: هو الفاضِل. زال هذا الوهمُ، أو زال هذا التَّوقُّع، وعَلِم أن ما بعد (هو) خبَرَ المُبتَدأ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن] وهـذا فيه شيءٌ مـن القُصور؛ لأن آياتِ الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن وفي غير القرآن، ثُمَّ الآياتُ كونيةٌ وشَرْعيةٌ، والكُفْر يَكون بها جميعًا؛ أي: بالآيات الكونية والآيات الشرعية، ويَكون بالقرآن وبالتَّوراة وبالإنجيل وبغَيرِهما من الكُتُب التي أَنزَلها الله عَزَّوَجَلَّ، فالأَوْلى العُموم أن يُقال: كفَروا بآيات الله تعالى الكَوْنية والشَّرْعية، القرآن وغير القرآن.

وأصل الكُفْر الجَحْد، ومنه: الكفرة الذي هو وِعاء طَلْع النَّخْلة؛ لأنه يَستُر الطَّلْع ولا يَتبيَّن، والكافِر جاحِدٌ ساتِرٌ لحَقِّ الله عَزَّوَجَلَّ ولنِعَم الله عَزَّوَجَلَّ، وكُفرهم بآيات الله تعالى يَكون تارةً بالتكذيب وتارةً بالاستِكْبار، ففي مُقابِل الأخبار يَكون بالتَّكذيب،

وفي مُقابِلِ الأمر والنَّهيِ يَكون بالاستِكْبار.

إذَنِ: الكُفْر قُلْنا: إنه يَتَضمَّن شيئين: إمَّا جُحودًا، وإمَّا استِكبارًا.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾، قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ اسمُ إشارة، وهنا المُشار إليه بعيد؛ لأن الكافَ لا تَأتِي إلَّا إذا كان المُشار إليه بعيدًا، فإنها تَأْتي الكاف لتَنبيه المُخاطَب إلى المُشار إليه؛ لبُعْده، أمَّا إذا كان المُشار إليه قريبًا فإنه لا يُؤتَى بالكاف، بل يُقال: (أولاءِ) مثل: (هَـؤلاءِ)، ويُقال: (هذا) لكن إذا كان بَعيدًا فإنه يُؤتَى بالكاف؛ لتَنبيه المُخاطَب إلى المُشار إليه؛ لأنه لا شَكَّ أن الإنسان إذا خُوطِب كان ذلك أبلَغَ في تَنبيهه: (أولئكِ) إذا قلتَ الكافَ سيَنتَبِه ويَنظُر من هذا المُشارُ إليه.

فإذا كان لا يَكون إلَّا البعيد، فالبُعْد إمَّا عُلوٌّ أو سُفول، وإمَّا حِسِّيٌّ وإمَّا مَعنوِيٌّ، فالأقسام إذَنْ أربعة، والقِسْم الذي يَنطَبِق على الذين كفَروا هنا حِسِّيٌّ، لكن في الدنيا مَعنوِيٌّ؛ لأنه قد يَكون كافِرًا وهو في قِمَّة الجبَل.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ هم لا غيرهم الخاسِرون الذين خسِروا الدُّنيا والآخِرة، أمَّا خُسْران الآخِرة فظاهِر، وأمَّا خُسْران الدنيا فإنهم إنما خُلِقوا لعِبادة الله تعالى، ولم يَقوموا بعِبادة الله تعالى، إذَنْ خَسِروا المعنى الذي من أَجْله خُلِقوا، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُتَّصِلٌ بقوله: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ وما بينهما اعتِراض] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُتَّصِلٌ] يَعني بقوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟

بِمَفَازَتِهِمْ﴾؛ هذا ما ذهَب إليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكن هذا قد يُنازَع، قد يُقال إن قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ هو مُتَّصِل بما قبلَه، لَمَّا ذكَر الذين كذَبوا على الله تعالى أن وجوهَهم مُسوَدَّة قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾، أمَّا هذا فليس له صِلة بما ذُكِر، بل صِلَته بما قَبْله مُباشَرةً أَبْيَنُ وأَظهَرُ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَعنِي: فبعد هذا البيانِ، وبعد إقرار الكُفَّار بأن الله تعالى خالِق كل شيء لا يَبقَى لهم رِبْحٌ إذا كفَروا، بل همُ الخاسِرون.

فتكون هذه الآيةُ مُتَّصِلةً بما قبلَها مُباشَرةً، وليست مُتَّصِلةً بقوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾؛ لأن هذه الآيةَ: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ﴾ مُتَّصِلة بما قبلَها، وهذا هو مُقتَضى النَّظْم القرآني، أمَّا أن نُشَتِّتَ الآياتِ ونَقول: كلُّ هذه الجُملةِ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كل هذا جُملة اعتِراضية، أو كل هذا اعتِراضٌ لا مَحَلَّ له هنا؛ فلا شَكَّ أن هذا خِلاف ما يَقتَضيه النَّظْم وسِياق القرآن.

فالصَّوابُ: أن هذه الجُملةَ مُتَّصِلة بما قبلَها، ووجهُ الاتِّصال أنه بيَدِه مَقاليدُ السمَوات والأرض، وأنه خالق كل شيء، وهم يُقِرُّون به؛ فصار هؤلاء الذين يُقِرُّون بأن الله تعالى خالِق كل شيء، وأن له مَقاليدَ السموات والأرض وكفَروا به يَكونون خاسِرين لا شكَّ هم أَخسَرُ الناس، فكيف يُقِرُّون بأن الله تعالى خالِق كل شيء، وأن له مَقاليدَ السموات والأرض ثُم يَكفُرون بآياته؟! وكان مُقتَضى هذا الإقرارِ أن يُؤمِنوا بآياته، ولكنهم خَسِروا فكفَروا بآيات الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن المُدبِّر للسَّموات والأرض هو الله تعالى وحدَه؛ ووجهُ كونه وحدَه: أنه قُدِّم الخَبَر في قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ﴾ وتقديم الخَبَر يُفيد الحَصْر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: لَفْت نظَر الإنسان إلى أن لا يَستَعين إلَّا بالله تعالى، ولا يَسأَل إلَّا الله تعالى، ولا يَتوكَّل إلَّا على الله تعالى؛ وجهُ ذلك: أنه هو الذي له مَقاليدُ السمَوات والأرض، فإِذَن لا تَلتَفِت إلى غيره، كما قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لعَبدِ الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»(١).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الكافِرين همُ الخاسِرون وإن كانوا في الدنيا قد ربِحوا الجَوْلة، فإنهم خاسِرون دُنيا وأُخرى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وُجوب الإيمان بآيات الله تعالى؛ ووجهُ الدَّلالة: أنه إذا كان الوَعيد على مَن كفَر بها دلَّ ذلك على وُجوب الإيمان.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَحريم الكُفْر؛ لكونه سببًا للخَسارة.

فإذا قال قائل: أين في الآية لفظ يحرم؟

قُلْنا: التحريم يُستَفاد بعِدَّة طرُق، منها: النهيُ مثل: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢]، ومنها: التصريح بالتحريم مثل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة:٣]، ومنها: نفيُ الحِلِّ مثل: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة:٢٢٨]، ومنها: الوعيد على الشيء، ومنها: بيانُ فَوات الخير.

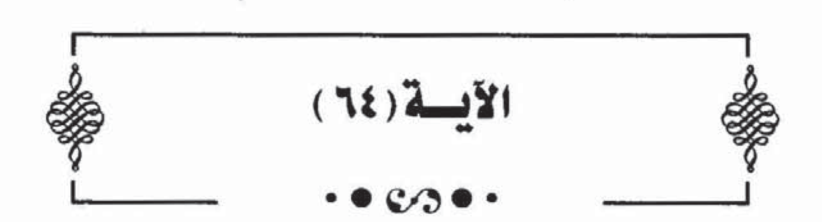
---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١٦).

وطرق إفادة التحريم مُتعَدِّدة، لكن من جُمْلتها: أن تَرتيب الخُسْران على فعل الشيء يَدُلُّ على أنه حرام.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: رِبْح الذين آمَنوا، وأنهم هم الرابِحون، فيُؤخَذ من مفهوم خَسارة الكافِرين: أن يَكون الرِّبْح للمُؤمِنين، وقد صرَّح الله تعالى بذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

• ● ۞ ● •



الآيـة (٦٤)

• • ෴ • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر:٦٤].

• • ෴ • •

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ الهَمْزة للاستِفْهام، والفاء حَرْف عَطْف، وهنا يُشكِل على هذا الإعرابِ ما اشتُهِر من أن هَمزة الاستِفهام لها الصَّدارة، وهنا قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ فإذا كان لها الصَّدارة فكيف تَأتِي الفاء بعدَها الدالة على أن الجُملة مَعطوفة؟

فالجَوابُ: إن في ذلك لعُلماءِ النَّحوِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وَجهَيْن:

الوجهُ الأوَّل: أن الهمزة للاستِفهام، وأنها داخِلة على جُملةٍ مَعطوف عليها، وتُقدَّر هذه الجُملةُ بما يُناسِب السِّياق، وعلى هذا فيَكون التَّقديرُ في هذه الآيةِ: قُلْ أَتَجْهَلون فغيرَ الله تَأمُرونِّي أَعبُد أيُّها الجاهِلون؛ ويُقدَّر في كل مَوضِع ما يُناسِبه، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف:١٠٩]، التَّقدير: أَغفَلوا فلم يَسيروا في الأرض.

وقيل: إن الهَمْزة للاستِفْهام، وإن الفاء مُزحَلَقة عن مَكانها، والتَّقدير: فأَغَيرَ الله. فتكون هذه الجُملةُ مَعطوفةً على ما سبَق، ولكن المَعنَى الأوَّل إذا تيَسَّر وأَمكَن أن يُقدَّر شيءٌ مُناسِب فإنه أَوْلى.

يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إعرابه: [﴿غَيْرَ﴾ مَنصوب بـ﴿أَعْبُدُ﴾ المَعمول

لـ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ بتقدير (أَن)؛ بنونٍ واحِدة وبنُونين، وبإدغامٍ وفَكٍّ]، هذه على قول: (تأمُرونِّي).

يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الإعراب: إن ﴿غَيْرَ﴾ مَنصوبة بـ﴿أَعْبُدُ﴾، والتقديرُ: أَأَعبُد غير الله تعالى بأَمْركم. هذا مَعنَى الآية.

وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ فيها قِراءات:

أوَّلًا: قِراءتها بنون واحِدة: (تَأْمُرونِي).

ثانيًا: قِراءتها بنونين بإدغام (تَأْمُرونِّي).

ثالثًا: قِراءتها بنُونين بدون إدغام (تَأْمُرونَنِي).

فقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ﴾ يَعنِي: أَتَأْمُرونَني أَعبُد غير الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أيِ: الجاهِلون بحقيقة ما يَجِب لله عَزَّوَجَلَّ وبحقيقة عِبادة الأصنامِ، ويُحتَمَل أن المَعنى المُراد بقَوْله تعالى: ﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أيِ: السُّفَهاء؛ لأن الجَهْل تارةً يُراد به السفَهُ، وتارةً يُراد به عدَم العِلْم، وإذا كان المُراد به السفَهُ فإنه يُسمَّى جهالةً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧].

وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ يَشمَل كلَّ ما سِوى الله تعالى من حَيٍّ وميت وصالِح وفاسِد وجَمادٍ وحَيَوان.

قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾: (أيُّ) مُنادى، و﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ وَصْف لـ(أيُّ)؛ ولهذا جاءَتْ مَرفوعةً، والاستِفهام هنا للتَّوْبيخ والإنكار بدليل قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: جَهالة أُولئِك الذين يَأمُرون بعِبادة الأَصنام.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هؤلاء الجاهِلين حاوَلوا أن يَجعَلوا الرسول ﷺ نفسَه يَعبُد الأصنام مع أنه إنما جاء لتَوحيد الله عَزَّوَجَلَّ وحدَه.

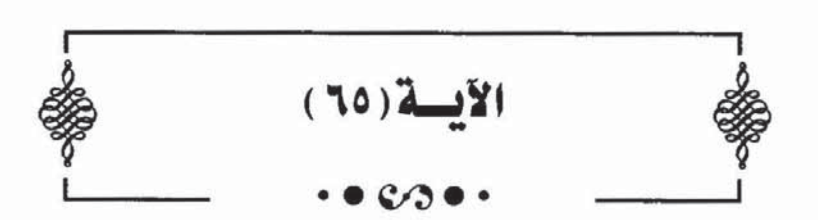
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الربَّ عَزَّوَجَلَّ عِبادته عِلْم ورُشْد؛ لأنه إذا كانت عِبادة غيره جَهْلًا فعِبادته عِلْمٌ ورُشْد.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه إذا كان الْمُشرِكون يُحاوِلون أن يُشرِك النبيُّ ﷺ، فما بالُكَ بأَتباع الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟! فإنهم سوف يُحاوِلون أن يَجعَلوهم مُشرِكين أكثَرَ من مُحاوَلتهم إشراكَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: الحذَرُ من دُعاة الشِّرْك والكُفْر، مثل دُعاة النَّصرانية اليومَ، فإن النَّصارى -علَيْهم لَعْنة الله تعالى إلى يوم القِيامة- يُحاوِلون بكل ما يَستَطيعون أن يُضلِّلوا المُسلِمين، وأن يُنصِّروهم، وإذا عجَزوا عن ذلك فعلى الأَقَلِّ أن يُخرِجوهم من دِينهم وإن لم يَدخُلوا دِين النَّصْرانية، وهذا الآنَ واضِح، فتَجِدهم يُنشِئُون الإذاعاتِ القويَّةَ الواضِحة من أَجْل دعوة المُسلِمين إلى النَّصْرانية، وتَجِدهم يَكتُبون الكِتاباتِ الكثيرةَ من رسائِلَ وكتُبٍ أكبَرَ يَبُثُّونها بين المُسلِمين، وتَجِدهم أيضًا يَكتُبون الإنجيل كِتابةً ككِتابة المُصحَف تمامًا مُفصَّلًا مُعرَبًا مَشكولًا؛ حتى يَظُنَّه العامِّيُّ من الناس الذي لم يَعرِف القرآن أنه هو القُرآن، وتَجِدهم أيضًا يَذهَبون إلى البِلاد الفَقيرة العاجِزة، ويُنشِئُون فيها المَدارِس والمَرافِق، ثُمَّ الكَنائِس من أَجْل إبلاغ الناس.

فالمُهِمُّ: أن أعداء المُسلِمين لا يَأْلـون جُهْدًا في إخراج المُسلِمين عن دِينهم إلى مِلَّتهم التي كانوا عليها.

• ● ۞ ● •



الآيـة (٦٥)

• ● ৩ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

• ● ৩ ● •

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾ هذه الجُملةُ مُؤكَّدة بمُؤكِّدين: اللَّام، والقسَم المُقدَّر، والتَّقدير: واللهِ لقَدْ.

وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ في هذا إشكالٌ: وهو كيف يَقول الله تعالى في حقِّ رسوله ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾؟ وهل يَجوز أن يُشرِك؟

الجَوابُ: من وَجْهَيْن:

الوَجْه الأوَّلُ: أن المُراد بهذا الأُمَّةِ، وإن كان الخِطاب مُوجَّهًا للرسول ﷺ؛ فالمُرادُ به الأُمَّة، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨].

الوجه الثاني: أن التَّعليق بالشَّرْط لازِم منه وُقوع المَشروط، ونَظيره قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]، ومَعلومٌ أنه يَمتَنِع أن يَتَّخِذ الله تعالى ولَدًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ مُؤكَّدة باللَّام والقسَم المُقدَّر؛ لأن اللَّام هذه تكون جَوابًا للقسَم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الشِّـرْك مُحبِطٌ للعمَل، ولو وقَـع من أفضـل الخَلْق؛ لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هذا الحُكمَ ثابتٌ في جميع الشرائع؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾.

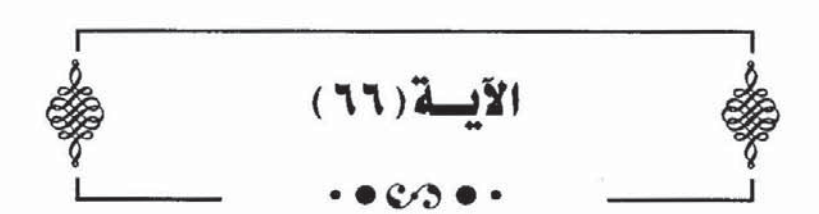
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عِظَم الشِّـرْك، وأنه أَفسَدُ أنواع المَعاصِي؛ ولهذا يُحبِط العمَل كُلَّه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الوَحيِ للرسـول ﷺ، ولمَن سبَقَه من الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الشِّرْك سبَبٌ للخُسْران في الدنيا والآخِرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الكُفَّار وإن ربِحوا في الدنيا فإنهم في الحَقيقة خاسِـرون للدُّنيا وللآخِرة؛ لأنهم لم يَنتَفِعوا في الدنيا بما خُلِقوا له؛ فلذلك كانوا خاسِرين، وقد قال الله تعالى في آية أُخرى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥].

• ● ۞ ● •



الآية (٦٦)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٦].

•●○●•

قوله تعالى: ﴿ بَلِ ﴾ هذه لِإضراب الإِبْطال؛ والإضرابُ عِندهم نَوْعان:

١- نَوْعٌ يُراد به إبطال ما سبَق وإثبات ما لَحِق.

٢- ونَوْعٌ يُراد به الانتِقال من شيءٍ إلى آخَرَ.

مِثال الأوَّل: هذه الآيةُ.

ومِثال الثاني: قولُه تعالى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل:٦٦]، فهنا انتِقالات من سيِّئٍ إلى أسوأَ ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ ﴾، أي: بعد عِلْمهم في الآخِرة ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾.

وهُنا يَقول تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ هذا إضرابٌ إِبْطاليٌّ لما سبَق من الشِّرْك. يَعنِي: بل دَعِ الشِّرْك فإنه باطِل واعبُدِ الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وحدَه] وأخذ هذه الوَحْدانيةَ المُفيدةَ للحَصْر من تَقدير المَعمول؛ والقاعِدة في البَلاغة: أن تَقديم ما حقُّه التَّأخيرُ يُفيد الحَصْر والاختِصاص، ومَعلومٌ أن المَفعول به حَقُّه التأخيرُ، فإذا قُدِّم على عامِله أَفاد الاختِصاص والحَصْر، أي: بل اللهَ تعالى وحده فاعبُدْ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْ﴾ الفاء يَقولون: إنه جِيء بها لتَحسين اللَّفْظ، ولو حُذِفت في غير القُرآن لاستَقام الكلام، لكنها في القرآن لا تُحذَف؛ لأنه نزَل من عند الله تعالى، ولا يُمكِن تَغييرُه، إنما في التَّعبير بمِثْل ذلك يُسمُّون هذه الفاءَ فاءَ التَّزْيين، ولها نَظير مثل قولهم: عِندي كذا وكذا فقَطْ. أي قَطُّ، والفاء زائِدة؛ لتَحسين اللَّفْظ.

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾: (اعْبُدْ) فِعْل أَمْر أي: تَذلَّل له بفِعْل عِبادة بامتِثال أوامِره واجتِناب نَواهيه.

واعلَمْ أن العِبادة تُطلَق على مَعنيَيْن:

المَعنَى الأوَّل: التَّعبُّد.

والمَعنَى الثاني: المُتعبَّد به.

أمَّا التَّعبُّد فمَعناه: التَّذلُّل لله تعالى محَبَّةً وتَعظيمًا، بالقِيام بأَوامِره واجتِناب نَواهِيه، فإذا رأَيْنا شَخْصًا يُصلِّي مثَلًا قلنا: هذا يَتعبَّد. أي: يَتذلَّل لله تعالى بفِعْل الصلاة، وتُطلَق على المُتعَبَّد به، أي: على نَفْس المَفعول.

وعرَّفها شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذا المَعنَى بقوله: «العِبادة اسمٌ جامِع لكل ما يُحِبُّه الله تعالى ويَرضاه من الأقوال والأعمال الباطِنة والظاهِرة»[1].

وعلى هذا فالصلاةُ نَفسُها نُسمِّيها عِبادة، والصدَقة عِبادة، والصوم عِبادة، والحَجُّ عِبادة، وبِرُّ الوالِدَيْن عِبادة، وصِلة الأَرْحام عِبادة، والإحسان إلى الفُقَراء عِبادة، وهكذا.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: (كُنْ) فِعْل أَمْر، و﴿مِّنَ

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: مِنَ الذين يَشكُرون الله تعالى.

واعْلَمْ أن (أل) إذا اتَّصلت بمُشتَقٍّ فإنها تكون اسْمًا مَوصولًا من أسماء المَوْصول العامَّة، فهي بمَنزِلة (مَن) وبمَنزِلة (ما) إذا اتَّصلت بمُشتَقٍّ، مثل: الشاكِر والمَشكور والأحسَن وما أَشبَهها؛ فعلى هذا يَكون قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ مُفيدًا للعُموم، أي: من القائِمين بشُكْر الله تعالى، والشُّكْر هو القِيام بطاعة المُنعِم عَقيدةً وقولًا وفِعْلًا؛ ولهذا قال الشاعِر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا[1]

يَعنِي: أنكم مَلَكْتم بإنعامكم عليَّ قلبي ولِساني وجَوارحي.

فإن قال قائِل: هل الشُّكْر هو الحَمْد أو غيرُه؟

فالجَوابُ: بينهما عُموم وخُصوص، يَجتَمِعان فيما إذا كانا في مُقابَلة نِعمة، فإن الحَمْد هو الشُّكْر؛ لأنه ثَناءٌ على الله تعالى باللِّسان، فإذا أكَل الإنسان أو شَرِب فقال: الحَمْد لله تعالى؛ كان بذلك شاكِرًا وحامِدًا، ويَنفَرِد الحمد بوَصْف الله تعالى بالكَمال دون مُقابَلة نِعْمة، فإذا أَثنَيْت على الله تعالى بأنه الحيُّ العَظيم، وما أَشبَهَ ذلك فهو حَمْد، وليس شُكْرًا؛ لأنه ليس في مُقابِل نِعْمة، لكن ربما نَعتَبِره شُكْرًا باعتِبار أنه عِبادة، والقِيام بطاعة المُنعِم من الشُّكْر.

وإذا قُمْتَ بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَزاءً على نِعْمته ولم يَكُن في ذِهْنك وَصْفه بالكَمال صار ذلك شُكْرًا لا حَمْدًا.

وعلى كل حال: قد يَحصُل انفِراد أحدِهما عن الآخَر، وذلك لأن الثَّناء نفسه وإن لم يَكُن في مُقابَلة نِعْمة يُعتبَر شُكْرًا؛ لأنه قِيامٌ بطاعة المُنعِم.

---

(١) غير منسوب، وانظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجوب إخلاص العِبادة لله تعالى؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾.

ويَتفَرَّع على هذه القاعِدةِ: أن الإنسان لو أَشرَك بالله تعالى لحَبِط عمَله؛ لأنه إذا أَشرَك بالله تعالى عمِل عمَلًا ليس عليه أَمْر الله تعالى ورسولُه ﷺ، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[(١)].

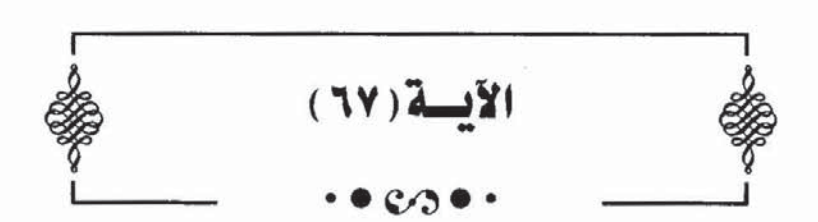
وهذا بغَضِّ النظَر عن قوله تعالى: ﴿لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، فهذا نصٌّ صريح، لكن إذا أَرَدْنا أن نَأخُذها من قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾؛ فنَقول: إن مَن أَشرَك مع الله تعالى أحَدًا فعمَله حابِط مَردود، والدليل: قوله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**».

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وُجوب الشُّكْر على كل أحَدٍ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وإذا وجَب الشُّكْر حرُم ضِدُّه وهو الكُفْر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الإخلاص لله تعالى من شُكْره؛ لأنه أَعقَب قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

•••

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



الآية (٦٧)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

•●●•

قوله تعالى: ﴿مَا﴾ نافية، و﴿قَدَرُوا۟﴾ بمَعنَى: عظَّموا، ولَفْظ الجَلالة مَفعول لـ(قَدْروا)، و﴿حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ مَفعولٌ مُطلَق؛ لأنه أُضيف إلى المَصدَر، والمُضاف إلى المَصدَر يُسمَّى مَفعولًا مُطلَقًا؛ لأنه بمَنزِلة المَصدَر، وعلى هذا فنَقول: ﴿حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي: حقَّ تَعظيمه.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ما عرَفوه حَقَّ مَعرِفته، أو ما عظَّموه حقَّ عظَمَته حين أشرَكوا به غيرَه]، والصَّواب: الثاني: أن المَعنَى: ما عظَّموه حقَّ عظَمته حين أشرَكوا به غيره، لأن من عَظَّم الله تعالى حقَّ تَعظيمه لا يُمكِن أن يُشرِك به أحَدًا.

ودليلُ ذلك: أن هؤلاءِ عرَفوا الله تعالى كما في قوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٣٨]، لكن لم يُعظِّموا مَن عرَفوه حقَّ تَعظيمه، وهذا هو الذي نَفاه الله تعالى هنا.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الواو للحال، ويَجوز أن تَكون استِئْنافية؛ لبيان عظَمة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ مُبتَدَأ، و﴿جَمِيعًا﴾ حال، و﴿قَبْضَتُهُۥ﴾ خبَر المُبتَدَأ؛ يَعنِي: أن الأرض كلَّها جميعًا -كل الأرَضين السَّبْع- تكون يوم القيامة قَبْضته؛ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا﴾ حال؛ أيِ: السَّبْع]، فقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ﴿ٱلْأَرْضُ﴾.

وبهذا نَعرِف أنه يَجوز مَجيءُ الحال من المُبتَدَأ قبل الإتيان بالخَبَر، فتَقول مثَلًا: زَيْدٌ قائِمًا خيرٌ منه قاعِدًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ أي: مَقبوضةٌ له، أي: في مُلْكه وتَصرُّفه] فسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ القَبْض بمَعنى المُلْك والتَّصرُّف، وفي هذا نظَرٌ ظاهِر، بل هذا تَحريف؛ لأن المُلْك والتَّصرُّف كل شيء في مُلكه وتَصرُّفه الأرض والسماء يومَ القيامة وقبلَ يوم القيامة، لكن القَبضة بمَعنَى: المَقبوضة التي تكون في اليَدِ تُحيط بها اليد.

فيُقال مثَلًا: قبضةٌ من طعام؛ بمَعنَى أن الإنسان يَقبِض الطعام بيَدِه، فالأرض يوم القِيامة قَبْضة الله عَزَّوَجَلَّ، وقد جاء ذلك مُبيَّنًا في حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قِصَّة النبيِّ ﷺ مع حَبْرٍ من أحبار اليَهود أن الله تعالى يَجعَل الأرض على إِصبَع والشجَر على إِصبَع والجِبال على إِصبَع...إلخ[(١)].

فالصوابُ المُتعيِّن: أن يُقال: المُراد بالقَبْضة أنها في قَبْضة يَدِه عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائِل: وهل يَجوز لنا أن نُمثِّل هذه القَبضةَ بحيث نَأخُذ تَمرةً أو تُفَّاحة ونَضَعها في أيدينا، ونَقول: قَبْضَتُه ثُم نَقبِض على التُّفَّاحة أو التَّمرة؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾، رقم (٧٤٥١)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٦).

الجَوابُ: لا؛ لأنَّنا لو فعَلْنا ذلك لكان هذا تمثيلًا لقَبْضة الله عَزَّوَجَلَّ للأرض، وهذا لا يَجوز، أمَّا أن نُبيِّن مَعنَى القبضة فلا بأسَ بأن نَقول: القبضة هي وَضْع الشيء في اليد ثُمَّ قَبْضه بها، لكن نُكيِّف كيف قبَضَ الله عَزَّوَجَلَّ على الأرض، هذا خِلاف مُعتَقَدِ أهل السُّنَّة والجماعة، كما هو معروف.

فإن قال قائِل: إن الرسول ﷺ عندما قرَأ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤] وَضَع إِصبَعه على عَيْنه وأُذُنه[1]، فهل يَجوز مثل هذا في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾؟

فالجَوابُ: الجمع بينهما أن ما جاءت به السُّنَّة نَأخُذ به، وما لا فالأصل المَنْع، فأنت إذا قضبت شيئًا بيدك، فواضِح أنك كيَّفْت، لكن نَقول: ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾: أن تَكون هذه الأرضُ جميعًا في يدِ الله عَزَّوَجَلَّ، أمَّا (كيف) فاللهُ تعالى أعلَمُ.

فيَجِب أن نَعلَم أن الرسول ﷺ فعَل هذا تَحقيقًا لا تَكييفًا، فهو يُحقِّق مَعنَى السمع والبصَر، سَمْع وبَصَر حَقيقيٌّ.

وعلى كل حال: نَقتَصِر في هذا على ما ورَد مهما كان الأمرُ.

ومثل هذا في صِفة الطَّي والقبض، فنَقول: يَطوِي ويَقبِض، والله تعالى يَقدِر ويَبسُط، كما في قوله تعالى.

فإن قال قائِل: ما حُكْم مَن يَقول: (بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِن أَصابعِ الرَّحْمَنِ) فيُشِير بإِصْبعيه؟

فالجَوابُ: هو لا يَستَطيع أن يُحدِّد أيَّ الأصابع، ثُمَّ إذا أَشار فقد يَفهَم الرائِي

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في الجهمية، رقم (٤٧٢٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أن أصابع الرحمن عَزَّوَجَلَّ مُباشِرة للقَلْب، وليس كذلك، فالقلب بين إِصْبَعين من أصابع الرحمن[1]، لكن لا نَقول: إنه مُباشِر.

فإذا قال قائِل: كيف يُعقَل أن يَكون القلب بين إِصبَعين من أصابع الرحمن بدون مُباشَرة؟

قلنا: استَمِع لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤]، السَّحاب مُسخَّر بين السماء والأرض، فهل هو مُباشِر للسماء والأرض؟

الجوابُ: لا، فلا يَلزَم من البَينية المُباشَرة، فلا يَجوز أن يُعيِّن إِصبَعين، لأنه إذا فعَل لزِم من ذلك أنه جزَم بأنه بين هذَيْن الإِصبَعين.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظَرْف للقَبْضة، أي: أنها تَكون قبضةً له يوم القِيامة، ويوم القِيامة هو اليوم الذي يُبعَث الناسُ من قبورهم لله عَزَّوَجَلَّ، وسُمِّيَ بهذا الاسمِ لوجوهٍ ثلاثةٍ: لقيام الناس من قُبورهم لربِّ العالَمين؛ ولإقامة العَدْل؛ ولِقيام الأشهاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مجموعات بيَمينِه وقُدْرته].

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ﴾ الطَّيُّ مَعروف: عَطْف الثَّوْب بعضِهِ على بعضٍ يُسمَّى: طيًّا، ومنه طيُّ الورَقة، فإذا فرَغ الكاتِب منها طواها، يَعنِي: عطَف

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

بعضَها على بعضٍ، وقد شبَّه الله عَزَّوَجَلَّ طيَّه للسَّموات بطيِّ السِّجِلِّ للكتُب، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، فتبارَكَ اللهُ ربُّ العالَمين!.

فهذه السماءُ العَظيمة الواسِعة الأَرْجاء التي ورَد أن سُمْكها خَمسُ مئة عام، يَطوِي الله عَزَّوَجَلَّ هذه السمواتِ كما يَطوِي السجِلُّ الكتُبَ، أو كما يُطوَى السجلُّ الكتُبَ ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ يَعني: كما يَطوِي السجِلُّ وهو كاتِب القاضي، أو كما يُطوى السجِلُّ الذي تُكتَب به القضايا، فالطيُّ مَعروف قُلنا: إنه عَطْف الثوب بعضِه على بعضٍ، أو الورَقة، وما أَشبَه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ﴾ أتى بصيغة اسم المَفعول للعِلْم بالطاوِي وهو الله سبحانه، كما تُفسِّره الآياتُ الأخرى ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَطْوِيَّٰتُۢ﴾ مجموعاتٌ] وهذا فيه نظَر؛ لأننا: نَقول هي مَجموعةٌ طيًّا، وإذا فسَّرْناها بالمَجموعات فإننا لم نُفسِّر تَفسيرًا دقيقًا؛ لأن الشيء قد يَكون مجموعًا بلا طيٍّ، ولكن إذا كان مَطويًّا فهذا مَعنًى زائِدٌ على مُجرَّد الجَمْع، فالصواب أن يُقال: ﴿مَطْوِيَّٰتُۢ﴾ أي: مَلفوفٌ بعضُها إلى بعضٍ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ بقُدْرته] وهذا تَحريف على مَذهَب مَن لا يُؤمِنون بصِفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الخبَرية، والصوابُ: أن المُراد باليَمين اليدُ اليُمنَى يَطويها جَلَّوَعَلَا بيَدِه اليُمنى.

فإن قال قائِل: إنه وَصْف في السُّنَّة أن كِلتا يدَيِ الله عَزَّوَجَلَّ يمين، فما فائِدة ذِكْره في الآيةِ: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾؟

فالجَوابُ: كما تَقدَّم وقُلْنا: لله تعالى يَدٌ يمين ويدٌ شِمال، لكن الرسول ﷺ قال: «كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»(١)، يَعنِي: من اليُمن وهو البرَكة؛ ولدَفْع تَوهُّم أن تكون اليد الأُخرى ناقِصةً؛ لأن اليَدَ الشِّمال بالنِّسبة لنا ناقِصة عن اليَد اليمين، وقد أَفتَى شيخ الإسلام مُحَمَّدُ بنُ عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ في آخِر (كتاب التوحيد) فقال: وفيه التصريح بالشِّمال لله عَزَّوَجَلَّ(٢).

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ اسمُ مَصدَر، وفِعْله: سبَّح، والمَصدَر: تَسبيحٌ، واسمُ المَصدَر: سُبحانَ، وهو مَنصوب على المَفْعولية المُطلَقة دائِمًا، ومُلازِم للإضافة غالِبًا.

وعلى هذا فلا يُخطِئ المَرء في إعرابه؛ فيُعرِبه دائمًا على أنه مَفعول مُطلَق لِفِعْلٍ مَحذوف، والتَّقدير: يُسبِّح تَسبيحًا.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تَنزيهًا له، فقَدْ فسَّرْنا كلمة التَّسبيح من حيث التَّصريف، أمَّا مَعنَى التسبيح: التَّنزيه؛ لأنه مِن سبَح يَسبَح إذا بَعُد في الماء، فالتَّنزيهُ: الإبعاد عن السُّوء؛ وعلى هذا فمَعنَى: (سُبحانَ اللهِ) أي: تَنزيهًا له، ويُنَزَّه الله تعالى عن شيئين:

١- عن مُماثَلة المَخلوق.

٢- وعن كل نَقْص وعَيْب في صِفاته.

فمَثَلًا: قُدْرته مُنَزَّهة عن العَجْز، وعِلْمه مُنزَّهٌ عن الجَهْل والنِّسيان، وقوَّتُه مُنزَّهة عن الضَّعْف، ويَدُه مُنزَّهة عن مُماثَلة المَخلوقين، ووجهُه كذلك، وهلُمَّ جَرًّا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الإمام العادل، رقم (١٨٢٧)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) كتاب التوحيد (ص١٥٠).

الخُلاصةُ: أن تَنزيه الله عَزَّوَجَلَّ يَعود إلى شيئين:

الأوَّل: مُماثَلة المَخلوق.

والثاني: العَيْب والنَّقْص.

والدليلُ على أن الله تعالى مُنزَّهٌ عن النَّقْص: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، أي: من تعَبٍ وإِعياءٍ.

والدليل على تَنزُّهِه عن المُماثَلة قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

مَسألَةٌ: لماذا قُلْنا: «يُنزَّه الله تعالى عن كل نَقْص وعن المُماثَلة» أليسَتِ المُماثَلة نقصًا؟

فالجَواب: أن النقص شيء والمُماثَلة شيء آخَرُ، مثَلًا: لله تعالى القُدْرة، فنَقول: ليسَت كقُدْرة المَخلوق، لكن لا يُمكِن أن يَلحَقها النقصُ.

إذَنْ: لا بُدَّ أن نَقول: «عن كل نَقْص»، فلا يَكفِي نفيُ المُماثَلة، ربما يُغنِي قولُنا: (عن كل نَقْص) عن نفي المُماثَلة؛ لأن المُماثَلة نَقْص، لكن نَقول: إذا كان الله تعالى قد نصَّ على ذلك فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]؛ فيَنبَغي أن نُنبِّهَ عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ أي: تَرفَّع لعظَمته.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾] أي: عمّا يُشرِكون معَه، ولا شكَّ أن هذا هو الواقِعُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيان عظَمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن مَن أَشرَك بالله تعالى فإنه لم يُعظِّم الله تعالى حقَّ تَعظيمه، بل بالعَكْس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حُسْن التعليم في القُرآن الكريم؛ لأنه لَمَّا نفَى عنهم أنهم قدَروا الله تعالى حقَّ قَدْره؛ بيَّن وجه ذلك، فهو عَزَّوَجَلَّ أَعظَمُ من كل شيء، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه يَجِب أن يُعظِّم الله تعالى حقَّ تَعظيمه.

ولكن قد يَقول قائِل: إن هذا فيه مَشَقَّة عظيمة؛ لأن الله تعالى أَعظَمُ وأجَلُّ من أن يُحيط به عمَل العَبْد؛ ولهذا لَمَّا نزَل قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢] صعُب ذلك على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فمَن الذي يَستَطيع أن يَتَّقيَ الله تعالى حقَّ تُقاته؟!

فيُقال: إن هـذه الآيَةَ الكريمةَ مُقيَّدة بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وإلَّا فمَن الذي يُحصِي أن يُعظِّم الله تعالى حقَّ تَعظيمه على الوجه الذي أَراده الله عَزَّوَجَلَّ؟! ولكن نَقول: إن تَعظيم الله تعالى حقَّ تَعظيمه يَكون بامتِثال أَمْره، وهذا حاصِل بقَدْر المُستَطاع؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]؛ ولقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات اليَدِ لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾، وقوله تعالى: ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الأرض يومَ القيامة يَقبِضها الله عَزَّوَجَلَّ بيَدِه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن السمواتِ تُطوَى يومَ القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بَيانُ قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ، حيث يَطوِي هذه السَّمواتِ على رُكنها كطَيِّ السجِلِّ للكُتُب.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تنزيهُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن كل نَقْص وعَيْب؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: تنزيهُه عَزَّوَجَلَّ عن مُماثَلة المَخلوقين؛ لأن مُماثَلة المَخلوقين عَيْب، فإن تَمثيل الكامِل بالناقِص يَجعَله ناقِصًا.

قال الشاعِرُ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ الْعَصَا[1]

فكَيْف إذا قيل: إن السَّيْفَ مِثْل العَصا؟!

فتَمثيل الله عَزَّوَجَلَّ بالمَخلوق تَنقُّص لله عَزَّوَجَلَّ؛ ولأنَّ تَمثيل الكامِل بالناقِص يَجعَله ناقِصًا.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ عُلوِّ الله تعالى؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

---

(١) غير منسوب، وممن ذكره ابن كثير في تفسيره (٨/ ٤٢٦).

وعُلُوُّ الله سبحانه يَنقَسِم إلى قِسْمين: عُلوُّ ذاتٍ، وعُلوُّ صِفة.

أمَّا عُلوُّ الصِّفة فلم يَختَلِف فيه أحَد من أهل القِبْلة، حتى أهل التَّعطيل يُثبِتون لله تعالى عُلوَّ الصِّفة، لكن على اختِلاف بينهم وبين أهل السُّنَّة في كون هذا الشيءِ عُلُوًّا أو نُزولًا؛ لأنهم يَرَوْن أن من عُلوِّ الله تعالى في صِفَته نفيَ الصِّفات عنه، أمَّا أهل السُّنَّة والجماعة فيَرَوْن أن من عُلوِّه إثباتَ جَميع صِفات الكَمال له على حسَب ما ورَد في الكِتاب والسُّنَّة.

فالخُلاصةُ: أن أهل القِبْلة اتَّفَقوا على إثبات عُلوِّ الصِّفة، لكن اختَلَفوا: كيف يَكون علوُّ الصِّفة؟.

أمَّا عُلوُّ الذاتِ: فقدِ اختَلَفوا اختِلافًا عَظيمًا، حتى قال بعض مَن يَنتَسِب للإسلام: إثبات عُلوِّ الذاتِ كُفْرٌ.

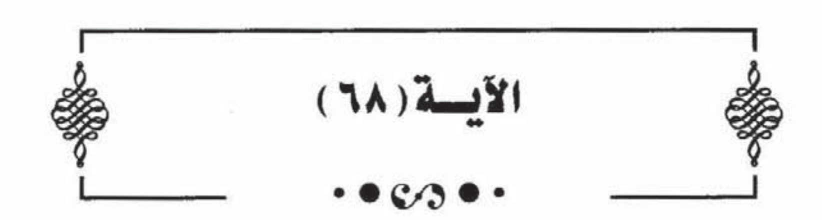
وقال أهل السُّنَّة والجماعة: إثبات عُلوِّ الذات واجِبٌ، ولا بُدَّ أن نُثبِت لله تعالى عُلوَّ الذات كما أَثبَتْنا له عُلوَّ الصِّفات.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: التَّبايُن العَظيم بين الربِّ الخالِق العَظيم وبين الأصنام المَعبودة التي يُشرَك بها مع الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تَنزيهًا له وتَعاظُمًا ورِفعةً عمَّا يُشرِك به هؤلاء؛ ولهذا جاء استِفْهام التوبيخ والاحتِقار لهذه الأصنام في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٨-٢٠]، يَعنِي: أَخبِروني مَن الذي لهذه الأَصنامِ بالنِّسبة لآيات الله تعالى العَظيمةِ الكُبرى التي رآها النبيُّ ﷺ، أي: بعدَ أن تَقرَّرت هذه الآياتُ الكبيرة أَخبِروني ما هذه الأصنامِ، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ ماذا تكون أمامَ هذه الآياتِ الكبيرة؟ لا شيءَ؛ ولهذا قال تعالى:

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

وقد بيَّن الله تعالى في القُرآن الكريم انحِطاط رُتْبة هذه الأصنام فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧]، وقال تعالى: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا﴾ [المائدة:٧٦]، والآياتُ في هذا كثيرة تَحُطُّ من قَدْر هذه الأصنامِ، وتُبيِّن أن الربَّ عَزَّوَجَلَّ مُنزَّهٌ مُتعالٍ عن هذه الأصنامِ.

• ● ۞ ● •



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

• • ● ● •

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ﴾ النَّفخ مَعروف، والنافِخ (إسرافيلُ) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأَبهَمه للتَّعظيم؛ لأن الإبهام يَأتِي للتَّعْظيم كما في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨]، فإن هذا يَدُلُّ على عِظَم ما غَشِيَهم، والنَّفْخ لا شكَّ أنه أَمْر عظيم؛ ولهذا لم يُبيَّن مَن النافِخُ، وكل ما في القُرآن من النَّفْخ في الصُّور يَأتِي بصيغة: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ﴾، ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ الصِّيغة هنا صِيغة ماضٍ، مع أنه مُستَقبَل، لكن عبَّر عنه بالماضِي؛ لتَحقُّق وقوعه، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١] مع أنه لم يَأتِ بعدُ.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾، الصُّور: قَرْن عَظيم، قيل: إن سَعة دائِرته كما بين السماء والأرض، وهذا الصُّورُ يَنفُخ فيه إسرافيلُ.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ النَّفخة الأُولى ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾] وهذا بِناءً على أنَّ النَّفْخ في الصُّور يَكون مرَّتَيْن، وقيل: بل النَّفْخُ في الصُّور ثلاثَ مرَّاتٍ، وقد دلَّ على هذا حديثُ الصُّور

الذي ذكَره ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بطوله في تَفسير سورة الأنعام.

وهذه الثلاثُ هي: نَفْخة الفزَع، ونَفْخة الصَّعْق، ونَفْخة البَعْث؛ لقوله تعالى في سورة النَّمْل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٨٧]، وهنا قال تعالى: ﴿فَصَعِقَ﴾، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾.

وقيل: بل النَّفْخ مرَّتان، وهو ما مشَى عليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأن نَفْخة الفزَع هي نَفْخة الصَّعْق، وأن الناس إذا سمِعوه أوَّلَ مرَّة فزِعوا ثُمَّ يُطيل في النَّفْخ فيُصعَقون: يَموتون بعد الفزَع، وعلى هذا فيَكون النَّفْخ مرَّتين: فزَعٌ، ثُم صَعْق؛ لأنه يُطيل النَّفْخ، ثُمَّ يُصعَق الناس، ولا شَكَّ أن شيئًا يُصعَق الناس منه؛ لا بُدَّ أن يَكـون شيئًا عظيمًا مُزعِجًا مُرعِبًا، وهو كذلك.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَصَعِقَ﴾ مات ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾] ﴿مَن﴾ اسمُ مَوْصول تُفيد العُموم، وتُستعمَل غالِبًا في العاقِل، وقد تُستعمَل في غيـره تبَعًا أو للشُّمول؛ مِثالها تبعًا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ [النور:٤٥]، ومَعلوم أن الذي يَمشِي على بَطْنه أو على أربَعٍ ليس من ذَوي العُقول، لكن أُتِيَ بـ(مَن) تبَعًا، وقد يَكون للعُموم كما في هذه الآيةِ: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، فكُلُّ مَن في السموات والأرض من آدمِيِّين أو بهائِمَ أو غيرها كلها تَموت.

يَقول تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: ألَّا يُصعَق فإنه لا يُصعَق، وقدِ اختلَف العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ مَن هذا المُستثْنى؟

فذهَبَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجماعة إلى إن المُستَثْنى: [الحُـور والوِلْدان]، وهُم في الجَنَّة.

وقيل: الحُور والوِلْدان والمَلائِكة، ولا يَمنَع منه كلام المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لقوله: [وغيرهما].

وقيل: الله أَعلَمُ نَقول: إلَّا مَن شاء الله تعالى، كما أَبهَم الله عَزَّوَجَلَّ، ولا نَتعَرَّض للتَّفصيل؛ لأنه ليس هناك دليلٌ صحيحٌ صريحٌ في تَعيُّن هؤلاءِ المُستَثْنَيْنَ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾، والنافِخُ إسرافيلُ، وقوله تعالى: ﴿أُخْرَىٰ﴾ مَفعول مُطلَق أي: نَفْخة أخرى، أو نَقول: إنها وَصْف لمَوْصوف محذوف، والتَّقدير: نَفْخة أُخرى، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة:١٣].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أي: جميـع الخـلائِق المَـوْتى، ﴿قِيَامٌ يَنظُـرُونَ﴾ يَنتَظِرون ما يُفعَل بهم] قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ الفاء حرفُ عَطْف، و(إذا) فُجائِيَّة، والفُجائِيَّة تَدُلُّ على حُصول ما بعدَها مُفاجأةً، بمَعنَى: أنه يَأتِي بسُرعة.

وقوله تعالى: ﴿هُمْ قِيَامٌ﴾ جملةٌ اسمِيَّةٌ، والغرَض منها الثُّبـوت والاستِمْرار، وهي أبلَغُ ممَّا لو قال: فقاموا؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ تَدُلُّ على أن هذا وَصْف لهم كأنه أَمْر ثابِت من قديم، مُستَقِرٌّ مع أنهم لم يَقوموا إلَّا في النَّفْخة الواحِدة الأخيرة.

وقوله تعالى: ﴿يَنظُـرُونَ﴾ قال: [يَنتَظِرون ماذا يُفعَل بِهِمْ]، ويُحتَمَل أن يَكون المعنى: يَنظُرون ما حدَث، من النظَر بالعَيْن، وهذا الاحتِمال لا يُنافِي ما ذكَره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فتكون الآية شامِلةً لهذا وهذا، أي: يَنظُرون بأعينهم ما حصَل، ويَنتَظِرون ماذا يُفعَل بهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات النَّفْخ في الصُّـور، وأنه واقِـع لا محَالةَ، يُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ﴾ حيث عبَّر عنه بالماضِي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عِظَم هذا النَّفخ، ويُؤخَذ من إبهام الفاعِل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هـذا النفخَ عَظيم في تأثيره، حيث يَفزَع الناس منه، ثُم يُصعَقون، أي: يَموتون.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الصَّعْق شامِل لكل مَن في السمَوات ومَن في الأرض إلَّا مَن شاء الله تعالى، وهم أقلُّ ممَّن يُصعَقون؛ لأن الغالِب أن المُستَثْنى يَكون أقلَّ من المُستَثْنى منه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات المَشيئة لله عَزَّوَجَلَّ، وهي كثيرة في كِتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولم يُنكِرها أحَد من الناس إلَّا فيما يَتَعلَّق بأفعال العِباد، حيث أَنكَرها القَدَرية.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنه يُنفَخ في الصُّور مرَّتَيْن؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن النَّفْخة الأخرى يَكون بها البَعْث؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن القِيام من القُبور يَلي النَّفْخ في الصُّور مُباشَرةً، نَأْخُذها من (إذا) الفُجائِية.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنهم -أي: الذين يَقومون- يَقومون وكأنَّ لهم زمَنًا طويلًا في القيام، بدليل أنه أتَى في ذلك بصيغة الجُمْلة الاسمِيَّة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: تَمام قُدْرة الله جَلَّوَعَلَا، حيث إن الخَلائِق كلها تَقوم مرَّةً واحِدة بهـذه النَّفْخة، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤] أي: على سَطْح الأرض وظَهْر الأرض.

فإذا قال قائِل: ما عَلاقةُ نَفْخ الصُّور بحياة الناس وبَعْثهم من القُبور؟

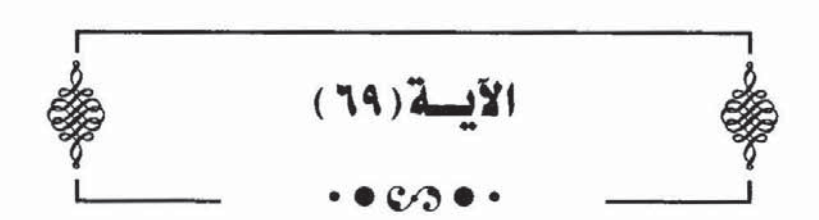
فالجَوابُ: أن هذا الصُّورَ مُجتَمَع الأرواح تُجمَع فيه أرواح الخلائِق، ثُمَّ إذا حصَل نَفْخ تَطايَرتِ الأرواح ودخَلَت كلُّ رُوحٍ في جسَدها الذي كانت تَعمُره في الدنيا، لا تُخطِئه أبدًا على كَثْرة الخَلْق وتَفرُّقهم، فإن أرواحهم لا تُخطِئ أجسامهم، فكلُّ رُوح تَدخُل في جسَدها الذي كانت تَعمُره في الدنيا.

فإن قال قائِل: ما حُجَّتهم على أن الأرواح تُوجَد داخِلَ الصُّور قبل النَّفْخ وبعد النَّفْخ تُوضَع في الأجساد، فتُوضَع كلُّ رُوح في الجَسَد، وهو من الأمور الغَيْبية؟

فالجَوابُ: دليلهم حديث الصُّورِ الطويلُ[1]، وهذا الحديثُ فيه أشياءُ مُنكَرةٌ، لكن فيه أشياءُ تَشهَد لها النُّصوص الأخرى الصحيحة، وفيه أشياءُ ليسَتْ مُنكَرة، وليس فيها ما يَشهَد لها في الأحاديث الصحيحة، لكن العُلَماءَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَلقَّوْه بالقَبول.

• • ❁ • •

(١) أخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال رقم (٣٦)، والبيهقي في البعث والنشور رقم (٦٠٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٦٨): مداره على إسماعيل بن رافع، واضطرب في سنده مع ضعفه.



الآيــة (٦٩)

• • ◆ • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر:٦٩].

• • ◆ • •

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَضـاءَت]، ومنه: أَشرَقـتِ الشمسُ، إذا انتَشَر ضَوؤُها، وشرَقَتْ إذا برَزَت، ويُقال: شرَقَتِ الشمسُ. إذا ظهَرَتْ على الأُفُق، وأَشرَقَت، إذا ارتَفَعَت أو استَطار ضَوْؤُها؛ ولهذا تُسمَّى الصلاة التي بعد ارتِفاعها قِيدَ رُمْح تُسمَّى: (صلاةَ الإِشْراق) لا صلاةَ الشُّروق، إذِ الشُّروق ظُهور الشمس في الأُفُق، والإشراق ارتِفاعها واتِّساع ضَوْئِها.

وهنا يَقول تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بنور الله تعالى الذي هو نوره، وليس بنـور المَخلوق، فإضافة النـور إلى الربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من باب إضافة الصِّفة إلى مَوْصوفها، أي: أن الله جَلَّ وَعَلَا يُنير الأرض بنُوره؛ يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ حين يَتجلَّى] أي: يَظهَر [الفَصْل القَضاء]، فيَأتي عَزَّوَجَلَّ للقَضاء بين العِباد.

فإن قال قائِل: إنه نـورٌ مَخلوق، وأَضافه الله تعالى إلى نَفْســه إضافةَ مَخلوق إلى خالِقه مثل قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ [الشمس:١٣]، وبيت الله؟

فالجَوابُ: أن هذا خِلاف الظاهِر، فالله تعالى يَقول: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾، والله تعالى له نـور، يَقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فكل إنسان يُحرِّف الكلِم عن

ظاهِره نُجيبه بهذا، ونَقول: هذا غيـرُ مَقبول؛ لأنه خِلاف ظاهِر اللَّفْظ، فإن أَتيـتَ بدليل صحيح يُخرِجه عن ظاهِره فعلى العَيْـن والرَّأْس، وإن لم تأتِ بدليل صحيح يُخرِجه عن ظاهِره فقولُك مَردود.

وقد ورد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُنزِل مَلائِكة السماء الدنيا حتى تُحيط بالخَلْق، ثُم تَنزِل مَلائِكة السماء الثانية حتى تُحيط بأهل السماء الدُّنيا؛ لأن أهل السماء الثانية أكثَرُ من أهل السماء الدنيا، إِذْ إن السماءَ الثانية أَوسَعُ من السماء الدنيا، فيَكون سُكَّانها أكثَرَ، ثُم يَنزِل أهل السماء الثالِثة فيُحيطـون بمَن قَبْلهم، وهم أكثَـرُ من أهل السماء الثانية، وهَلُمَّ جَرًّا، إلى السماء السابِعة.

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان:٢٥]، ﴿وَنُزِّلَ﴾ أي: نزَلـوا شيئًا فشيئًا؛ أهل السماء الدنيا، ثُم الثانية، ثم الثالثة... إلى السابِعة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ قال أهلُ العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إن هذا الغَمامَ هو الذي يَأتِي بين يدَيِ الله عَزَّوَجَلَّ، وهو غَمام عظيم لا نَعلَم قَدْره ولا نَعلَم كيفِيَّته.

ولهـذا قال تعالى: ﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ ولم يَقُل: تَنشَـقُّ، بل: (تَشقَّق)، كأنه شيء يَنبَعِـث منها شيئًا فشيئًا، وسيَكون هذا عظيمًا، وذلك بين يدَيْ مَجيء الربِّ جَلَّ وَعَلَا، ثُم يَنزِل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للقَضاء بين العِباد، وحينئذ تُشرِق الأرض بنور ربها.

ولا نَستَطيع الآنَ أن نَتصوَّر كيف هذا الإشـراقُ! وكيف هذا النُّورُ! وكيف هذا الغَمامُ! فهو أَمْرٌ لا تُدرِكه عُقولنا الآنَ!.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ كِتاب الأعمال للحِسـاب] (وُضِع)

أي: وُضِع بين أَيْدي الناس، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء:١٣]، هذا الكِتابُ كُتِب فيه أعمال العِباد، مَن عمِل مِن خَير أو شَرٍّ، إلَّا ما انمَحَى بالمَغفِرة أو بالتَّوْبة فإنه لا يُوجَد في الكِتاب، فالصغائِر مثلًا تُكتَب، فإذا صلَّى الإنسان فإن الصلواتِ الخَمسَ يَمحو الله تعالى بهن الخَطايا، وربما يَتوب الإنسان من سَيِّئات كُتِبَت عليه، فلا يُوجَد في الكِتاب إلَّا ما واجَه الإنسان به ربَّه، وكان خُتِم عليه في حياته.

وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: (أل) هنا الظاهِر أنها للعُمـوم لا للجِنْـس، يَعنِي: وُضِع كلُّ كِتاب فأَخَذه صاحبه، وهذا الكِتابُ الذي تُكتَب فيه الأعمال يُقال لصاحِبه: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ أنتَ بنفْسك ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤].

وإذا قرَأه فلا يُمكِن أن يُنكِر ما فيه، فلا بُدَّ أن يُقِرَّ، إلَّا المُشرِكين، فإنهم يُنكِرون ويَقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]؛ لأنهم إذا رأَوْا أن المُوحِّدين المُخلِصين نَجَوْا من العذاب سَوَّلت لهم أنفسهم أن يُنكِروا الشِّرْك لعلهم يَنجون من العذاب، ولكن هـذا لا يَنفَعهم، فإذا قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ شهِـدَ عليهم سَمْعهم وأبصارهم وجُلودهم بما كانوا يَعمَلون، وحينئـذ يَوَدُّ الذين كفَروا لو تُسـوَّى بهم الأرضُ ولا يَكتُمون الله حَديثًا.

قال المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ كِتاب الأعمال للحِسـاب]، وكيفية تَوزيع الكِتاب أنه يُوزَّع على وَجْهين:

الوجهُ الأوَّل: أن يُعطَى باليمين.

والثاني: أن يُعطَى بالشِّمال.

فالمُؤمِن يُعطَى باليَمين، ويَقول للناس: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾، انظُروا اقرؤُوا، يَقول هذا ابتِهاجًا بنِعْمة الله تعالى، وتَحدُّثًا بنِعمة الله تعالى كما لو أُعطِيَ الواحدُ نَتيجتَه وإذا فيها التَّقدير مُمتاز، مِئة بالمِئة، فإنه يُريها لكل واحد من الطُّلاب، وإذا كان كلُّ رقَم عليه دائِرة حَمراءُ فإنه يُمزِّقه، لكن في القِيامة لا يُمكِنه أن يُمزِّقه، أمَّا في الدنيا يُمكِنه أن يُمزِّقه أو يُخفيه.

على كل حال: هذا أمرٌ جِبلِّي طبيعيٌّ: أن الإنسان يَفخَر بنِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ ويُريها للناس فيَقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة:١٩-٢٠]، الظنُّ هنا بمَعنَى اليَقين، يَعنِي: أَيقَنْت أني مُلاقٍ حِسابِي، وأن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ سيُحاسِبني.

أمَّا مَن أُوتِيَ كِتابه بشِماله -والعِياذ بالله- فيَقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة:٢٥-٢٦]، كما يَقول القائِل للزائِر الثَّقيل: لَيْتَه لم يَأتِ، لَيْتَني لم أَرَ وجهه. فالكِتاب الذي يَكون بالشِّمال -والعِياذ بالله- يَعرِف صاحِبه ما فيه فيَقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾.

مَسأَلةٌ: في القرآن الكريم ذكَر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن مَن لم يُؤْتَ كِتابه بيمينه يَأخُذه بشِماله، وفئة أُخرى من وراء ظَهْره، فهل هُما صِفتان أو صِفة واحِدة؟

الجَوابُ: قال بعض العُلَماءِ رَحِمَهُمُٱللَّهُ: إنهما صِفتان.

وقال بعضُ العُلَماءِ رَحِمَهُمُٱللَّهُ: إنهما صِفة واحِدة، يَعنِي: أنه يُعطَى الكِتاب بالشِّمال من وراءِ الظَّهْر، ليس هو من الأمام يُعطَى إيَّاه من وجهه، بل من وراء ظَهْره، فيَكون في هذا تَنبيهٌ له وتَذكير له بما فعَل بكِتاب الله تعالى في الدنيا.

فوَضَع يَساره وراءَ ظَهْره؛ تَذكيرًا له بحاله في الدنيا، أنه نبَذ كِتاب الله تعالى وراءَ

ظَهْـره، قال تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران:١٨٧]، كأنه يُقال له: جَزاؤك من جِنْس عمَلك.

وقيل: بل إن من الناس مَن يَأخُـذه بشِماله من قِبَل الشِّمال، ومن الناس مِن وراء ظَهْره فتكون صِفتَيْن، والله أَعلَمُ.

فإن قال قائِل: أَلَا يُمكِن أن نَقـول: إن أَخْذ الكُفَّار المُعرِضيـن عن كِتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وآياته الكِتابَ بيُسراهم من وراء ظُهورهم، لا يَستَوِي مع أَخْذ المُؤمِنين العُصاة الكِتاب بيُسراهم؟

فالجَوابُ: أنه لا دليلَ على هذا، فمَن يَقول: إن عُصاةَ المُؤمِنين يَأخُذون الكُتُب بشِمالهم، وقَوْل الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يُثْبِـتُ هذا المَعنَى، فلو ثبَت أن عُصاة المُؤمنين يَأخُذون بالشِّمال لكان لا بأس، لكن الآية تَقول: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقة:٢٥-٣٣]، فهذا في الكافِر.

وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ جاء بهم الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن المُلْك في ذلك الوقتِ لله تعالى، فله التَّصرُّف فيُؤتَى بالنَّبيِّين، و(النَّبيِّين) هنا يَشمَل النَّبيِّين الذين أُرسِلوا، والنَّبيِّين الذين لم يُرسَلوا، فهو عامٌّ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الشُّهداء جمع شَهيد، وليس المُراد بالشُّهداء الذين قُتِلـوا في سـبيل الله تعالى، بل المُرادُ بالشُّهداء الذين يُستَشهَـدون يوم القِيامة، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: بمُحمَّد ﷺ وأُمَّته، يَشهَدون للرُّسل بالبَلاغ].

أمَّا قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: بمُحمَّد] فظاهِره أنه يُريد أن يُفسِّر النَّبيِّين بمُحمَّد، فيَكون على تفسيره عامًّا أُريد به الخاصُّ، وهذا غير مُسلَّم به، بل الصوابُ: أنه عامٌّ باقٍ على عُمومه، أي: يُؤتَى بالنَّبيِّين كلهم يَشهَدون على أُممهم بأنهم بلَغوهم.

أمَّا قوله: (الشُّهَداء) فهو من باب عَطْف العامِّ على الخاصِّ، والمُراد بهم: الذين يَشهَدون على الأُمَم وللرُّسُل، وهم هذه الأُمَّةُ، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة:١٤٣] مُحمَّد ﷺ ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، فالرُّسُل شُهَداءُ على أُممهم يَقولون: يا ربَّنا نَشهَد أنك أَرسَلْتنا إلى أقوامنا وأننا بلَّغْناهم.

ولا يُمكِن أن يَقول أحَدٌ في ذلك اليومِ: هذه دَعْوى، فأين البَيِّنة؟ لأنه لو قال مثل هذا القولِ فإنه يَشهَد عليه أَعضاؤُه، والله تعالى يَشهَد قبل كل شيء.

أمَّا الشُّهَداء فهُمْ أُمَّة مُحمَّد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، وهذه الأُمَّةُ -ولله الحمدُ- تَشهَد على الناس في الدُّنيا وفي الآخِرة، ونحن الآنَ نَشهَد أن الله تعالى أَرسَل نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قومه، ونَشهَد أن قومَه أُبلِغوا على الوجه الأَكمَل، ونَشهَد أنه بَقِيَ فيهم ألفَ سَنَة إلَّا خَمْسين عامًا، كل هذا نَشهَد به، بما علَّمنا الله عَزَّوَجَلَّ في كِتابه، فيَوم القِيامة تكون الشهادة لنا على الأُمَم.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَشهَدون للرُّسُل بالبَلاغ] لو قال: (وعلى الأُمَم بإقامة الحُجَّة) لكان هذا خيرًا، فنحن كذلك نَشهَد على الأُمَم بأنهم بُلِّغوا، وأُقيمت عليهم الحُجَّة، فلنا شَهادتان: شَهادة للرُّسُل، وشهادة على الأُمَم.

وقوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: العَدْل، والقاضي هو الله عَزَّوَجَلَّ، لكن

أَبهَمه للتعظيم، وهو مَعلوم فليس هناك ضرورة إلى التَّعْيين؛ لأنه مَعلوم أن القاضِيَ هو الله ربُّ العالَمين.

وقوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي: بين الناس، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعَدْل، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئًا، يُقضَى بين الناس يوم القيامة بالعَدْل، وليس القضاء بين الناس فقَطْ بالعَدْل، بل وبين البَهائم أيضًا بالعَدْل، حتى إن الرسول ﷺ أَخبَر بأنه يُقتَصُّ للشاة الجَلحاءِ من الشاة القَرناءِ[1]، سُبحانَ الله! ثُمَّ بعد ذلك تكون تُرابًا؛ لأنها ليس لها جَنَّة ولا نار، لكِنْ إظهارًا للعَـدْل وشِفاءً لما في الصدور؛ لأن الشاة الجَلحاءَ إذا نطَحَتْها الشاه القَرناءُ صار في قَلْبها شيء، لكنها لا تَستَطيع أن تَقتَصَّ؛ لأن هذه لها قُرون وهذه ليس لها قُرون، لكن يوم القِيامة يُعطِي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الشاة الجَلْحاء قُدرة حتى تَقتَصَّ، أو يُريها الله عَزَّوَجَلَّ كيف يَقتصُّ لها من الشاة القَرناءِ؛ ولهذا يَقول تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيِ: العدل]، وفسَّر الحَقَّ هنا بالعَدْل ولم يُفسِّره بالصِّدْق؛ لأن المَقام مَقام حُكْم وقَضاء، والمُناسِب فيه العدل.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الضمير (هم) يَعود على الناس، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئًا]، أي: لا يُنقَصون من حُقـوقهم شيئًا، بل يُعطَى كل إنسان حقَّه على وجهِ الكَمال.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الجُمْلة حالِيَّة، يَعنِي: والحال أنهم لا يُظلَمون شيئًا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ النُّور صِفةً لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات الرُّبوبية الخاصَّة لله تعالى في ذلك اليومِ، حيث أَضاف الرُّبوبية إلى الأرض مع أنه ربُّ كلِّ شيء، وإضافة رُبوبية الله تعالى إلى شيء مُعيَّن تَقتَضي تَعظيم هذا الشيءِ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٩١]، ولَمَّا كان قوله تعالى: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ قد يُوهِم أنه ربٌّ لهذه البَلدةِ دون غيرها؛ قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الكِتاب الذي كُتِبت فيه الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الشُّهَداء على الناس بما عمِلوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه يُقضَى بين الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وبين مَن كذَّبوهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنه يُقضَى بين العالِمِ وأُمَّته؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ والعلماءُ شُهَداءُ لا شَكَّ، بل هُم رُؤوس الشهداء بعد الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فالعالِمُ مُبلِّغ عن الرُّسُل، فيُقضَى بينه وبين مَن بلَغَته الرسالةُ بواسِطتهم.

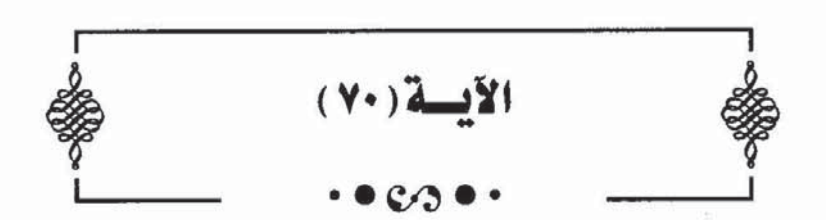
الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات القَضاء بين الخَلْق في ذلك اليومِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن القَضاء لا حَيفَ فيه ولا جَوْرَ؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾،

فيُعطَى الإنسان حَقَّه كامِلًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: انتِفاء الظُّلْم في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وانتِفاء الظُّلْم هنا ليس المُرادُ به نَفيَ الظُّلْم فقَطْ، بلِ المُراد به إثبات كمال العَدْل الذي ليس فيه ظُلْم بوَجْه من الوجوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

• ● ۞ ● •



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر:٧٠].

•●○●•

قوله تعالى: (وُفِّيَت) أي: أُعطِيَت وفاءً، كما تقول: وفَّيْتُه حَقَّه. أي: أَعطَيْته إيَّاه وفاءً.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: ﴿كُلُّ﴾ بالضَّمِّ على أنها نائِب فاعِل.

قوله تعالى: ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ أيِ: الذي عمِلَت، فـ﴿مَّا﴾ هو اسمٌ مَوْصول، وهو مَفعول ثانٍ لـ(وُفِّيَت)، والمَفعول الأوَّل هو ﴿كُلُّ﴾ وإن كانت بالضَّمِّ، لكن نائب الفاعل يَنوب مَناب المَفعول؛ فلهذا صارت ﴿كُلُّ﴾ في محَلِّ المَفعول الأوَّل، و﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ في محَلِّ المَفعول الثاني.

فإن قال قائِل: الفِعْل المَبنيُّ للمَجهول هل الأَوْلى دائِمًا أن نَقول: مُبنيٌّ لما لم يُسَمَّ فاعِلُه. أم في هذه الصِّيَغِ؟

فالجَوابُ: أن نَقول: الأَوْلَى دائِمًا: (لما لم يُسمَّ فاعِله)، وأنت إذا قُلتَ: (لما لم يُسمَّ)، فصحيح سواءٌ كان مجهولًا أو غيرَ مجهول، ثُمَّ إن الفِعْل المَبنيَّ لما لم يُسمَّ فاعِله إذا كان الله تعالى هو الذي تَكلَّم به؛ فلا يَصِحُّ أن نَقول: إن هذا مجهول لله تعالى. يَعنِي: في القرآن لا يُمكِن أن تَقول: مَبنيٌّ للمَجهول؛ لأن الله تعالى لا يَجهَل الفِعْل، أمَّا في غيره فربما يَقول القائِل مثلًا: لَمَّا أَصبَح صاحَ. فقيل: ماذا أَصابَك؟

قال: سُرِق مَتاعي. فهذا مَبنيٌّ للمَجهول؛ لأنه لا يُمكِن أنه يُريد السَّتْر على السارِق!.

قوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: جزاءَه] حمَلَه على هذا التأويلِ أن العمَلَ قد مضَى في الدنيا، والذي تُوفَّى النفسُ هو الجَزاءُ، كما قال الله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

فإذا قال قائِل: الأمر واضِح كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن ما الحِكْمة في أن الله عَزَّوَجَلَّ عبَّر بالعمَل عن جَزاء العمَل؟

فالجَوابُ: الحِكْمة في ذلك: الإشارة إلى أن الجَزاء لا يَتَجاوَز العمَل، ولا يَنقُص عن العمَل، فكأنه هو العمَل، فإذا كان لا يَتجاوَزه ولا يَنقُص عنه فكأنه هو العمَل، وهذا هو كَمال العَدْل، وكما تَدين تُدانُ.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ الضمير (هو) يَعود على الله عَزَّوَجَلَّ، يَعنِي: كأنَّ قائِلًا يَقول: كيف يَعلَم ما عمِلت النَّفْس، وقد مضَت دُهور ودُهور وفي العمَل الدقيق والجَليل؟ فقال: ﴿وَهُوَ﴾ أيِ: الله ﴿أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾، يَعنِي: لا يَخفَى عليه شيء، وهو عَزَّوَجَلَّ لا يَضِلُّ ولا يَنسَى، فلا يُمكِن أن يَفوت شيء من عمَل الإنسان.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: [عالِمٌ ﴿بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾] تفسيره ﴿أَعۡلَمُ﴾ بـ(عالِم) يُعتبَر تفسيرًا قاصِرًا؛ لأن (أَعلَم) أعلى درجةً من عالِم، فإنك تَقول: زَيْد عالِم، وعَمرٌو عالِم، فيَتَساوَيان في العِلْم، وتَقول: زَيْد أَعلَمُ من عَمرٍو، فيكون زَيْدٌ أَعلَمَ وأعلى درجةً من عَمرٍو.

فالمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآنَ إذا قال: ﴿أَعۡلَمُ﴾ أي: [عالِم] نقَص من عِلْم الله تعالى؛ لأن كلِمة (عالِم) لا تَمنَع المُشارَكة، لكن (أَعلَم) تَمنَع المُشارَكة؛ لأنه لا يَستَوِي الأفضل والمَفضول.

والعجَبُ أننا لو سألَنا سائِل: لماذا عدَل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن اسمِ التَّفضيل إلى اسمِ الفاعِل؟ قال: لأنه لا يَنبَغي أن يَكون هناك تَناسُب أو مُفاضَلة بين الخالِق والمَخلوق.

إذا قُلتَ: (أَعلَمُ) مَعناه: فضَّلت الخالِق عن المَخلوق، فنَقول له: سبحان الله! وإذا قُلت: (عالِم) فقد سوَّيْت الخالِق بالمَخلوق، فانْظُر كيف عدَل عن ظاهِر اللَّفْظ إلى فَساد المَعنَى! فجَنَى جِنايَتَيْن -عفا الله عنه-:

الأُولى: مُخالَفة ظاهِر اللَّفْظ.

الثاني: تَنقيص الخالِق في عِلْمه.

فنَحن نَقول: إن الله تعالى أَعلَمُ وأَرحَمُ، ففي القرآن الكريم: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥١]، وأَحكَم ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨].

بل أَبلَغُ من ذلك أن الله تعالى قال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]، مع العِلْم بأنه لا أَحَدَ يَظُنُّ أو يُقدِّر أن الأصنام مثل الخالِق، لكن قال هذا من أَجْل إفحام الخَصْم، وبيان ضَلاله؛ بأن نَقول له: آللهُ خيرٌ أَمِ الذي تُشرِكون به؟

فالحاصِلُ: أن علينا أن نُجرِي (أَعلَم) على ظاهِرها من أن المُراد بها تَفضيل الله تعالى في عِلْمه على عِباده، فهو أَعلَمُ بما يَفعَلون.

فإن قال قائِل: إن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدَل عن (أَعلَم) إلى (عالِم)؛ لأن الناس لا يَعلَمون ما يَفعَلون، فالعِلْم مُنتَفٍ وحينئذ لا يَكون تَفسيرُه (أَعلَم) بـ(عالِم) ضارًّا؟

قُلْنا: هذا خطَأ أيضًا، بلِ العالِم يَعلَمون ما يَفعَلون، إِذْ كل إنسان يَعلَم ما فعَل،

وكل مَن شاهَد غيره أنه يَفْعَل عَلِم ما فعَل.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تارةً تَأتِي (يَفعَلون)، وتارةً تَأتِي (يعمَلون)، وتارةً تَأتِي (يَكسِبون)، فهل بينها فَرْق؟

نَقول: لا ليس بينها فَرْق؛ لأن مُؤدَّاها واحِد، لكن إذا قيل: قولٌ وفِعْلٌ؛ صار القول باللِّسان، والفِعْل بالجَوارِح، وإذا قيل: عمِل صار شامِلًا للقول والفِعْل، وإذا قيل: قول فإنه يَكون شامِلًا للقول والفِعْل.

ومنه -أي: من إطلاق القَوْل على الفِعْل- قول الرسول ﷺ لعَمَّار بنِ ياسِر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولَ هَكَذَا» ثُمَّ ضرَب يدَه بالأرض[1]. ومعلوم أن هذا ليس قولًا، بل هو فِعْل.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فلا يَحتاج إلى شاهِد] نعَمْ، لا يَحتاج إلى شاهِد، كفَى بالله تعالى شَهيدًا، لكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُقيم الشهود إظهارًا للعَدْل، وتَوْبيخًا للفاعِل؛ لأنه إذا أُقيم عليه الشهود بعد أن أَنكَر صار ذلك أَشدَّ تَوْبيخًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الناس يَستَوْفون أعمالهم يومَ القِيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ بعد أن قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا...﴾ إلى آخِره.

ويَدُلُّ لهذا -أن استيفاء العمَل يَكون يوم القِيامة- قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب المتيمم هل ينفخ فيهما، رقم (٣٣٨)، ومسلم: كتاب الحيض، باب التيمم، رقم (٣٦٨).

أمَّا في الدُّنيا فإن الإنسان قد يُوفَّى عمَلَه وقد لا يُوفَّى، فالكافِر مثلًا: لا يُمكِن أن يُوفَّى جزاءَ عمَله في الآخِرة، وأُريدُ: جزاءَ عمَله الصالِح، يَعنِي: لو أن الكافِر تَصدَّق، أو أَصلَح شيئًا يَنفَع المُسلِمين، أو فَعَل أيَّ شيء يَتعدَّى نَفعُه؛ فإنه لن يُجازَى عليه في الآخِرة، ولكن يُطعَم به في الدنيا فيُجازَى عليه في الدنيا، ثُمَّ قد يُجازَى في الدنيا ويُطعَم إيَّاه وقد لا يُجازَى.

أمَّا المُؤمِن فإنه وإن جُوزِيَ في الدنيا على عمَله الصالِح فإنه لن يُحرَم الجزاء في الآخِرة، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ هذا جزاء دُنيويٌّ، ثُم قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هذا أُخرَويٌّ.

المُهِمُّ: أن مُنتَهى الجَزاء هو يوم القِيامة، لقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾.

فإن قال قائِل: يَقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ إلى آخِر الآية [عبس:٣٤]، فهل يُمكِن في هذا المَوقِفِ العَظيم الإنسان أن يَتنازَل بشيء من حسَناته لأُمِّه وأبيه؟

فالجَوابُ: الظاهِر أنه لا يُمكِن؛ لأن العمَل انتَهى وقتُه.

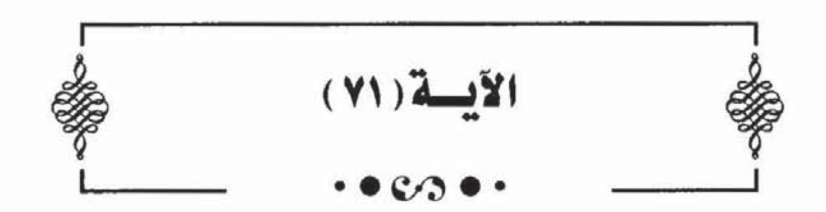
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عَدْل الله تعالى في جَزائه؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ لا زِيادةَ ولا نَقصَ، ويُؤكِّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، فإذا كان أَعلَمَ بما يَفعَلون وهو حكَمٌ عَدْل؛ عُلِم أنه لن يَنقُص الإنسان من أَجْره شيئًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات العِلْم لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله تعالى يَعلَم أعمال العِباد كما يَعلَم أعمال نَفْسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: احتِراز الإنسان من العمَل بما لا يُرضِي الله تعالى، وأنه يَجِب عليه أن يَحذَر منه؛ لأن الله تعالى يَعلَم ذلك، والإنسان الحيُّ القَلْب لا شكَّ أنه سيَخجَل إذا علِم أن الله تعالى يَعلَم عمَله فعمِل ما لا يُرضيه.

• • ۞ • •



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٌ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر:٧١].

•●ෆ●•

قوله تعالى: (سِيق) فِعْل ماضٍ مَبنيٌّ للمَجهـول، والأَوْلى أن نَقـول: مَبنيٌّ لما لَمْ يُسمَّ فاعِله؛ قالوا: أن الأَوْلَى الثاني؛ لأنه قد يَكون الفاعِل مَعلـومًا، لكن حُـذِف لغَرَض آخَرَ؛ ولهذا كان تَعبير المُحققين من النَّحويِّين أن يَقولوا: ما لم يُسمَّ فاعِله. وفي هذا الفِعْلِ نَقـول: مَبنيٌّ لما لَمْ يُسمَّ فاعِله. فالظاهِر أن السائِـق المَلائِكة، يَسوقُونهم إهانةً.

وقول المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بعُنْـف] دَليلـه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [الطور:١٣] مَعنَى الدَّعِّ: الدَّفع بشِدَّة وقوة، هذا كيفية سَوْق الذين كفَروا.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ حُذِف المَفعول ليَعُمَّ كل ما يُكفَر به ممَّا يَجِب الإيمان به، فإذا كفَروا بالمَلائِكة فهم داخِلون في هذا، وكذلك إذا كفَروا بالنَّبيِّين، وبالكِتاب، وباليوم الآخِر، وبالقَدْر؛ فهم داخِلون في هذه الآيةِ، وكذلك إذا استكْبَروا عمَّا يَجِب عليهم الإيمان به فإنهم يَكفُرون؛ لأن الكُفْر نَوْعان: كُفرُ جُحود، وكُفرُ

استِكْبار؛ فالتَّكذيب كُفْر جُحود، وتَرْك العمَل كُفْر استِكْبار، والآية تَشمَل هذا وهذا.

فإن قال قائل: في هذه الآيةِ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾، وفي الحديث في صحيح البُخارِيِّ وغيره: أنه تُصوَّر لهم النار كأنها سَراب فيأتون مُسرِعين(١)، فكيف يُمكِن الجَمْع بين السُّوق وبين كونهم هم يَتَبادَرونها؟

فالجَوابُ: أن الجَمْع من أحد الوَجْهين:

إمَّا أنه يُجمَع لهم بين السَّوْق وبين انطِلاقهم، ولا مانِعَ من أن يَركُض الإنسان وهناك واحد وراءَهُ يَدفَعه.

أو يُقال: إنهم إذا وصَلوا إلى حَوْلها ورأى المُشرِكون النار هابوا ووقَفوا، وعلِموا أنها ليسَتْ بماءٍ، فسوف يَنكِصون وحينئذ يُساقون ويَدَعُّون إلى جهنَّمَ دعًّا.

وإن قال قائِل: هل يُعذَّب الجِنَّ كما يُعذَّب الإنسان في جهنَّمَ؟ وهل هُما سواءٌ؟

فالجَوابُ: نعَمْ، هذا هو الظاهِر، أن الجِنَّ يُعذَّبون كما يُعذَّب الإِنْس، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨].

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ قوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾ سبَق الكلام عليها، وأن العُلَماءَ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ اختَلَفوا فيها، وهل هي مُعرَّبة أو عرَبية أصلِيَّة.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، رقم (٧٤٣٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿زُمَرًا﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [جماعاتٍ مُتفرِّقةً] ووجهُ التَّفريق في هذه الجَماعاتِ قد يَكون باعتِبار الأُمَم، أو باعتِبار الأعمال، بحيث تَكون الزُّمْرة الأُولى هي الكافِرة المُشرِكة، والثانية ما دونَها، والثالِثة ما دونَها وهكذا.

فإن قُلْنا بالأوَّل -أي: أن هذه الزُّمَرَ باعتِبار الأُمَم- فإن دليله قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف:٣٨]، فإن هذا يَدُلُّ على أنهم يُذهَب بهم إلى النار أُمَمًا.

وإن قُلنا بالثاني: فدَليله ما يُصنَع بأهل الجَنَّة أن أوَّل زُمْرة تَدخُل الجَنَّة وجوهُهُم كالقمر ليلةَ البَدْر، أو على صُورة القمَر ليلةَ البَدْر، فإن هذا يَقتَضي أن يَكون الزُّمَر باعتِبار العمَل، فالله أَعلَمُ.

المُهِمُّ: أن نَعرِف أنهم يُساقون زُمَرًا.

فإن قال قائِل: أَلَا يَمنَع من كونه المَعنَى ﴿زُمَرًا﴾ أن يَكون جَماعاتٍ باعتِبار العمَل؛ لقول النبيِّ ﷺ: «**أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ ثَلَاثَةٌ**»[1]؟

فالجَوابُ: نعَمْ، هذا يُؤيِّد أن المُراد باعتِبار العمَل؛ لأن هؤلاءِ الثلاثةَ يَكونون في الأُمَم من قَبْلنا وفينا.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ شَرْطها: ﴿جَآءُوهَا﴾، وجوابُها: ﴿فُتِحَتْ﴾ يَعنِي: من حين أن يَصِلوا إليها تُفتَح، وفَتْحُها أَكْرَهُ شيءٍ إليهم -نَسأَل اللهَ العافِيَةَ-؛ لأنهم يَوَدُّون أن يَقِفوا ولو على شَفيرها دون أن يَدخُلوا فيها، ولكنهم يُفاجَؤُون بفَتْحها من أَجْل مُبادَرتهم بالعَذاب، والعِياذ بالله.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، رقم (١٩٠٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمعناه.

وقوله تعالى: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ فقوله تعالى: ﴿أَبْوَٰبُهَا﴾ جَمْع: باب، وقد بيَّن الله تعالى في كِتابه أن أبوابها سَبْعة، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٣-٤٤] حَسْب عملِه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾: ﴿خَزَنَتُهَآ﴾ أيِ: القائِمون عليها المُوكَّلون بها، وهم مَلائِكة غِلاظ شِداد؛ غِلاظ الطِّباع، شِداد الأجسام، هؤلاء هُمْ خزَنة النار، ليس فيهم رحمة إلَّا امتِثالًا بأَمْر الله عَزَّوَجَلَّ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يوم القيامة لا يَظلِم الكافِر، بل يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، فهُمْ أبعَدُ الناس عن رحمة الله.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ مُوبِّخين ومُقرِّرين ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، فالاستِفْهام هنا للتَّوْبيخ والتَّقرير، يَعنِي: يُقَرِّرون إتيان الرسُل، ويُوبِّخون هؤلاء على الكُفْر بهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ يَعنِي: لا من غيركم، فلو أَرسَل الله تعالى للبشَر مَلائِكة لكانوا يَنفِرون، يَقول تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٥]، وهذا رَدٌّ عليهم لَمَّا قالوا: أين المَلائِكةُ؟ فليس من الحِكْمة أن نُنزِل للبشَر ملَكًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا﴾ لو أَنزَل الله تعالى ملَكًا، أي: لو فُرِض أن الله تعالى يُرسِل للبشَر ملَكًا ﴿لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام:٩]، أي: على صورة الرجُل؛ كي لا يَنفِروا منه.

وهنا يَقول: ﴿يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ وهذا أبلَغُ؛ من أن يُقال: (مِن أَنفُسِكم)، فمُحمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من قُرَيْش من بني هاشِمٍ، يَعرِفونه ويَعرِفون أباه ويَعرِفون أجداده، ويَصِفونه بالأمين، ويَثِقون به، وحَكَّموه حين اختَصَموا في وَضْع الحجَر

في مَكانه في الكعبة حتى حكَم فيهم ذلك الحُكْمَ العَدْلَ[(١)]؛ ولهذا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤] من جِنْسهم؛ لأن الرسول ﷺ ليس مَلَكًا، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢]؛ لأنه من العرَب.

ولَمَّا جاءَهُم بالبينات قالوا: هذا الساحِر، هذا الكذَّابُ، هذا المَجنونُ، هذا الكاهِنُ، هذا الشاعِرُ. سبحان الله! وهو رجُل منهم يَعرِفونه، لكن الاستِكْبار يَأبى أن يَقول الحقَّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ جُمْلة: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ يَجوز أن تكون حالًا، ويَجوز أن تكون صِفةً أُخرى؛ لأن قوله تعالى: ﴿مِّنكُمْ﴾ صِفة، والنَّكِرة إذا وُصِفت جاز وقوع الحالُ منها، وجاز أن تكون الجُمْلة صِفةً أُخْرى؛ لأنه لا مانِعَ من تَعدُّد الصِّفات، على أن الحال في الواقِع صِفة، كما قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الحَالُ وَصْفٌ فَضْلَةٌ مُنْتَصِبُ ... مُفْهِمُ فِي حَالِ كَفَرْدًا اذْهَبُ[(٢)]

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يَقرَؤُون عليكم آياتِ ربكم، والمُراد بالآيات هنا: الآياتُ الشَّرْعية؛ لأن المُراد بها ما نزَل من الوَحيِ.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القُرآن وغيره] يَعنِي: أنه يَشمَل كلَّ الكتُب التي أُنزِلت.

---

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده رقم (١١٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٥/ ٤٤)، من حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الألفية (ص٣٢).

قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ يُخوِّفونكم لقاءَ هذا اليوم، حيث أَخبَروكم به وأَخبَروكم بما فيه من الأهوال العِظام، فلم يَبقَ لكم عُذْر؛ ولهذا أَقرُّوا: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ يَعني: قد أَتانا رُسُل مِنَّا يَتلون علينا آياتِ ربِّنا ويُنذِروننا لِقاء يومِنا هذا، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهذا هو الذي منَعَنا من طاعة الرُّسُل.

وقوله تعالى: ﴿حَقَّتْ﴾ بمَعنَى: وجَبَت وثبَتَت، و﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ هي الكلِمة التي يَستَوْجبون بها العَذاب، وفي هذه الكلِمةِ -﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾- قولان:

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي قول الله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩]، هذه هي الكلِمة؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التزَم لجَهنَّمَ بملْئها من الجِنَّة والناس أَجمَعين، فإذا كان قدِ التزَم للنار بملْئها، فلا بُدَّ أن يَخلُق لها أقوامًا يُكذِّبون الرُّسُل ليَستَحِقُّوا نار جهنَّمَ -والعِياذُ بالله-.

وقيل: إن الكلِمة -﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾- هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس:٩٦-٩٧]، فإنها لما حقَّتْ عليهم كلِمة الله تعالى امتنَع إيمانهم، ولكن هنا يَقول الإنسان: هل هذا من باب الاحتِجاج بالقدَر، أم من باب الاعتِراف بالواقِع؟

الجَوابُ: الثاني؛ لأنه لا يُمكِن أن يَحتَجُّوا بالقدَر في ذلك المَوْضِعِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيان إهانة الكُفَّار عند دُخولهم النار؛ لكونهم يُساقون بعُنْف ويُدَعُّون دعًّا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنهم يَدخُلون النار زُمَرًا، والحِكْمة من ذلك أَشار الله تعالى إليها في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن أهل النار يُفاجَؤُون بها، فمِن حين إتيانهم تُفتَح؛ ليكون ذلك أشَدَّ مُباغتةً وأشَدَّ حَرارةً -والعِياذُ بالله- فلا يُمَكَّنون من الصبر عنها طَرْفةَ عَيْن، مع أنهم يَوَدُّون أنها لا تُفتَح، ولكن الأمر على خِلاف ما يَوَدُّون فتُفتَح فوْرًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن للنار أبوابًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن النار مُظلِمة بعيدةُ القاع، يُؤخَذ من اسمها في قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: كمال تَنظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للخَلْق، حيث جعَل للنار خزَنة، وللجَنَّة خزَنة، وفي هذه الآيةِ يَقول تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن هؤلاءِ الخَزَنةَ يَنطِقون كما يَنطِق البَشَر بخِطاب مَفهوم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن لُغة أهل النار واحِدة، وربما يُقال: إن لغاتِهم مُختلِفةٌ، وأن الملائكة لكَثْرتهم كلٌّ يُخاطِب القوم بما يَفهَمون من اللغة، والله أَعلَمُ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: اجتِماع العَذاب القلبي والبدَني على أهل النار، أمَّا البدَنيُّ فظاهِر، وأمَّا القَلْبيُّ فما يَحصُل لهم من التوبيخ والتقريع في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ﴾، ومَعلوم أن من الناس مَن يُحِبُّ أن يُوسَع جِسْمه ضربًا ولا يُوبَّخ

بكلِمة واحِدة، فالتَّوْبيخ ليس بالأمر الهيِّن، لا سيَّما في مثل هذا الحالِ؛ لأنهم إذا ذُكِّروا بهذه النِّعمةِ في حال لا يَتمكَّنون من استِدْراك ما فات كان ذلك أشدَّ حَسْرةً، والعِياذُ بالله.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: تَمام الحُجَّة على بني آدَمَ بإرسال الرُّسُل منهم؛ لقوله تعالى: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾؛ لأنهم لو كانوا من غير الجِنْس لم تَتِمَّ الحُجَّة، لكن إذا كانوا من الجِنْس نَفْسه، بل من القَبيلة نفسِها لتَمَّتِ الحُجَّة.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن الرُّسُل صلى الله عليهم وسلم كانوا قد بلَّغوا البلاغ المُبين؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن ما جاءت به الرُّسُل من الوحيِ حُجَّة مُلزِمة؛ لأن الله تعالى سمَّاه: ﴿ءَايَٰتِ﴾، والآية العلامة المُعيِّنة لما دلَّت عليه، فهي حُجَّة مُلزِمة لكلِّ مَن سمِعها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنه ما من رَسول إلَّا وقد أَتى بكِتاب؛ لقوله تعالى: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾، ويُؤيِّد هذا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥]، وقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

لكننا لا نَعلَم كل كِتابٍ أُوتِيَه رسول، فالذي نَعرِفه التَّوراة والإنجيل والزَّبور وصُحُف إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ والقرآن.

ولا عجَبَ أَنْ لا نَعلَم إلَّا هذه الخَمسةَ، كما أننا لا نَعلَم من الرُّسُل إلَّا خَمْسة

وعِشْرين، والباقون لا نَعلَمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨]، يَعنِي: ليس كلُّ الرُّسُل قُصُّوا عليك، قال بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: ولم يُقَصَّ علينا إلَّا مَن كانوا في الجَزيرة العربية أو ما حولها، يَعنِي لم يُقَصَّ علينا الرُّسُل الذين في أمريكا، أو أقصى آسيا، أو ما أَشبَه ذلك، إنها قُصَّ علينا مَن كانوا حولَنا؛ لأن هؤلاء يُمكِن أن نَعتَبِر بهم أكثَرَ من الآخَرين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: بيان مُقتَضى الربوبية -أَعنِي: ربوبية الله- أنها رُبوبية مَبنيَّة على الرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾، فلو أن الله تعالى ترَكَنا همَلًا لم تَكُن رُبوبيته تامَّةً، لكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يَترُكْنا همَلًا، بل أَرسَل إلينا الرُّسُل، فتَمَّت بذلك الرُّبوبيَّةُ التي كان مُقتضاها هِداية الخَلْق.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: اعتِناء الرُّسُل باليوم الآخِر، حيث يُنذِرون الناس به؛ ووجهُ ذلك: أنه إذا لم يَكُن يومٌ يُرجَع فيه الناس إلى الله تعالى وتُوفَّى كلُّ نفسٍ ما عمِلت فإن الناس لا يَعمَلون ولا يَهتَمُّون بالعمَل، فإذا كان الناس يَعيشون في الدنيا ما شاء الله تعالى أن يَعيشوا ثُم يَموتون ولا يَرجِعون فلا يُمكِن لأحَدٍ أن يَستَقيم إلَّا بما أَملاه عليه ضميرُه، أمَّا أن يَستَقيم على ما أُمِر به فهذا بعيد جِدًّا؛ لأن الإنسان يَقول: إنه سيَعيش ثُم يَموت ولا شيءَ بعد ذلك، لكن إذا علِم وأَيقَن أنه سيَكون يومٌ يُبعَث فيه ويُجازَى على عمَله فحينئذ لا بُدَّ أن يَحرِص للاستِعْداد لهذا اليَومِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: إقرار المُكذِّبين في ذلك اليومِ إقرارًا كامِلًا لقولهم: ﴿بَلَىٰ﴾، و(بَلَى) حَرْف جواب لإثبات النَّفيِ المُصدَّر بالاستِفْهام، فمثَلًا: إذا قُلت:

أَلَيس زيدٌ قائِمًا؟ فقيل: بلى. أي: أنه قائِم، لكن لو قُلت: نعَمْ. لكان المَعنَى: لم يَكُن قائِمًا.

ولهذا يُذكَر عن ابن عباس رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا أنه قال في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢]: «لو قالوا: نعَمْ. لكَفَروا»[١]؛ لأنهم إذا قالوا: نعَمْ. فالمَعنَى: لستَ برَبِّنا، وهذا كُفْر، فالنَّفيُ المَسبوق بالاستِفْهام يُجاب في الإثبات بـ(بَلَى)، وفي النَّفيِ بـ(نعَمْ)، لكن مع ذلك تَأتِي (نعَمْ) في محَلِّ (بَلَى)، لكنه قليل في اللغة العرَبية، قالوا: ومنه قول الشاعِر:

أَلَـيْسَ اللَّيْـلُ يَجْمَـعُ أُمَّ عَمْـرٍو ... وَإِيَّانَـــا فَـــذَاكَ لَنَـــا تَـــدَانِ
نَعَـــمْ وَتَـــرَى الهِـــلَالَ كَـمَا أَرَاهُ ... وَيَعْلُوهَـا النَّهَـارُ كَـمَا عَـلَانِي[٢]

والبَيْتان مَعروفان؛ فهذا الرجُل يُقرِّر أنه قريب من مَعشوقته؛ لأن الليل يَجمَعهما، فما دام الليلُ يَجمَعهما فكأن الفِراش يَجمَعهما، فقوله:

أَلَـيْسَ اللَّيْـلُ يَجْمَـعُ أُمَّ عَمْـرٍو ... وَإِيَّانَـــا فَـــذَاكَ لَنَـــا تَـــدَانِ

هذا دليل على التَّقارُب بينَنا: أن الليل يَجمَع بَيْننا.

الدليل الثاني: قوله: (وَتَرَى الهِلَالَ كَمَا أَرَاهُ)، وما دامَت رُؤْيتنا كلُّها تَتَّفِق في رُؤية الهِلال فهذا اجتِماع.

الدليل الثالِثُ: قوله: (يَعْلُوهَا النَّهَارُ كَمَا عَلَانِي)، فما دام النهار يَعلوها كما عَلاني فنَهارُنا واحِد وليلُنا واحِد، وهِلالُنا واحِد، فإننا مُتادَنون (فَذَاكَ لَنَا تَدَانِ)،

(١) ذكره ابن جزي في تفسيره (١/ ٣١٢)، والسمين الحلبي في الدر المصون (١/ ٤٥٦).
(٢) البيتان من شعر جحدر العُكْلي، انظر: الأمالي للقالي (١/ ٢٨٢)، وخزانة الأدب (١١/ ٢٠٩).

وهذا المِسكينُ إذا كان يَقتَنِع بهذا التَّداني فهو قَنوع جِدًّا.

الشاهِد من هذين البَيْتين قولُه: (نَعَمْ) يَعنِي: نعَمْ أن الليل يَجمَعه مع أُمِّ عمرٍو، وهذه (نعَمْ) في محَلِّ (بَلَى).

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن مَن حقَّتْ عليه كلِمة العذاب فقد أَوجَبَ؛ لقولهم: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: أن المُكذِّبين للرُّسُل يُبصِرون في ذلك اليومِ بَصَرًا شَديدًا، ويَعلَمون الحقَّ عِلْمًا أَكيدًا؛ لقولهم: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فلو كان هذا الإقرارُ في الدنيا لنَجَوْا من العذاب، قال الله تبارك تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ يَعنِي: يوم القِيامة ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢]، أمَّا في الدنيا فبَصَرك أَعشَى، لكن في الآخِرة البصَر حَديد قَويٌّ جِدًّا يَرى أكثَرَ ممَّا يَراه في الدنيا أضعافًا مُضاعَفة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: أن الكلِمة إنها تَحِقُّ على الكافِرين؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ويَتَفرَّع على هذه الفائِدةِ: أن هـؤلاءِ لم تَحِقَّ عليهم الكلِمة إلَّا لكُفْرهم، فهو كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

وعلى هذا يَندَفِع الإشكال، فلو قيل: كيف حَقَّت كلمة ربِّك أو كلِمة الله تعالى على هؤلاء دون غيرهم؟

فالجَوابُ على ذلك من وَجْهين:

الوجهُ الأوَّل: أن الله تعالى علِم من هؤلاء أنهم ليسوا أهلًا للهِداية، قال تعالى:

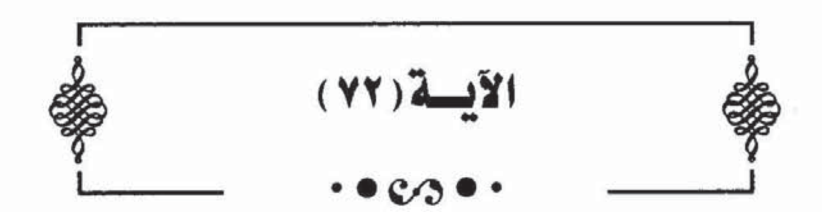
﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أعاذَنا الله تعالى وإيَّاكم من زَيْغ القلوب.

الوجه الثاني: أن يُقال: هل ظلَم الله تعالى هؤلاءِ حيث منعَهم فَضْله؟

والجَوابُ: لا، ففَضْل الله تعالى يُؤتيه مَن يَشاءُ، وفي صحيح البخاري: أن مثَلَنا ومثَلَ مَن قبلَنا كمَثَل رجُل استأْجَر أُجَراءَ إلى نِصْف النهار، وإلى العَصْر، وإلى الغُروب، فأَعطَى الأوَّلين على قِيراط قِيراط، والآخَرين على قِيراطَيْن قِيراطَيْن، فاحتَجَّ الأوَّلون، فقال: أَظَلَمْتُكم شيئًا؟ قالوا: لا. قال: ذلك فَضْلي أُوتِيه مَن أَشاءُ[1].

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب الإجارة إلى صلاة العصر، رقم (٢٢٦٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



الآية (٧٢)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٧٢].

• • • •

قوله تعالى: ﴿قِيلَ﴾ فِعْل ماضٍ مَبنيٌّ لما لَمْ يُسمَّ فاعِله، وقال بعض العُلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنه أَبهَم الفاعِل ليُفيد أن كل الكون يَقول لهم هذا، ﴿قِيلَ﴾ يَعنِي: من قِبَل المَلائِكة، من قِبَل أهل الجَنَّة، من قِبَل كلِّ مَن شهِد.

وقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ﴾ فِعْل أَمْر للإهانة، وليس للإكرام؛ لأن مَن قيل له: ادخُلِ النار. فإنه ليس بمُكرَم -أَعوذ بالله-، ولكنه مُهان.

وقوله تعالى: ﴿أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ سبَقَ لنا أنها بنَصِّ القرآن سبعةُ أَبواب.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الواو في قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ﴾، يَعنِي: حال كونكم خالِدين فيها؛ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مُقدِّرين الخلود] يَعنِي: مَعناها: أن الحال مُقدَّرة؛ لأن الخُلود يَأتي بعد الدُّخول، يَدخُلون أوَّلًا ثُمَّ يُخلَّدون ثانيًا، فالحال إذا لم تكُن مُصاحِبة تكون حالًا مُقدَّرة.

والخُلود في الأصل: المُكْثُ الطويل، وقيل: المُكثُ الدائِم، فعلى القول الأوَّلِ يَكون ذِكْر التأبيد بعد الخُلود تَأسيسًا، وعلى القول الثاني -أن الخُلود هو البَقاء الدائِم- يَكون ذِكْر التَّأبيد بعد الخُلود تَوْكيدًا، وأيًّا كان فإن الله تعالى قد صرَّح في ثلاث آيات

من القُرآن: أن خُلود أهل النار فيها أَبديٌّ.

أمَّا أهل الكبائِر فدُخولُهم بلا خُلود، وأمَّا أهل النار -الذين هُمْ أهل النار- فإنه دُخول بخُلود، وتَقدَّم أن بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقول: الخُلود هو المُكْث الدائِم، وبعضهم يَقول: هو المُكْث غير الدائِم، ولكن على هذا القولِ يَكون هذا الخُلودُ مُقيَّدًا بالآيات الأخرى الدالَّةِ على الدوام.

مَسأَلةٌ: في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٧] هل استَثْنى الله تعالى خُلودهم بالمَشيئة؟

الجَوابُ: أن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ عائِد على دوام السموات والأرض، يَعنِي: إلَّا ما شاء ربُّك ممَّا فوقَ ذلك؛ لأن دوامَ السمواتِ والأرض مُؤقَّت، لكن عذاب هؤلاء غيرُ مُؤقَّت؛ فقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ممَّا فوق ذلك إلى ما لا نِهايةَ له، فقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ مَعناها: خالِدين فيها مُدَّةَ دوام السماء والأرض ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ يَعنِي: إلَّا الذي زاد على مُدَّة دوام السموات والأرض، وهو ما شاء الله تعالى؛ وهذا إذا جعَلنا الاستِثْناء مُتَّصِلًا؛ أمَّا إن جعَلْناه مُنقطِعًا وصار مَعنَى ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، لكن ما شاء الله فلا حدَّ له؛ فالمَعنَى واضِح.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾: (بِئْس) فِعْل ماضٍ جامِدٌ لا يَتصرَّف، وهو مُحتاج إلى فاعِل وإلى مَخصوص، ففاعِله ﴿مَثْوَى﴾، ومَخصوصه محَذوف، قدَّره المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: [جهنَّم]؛ والمَثْوَى: المَأوَى.

والمُتكبِّر فسَّره أعلَمُ الناس به مُحمَّدٌ ﷺ في قوله: «الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»[1]؛ فالمُتكبِّرون هم الذين يَرُدُّون الحقَّ ويَعْلُون على الخَلْق، هؤلاء هُمُ المُتَكَبِّرون.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن هؤلاءِ المُكذِّبين إذا وصَلوا جهنَّمَ كأنهم -واللهُ أَعلَمُ- يَتَردَّدون أو يَتوقَّفون، فيُقال لهم إهانةً: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، ففيه: إهانة هؤلاء الكافِرين عند دُخولهم جهنَّمَ، حيث يُقال: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات الخُلود -أي: خُلود أهل النار فيها-؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أمَّا كون هذا الخُلودِ مُؤبَّدًا أو إلى أمَد، فهو مُؤبَّدٌ، دلَّ عليه آياتٌ ثلاثة من كِتاب الله تعالى: في سورة النِّساء، وفي سورة الأحزاب، وفي سورة الجِنِّ:

ففي سورة النِّساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩].

وفي سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

وفي سورة الجِنِّ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَقبيح مَسْكَن النار، وخُبْث سَكَنها؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن النار مَثوَى أهل الكِبْر، وأمَّا أهل التَّواضُع فمَأواهُمُ الجَنَّة، فالمُتواضِعون للحَقِّ وللخَلْق هؤلاء في الجَنَّة، والمُتكَبِّرون عن الحَقِّ وعن الخَلْق هؤلاء مَثْواهمُ النار.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التَّحذير من الكِبْر؛ لئَلَّا يَكون الإنسان من أصحاب النار.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الكِبْر قد يَصِل بصاحِبه إلى عمَل أهل النار وإن كان يَبدو قليلًا في قَلْبه، يَعنِي: إذا رأيتَ من نَفْسك تكبُّرًا على أحَد فعالِجْ هذا الداءَ! عالِجْ هذا المرَض قبل أن يَستَشرِيَ؛ لأن هذا المرَض للقَلْب بمَنزِلة السَّرَطان للبدَن، إن لم تُبادِر بعِلاجه فإنه يَقضِي عليك، ولا تَتَهاوَنْ بالكِبْر، فالكِبْر خُلُق رَذيل ذَميم، وجَرِّب نَفْسك إذا تَواضَعْت: تَجِدْ راحة وطُمَأنينة، تَجِد أنك لن تَندَم، لكن لوِ استكْبَرت على أحَد ثُمَّ عُدْت إلى عَقْلك لنَدِمت واستَغْفَرت.

أمَّا إذا تَواضَعْت فإنك تَجِد راحة وطُمَأنينة ويَحصُل لك في قُلوب العِباد محَبَّة وأُلفة، فإيَّاك والكِبرياءَ، وعليك بالتَّواضُع، ولِين الجانِب، وإذا انضَمَّ إلى ذلك أنك تُريد بها الوصول إلى كَرامة الله عَزَّوَجَلَّ والخُضوع لله تعالى؛ فإنك تَزداد ثوابًا ورِفْعة؛ قال ﷺ: «مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ»[1]؛ وفي قوله ﷺ: «تَوَاضَعَ للهِ» مَعنَيان:

المَعنَى الأوَّل: تَواضُع للخَلْق من أَجْل الله تعالى؛ لأن الإنسان قد يَتَواضَع للخَلْق لا لله تعالى، ولكن لِطَمَعٍ، فيَتواضَع له ويَتخضَّع لشخص لأَجْل أن يَنال

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

منه لُقْمة عَيْش، ولكن إذا تَواضَع لله تعالى -يَعنِي: امتِثالًا لأَمْره- فإن ذلك يَكون سببًا للرِّفْعة.

المَعْنى الثاني: مَن تَواضَع لله تعالى نَفْسِه، والتَّواضُع لله تعالى نَفْسه هو التَّواضُع لِدِينه، بحيث يَقبَله الإنسان وهو يَشعُر أنه مُحتاج إليه ومُضطَرٌّ إليه وأن مَقام الدِّين أعلى منه.

مَسأَلة: إذا نُصِح بعضُ الناس قال: إن النار لها حطَب؛ يَعنِي: أنه هو من حطَب نار جَهنَّمَ؟

فالجَوابُ: أن هذا يُوشِك أن يَكون كما قال، مِثْل الشيخ الكبير الذي عادَه النَّبيُّ ﷺ وهو مَريض، فقال له ﷺ: «**لَا بَأْسَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ**»، فقال الرجُل: طَهور! بل حُمَّى تَفور، على شيخ كبير، تُزيرُه القُبور. فقال النبيُّ ﷺ: «**أَوْ ذَاكَ**» فما أَصبَح الرجُل إلَّا مَيْتًا[1]، يَعنِي: أنه عُومِل بما أَراد لنَفْسه، ولو قَبِل هذا الرجاءَ من الرسول ﷺ لأَوْشَك أن يُعافَى.

فهذا الرجُلُ -والعِياذُ بالله- الذي يَقول: (إِنَّ لِجَهَنَّمَ حطَبًا) هذا يُوشِك أن يَكون من حطَبها؛ لأن هذا يَدُلُّ على أَحَد أمرين: إمَّا السُّخرية، وإمَّا عدَم المُبالاة، وكلاهما كُفْر، فعليه أن يَتوب إلى الله تعالى وأن يَرجِع إلى الإسلام بعد أن خرَج منه.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٦) من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا.



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣].

•●෴●•

نَقول في قوله تعالى: (سِيق) ما قُلناه فيما سبَق: أنها فِعلٌ ماضٍ مَبنيٌّ للمَجهول، أو مَبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعِله، وجاءت بصيغة الماضِي مع أنها للمُستقبَل تحقيقًا لوقوعه؛ لقول الله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، فالماضِي يَأتي بصورة المُضارِع أحيانًا حِكايةً للحال، والمُستقبَل يَأتِي بصيغة الماضي تحقيقًا لوقوعه كأنه شيء وقَع ويُتحدَّث عنه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ التَّقوى أن يَتَّخِذ الإنسان وِقايةً من عذاب الله تعالى، وذلك بِفِعْل أوامِره واجتِناب نواهيه؛ لأنك لو سأَلْت: ما الذي يَقِي من عَذاب الله تعالى؟ لقيل لك: طاعته بامتِثال أَمْره، واجتِناب نَهيه.

وقيل في التَّقوَى: أن تَعمَل بطاعة الله تعالى على نور من الله تعالى تَرجو ثَواب الله تعالى، وأن تَترُك ما نَهَى الله تعالى على نور من الله تعالى، تَخشَى عِقاب الله تعالى.

وقيل في التَّقوَى:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاعْمَلْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى (١)

ولكن ما ذكَرْناه أوَّلًا هو الجامِع المانِع؛ أن يَتَّخِذ الإنسان وِقايةً من عَذاب الله تعالى بفِعْل أَوامِره واجتِناب نواهيه، فإن خالَف وترَكَ شيئًا من الأوامِر أو فعَل شيئًا من النواهِي؛ فإنه يَنقُص من تَقْواه بقَدْر ما أخلَّ به، وحينَئِذ يَجتَمِع في الإنسان تَقوى وعِصيان، وهذا مَذهَب أهل السُّنَّة والجماعة: أن الإنسان يَجتَمِع فيه خِصال إيمان وكُفْر، خِصال تَقوَى وفِسْق، ولا مانِعَ، ولكلٍّ حُكْمه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ أَضاف الرُّبوبية إليهم؛ لأن رُبوبية الله تعالى للمُتَّقين رُبوبية خاصَّة ليست كالرُّبوبية العامة لجميع العالَمين، بل هي رُبوبية خاصَّة ربَّاهم حتى اتَّقَوْا ربَّهم.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بلُطْف] مُقابِل قوله في أهل النار: [بعُنْف]؛ لأن الله تعالى صرَّح بأن أهل النار يُدفَعون دَفْعًا إلى نار جهنَّمَ، أمَّا المُؤمِنون فإنهم يُساقون سَوْق إكرام، كأن المَلائِكة تَحتَفُّ بهم إكرامًا لهم وإجلالًا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلۡجَنَّةِ﴾ الجَنَّة في اللغة: البُستان الكثير الأشجار، وسُمِّيَ بذلك لأنه يَجِنُّ مَن فيه، أي: يَستُرُه، وأصل المادة الجيم والنون، أصلُها من السَّتْر؛ ولهذا سُمِّيَ القلبُ: جَنانًا؛ لأنه مُستَتِر، وسُمِّيَ الجِنُّ: جِنًّا؛ لأنهم مُستَتِرون، وسُمِّيتِ الجَنَّةُ: جَنَّةً؛ لأنها تَستُر مَن فيها؛ لكثرة أشجارها، هذا في الأصل.

(١) الأبيات لابن المعتز، انظر: ديوانه (ص٢٩).

أمَّا في الشَّـرْع: فالجَنَّة هي الدار التي أَعَـدَّها الله تعالى لأَوْليائه، التي فيها ما لا عَينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَت، ولا خطَر على قَلْب بشَر.

وقوله تعالى: ﴿زُمَرًا﴾ جَمْع: زُمْرة، ومَعناها: جماعات مُتفرِّقة، وكيفية تَوْزيع هذه الجَماعات قيل: جماعات حسَب الأُمَم. وقيل: حسَب الأعمال. والقول الأَرجَحُ: أنه بحسَب الأعمال، والدليل قوله ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»[1]، ثُم يَتَتابَع الناس على حسَب أعمالهم، فالنار مِثلها، يَعنِي: أن الأسبَق إلى النار الأشَدُّ جُرْمًا كالأسبَق إلى دُخول الجَنَّة الأفضَلُ عمَلًا.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ الفاتِح خزَنَتُها.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ للغاية ﴿إِذَا جَآءُوهَا﴾ أي: جاؤُوا الجَنَّة.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ إذا قرَأْت الآية هكذا سيبقَى قلبُك مُعلَّقًا، ستَقول: أينَ جوابُ ﴿إِذَا﴾؟ فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ كلُّها جُمَل مُتَعاطِفة.

الجَوابُ: اختَلَف المُعرِبون في ذلك:

فمِنهم مَن قال: إن جوابَ (إِذَا) (فُتِحَتْ)، وإن الواو زائِدة. ولكن هذا القولَ ضعيف؛ لأن زيادة الواو لم يُعهَد في اللغة العربية.

ومنهم مَن قال: إن الواو للحال بتَقدير (قَدْ)، أي: (حتى إذا جاؤُوها وقد

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٥٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، رقم (٢٨٣٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فُتِحَت أبوابُها)، ويَكون الجواب على هذا مَحذوفًا، وهذا ما ذهَب إليه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقيل: الواو حرفُ عَطْف، والجوابُ مَحذوف مُقدَّر قبلَها، والتَّقدير: (حتى إذا جاؤُوها هُذِّبوا ونُقُّوا وفُتِحَت أبوابُها)، وهذا القولُ أصَحُّ الأقوال أن الواو للعَطْف وليست للحال، وأن الجواب مَحذوف مُقدَّر قبل الواو.

وهذا القولُ هو الراجِحُ لدَلالة الأحاديث عليه، فإنه قد ورَدَ في الأحاديث الصحيحة أنهم إذا عبَروا الجِسْر -الصِّراط المَمدود على جَهنَّمَ- وقَفوا على قَنطرةٍ بين الجَنَّة والنار، فيُقتَصُّ لبعضهم من بعض، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دُخول الجَنَّة، ثُمَّ إنهم أيضًا إذا وصَلوا الجَنَّة لا يَجِدون أبوابها مَفتوحة، بل يَجِدونها مُغلَقة حتى يَشفَع النبيُّ ﷺ، فيَفتَح الله تعالى أبوابَها، هذا القولُ هو الراجِح المُتعَيِّن بدَلالة السُّنَّة عليه.

مَسألَةٌ: ورَد أن المُؤمِنين قبل دُخولهمُ الجَنَّة يُوقَفون على قَنطَرة يُقتَصُّ من بعضهم لبعض، فهل هذه القَنطرةُ من الصِّراط أم غيره؟

الجَوابُ: القنطرة التي يُوقَفون عليها بعد العُبور على الصِّراط؛ قيل: إنها طرَف الصِّراط، فهي قَنطرة وإن لم يَكُن تَحتَها شيء، فـ(وُقِفُوا على القَنْطرة) أي: على جانِب الصِّراط الكبير، وقيل: إنها قَنطَرة أُخرى للعُبور عليها، فالله أَعلَمُ.

فإن قال قائِل: كيف يُقتَصُّ لبعضهم من بعض والقِصاص كان في عرَصات القيامة قبل العُبور على الصِّراط؟

فالجَوابُ: هذا الاقتِصاصُ غيرِ الاقتِصاص الأوَّل، الاقتِصاص الأوَّلُ للجزاء والمُعادَلة، وهذا الاقتِصاصُ لإزالة ما بَقِيَ في النفوس من أجل إزالة الغِلِّ والحِقْد؛

وقد تَقدَّم: أنهم إذا هُذِّبوا ونُقُّوا دخَلوا الجَنَّة كما جاء في الحديث.

وقوله تعالى: ﴿أَبْوَٰبُهَا﴾ قد عَلِم أن أبوابها ثمانية لقول النبيِّ ﷺ في الوُضوء: «فُتِّحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»(١). وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ﴾ العجَب أن بعض النَّحويِّين قال: إن الواو هنا واوُ الثمانية، فأَحدَث للواو مَعنًى جديدًا، واستَدَلَّ لقوله بأَمْر عَجيب؛ قال: إن الله تعالى قال في القرآن: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢]، فالواو للثَّمانية، فيُقال: سُبحانَ الله! من أين جاءَتْ؟! فالفائِدة في قوله تعالى: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ تَقرير ما ذكَرَ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنه قال: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ تَقريرًا لهذا القولِ؛ ولهذا قال فيما قبله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ لم يَقُل: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾؛ لأن الواو عاطِفة تَدُلُّ على أن ما قبلَها ثابت مُتقَرِّر.

قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ خزَنتها المُوَكَّلون بها، وهم ملائِكة، يَقولون لأهل الجَنَّة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ هذا خبَر، وليس دُعاءً فيما يَظهَر؛ لأنه لو كان دُعاءً لكان القادِمون هم الذين يُسلِّمون، وهنا المَلائِكة هي التي تَقول: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، فكأنها تُخبِرهم بأنهم حلَّ عليهم السلامُ؛ لأن الجَنَّة دارُ السلام.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، رقم (٢٣٤)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾ حال ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾] يَعنِي: سلام عليكم حالَ كَوْنكم طَيِّبين.

فالجُملة إذَنْ: حال من الكاف في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾.

وقوله تعالى: ﴿طِبۡتُمۡ﴾ أي: طِبْتم في كل شيء؛ في الأبدان والعُقول والتَّصرُّف وكل شيء، فهم طَيِّبون حَلُّوا مَكانًا طيبًا، طابوا من الغِلِّ والحِقْد، قال تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧]، وطابوا من كل مرَض، لا يُمكِن أن يُصيبهم مرَض، وطابوا من كل كلام فاحِش ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦]، فالطِّيِّب هنا قَدْرُه في كل شيء.

وقوله تعالى: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾: (ادْخُلوا) فِعْل أَمْر يُراد به الإكرام، ليس أمرًا حقيقيًّا يُراد به إلزام المُخاطَب، ولكنه أمرٌ للإِكْرام، كما تَقول لِمَنِ استَأْذَن عليك في بيتك: ادخُلْ.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من الواو في (ادْخُلُوهَا) أي: حالَ كَونِكم خالِدين، والحال هنا مُقدَّرة؛ لأن الخُلود بعد الدُّخول.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُقدِّرين الخُلود فيها، وجَواب (إذا) مُقدَّر، أي: دخَلوها، وسَوْقهم وفَتْح الأبواب قبل مَجيئهم تكرمةً لهم، وسَوْق الكُفَّار وفَتْح أبواب جهنَّمَ عند مَجيئِهم ليَبقَى حرُّها إليهم إهانةً لهم]، قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: دخَلوها] في نُسْخة: (أَيْ: دخَولها) وهو غلَط.

وقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتۡ﴾ الواو على رَأْي المُفَسِّر للحال؛ وتَجِد أن الكلام على هذا الوجهِ فيه رَكاكة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ يَعنِي وقد فُتِحت أبوابها

﴿أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ أي: دخلوها؛ لا يَستَقيم، لكن ما ذكَرْنا أنه الراجِح هو المُطابِق تمامًا لما جاءت به السُّنَّة، والسُّنَّة تُفسِّر القرآن.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وسَوْقهم وفَتْح الأبواب قبل مَجيئهم تكرمة لهم] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سَوْقهم] مُستَفاد من قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ﴾، [وفَتْح الأبواب قبل مجيئهم]؛ لأنه يَقول: الواو للحال، وقد فُتِحت أبوابها تَكرِمة لهم، لكن يُقال: إن دَعوَى أن أبوابها فُتِحت قبل مَجيئهم دَعوَى لا يُسعِفها الدليلُ، بلِ الدليل على خِلافها؛ لأنهم إذا جاؤُوها لا يَجِدونها مَفتوحةً، بل يَجِدونها مُغلَقة، ثُمَّ يَشفَع النبيُّ ﷺ أن تُفتَح الأبواب لأهلها.

فإِذَن: قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه خطَأ من الناحية العِلْمية لمُخالَفته للأحاديث الصحيحة أن النبيَّ ﷺ يَشفَع في فتح أبواب الجَنَّة؛ وهذه مَسأَلة عَقدية في الواقِع؛ لأننا نُؤمِن ونَعتَقِد أن للنبيِّ ﷺ شَفاعةً خاصَّةً به، وهي الشفاعة لأهل الجَنَّة أن يَدخُلوا الجَنَّة، وعلى كلام المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا شَفاعةَ؛ لأنهم يَجِدون الأبواب مَفتوحةً.

ثُمَّ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وسَوْقُ الكُفَّار وفَتْح جهنَّمَ عند مَجيئِهم ليَبقَى حَرُّها إليهم إهانةً لهم] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ليَبْقَى حَرُّها إليهم] عِبارة فيها نظَر.

وعلى كل حال: على كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإنها تُفتَح عند مَجيئهم من أَجْل أن يُباشِرَهم حَرُّها مُباشَرةً بدون تَأَخُّر.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن المُتَّقين يُساقون إلى الجَنَّة كما يُساق أهل النار إلى النار، لكن

تَختَلِف الكيفية، والدليل على اختِلاف الكيفية قوله تعالى في أهل النار: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣]، وقوله تعالى في أهل الجَنَّة هنا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، فهذا دليل على أنهم يُساقون سَوْق إكرام.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن التَّقوَى سبَب لدُخول الجَنَّة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾؛ ووجهُ ذلك: أن ترتيب الحُكم على الوَصْف يَدُلُّ على عِلِّيَّتِهِ؛ يَعنِي: إذا رُتِّب الحُكْم على وَصْف دلَّ ذلك على أن هذا الوَصفَ هو عِلَّة الحُكْم، فالسِّياق إلى الجَنَّة هو سبَب التَّقوى؛ إذَنْ: تُفيد الآية أن التَّقوى سبَب لدُخول الجَنَّة، ويُؤَيِّد هذا قولُه تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ...﴾ إلخ [آل عمران:١٣٣].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن أهل الجَنَّة يَدخُلونها جماعاتٍ مُتفرِّقةً؛ لقوله تعالى: ﴿زُمَرًا﴾، وهذه الجماعاتُ يَترَتَّب تَقديمها على حسَب أعمالهم الصالِحة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن أهل الجَنَّة إذا جاؤُوها لا يَجِدونها مَفتوحة الأبواب؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾، ولكن يَجِدونها مُغلَّقة، حتى يَشفَع النبيُّ ﷺ في فتح أبواب الجَنَّة لداخِليها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن للجَنَّة أبوابًا، وقد ثبَتَ في الصحيح أن أبوابَها ثمانيةٌ[(١)].

ويَترَتَّب على هذه الفائِدةِ: ما ثبَت مِن أن رحمة الله تعالى سبقَت غضَبه، وأن عطاءَه أكبَرُ وأعظَمُ من مَنعه؛ لأن أبواب النار سَبْعة، وأبواب الجَنَّة ثمانية.

فإن قال قائِل: ما رأيُكم فيمَن قال: إن كُلًّا من الجَنَّة والنار جِسْم؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، رقم (٢٣٤)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالجَوابُ: نَقول: صدَق، أَلَيْسَت جَنَّة عَرْضها السمَواتُ والأرضُ؟! أَلَيْس الله تعالى يَضَع قَدَمَهُ على النار حتى يَنزَوِي بعضُها إلى بعض؟! أَلَيْس الإنسان يَنظُر إلى مُلْكه في الجَنَّة مَسيرةَ ألفَيْ عام، يَنظُر أقصاه كما يَنظُر أدناه؟! فإذا لم يَجعَلها جِسْمًا فماذا تكون، أتكون بالهواء؟!

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات أن للجَنَّة خزَنةً؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ [الزمر:٧٣].

ويَتفَرَّع على هذه الفائِدةِ: كمالُ تَقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للأشياء، وأن كل الأشياء مُنظَّمة محفوظة مُرتَّبة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات أن المَلائِكة يَنطِقون ويَتكَلَّمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الجَنَّة دارُ السلام، السلام مِن كل آفَة؛ لقول الخَزَنة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى جمَع لهم -أي: لأَهْل الجَنَّة- بين السلامة من الآفات وطِيب الأحوال والأَوْقات؛ لقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾، فجمَع لهم بين نَفيِ الآفات وطِيب الأحوال والأَوْقات.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الإِذْن لهم على وَجه الإكرام بدُخول الجَنَّة؛ لقوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.

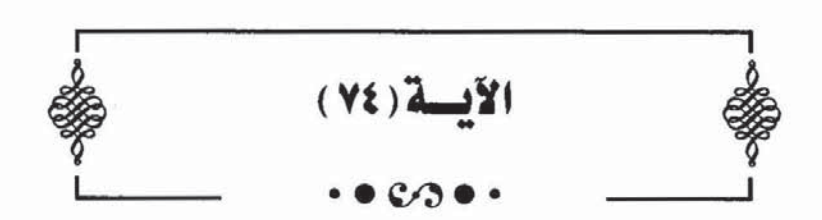
الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الفَرْق التامُّ والتَّبايُن العَظيم بين ما يُقابَل به أهل الجَنَّة وأهل النار، فأهل النار يُقابَلون بالتَّوْبيخ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ

رَبِّكُمْ ...﴾ إلخ، وأهل الجَنَّة يُقابَلون بالتكريم والعِناية والبُشرَى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إزعاج النُّفوس وإغراؤُها على العمَل بعمَل أهل الجَنَّة؛ لأنَّ الإنسان إذا تَبيَّـن له الفَرْق العظيم والتبايُن الكبيـر بين أهل النار وأهل الجَنَّة، فلا بُدَّ أن يَكون عنده ما يَحُثُّه، بل يُزعِجه إزعاجًا إلى العمَل بعمَل أهل الجَنَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: خُلود أهل الجَنَّة فيها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾، والخُلود هذا خُلود أَبديٌّ، سواءٌ قلنا: إن الخُلود هو المُكْث الدائِم، أو إن الخلود المُكْث زمَنًا طويلًا، وذلك لأنه قد تكرَّر ذِكْر التَّأبيد لأهل الجَنَّة في عِدَّة آيات.

•●۞●•



الآية (٧٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر:٧٤].

•••

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالُوا۟﴾ عُطِف على (دَخلوها) المُقدَّر]، فعلى كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَقَالُوا۟﴾ الواو حَرْف عَطْف، والفِعْل (قالوا) مَعطوف على (دَخلوها)، والصوابُ أن الواو للاستِئْناف، وأنهم بعد أن دخَلوا واستَقَرُّوا قالوا هذا الكلامَ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ بالجَنَّة] حمَدوا الله عَزَّوَجَلَّ هنا على إنعامه وعلى كَماله؛ لأن صِدْق اللهِ تعالى إيَّاهم وعدَه بالجَنَّة يَتضمَّن شَيْئين:

الشيء الأوَّل: وَصْف الله تعالى بالصِّدْق، وهذا حَمْد له على كَمال صِفَته.

والثاني: تَحقيق ذلك لهم، أي: أنه حَقٌّ لهم فيكون حمدًا على الشُّكْر.

فحَمْدهم اللهَ تعالى الآنَ على أَمْرين: على الكَمال وعلى الإِفْضال:

الأوَّل: الكَمال في صِفاته، والصِّفة هنا الصِّدْق، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾، ولا شَكَّ أن الصِّدْق كَمال.

الثاني: الإِفْضال، حيث أَسكَنَهم الجَنَّة.

فيَكون الحَمْد هنا شامِلًا للأَمْرين؛ لأن الله تعالى يُحمَد على ما لَهُ من صِفات الكَمال، وعلى ما له من تَمام الإِفْضال.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾: (صدَق) المُخفَّف غير (صَدَّق) المُشدَّد؛ لأن (صدَق) يَعنِي: أَخبَـر بالصِّدْق، و(صدَّق) صدَّق مَن أَخبَـر بالصِّدْق، يُقال: حدَّثني فصدَقني. المَعنَى: أَخبَرَني بالصِّدْق، ويُقال: حدَّثْته فصدَّقَني. يَعنِي قال: إني صادِق؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾، فالذي جاء بالصِّدْق هو الذي صدَق، وصدَّق مَن أَخبَر بالصِّدْق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ بالجَنَّة ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرض الجَنَّة ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ نَنزِل ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾؛ لأنها كلها لا يُختار فيها مَكان على مَكان]، قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي: جعَلنا نَرِثها، والأرض هنا دخَلت عليها (أل)، فهلِ المُراد بها الأرض المَعهودة، أو المُراد بها أرضُ الجَنَّة؟

يَرَى المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المُراد بها أرض الجَنَّة، وهذا التَّفسير يَرِدُ عليه أَمْرانِ:

الأَمْرُ الأَوَّلُ: أن الأرض إذا أُطلِقت فهي الأرضُ المُقابِلة للسَّماء، وهي أَرْضنا هذه.

الأمرُ الثاني: أنه تعالى قـال: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾، وكان مُقتَضى السِّـياق إذا كانت الأرض هي الجَنَّة أن يُقال: (وأَوْرَثنا الأرض نَتبَوَّأ منها حيثُ نَشاءُ)، فلا يَأتي بالظاهِر؛ لأن الظاهِر في هذا المَكانِ لا مَعنَى له.

وعلى هذا فالقولُ الصحيح: إن المُراد بالأَرْض هنا الأرضُ المُقابِلة للسمـاء، فتكون (أل) هنا للعَهْد، أيِ: العَهْد الذِّهْنيِّ، لا الحُضورِيِّ، ولا الذِّكْريِّ.

فإذا قال قائل: كيف أَوْرَثهمُ الأرضَ؟

نَقول: أوَّلًا: أن الله تعالى قال في كِتابه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، فتَوريث الله تعالى الأَرْض للمُؤمِنين في الدُّنيا: أنهم يُقاتِلون الكُفَّار ويَستَوْلون على أراضيهم.

ثانيًا: أن وُجودهم على الأرض وسُكْناهم فيها وعُمرانهم إيَّاها كالميراث بالنِّسبة للكُفَّار؛ وذلك لأن الكُفَّار لا يَتمتَّعون بنِعْمة في الدنيا إلَّا كانت عليهم نِقْمة.

فاللُّقْمة إذا رفَعَها الكافِر إلى فمِه يُعاقَب عليها؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [المائدة:٩٣]، فمَفهومه: أن مَن لم يكُن كذلك فعليه جُناح فيما طَعِم.

ويَقول عَزَّوَجَلَّ في اللِّباس: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، فالكُفَّار ليسَتْ لهم في الدنيا ولا خالِصةً لهم يوم القيامة، فهم يَكتَسون بغير حَقٍّ؛ لأنهم يَتَنَعَّمون بنِعْمة الله تعالى ويَكفُرون بالله تعالى.

على كل حال نَقول: إيراثُ الأرض في الدنيا: ما يَستَولي عليه المُسلِمون من أراضِي الكُفَّار؛ وإيراثٌ آخَرُ: أن وُجودهم على الأرض بحَقٍّ، ووجود الكُفَّار بغير حقٍّ، لكن الله تعالى أبقاهم لحِكْمة.

وقوله تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ ظاهِره: أي: نَسكُن حيث نَشاءُ، وهذا ليس على ظاهِره، بمَعنَى أن الإنسان الذي في أَدْنى الجَنَّة نُزُلًا لا يَستَطيع أن يَصعَد إلى أعلى شيءٍ، قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرَفَ»

يَعنِي: التي فَوْقَهم «كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ»[1]، يَعنِي: بعيدًا وله إِضاءة، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر:٢٠].

ولكن يُقال في تَوجيه هذه الآيةِ الكَريمة ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾:

الوَجهُ الأَوَّلُ: إمَّا أن المَعنَى: نَتَبوَّأ من الجَنَّة حيث نَشاء في الدُّنيا، يَعنِي: نَعمَل في الدنيا ما نَشاءُ من الأعمال التي تُبوِّئُنا النُّزُل التي هي ثوابٌ لأعمالنا، ففي الدنيا قد يَكون الإنسان مع الأبرار الأخيار، وقد يَكون مع المُقتَصِدين، وقد يَكون من الظالِمين أنفسَهم؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر:٣٢]، فالإنسان في الدنيا يُمكِن أن يَتبوَّأ من الجَنَّة حيث يَشاءُ بأعماله الصالِحة المُختَلِفة، فهو إمَّا: ظالِم لنَفْسه، أو مُقتَصِد، أو سابِقٌ بالخَيْرات.

الوَجهُ الثاني: أن نَقول: ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أن كل واحِد من أهل الجَنَّة لا يَشاء سِوى الذي هو فيه، يَعنِي: لا يَقَع في قَلْبه أن يَتمنَّى أنه فوقُ، بل هو مُطمَئِنٌّ تمامًا في مكانه الذي هو فيه؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨]، يَعنِي: لا يَطلُبون تَحوُّلًا، كل واحد منهم راضٍ بما هو فيه، ولا يَرَى أن أَحَدًا أَنعَمَ منه، حتى لو رآه حِسًّا لم يَرَه قَلْبًا؛ لأنه لو رأَى أَحَدًا من الناس أعلى منه لكان في قلبه شيءٌ من الحَسْرة واللَّوْعة، وهذا مُنتَفٍ في الجَنَّة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٥٦)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، رقم (٢٨٣١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لأنها كلها لا يُختار فيها مَكان على مَكان]، فجَنَح المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الاحتِمال الثاني: أن كل إنسان في مَكانه لا يَخْتار مَكانَ غيره.

فإن قال قائِل: قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ لماذا لم يَقُل: (ونَتبَوَّأ)؛ ليَكون العَطْف يَقتَضي المُغايَرة؟

فالجَوابُ: أنه يُقال: إن جُمْلة (نَتبوَّأ) حال، ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ﴾ يَعنِي: حالَ كَوْننا مُتبوِّئِين، وهي حال مُقدَّرة، والحال المُقدَّرة هي التي يَتَّصِف بها صاحِبها بعدُ، يَعنِي: لا حال الفِعْل أو حال التَّلبُّس بها، فنَقول: الحال هنا صحيح أننا لسنا نَتبوَّأ من الجَنَّة في نَفْس الدنيا، لكنها حال مُقدَّرة، والحال المُقدَّرة هي أن الحال تَقَع بعد عامِلها؛ وتَقدَّم أنه يَمتَنِع أن تكون أرض الجَنَّة لشَيْئين.

وقوله: [﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ الجَنَّةُ]: [الجَنَّةُ] بالضَّمِّ على أنها مَخصوص، والفاعِل ﴿أَجْرُ﴾، و(نِعْمَ) و(بِئْسَ) يَحتاجان إلى شَيْئين: فاعِل ومَخصوص، الفاعِل واضِحٌ والمَخصوص يَكون مَحذوفًا في الغالِب.

وقوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾: (نِعْمَ) فِعْل جامِد لإِنْشاء المَدْح، والأجر هنا بمَعنَى الثواب، ولكن الله تعالى سمَّاه أَجْرًا تَفضُّلًا منه ومِنَّةً، كأننا استَحْقَقنا ذلك وجوبًا كما يَستَحِقُّ العامِل أُجْرته وجوبًا.

فإن قال قائِل: وهل يَجِب على الله تعالى أن يُثيبَنا؟

فالجَوابُ: يَجِب بوَعْده فإنه وَعَد أن يُثيبَنا، وما وَعَد به فإنه لا يُمكِن إخلافُه.

إِذَن: فالوُجوب هنا ليس منَّا على الله تعالى، بل مِن الله تعالى على نَفْسه؛ قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤].

فتَسمية الثواب أَجْرًا من باب تفضُّل الله عَزَّوَجَلَّ أنه جَعَل هذا الثوابَ على نَفْسه كالأُجْرة للعامِلِ الأجرةَ الثابتةَ اللازمةَ، فكذلك ثواب المُحسِن أَجْر ثابِت واجِب على الله تعالى بإيجابه هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على نفسه تَفضُّلًا منه وإحسانًا.

وفي مثل هذا يَقول ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ هُوَ أَوْجَبَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ الشَّانِ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا فَبِفَضْلِهِ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ[1]

إِذَنْ: فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي مَنَّ علينا -في الواقِع- مَرَّتين:

المَرَّة الأُولى: بتَوفيقنا للعمَل.

والمَرَّة الثانية: بجَزائِنا على هذا العمَلِ الحسَنةَ بعشَرة أمثالها.

وانظُرْ إلى الفَضْل أيضًا والمِنَّة الثالِثة: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠]، فكأننا نحن الذين أَحسَنَّا فأَحْسَن إلينا، مع أن الإحسان لله تعالى أوَّلًا وآخِرًا، فالحمدُ لله ربِّ العالَمين.

وقوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ قد يَكون كلامًا مُبتَدأً من الله تعالى، وقد يَكون بقيةَ كلام أهل الجنَّة حين قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾؛ فإن كان من أهل الجنَّة فهو زِيادة ثَناء على الله عَزَّوَجَلَّ، وإن كان من الله تعالى ابتِداءً فهو حَثٌّ لنا على أن نَعمَل هذا العمَلَ الذي يَكون هذا جَزاءَه.

---

(١) النونية (ص٢٠٨-٢٠٩).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الثَّناء على الله عَزَّوَجَلَّ بالكَمال والإِفْضال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ فإن صِدْق الوَعْد كَمال، ثُم إن إِيراثَهم الجَنَّة إِفْضال، فجمَعوا في هذا بين الحَمْد على الكَمال والحَمْد على الإِفْضال؛ لأن الله تعالى يُحمَد على الأمرَيْن جميعًا، على كَماله وعلى إِفْضاله، فيَكون هذا جامِعًا بين الحمد والشُّكْر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: صِـدْق اللهِ تعالى وَعْدَه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾، وقد أَخبَرَ الله تعالى في آيات مُتعَدِّدة أنه لا يُخلِف الميعاد، وذلك لكَمال صِدْقه وكَمال قُدْرته، فإن إِخْلاف الوَعْد إمَّا أن يَكون لكَذِب الوَعْد، وإمَّا أن يَكون لعَجْز الواعِد، وكلاهما ممَّا يُنزَّه الله تعالى عنه؛ فيَكون فيه كَمال الصِّدْق وكَمال القُدْرة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: شُكْر أهل الجَنَّة على إِيراثِهم الأرضَ ونَصرِهم وظُهورهم على الكافِرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الإنسان يَتبـوَّأ بنَفْسه من الجَنَّة حيـث يَشاءُ وذلك بعمَله؛ لقوله تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الرَّدُّ على الجَبْرية الذين يَقولون: إن الإنسان مُجبَر على عمَله وليس فيه اختِيار، وذلك لقوله تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ فإن الفِعْل هنا ظاهِـر بنِسْبته إليهم فيَكون باختِيارهم؛ ففيه: إِثبات المَشيئة للعَبْد.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن أهل الجَنَّـة في مَنازِلهم لا يُريدون غيـرها؛ لقوله تعالى: ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾، وهذا من تَمام النعيم؛ لأن الإنسان لو تَطلَّع إلى مَنازِل غيره لرَأَى أنه لم يُكمَل له النَّعيم، يَقول مثَلًا: فلان أَحسَنُ مِنِّي قِصَرًا، فلان أكثَرُ مِنِّي مالًا. فيَتَنَغَّص

عليه النعيم، لكن إذا رأى أنه في المكان الذي يَشاؤُه ولا يُريد التَّحوُّل عنه فإن هذا من كمال النَّعيم، قال الله تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨].

فإن قال قائِل: ما توجيهكم لقول ابن القَيِّم[١] رَحِمَهُ اللَّهُ بأن ذِكْرَ الله تعالى أمانٌ من الحَسْرة في الجَنَّة، واستَدَلَّ بحَديث: «أَنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَا يَتَحَسَّرُونَ إِلَّا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهَا»[٢]، فهل هذه الحَسرةُ تَتوجَّه مع ما تَقدَّم؛ لأنهم يَنظُرون مَن سَبَقهم ومَن هو أَعلَى منهم؟

فالجَوابُ: هذه ليس حَسْرة، هذا تَمَنٍّ، يَعنِي: يَتَمنَّون أنهم فعَلوا ذلك، وتَمَنِّي الشيء لا يَدُلُّ على الحَسْرة، ولا يُمكِن أن يَكون في الجَنَّة حَسْرة بمَعنَى النَدَم والانقِباض مثَلًا؛ لأن هذا يُنافِي كمال النَّعيم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الثَّناء على هذا الثوابِ الذي حصَل لأَهْل الجَنَّة في قوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بَيان مِنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالجَزاء، حيث جعَله أَجْرًا، وكأنه أَجْر مَفروض على الله عَزَّ وَجَلَّ.

فإن قال قائِل: كيف تَجعَلون على الله تعالى شَيْئًا مَفروضًا؟

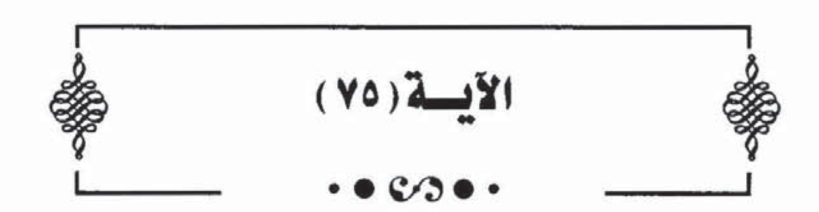
قُلْنا: لم نَجْعَلْه نحن، لكنه عَزَّ وَجَلَّ هو الذي جعَله على نَفْسه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الحثُّ على العمَل الصالِح الذي يُورِث الجَنَّةَ، وأن الإنسان لا يَنبَغي أن يَكون كَسولًا مُتراخِيًا الهِمَّةَ في الأعمال الصالِحة.

---

(١) انظر: الوابل الصيب (ص٤٤).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٩٣ رقم ١٨٢)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٥٠٩)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآيــة (٧٥)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥].

• • • •

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾: (ترى) تَرَى أيُّها المُخاطَب، ويُحتَمَل أن المُراد به رسـول الله ﷺ، ولكن القول الأوَّلَ أَوْلى؛ لأن القول الأوَّلَ يَشمَل القولَ الثانِيَ ولا عكسَ، فإنك لو قُلتَ: وتَرَى يا مُحَمَّدُ. حجَبْت هذا الخِطابَ عن بقية الأُمَّة، وإذا قُلت: وتَرَى أيُّها المُخاطَب صار عامًّا للنبيِّ ﷺ ولغيرِه من الأُمَّة.

والقاعِدةُ: أنه إذا دار اللَّفْظ بين مَعنًى عامٍّ ومَعنًى خاصٍّ فإنه يُحمَل على المَعنَى العامِّ؛ لأنك إذا حمَلته على المَعنَى العامِّ دخَل فيه الخاصُّ ولا عكسَ.

وقوله: ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ جَمعُ ملَك، والمَلَك في الأصـل هو الرَّسـول، والمَلائِكـة جعَلهم الله تعالى رُسُلًا، وهم عالَم الغَيْب قائِمون بأَمْر الله عَزَّوَجَلَّ، مَخلوقون من نور؛ ولهذا ليس فيهم مَعْصية؛ لأنهم خُلِقوا من نور.

والجِنُّ خُلِقـوا من النار؛ ولهذا كان الأصل أنه ليس فيهم طاعـة، فإن أَباهم وزعيمهم استكبَرَ عن أمر الله تعالى الذي خاطَبَه به مُشافَهةً.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [حال]، وإنما جعَلها حالًا؛ لأن الرُّؤْية هنا بصَرية، والرؤية البصَرية لا تَنصِـب إلَّا مَفعولًا واحِدًا، فما

يَأتي بعدَه مَنصوبًا يَكون مَنصوبًا على الحال، بخِلاف الرُّؤية العِلْمية فإنها تَنصِب مَفعولين.

إِذَنِ: الرؤيةُ هنا بصَرية، ولهذا أَعرَب المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قوله تعالى: ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أَعرَبها حالًا.

وقوله تعالى: ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي: مُحيطين به.

والعَرْش هو عَرْش الله عَزَّوَجَلَّ الذي استَوَى عليه، وهو أَعظَمُ المَخلوقات وأَعلاها، وأَوْسعها، فإن الكرسيَّ وسِعَ السمواتِ والأرضَ؛ يَعنِي: أَحاط بها وشمِلَها، والعَرْش أَعظَمُ من الكُرسيِّ؛ وقد ورَد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن الكُرسيَّ مَوضِع القَدَمَيْن(١)، وقال بعضُ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنه بالنِّسبة للعَرْش كالدرَجة.

وقد جاء في الحديث: «**أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي الْكُرْسِيِّ كَحَلَقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ**» الحلَقة: حلَقة المِغفَر وهي حلَقة ضَيِّقة «**أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَنَّ فَضْلَ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى هَذِهِ الْحَلَقَةِ**»(٢).

إِذَنْ: فيَكون هذا العرشُ عظيمًا لا يَقدُر قَدْره إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ من كل جانِب] ووجهُ هذا التَّفسيرِ: أنه من كل جانِب؛ لأنه أَطلَق قوله تعالى: ﴿حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾، وحينئذ لا بُدَّ أن يَكون هذا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٢٥٠ رقم ٣٠٣٠)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٩١ رقم ٢٦٠١)، والطبراني في معجمه الكبير (١٢/ ٣٩ رقم ١٢٤٠٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٥٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٢).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٣٦١)، وابن بطة في الإبانة (٧/ ١٨١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الحَولُ من كل جانب؛ لأنهم لو أحاطوا من جانِبٍ واحِد لم يَكونوا حول العَرْش من الجانب الخالي، فإذا كانوا حافِّين من حوله فلا بُدَّ أن يُحيطوا بجميع جوانِبِه؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن كُلِّ جانِب].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُسَبِّحُونَ﴾ حال] يَعنِي: الجُمْلة هذه حاليَّة [من ضمير ﴿حَآفِّينَ﴾]؛ لأن ﴿حَآفِّينَ﴾ اسم فاعِل، واسم الفاعِل يَتَحمَّل الضمير كما يَتحمَّله الفِعْل.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ مُلابِسين للحَمْد] يَعنِي: جعَل الباء في قوله تعالى: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ للمُلابَسة، وإن شِئْت قُلْ: للمُصاحَبة. أي: يُسبِّحون تَسبيحًا مَصحوبًا بالحَمْد، أي: يَقولون: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه.

والجمع بين التَّسبيح والحمد هو كَمال المُسبَّح والمَحمود؛ لأن بالتَّسبيح زوال النقائِص والعُيوب، وبالحَمْد إثبات الكمال، فيَكون الجَمْع بين التَّسبيح والحَمْد مُفيدًا لَمعنًى أكثَرَ ممَّا لوِ انفَرَد التسبيح أوِ انفَرَد الحمد.

فإن قال قائِل: قال بعضُ أهل العِلْم في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: إن التسبيح هنا للتَّلذُّذ لا للتَّعبُّد؛ لأنه لا تَكليفَ في ذلك اليومِ، فما رأْيُكم؟

فالجَوابُ: رأْيُنا أن هذا قول باطِل، بل وللتَّعبُّد، ولكنهم يَتلذَّذون بالعِبادة، يَعنِي: يَشعُرون بأنهم خاضِعون لله تعالى مُتذَلِّلون له.

وأمَّا قوله: لا تَكليفَ في ذلك اليومِ. فهو أيضًا باطِل، ففي ذلك اليومِ تَكليف؛ أَلَيْسَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢]؟ ففيه تكليف، ومَن نَفَى التَّكليف في ذلك اليومِ فقَدْ أَخطأ وغفَل عن النُّصوص الدالَّة على أن فيه تَكليفًا.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ بين جميع الخلائق ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: العدل، فيَدخُل المُؤمنون الجنَّة، والكافِرون النار]، قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ﴾ أي: حُكِم؛ لأن القَضاء مَعناه: الحُكْم.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: ﴿وَقِيلَ﴾ أُبهِم الفاعِل؛ ليَكون أَعمَّ. يَعنِي: أن الله تعالى في تلك الحالِ يُحمَد من كل أحَد، ومن كل جانِب، ومن كل جِهة، والحمد هنا مَقرون بـ(أل) المُفيدة للاستِغراق، واللَّام في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ للاختِصاص والاستِحْقاق، فإذا جعَلْنا الحمد للاستِغْراق شمِلت كلَّ أنواع الحَمْد، سواءٌ كان على كَمال الصِّفات أو على الإِفْضال والإِحْسان والإِنْعام، وإذا قُلنا: اللَّام في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ أنها للاستِحْقاق والاختِصاص تَبيَّن أن الحَمدَ المُطلَق لا يَستَحِقُّه إلَّا الله تعالى، ولا يَكون إلَّا لله تعالى اختِصاصًا، ولا يُحمَد به إلَّا اللهُ تعالى استِحقاقًا.

والفَرْق بين الحَمْد والمَدْح مع تَساويهما في الحُروف: أن المَدْح وَصْف بالكَمال، لكن لا يَستَلزِم المَحبَّة، وأمَّا الحَمْد وهو وَصْف للكَمال مُستَلزِمٌ للمَحبَّة، فالله تعالى يُحمَد ويُمدَح، لكن الحَمد أَخصُّ من المَدْح؛ لأن المَدْح هو مُطلَق الثَّناء، وأمَّا الحمد فهو ثَناء مَقرون بمَحبَّة وتَعظيم.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: خالِق العالَمين ومالِكهم ومُدبِّرهم، والعالَم كلُّ مَن سِوى الله تعالى.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [ختَمَ استِقْرار الفَريقين بالحَمْد من المَلائِكة]، وهذا فيه نظَر، فليس من المَلائِكة فقَطْ، بل من المَلائِكة وغيرهم؛ ولهذا أُبهِم الفاعِل فقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات المَلائِكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾.

مَسألَةٌ: هل المَلائِكة مُكلَّفون؟

الجَوابُ: نعَمْ؛ لأنهم يَستَجيبون لله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، فنَفْيُ العِصيان عنهم يَدُلُّ على أنهم يُكلَّفـون بالشيء، وعلى أن العِصيان منهم مُمكِن عَقْلًا، لكنهم لا يَعصون الله تعالى ما أمَرَهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إظهار عظَمة الله في ذلك اليومِ، حيث تَحُفُّ جنودُه بعَرْشه، وهذا من مَظاهِر العظَمة وكمال السُّلْطان: أن يُرَى الجُنودُ حافِّين بمالِكهم وخالِقهم وسيِّدهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات العَرْش؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾.

فإن قال قائِل: قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ ألَا يَدُلُّ هذا على أن للعَرْش جوانِبَ وأركانًا؟

فالجَوابُ: بلى، هو كذلك، والحديث الثابِت في الصحيحين: أن مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَكون آخِذًا بقَوائِمِ العَرْش[(١)].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الثناء على المَلائِكة وذلك بحُسْن انتِظامهم بحَفِّهم من حول العَرْش، وهذا حُسْن فِعْليٌّ، وبكونهم يُسبِّحون الله تعالى بحَمْده وهذا حُسْن قَوْليٌّ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب نفخ الصور، رقم (٦٥١٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، رقم (٢٣٧٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فيَجْمَعون بين تَعظيم الله تعالى بالفِعْل وتَعظيمه بالقول.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: اختيار الجَمْع بين التسبيح والحمد؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ وذلك لأن بالتَّسبيح زوال النَّقْص والعَيْب، وبالحمدُ إثباتُ الكمال.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ربٌّ لهؤلاءِ المَلائِكةِ مع عِظَمهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ وأن رُبوبيته للمَلائِكة رُبوبية خاصَّة بدليل الإضافة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الله تعالى يَقضِي بعد هذا كلِّه بين الخَلْق بالعَدْل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: حُكِم بينهم، وقضاء الله تعالى نَوْعان: كونيٌّ وشَرْعيٌّ.

فالشَّرعيُّ: مثل قوله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، يَعنِي: وصَّى ألَّا نَعبُد إلَّا الله تعالى.

والكونيُّ: مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء:٤]، فإن هذا لا يُمكِن أن يَكون قضاءً شَرْعيًّا؛ لأن الله تعالى لا يَقضِي بالفَساد، ولكنه قضاءٌ كَوْنيٌّ.

وبهذا نَعرِف الفرق بين القضاء الكَوْنيِّ والشَّرْعيِّ:

الفَرْقُ الأوَّل: أن الكونيَّ فيما يُحِبُّ وما لا يُحِبُّ، والشرعيُّ فيما يُحِبُّ.

والفرقُ الثاني: أن الكونيَّ لا بُدَّ من وقوع المَقْضِيِّ، والشَّرْعيُّ لا يَلزَم منه وقوع المَقضِيِّ، فقد يَقَع وقد لا يَقَع.

فإن قال قائِل: يَرِد كثيرًا: (القضاءُ الكونيُّ)، و(القدَر الكونيُّ) و(الحُكْم الكونيُّ)؛ وكذا (الشَّرْعيُّ)، والفُروق بينهم ليسَتْ فُروقًا، فما هذا؟

فالجَوابُ: صحيح هو كذلك، ومَعنَى الإرادة غير الحُكْم، فالحُكْم قد يَكون بمَعنَى القضاء، لكن الإرادة غير ذلك؛ وهي تَنقَسِم هذا التَّقسيمَ كما هو واضِح.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ القَضاء في ذلك اليومِ قَضاء بالعَدْل، ليس فيه جَوْر بوجه من الوجوهِ؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: حَمْدُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ذلك اليومِ الذِي يَتِمُّ فيه الأمـر؛ قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وإذا قارَنْت بين هذا وبين قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١] تبيَّن لك أن الله تعالى محمودٌ في أوَّل الأمر وآخِره، ففي أوَّل الأمر في قولـه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وفي آخِـره بعد أن قُضِيَ بيـن الخَلائِق بالحَقِّ قيل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: بيانُ استِحْقاق الله تعالى للحَمْد كلِّه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ و(أل) ذكَرْنا أنها للاستِغْراق، واللَّام للاختِصاص والاستِحْقاق.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات عُموم الرُّبوبية؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والعالَمون كلُّ مَن سِوى الله تعالى؛ قال بعضُ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنما سُمُّوا بهذا؛ لأنهم عَلَمٌ على خالِقهم.

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ[1]

•• ❁ ••

(١) من شعر أبي العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد. انظر: ديوانه (ص١٢٢)، ومعاهد التنصيص (٢/ ٢٨٦).